

قصة الحضارة

ول وَايريل ديورانت

الجنوب الكاثوليكي

مراجعة
عالم ادبهم

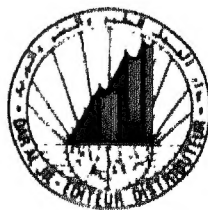
ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الثاني من المجلد العاشر

٤٠



تونس



بيروت

الكتاب الثالث

الجنوب الكاثوليكي

١٧٨٩ - ١٧١٥

الفصل التاسع

إيطاليا السعيدة

١٧١٥ - ١٧٥٩

١ - المشهد العام

لم يكن في استطاعة إيطاليا أن تتحد في سبيل الدفاع عن نفسها وهي منقسمة إلى نحو اثني عشرة دولة متحاسدة متنازلة . وانصرف الإيطاليون إلى الاستمتاع بالحياة . التلذذ بها انصرافا جعلهم يتركون الأجانب الذين أعوزهم النضج يقتتلون طمعا في ثمرة السياسة المرة ، وغنائم الحرب وأسلابها الملوثة . وهكذا غدت شبه الجزيرة الزاهرة ساحة قتال بين أسبانيا وفرنسا البوربونيتين والنمسا الهابسبورجية . ووضعت سلسلة متعاقبة من حروب الوراثة أوزارها في ١٧٤٨ وقد استردت أسبانيا مملكة نابلي ودوقية بارما ، واحتفظ البابوات بسلطانهم على الدويلات البابوية ، وظلت سافوي والبندقية وسان مارينو حرة ، وكانت جنوه ومودينا محميتين فرنسيتين ، واحتفظت النمسا بميلان وتسكانيا . وكانت الشمس أثناء ذلك تشرق على ربوع إيطاليا والحقول والكروم والبساتين تجود بالطعام والشراب ، وكانت النساء رائعات الحسن مشهورات العاطفة ، والأغاني والألحان تملأ أجواز الفضاء ، ووفد عليها الأجانب سائحون وطلاب علم ليستمتعوا بالمناخ ومشاهد الطبيعة ، وبالمسارح والموسيقى والفن ، وبمخالطة رجال ونساء أوتوا ثقافة قرون طوال . لقد كانت إيطاليا ، على الأقل في همالها ، أسعد بلد في أوروبا ، رغم أنها كانت نصف مغلوبة ، ونصف مسلوبة منهوبة .

وكان سكانها عام ١٧٠٠ يناهزون الأربعة عشر مليونا ، وعام ١٨٠٠ الثمانية عشر مليونا . وكان الصالح للزراعة من أرضها يقل عن النصف ولكن

كل شبر من هذا النصف كان يفلح بالجهد الصابر والرعاية الفائقة . وكانت الأرض المنحدرة تقسم إلى مصاطب لتحفظ بالتربة . والكروم تنبت من شجرة إلى شجرة فتزدان بها بساتين الفاكهة . أما الجنوب فكانت أرضه ضعيفة ، وجففت الشمس المبتسمة في سحرية الأنهار والتربة والإنسان ، ولم يرخ الاقطاع قبضته التي فرضها على الناس في العصر الوسيط . وكان من الأمثال الساهرة قولهم « أن المسيح لم يتجاوز قط جنوبي إيبولى » — التي كانت إلى الجنوب تماما من سورينتو . أما وسط إيطاليا فكان خصب التربة ، يفلحه الزراع نظير حصّة من المحصول بأشراف كبار رجال الكنيسة . وأما في الشمال — لاسيا في وادي نهر بو — فقد أشبعت القنوات الأرض ربا ، وكانت هذه القنوات تتطلب رؤوس الأموال تنفق عليها ، والفلاحين المدربين على تطهير الصفاية وتقوية الشواطئ . وهنا أيضا زرع الفلاحون أرض غيرهم لقاء نصيب من المحصول . ولكن في هذه الحقول المثمرة استطاع الناس أن يحتملوا كل شيء حتى الفقر وهم محتفظون بكرامتهم .

وقامت مئات القرى على السهول ، وفي التلال ، وعلى شاطئ البحر : قرى قلدة مرتبة في الصيف ، صاخبة في الصباح بأحاديث الفلاحين وهم يمشون الهويناء إلى وقدة الحر ، ساكنة في الظهيرة ، شاغبة في المساء بثرثرة المثرثرين وبالموسيقى ولقاءات المحبين . وكان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال ، وهي فترة قال فيها الأب لابا « لا يرى المرء في الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين .^(١) وكان هناك عشرات المدن المملأى بالكنائس والقصور والمتسولين والفن ، وست مدن تضارع باريس جمالا ، وألوف من مهرة الصناعات ما زالوا في قبة فهم . وكانت الصناعة الرأسمالية تتطور من جديد في مجال النسيج لاسيا في ميلان وتورين وبرجامو وقتشتا ، ولكن معظم العمل حتى في النسيج كان يؤدي على أنوال بيتية جزءا من حياة الأسرة . وكانت هناك طبقة وسطى صغيرة (قوامها التجار والمصرفيون ورجال الصناعة والمحامون والأطباء والموظفون والصحفيون والكتاب والفنانون والكهنة) آخذة في النمو وسطا بين الطبقة الأرستقراطية (طبقة ملاك

الأرض وكبار رجال الدين) وطبقة « العامة » (وهم أصحاب الحرايت ومهرة الحرفيين والفلاحون) ، ولكن لم تحرز هذه الطبقة الوسطى أية قوة سياسية بعد .

ولم تكن الفوارق الطبقية واضحة ملحوظة إلى حد مؤلم ، اللهم إلا في البندقية وجنوه . ففي معظم المدن الإيطالية دخل النبلاء بنشاط ميدان التجارة أو الصناعة أو المال . وكان في إمكان وصول أى فلاح إيطالى إلى منصب الأسقفية أو البابوية ما أشاع عنصرا ديمقراطيا في الحياة الاجتماعية ؛ وفي البلاط كان حامل لقب النبالة المهيب يلتقى بالأسقف المتواضع الأصل ويجالسه ، وفي الأكاديميات والجامعات كان النبوغ الفكرى يرجح الدعاوى الطبقية ، وفي صخب الكرنفال كان الرجال والنساء المطمثون وراء أقنعتهم ينسون مراتبهم الاجتماعية كما ينسون نواميسهم الخلقية . وكان الحديث بين الناس يتسم بالمرح شأنهم في فرنسا ، هذا إذا استثنينا إجماعا متفاهما عليه بعدم المساس بدين يأتي بالجزية الدولية لإيطاليا - حتى من فاتحها - بنوع خاص .

على أن ذلك الدين كان بريئا من أى شائبة تزمت ، فقد تصالح مع طبيعة البشر ومناخ إيطاليا . وسمح في الكرنفالات بفترة تعطيل للاحتشام ، ولكنه جاهد للمحافظة على مؤسسى الزواج والأسرة وحمايتهما من سداجة النساء وأهواء الرجال . فكانت الفتيات في الطبقات المثقفة يرسلن إلى أحد الأديرة في سن مبكرة - في الخامسة - لا للتعليم أولا بل لضمان الإشراف الخلقى عليهن . ولم تكن الفتاة التواقة إلى الحرية يطلق سراحها إلا إذا وفر لها صداق وهيء لها خطيب يوافق عليه أبوها أو أولياؤها ويتقدم لزواجها . وإذا جاز لنا أن نصدق كازانوفا ، فإنه كان في استطاعة راهبة شديدة الشوق إلى الرجال أن تغافل أحيانا الرئيسة الأم - أو تغافل الرئيسة الأم راهباتها - ونجد سبيلا للقاء رجل شديد الشوق إلى النساء بين الغسق والفجر ، ولكن هذه كانت مغامرات نادرة مخوفة بالخطر . على أننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم على أخلاقيات الرهبان .

وكان الذكر غير المتزوج إذا لم يستطع إغواء زوجة رجل آخر ، يتعامل

عموما مع البغايا . وقد قدر الكونت دكايلوس أن عددهن في نابلي عام ١٧١٤ بلغ ثمانية آلاف من بين السكان البالغين ١٥٠,٠٠٠ . ووجد الرئيس دبروس في ميلان « إنك لا تخطو خطوة في الميادين العامة دون أن تتلقى بقوادين courtiers de galanterie يعرضون عليك نساء من كل لون أو جنس تشاء ، ولكن لك أن تثق بأن النتيجة لا تكون دائما باهرة كالوعد . » (٢) وكان محظورا على البغايا في روما أن يظهرن في الكنائس أو المحافل العامة ، وحرم عليهن بيع مفاتهن خلال صوم الميلاد ، والصوم الكبير ، وأيام الآحاد والعطلات الدينية .

وكان أشد ما يعاكس هؤلاء البغايا ويفسد عليهن حرفتهن أن طريق العشق الحرام كانت ميسرة إلى قلوب النساء المتزوجات . فهؤلاء النساء انتقمن لأنفسهن من فترة المراهقة التي ضيق عليهن فيها ، ومن الأزواج الذين لم يكن لهن رأى في إختيارهن ، بالانغماس في العلاقات الغرامية غير المشروعة ، وبالنحاذ « سيد تابع » cavalier servente . وقد سمحت عادة مرافقة المرأة المتزوجة هذه cicisbeatura ، بموافقة زوجها وفي غيبته ، (وهي عادة مستوردة من أسبانيا) بأن يقوم على خدمتها سيد يخدمها ، فيرافقها إلى العشاء وإلى المسرح وإلى المنتديات ، ولكن نادرا ما يصحبها إلى الفراش . واختيار بعض الأزواج مرافقين لزوجتهن لحمايتهن من علاقات العشق الحرام . (٣) وقد أفضى الانتشار الواسع للمذكرات كازانوفا ، والأخبار المتعجلة التي أذاعها الرحالة الفرنسيون الذين الفوا التحلل الفرنسي ، إلى مبالغة الأجانب في فكرتهم عن فساد الأخلاق في إيطاليا . صحيح أن جرائم العنف أو الجنس كثر ، ولكن الإيطاليين كانوا بوجه عام أبناء أوفياء لوأديهم ، وأزواجا غيورين على نساءهم ، وزوجات مجدات في بيوتهن ، وآباء متعلقين بأبنائهم ، يحبون حياة أسرية مترابطة ، ويواجهون متاعب الزواج والأبوة والأمومة بأباء في الخلق وطلاقة في الحديث وبشاشة حاضرة في الطبع .

ولم يلق تعليم النساء تشجيعا ، لأن كثيرا من الرجال كانوا يرون التعليم خطرا على العفة . وتلفت قلة من البنات في الأديرة تعليما في القراءة والكتابة

والتطريز وفنون الحياة والترفيه . ومنع ذلك نسمع عن نساء راقيات التعليم يدرن صالونات يتعاجزين فيها الأحاديث في يسر مع الكتاب والفنانين ورجال الأعمال . وفي بلرمو ترجمت « أنا جنتيلي » فولثير شعرا إيطاليا جيدا ، ونشرت « الرسائل الفلسفية » التي دافعت فيها بجرأة عن أخلاقيات هلفتيوس غير القائمة على الدين . وفي ميلان سمع الرئيس دبروس ماريا جايتانا اجنيزى ، البالغة من العمر عشرين عاما ، تحاضر باللاتينية في علم السوائل ^(٤) ، وقد درست اليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وكتبت رسائل في القطاعات المخروطية والهندسة التحليلية ^(٥) ، وفي جامعة بولونيا كانت السنيورة ماتسوكينى تدرس التشريح ، والسنيورة تامبروني تدرس اليونانية ^(٦) . ومن تلك الجامعة ذاتها نالت لاورا باسى درجة الدكتوراه في الفلسفة ولما تتجاوز الحادية والعشرين (١٧٣٢) ، وما لبثت أن ضربت في العلم بسهم وافر حتى عينت استاذا في الجامعة وحاضرت في « بصريات » نيوتن وقلت البحوث في الفيزياء ، وأنجبت خلال ذلك لزوجها اثني عشر طفلا قامت بنفسها على تربيتهن ^(٧) .

وظلت الكثرة العظمى من الجنسين أمية دون أن ينالها من ذلك أى غضاضة أو ازدياء من المجتمع . فاذا ظهرت مخايل الذكاء والنضج على غلام في القرية وجد له القسيس عادة سبيلا إلى التعليم . ذلك أن شتى الجماعات الدينية أسست المدارس في المدن . فكان لليسوعيين عدد كبير من الكليات في إيطاليا — ست في البندقية ، وسبع في ميلان وست في جنوه ، وعشر في بيدمونت ، وتسع وعشرون في صقلية وكليات كثيرة في مملكة نابلى وفي الولايات البابوية . وقامت الجامعات في تورين وجنوه وميلان وبافيا ويزا وفلورنسه وبولونيا وبادوا وروما ونابلى وبلرمو ، وكلها تحت إشراف رجال الكنيسة الكاثوليك ، ولكن الكليات ضمت الكثير من العلمانيين . وكان المعلمون والطلاب على حد سواء يحلفون اليمين بالا يعلموا أو يقرأوا ويقولوا أو يفعلوا شيئا يخالف تعليم كنيسة روما . يقول كازانوفا « في بادوا كانت حكومة البندقية تدفع المرتبات الكبيرة لمشاهير الأساتذة ، وتترك للطلاب كامل الحرية في الانتظام في حضور دروسهم ومحاضراتهم أو عدمه كما يشاءون » ^(٨) .

يضاف إلى هذا أن الفكر الإيطالي شحذه عدد كثير من الأكاديميات. المخصصة للآداب أو العلوم أو الفنون ، المتحررة عادة من إشراف رجال الدين ، وأشهرها الأكاديمية الاركادية التي كانت في الفترة التي نحن بصددتها تموت موتا كريما . وكانت هناك مكتبات عامة مثل « دار الكتب الامروزية » ، الجمعية في ميلان ، أو دار كتب ماجليابكينانا (دار الكتب القومية الآن) في فلورنسه ، وكان الكثير من المكتبات الخاصة كمكتبة بيزاني في البندقية ، يفتح أبوابه للجمهور في أيام معلومة من الأسبوع . وقد روى دبروس أن مكتبات إيطاليا كان يستخدمها القراء استخداما يفوق في كثرته وحماسه استخدام القراء لمكتبات فرنسا . وأخيرا كانت هناك دوريات من جميع الأنواع — ثقافية ، أو أدبية ، أو فكاھية . وكانت مجلة الآداب الإيطالية التي أسسها أبوستولو تسينو وفرانشسكو سكييوتي دى ما في عام ١٧١٠ من أرقى المجلات في أوروبا ثقافة وأحظاها بالاحترام .

وصفوة القول أن إيطاليا كانت تنعم بحياة فكرية نشيطة ، فكثرت عدد الشعراء الذين عاشوا على إهداء شعرهم لكبار القوم ، وتعطر الجو بأريج القصائد الغنائية التي ما برحت تقلد بترارك ، وتنافس المرتجلون في إفراخ القرى فور دعوتهم إلى قرصه . ولكن العصر خلا من الشعر العظيم حتى أقبل ألفييري في ختام القرن . وقامت المسارح في البندقية وفتشتنا وجنوه وتورين . وميلان وفلورنسه وبادوا ونابلى وروما ، وأم هذه الأبنية الأنيقة الرشيقة صفوة القوم وعامة الشعب ليتجاذبوا الحديث ويسددوا نظرات الغرام . كما أتوها ليستمعوا إلى الأوبرا أو التمثيلية . وكان هناك دارسون كبار مثل مافي ، ومؤرخون شديدا لاجتهاد مثل موراتورى ، وعما قليل سيأتى علماء عظام . غير أنها كانت ثقافة متكلفة بعض الشيء ، حذرة خشية الرقابة ، مهذبة مجاملة إلى حد أفقدها الجرأة .

ومع ذلك هبت عليها رياح متقطعة من الهرطقة عبر الألب أو البحر . فأسس الأجانب — لاسيما الإنجليز من أنصار جيمس الثانى — في جنوه وفلورنسه وروما ونابلى ، من ١٧٣٠ فصاعدا محافل ماسونية نزاعة إلى الربوبية . وقد أدانها الباباوان كلمنت الثانى عشر وبندكت الرابع عشر ، ولكنها اجتذبت.

الاتباع العديدين خصوصا من طبقة النبلاء وأحيانا من الأكليروس . وجلبت إلى إيطاليا بعض مؤلفات مونسكيو وفولتير ورينال ومايلي وكوندريك وهلفتيوس ودولباخ ولامترى . ونشرت طبعات من « الموسوعة » بالفرنسية في لوكا ولجهورن وبادوا . ووصلت حركة التنوير إلى إيطاليا بدرجة متواضعة وفي صورة ميسرة لمن يقرءون الفرنسية . ولكن الإيطالي أعرض عن الفلسفة ، وأعرض عنها عمدا ؛ وعن قناعة في الأكثر الأعم . فلقد كان هواه ومهارته في إبداع أو تذوق الفن والشعر أو الموسيقى ، وبدا له الجمال المحسوس أو المرئي أو المسموع أفضل من حقيقة رواغة لا يضمن اطلاقا إشاعتها البهجة في نفسه . ومن ثم فقد ترك الدنيا تناقش وتجادل بينما انصرف هو إلى شذوه وغنائه .

٢ -- الموسيقى

اعترفت أوروبا للموسيقى الإيطالية مكان الصدارة وقبلت آلائها وأشكالها ، ورحبت بمزاياها ، وتوجت كبار مغنيها الحصان واستسلمت لأوبراها الشجعة قبل جلوك وعلى الرغم منه وبعده . وأم جلوك وهاسمي وموتسارت ومثبات غيرهم إيطاليا ليدرسوا موسيقاها ، وليقفوا على أسرار « الغناء الجميل bel canté » (الملعلع) من بوربورا أو يتسلموا مدالية بادري ماريتيني .

يقول بيرني في معرض حديثه عن البندقية ، « إذا سار إثنان معاً يتأبط أحدهما ذراع الآخر ، بدا كأنهما لا يتحدثان الا غناء . فكل الأغاني هنالك ثنائيات » .^(٩) وكتب إنجليزى آخر « في ميدان القديس مرقص يرفع رجل من عامة الشعب — حذاء أو حدادا مثلاً — عقيرته بأغنية ، ولتو ينضم إليه أشخاص على شاكلة ويشلون بهذه الأغنية في عدة أصوات ، بضبط وذوق ندر أن يصادفهما المرء في أرقى المجتمعات في بلادنا الشمالية »^(١٠) .

وكان العاشق الواقف تحت نافذة حبيبته يداعب أوتار قيثاره أو مندولين كما يداعب قلب عذرائه . وحمل مغنو الشارع أنغامهم إلى المقاهى والحانات ، وفي الجندول كانت الموسيقى تعانق هواء المساء ، والصالونات والأكاديميات

والمسارح نحي الحفلات الموسيقية ، والكنايس ترجها أصوات الأراغن و فرق المرتلين ، وفي الأوبرا كان الرجال ينتشون طربا والنساء يغبن عن الوعي عند سماع لحن من المغنية الأولى أو الخصى المغنى . وفي حفلة سمفونية أحييت في روما في مكان لا تغطيه غير نجوم السماء (١٧٥٨) سمع موريلليه عبارات عاطفية مثل (إيه أها المبارك ! يا للذة الكبرى ! أكاد أموت طربا ا . (١١) ولم يكن من غير المؤلف في دار الأوبرا أن نسمع الشيج يتردد بين جمهور النظارة .

وأحب القوم آلتهم الموسيقية حبا فوق وفاءهم للجنس الآخر ، ومنحوا بالمال ليجعلوا منها تحفا صنعت بدقة من الخشب الثين وطعمت بالعاج أو المينا أو رصعت بالأحجار الكريمة ، وربما زين الهارب أو القيثارة بالماس . (١٢) وكان سترافارى قد ترك في كريمونا تلاميذ له مثل جوزيبي انطونيو جوارنيرى ودومنيكو مونتانيانا واصلوا العلم بسر صنع الفيولينات والفيولات والفيولنشلات النابضة بالحياة . وظل الهاربسكورد (الذى كان الإيطاليون يسمونه كلافيتشمالو) إلى نهاية القرن الثامن عشر آلة المفاتيح المفضلة في إيطاليا رغم أن بارتولوميو كريستوفورى كان قد اخترع البيانو — فورتي بفلورنسه حوالى ١٧٠٩ . وحظى كبار عازقي الهاربسكورد مثل دومنيكو سكارلاتى ، أو الفيولينه مثل تارتينى وجميناى ، في هذا الجيل بشهرة دولية . فكان فرانسكرىو جميناى بمثابة « لست » الفيولينه ، أو كما لقيه منافسه تارتينى « مجنون » القوس (لافوريونددو) . وحين وفد على إنجلترا في ١٧١٤ حظى بشعبية في الجزر البريطانية أغرته بالإقامة هناك معظم سنيه الثمانى عشرة الأخيرة .

وقد شجع ظهور أمثال هؤلاء العازفين المهرة على إنتاج الموسيقى الآلية ، وكان هذا هو العصر الذهبي للمؤلفات الموسيقية الإيطالية للفيولينه . فأتخذت شكلها الآن — خصوصا في إيطاليا — الإفتتاحية ، والمتتالية ، والصوناتا ، والكونشرتو ، والسمفونية ، وكلها ركز على اللحن والإيقاع ، لا على الكونترابنط البوليفونى الذى كان آتشد بالغاً أوجه ثم مختما حياته مع يوهان سبستيان باخ . وكما أن المتتالية أنبتقت من موسيقى الرقص ^{١٣} فكذلك إنبتقت الصوناتا من

المتتالية . لقد كانت شيئاً يعزف ، كما كانت الكنتاتا شيئاً ينشد . وأصبحت الصوناتا في القرن الثامن عشر سلسلة من ثلاث حركات — سريعة (الليجرو أو بريستو) ، وبطيئة (أندانتي أو أداجو) وسريعة (بريستو أو الليجرو) ويدس فيها أحياناً سكيرتسو (دعابة) تذكر السامع برقصة الجليجة المرححة ، أو منويته رشيقة تذكره بموسيقى الرقص . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كانت الصوناتا ، على الأقل في حركتها الأولى ، قد طورت « شكل الصوناتا » — وهو عرض موضوعات متعارضة واطالتها بالتنوع ، ثم تلخيصها عند الختام . وبعد تجارب ج . ب . ساماريتيني ورينادودى كابوا في إيطاليا ، ويوهان شتامتس في ألمانيا ، تطورت السموفونية بتطبيق شكل الصوناتا على ما كان في الماضي إفتتاحية أوبرالية أو مصاحبة سردية . وهذه الوسائل هي الملمحن اللذة للعقل والحواس معا ، وأعطى الموسيقى الآلية ميزة فنية جديدة هي البنيان المحدد الذي يقيد ويربط اللحن بنظام ووحدة منطقيين . ذلك أنه إذا انعدم البناء في فن ما — أى العلاقة العضوية بين الأجزاء والكل ، أو العلاقة بين البداية والوسط والنهاية — كان ذلك معناه انحطاط هذا الفن .

أما الكونشرتو (من اللفظ اللاتيني concertare ومعناه يتبارى) فقد طبق على الموسيقى مبدأ الصراع الذى هو روح الدراما . فعارض الأوركسترا بعازف منفرد ، وأدخل الاثنين في مناظرة هارمونية . وكان شكله المفضل في إيطاليا الكونشرتو جروسو (الكبير) ، حيث التعارض بين أوركسترا صغير من الوتریات ، و« كونشرتينو » (كونشرتو صغير) من عازفين أو ثلاثة . وكان ليفيالدی في إيطاليا وهيندل في إنجلترا ، وباخ في ألمانيا ، الفضل في صقل شكل الكونشرتو جروسو صقلا مطردا ، وتحدثت موسيقى الآلات تفوق الأغنية .

ومع ذلك ، ظل الصوت — خصوصاً في إيطاليا — هو الآلة المحببة التي لا ضريب لها . ففي إيطاليا أتيت له ميزة لغة عذبة رخيمة ، تغلب فيها الصوت اللين على الساكن ، وتقليد طويل من الموسيقى الكنسية ، وفن بالغ الرق من فنون التدريب الصوتی . هنا ظهر كبار مغنيات الأوبرا (البريمادونات) .

الفاتنات اللاتي يرتقين كل عام سلم الثراء والبدانة ، والمغنون الطواشية ذؤ الأؤسام الريانة الذين كانوا يخرجون من إيطاليا ليأسروا الملوك والمملكات . هؤلاء المغنون السوبرانو أك الكونترالتو الذكور جمعوا بين رئات الرجال وحناجرهم ، وبين أصوات النساء أو الغلمان . وكانوا بعد أن يطوشوا فى سن السابعة أو الثامنة ، ويخضعوا لنظام طويل دقيق من التدريب على التنفس والنطق ، يتعلمون ترعيشات الصوت وتحليلاته وتهديجاته ، وتعاقب النغمات السريع ووقفات التقاط النفس — إلى آخر هذه الفنون التى جعلت جماهير السامعين الإيطالية تهذى طربا تعبر عنه أحيانا بهتاف هو « ليحى السكين الصغير »^(١٣) . ذلك أن معارضة الكنيسة (لاسيا فى روما) فى استخدام النساء على خشبة المسرح ، وسوء تدريب المغنيات فى القرن السابع عشر ، كانا قد خلقا طلبا لباه هذا السكين الصغير الذى كان يقطع القنوات المنوية للذكر . وبلغ من عظم مكانة المغنيين المطوشين إذا حالقهم الحظ أن بعض الآباء كانوا — بعد أن يغروا الصبى الضحية بالرضى بمصيره هذا — يسلمونه لهذه العملية بمجرد أن تبدو منه أول بادرة صوت رخيم . ولكن كثيرا ما كانت الآمال تخيب ، فكانت تجد فى كل مدينة بايطاليا كما ذكر بيرنى نفرا من هؤلاء الفاشلين « ولا صوت لهم على الاطلاق »^(١٤) وبعد عام ١٧٥٠ اضمحلت بدعة الخصيان هذه ، لأن مغنيات الأوبرا تعلمن أن يتفوقن عليهم فى نقاء النغمة وينافسنهم فى قوة الصوت .

أما أشهر الأسماء فى موسيقى القرن الثامن عشر فلم يكن باخ ولا هيندل ولا موتسارت ، بل فارينللى — وهذا ليس اسمه الأصى . والظاهر أن كارلو بروسكى اتخذ اسم خاله الذى كان آئذ معروفا فى دوائر الموسيقى . وإذا كان كارلو قد ولد فى نابلى (١٧٠٥) لأبوين عريقى الأصل ، فما كان لمثله عادة أن يدخل صفوف المطوشين ؛ وروى أن حادثا أصابه وهو راكب جواده اقتضى إجراء العملية التى أثمرت أبدا صوت فى التاريخ . ثم درس الغناء فى على بوربيورا ، وصحبه إلى روما ، وظهر هناك فى أوبرا بوربيورا المسماة « إيومينى » . وفى أحد الألحان نافس عازفا على الناي فى إطالة نغمة وتضخيمها وغطى عليه

في طول النفس ، فأتته الدعوات من أكثر من عشر عواصم . وفي ١٧٢٧ في
بولونيا لقي أول هزيمة له ؛ ذلك أنه قاسم أنطونيو برناكي لحنا ، فاعترف
له بأنه (ملك المغنين) ، وتوسل إليه أن يكون معلمه . ووافق برناكي ،
وسرعان ما برز التلميذ معلمه . وراح فارينللي الآن يحرز نصرا بعد نصر في
البلد تلو البلد — البندقية وفيينا وروما ونابلي وفيرارا ولوكا وتورين ولندن
وبازيس . وكان تفننه الصوتي عجيبة العصر . وكان فن التنفس من أسرار
براعته ، فقد عرف أكثر من أى مغن آخر كيف يتنفس بعمق وسرعة
وهدوء ، وكان في استطاعته أن يستمر في غناء بنغمة ما بعد أن تتوقف جميع
الآلات الموسيقية . وفي لحن son qual nave (على أى مركب) بدأ
النجمة الأولى مخافتاً لا يكاد يسمع ، ومطها تدريجاً إلى ملء حجمها ، ثم هبط
بها شيئاً فشيئاً إلى خفوتها الأول . وكان جمهور السامعين أحياناً ، حتى في
أنجلترا — ذلك البلد الرصين — يصفق لهذه العجيبة السعيدة تصفيقاً يمتد
خمس دقائق . (١٥) وقد اكتسب قلوب سامعيه كذلك بحنانه وكياسته ورقته ،
وكانت هذه الخلال في فطرته كما كانت في صوته . وفي ١٧٣٧ قام بزيارة
لأسبانيا خالها قصيرة ، ولكن المكث طال به في مدريد أو قربها ربع قرن ..
وسوف نفتش عليه هناك في فصل لاحق .

وبفضل المغنين الطواشية أمثال فارينللي وسينزينو ، وكواكب الغناء من
النساء أمثال فاوستينا بوردونى وفرنشسكا كوتسونى ، أصبحت الأوبرا صوت
إيطاليا ، وبهذه المثابة استمع إليها الناس بابتهاج في كل بلد أوروبى إلا فرنسا حيث
اشتعلت نار الحرب . وكلمة « أوبرا » كانت في الأصل جمع « opus »
ومعناها « أعمال » ولكن الجمع أصبح في إيطاليا مفرداً ، واحتفظ بمعناه .
« العمل » ، وما نسميه الآن أوبرا كان يسمى opera per musica —
عملاً موسيقياً . ولم تتخذ الكلمة معناها الحالى إلا في القرن الثامن عشر .
وإذ كانت متأثرة بتقاليد الدراما اليونانية ، فقد صممت أصلاً على أنها تمثيلية .
تصاحبها الموسيقى ، ثم ما لبثت الموسيقى أن طغت على التمثيلية في إيطاليا ، وطلعت
الأغاني (الآريا) على الموسيقى . وصممت أوبرات تتيح عروضاً منفردة لكل

مغنية أولى وكل مغن أول في الفرقة . وكان السامعون يتجاذبون الحديث فيما بين هذه القمم المثيرة ، وبين الفصول يلعبون الورق أو الشطرنج ، ويقامرون ، ويأكلون الحلوى أو الفاكهة أو العشاء الساخن ، ويتزاورون ويغازلون من مقصورة إلى مقصورة . في مثل هذه المهرجانات كان النص عادة يغرق في طوفان معترض في الأغاني والثنائيات والكوارس والبالهات . وقد ندد المؤرخ لودفيكو موراتوري بطمس الشعر على هذا النحو (١٧٠١) (١٦) ووافقه كاتب النصوص أبوستولوتسينو ، وانتقد المؤلف الموسيقى بنديتو مارنشيلى هذا الاتجاه في « تياترو على الموضة » (١٧٢١) . وأوقف متاستازيو حنا هذا السيل الجارف ، ولكن في النمسا لا في إيطاليا . وناضل جوميللى وترايتا ضده ، ولكن مواطنيهما أنكروا عليهما هذا النضال ، ذلك أن الإيطاليين أثروا في في غير موارد الموسيقى على الشعر ، واتخذوا الدراما مجرد تكتة للأغنية .

وأغلب الظن أنه ما من شكل في آخر وعاه التاريخ حظى بالشعبية التي حظيت بها الأوبرا في إيطاليا ، وما من حماسة ضارعت حماسة جمهور إيطالى يرحب بلحن أو قفلة لنغمة يشدو بها مغن مشهور . ولو سئل أحد المستمعين في حفلة كهذه لعد ذلك منه جريمة إجتماعية كبرى . وكان التصفيق يبدأ قبل أن تحتم الأغنية المألوفة ، وتدعمه العصى تدق على الأرض أو على ظهور المقاعد ، وكان بعض المتحمسين يقدفون بأحذيتهم في الهواء (١٧) . وكان لكل مدينة إيطالية زهو بنفسها قليلا أو كثيرا (وأياها كانت مبرأة من الزهو ؟) دار الأوبرا ، وبلغ عدد هذه الدور في الولايات البابوية وحدها أربعين . وبينما كانت الأوبرا في ألمانيا حفلة رسمية تؤدى في البلاط ويحرم منها جمهور الشعب ، وبينما حد من مستمعها في إنجلترا ارتفاع أسعار الدخول ، نجدها في إيطاليا مفتوحة لكل شخص لائق الهدام نظير رسم متواضع ، وأحيانا دون رسم على الإطلاق . ولما كان الإيطاليون قوما يحبون الاستمتاع بالحياة فقد أصرروا على أن يكون لأوبراتهم خاتمة سعيدة مهما كان في هذه الأوبرات من فواجع . ثم أنهم أحبوا الفاكهة كما أحبوا رقة العاطفة . فمما بينهم تقليد يقضى بدس فاصل هزلى بين فصول الأوبرا . ثم تطورت هذه الفواصل إلى

نوع قائم بذاته حتى لقد نافست (الأوبرا الجادة) في شعبيتها ، وأحيانا في طولها . والذي فتن باريس في ١٧٥٢ كان « أوبرا هازلة - opera buffa »
هى الخادمة تنقلب ربة البيت la serva padrona لبرجوليزى ، التى
أشاد بها روسو دليلا على تفوق الموسيقى الإيطالية على الفرنسية .

أيا كانت الأوبرا الإيطالية ، هازلة أو جادة ، فلما كانت قوة فى التاريخ .
وكما غزت روما مرة غربى أوروبا بجيوشها ، وكما غزتها كنيسة روما مرة ثانية
بعقيدتها ، كذلك غزتها إيطاليا مرة ثالثة بالأوبرا . فأزاحت أوبراتها الإنتاج
الوطنى فى ألمانيا والدنمرك وإنجلترا والبرتغال وأسبانيا بل وروسيا ، وكان
مغنوها معبودى كل عاصمة أوربية تقريبا . واتخذ المغنون الوطنيون أسماء
إيطالية لكى يحظوا بالقبول فى وطنهم . وسيمضى هذا الغزو الساحر مابقى
للحروف اللينة التفوق فى الغناء على الحروف الساكنة .

٣ - الدين

كانت الطبقة المسيطرة فى إيطاليا هى طبقة الأكليروس بعد
البريمادونات والمغنين الخصيان . وراح رجال الدين يمشون أو يركبون
فى غفاراتهم المتميزة وقبعاتهم العريضة الخواف فى حرية تخالطها الكبرياء
عبر المجتمع الإيطالى عالين أنهم يوزعون أغلى نعمة عرفها البشرية - هى
نعمة الرجاء . وبينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب فى فرنسا فى
هذا القرن على التقريب واحدا إلى مائتى نفس ، كانت النسبة فى روما
واحدا لكل خمس عشرة ، وفى بولونيا واحدا لكل سبع عشرة ، وفى
نابلى وتورين واحدا لكل ثمان وعشرين^(١٨) . وقد شكوا رجل معاصر من
أهل نابلى من هذا الوضع ، وهو باعترافه رجل متمسك بالتقاليد :

« لقد إستفحل عدد الأكليروس بحيث أصبح لزاما على الأمراء أن
يتخذوا الإجراءات للحد من عددهم وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها . فأى

ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطالية خمسون قسيساً أو ستوناً... أن العدد الضخم من أبراج الأجراس والأديرة يحجب نور الشمس . وهناك مدن يبلغ فيها العدد خمسة وعشرين ديراً لرهبان أو راهبات الدومنيكان وسبعة مجامع لليسوعيين ، ومثلها للتيارين ، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للأخوة الفرنسيسكان ، وما لا يقل عن خمسين آخر من طوائف دينية مختلفة من الجنسين ، هذا فضلاً عن أربعمائة أو خمسمائة كنيسة ومصلّى^(١٩) .

ولعل هذه الأرقام بالغ فيها الكاتب دعماً لحجته . ونحن نسمع عن أربعمائة كنيسة في نابلي ، و ٢٦٠ في ميلان ، و ١١٠ في تورين ، على أن هذه دخلت ضمنها المصليات الصغيرة . وكان الرهبان فقراء نسبياً ، أما الأكليروس من غير الرهبان فكانوا في جملتهم يملكون ثروة تفوق ثروة النبلاء . وكان الأكليروس في مملكة نابلي يحصلون على ثلث الموارد . وفي دوقية بآرما كان نصف الأرض مملوكة الأكليروس ، وفي تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض تقريباً . وفي البندقية أضافت الوصايا الجديدة في السنوات الأحدي عشرة من ١٧٥٥ إلى ١٧٦٥ إلى الكنيسة من الأملاك ما قيمته ٣,٣٠٠,٠٠٠ دوقاتية^(٢٠) . وكان بعض الكرادلة والأساقفة من أغنى الرجال في إيطاليا ، ولكن هؤلاء الكرادلة والأساقفة كانوا أولاً مديرين وحكاماً ، ولم يكونوا قديسين إلا أحياناً . من ذلك أن عدة رجال منهم في النصف الثاني من القرن نزلوا عن ثروتهم وترفعهم وعاشوا حياة الفقر الاختياري .

أما الشعب الإيطالي فلم يبد منه أى احتجاج ذى بال على ثراء الأكليروس ، اللهم إلا قلة من المعلقين والهجائين . لقد كان الشعب فخوراً بهاء كنائسه وأديرته وأحباره وبدت لهم مساهماتهم ثمناً زهيداً يدفعونه لقاء النظام الذى وفره الدين للأسرة والدولة . وكان فى كل بيت صورة أو تمثال للمسيح المصلوب ، وآخر للعذراء ، وأمامهما تركع الأسرة كلها فى صلاة كل مساء — الأبوان والأبناء والخدم . فأى شئ يستطيع الحلول محل التأثير الأخلاقى لتلك الصلوات الموحدة بين القلوب ؟ وكان الأمتناع

عن أكل اللحم أيام الجمع ، وأيام الأربعاء والجمع في الصوم الكبير ، ضبطاً نافعا للشهوة — كما كان نعمة على الصحة وعلى صيادى السمك . أما القساوسة ، الواعون لمفائن النساء ، فلم يغالوا في إدانة خطايا الجسد ، وأغضوا عن مظاهر التحلل في الكرنفالات . لا بل أن البغايا كن في السبوت يوقدن شمعه أيام العذراء ، ويودعن نقودا لترتيل قداس . وقد أدهش دبروس وهو يشاهد تمثيلية في فيرونا أن يرى التمثيل يتوقف حين دقت أجراس الكنائس معلنة موعد الصلاة (الأنجيلوس) ، وركع كل الممثلين وصلوا ، وقامت ممثلة كانت تتصنع الأنعماء في المسرحية لتشارك في الصلاة ثم عادت إلى أغمائها^(٢١) . حقاً ندر أن أحب الناس ديناً من الأديان حباً كما أحب الإيطاليون الكتلركة في إيطاليا . على أنه كان للصورة وجه آخر — هو الرقابة على المطبوعات وديوان التفتيش . وقد طالبت الكنيسة كل إيطالى أو إيطاليه أن يؤدى مرة في السنة على الأقل « واجب عيد القيامة » — أى يذهب للاعتراف على الكاهن في سبت النور ، ويتناول القربان في صباح القيامة . فإذا قصر في هذا الواجب — في كل أرجاء إيطاليا باستثناء أكبر المدن — استوجب التوبيخ من الكاهن ، فإذا لم يجد مع العاصى التوبيخ والنصح سراً عوقب بنشر اسمه على أبواب كنيسة الأبرشية ، فإذا تمادى في الرفض كان جزاؤه الحرم ، بل السجن في بعض المدن^(٢٢) . على أن ديوان التفتيش كان قد فقد الكثير من قسوته وشرته . وكان في الأماكن تفادى الرقابة الكنسية في المراكز الكبرى ، فخفت الرقابة على المطبوعات ، وكان هناك إنتشار صامت للشك والمهرطقة في أوساط المثقفين لا بل بين رجال الأكليروس أنفسهم — لأن بعضهم كانوا جانسين في دخيلة أنفسهم برغم أوامر البابا .

وإذا كان الكثير من القساوسة والرهبان قد عاشوا حياة الراحة والدعة ، ولم يكونوا غرباء على الأثم ، فقد كان هناك أيضاً الكثيرون ممن وفوا بنذورهم ، واحتفظوا بالإيمان حياً بالأخلاص لواجباتهم . وقامت المؤسسات الدينية الجديدة شاهداً على بقاء نبض الحياة في الرهبة . من ذلك أن القديس

الفونسودى لجيورى المحامى العريق الأصل أسس فى ١٧٣٢ جماعة « إتباع الفادى » (أى المسيح) ، كذلك أمس القديس بولس الصليبي (باولوداني) ، الذى مارس أقدس ضروب النسك ، فى ١٧٣٧ « طائفة المتألمين » . أى . إتباع صليب المسيح المقدس وآلامه .

وكانت جماعة اليسوعيين فى ١٧٣٠ تضم نحو ٢٣,٠٠٠ عضو . منهم ٣,٦٢٢ فى إيطاليا ، ونصفهم قساوسة^(٢٣) . ولم يكن هناك تناسب قط بين سلطانهم وعددهم . فكثيراً ما أثروا فى السياسة الداخلية والدولة بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة ، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً — بعد جماهير الشعب — فى اضطهاد الهرطقة . رمسع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تحراً ، وقد رأينا فى غير هذا الموضوع كم حاولوا فى صبران يتوافقوا مع حركة التنوير الفرنسية . وقد تميزت بعثاتهم الخارجيه بمثل هذه المرونة . ففى الصين حولوا مئات الألوف إلى الكاثوليكية^(٢٤) ، ولكن تنازلاتهم الذكية لعبادة الأسلاف ، وللكنفوشيه ، وللطاوية ، صدمت مبعوثى الطوائف الدينية الأخرى فاقنعوا البابا بندكت الرابع عشر بأن يكبح جراح اليسوعيين ويوبخهم فى مرسوم Ex quo singulari (١٧٤٣) . على أنهم ظلوا برغم ذلك أقدر وأعلم المدافعين على العقيدة الكاثوليكية ضد البروتستنتية والألحاد ، واخلص المؤيدين للبابوات ضد الملوك . وقد وجسد الملوك فى جماعة اليسوعيين أثناء صراعات السيادة والسلطة بين الدول القومية والكنيسة التى تعلو على القوميات عدواً هو أشد أعدائهم دهاءاً وإلحاحاً . ومن ثم فقد صحت نيتهم على القضاء عليها . ولكن الفصل الأول فى هذه الدراما مكانه البرتغال .

٤ — من تورين إلى فلورنسة

إذا دخلنا إيطاليا من فرنسا بطريق مون — سنى ، هبطنا جبال الألب إلى بيدمونت التى تسمى « سفح الجبل » ثم مررنا بكروم وحقول للحبوب وبساتين لأشجار الزيتون أو الكستناء حتى نبلغ تورين ، القصبة القديمة . لبست ساقوى واتى يرجع عمرها إلى ألقى ستة . وهذا البيت من أقدم الأسر

الملكية الموجودة ، وقد أسسه في ١٠٠٣ أومبرتو بيانكامانو - هومبرت ذو اليد البيضاء . وكان رأس الأسرة في الحقبة التي نحن بصدددها من أكفأ حكام العصر . فقد ورث فكتور أماديوس الثاني عرش دوقية ساقوى في التاسعة من عمره (١٦٧٥) وأضطلع بشئون الحكم في الثامنة عشرة وقاتل من أجل الفرنسيين أنا وضدهم أنا في حروب لويس الرابع عشر ، وشارك أوجين السافواوى في طرد الفرنسيين من تورين وإيطاليا ، وخرج من معاهدة أوترخت (١٧١٣) وقد أضاف صقلية إلى تاجه . وفي ١٧١٨ استبدل سردينيا بصقلية ، واتخذ لقب ملك ساردنيا (١٧٢٠) ولكنه احتفظ بتورين عاصمة له . وحكم مملكته بكفاية تشوبها الحشونة ، وأصلح التعليم العام وزاد في رفاهية الشعب ، وبعد أن حكم خمسة وخسين عاماً تخلى عن العرش لابنه شارل إيمانويل الأول (حكم ١٧٣٠ - ٧٣) .

كانت تورين خلال هذين الحكيم اللذين إمتدا قرابة قرن كامل مركزاً قيادياً للحضارة الإيطالية . وقد وصفها مونتسكيو الذى شاهدها في ١٧٢٨ بأنها « أجمل مدينة في العالم »^(٢٥) مع أنه أحب باريس . وإمتدح تشسترفيلد عام ١٧٤٩ بلاط سافوى لأنه خير بلاط في أوربا يربى « أناساً مهذبين لطفاء »^(٢٦) . وبعض الفضل في بهاء تورين راجع إلى فليبيو يوفارا ، المعمارى الذى كان لا يزال يتنفس وحتى النهضة الاوربية . فعلى تل سوبرجا الشامخ الذى يعلو ٢,٣٠٠ قدم فوق المدينة بنى (١٧١٧ - ٣١) لفكتور أماديوس الثانى في ذكرى تحرير تورين من احتلال الفرنسيين باسليقا جميلة بطراز الأروقة والقباب الكلاسيكى إستخدمت مقبرة للأسرة سافوى الملكية قرناً من الزمان . ثم أضاف إلى قصر ماداما العتيق (١٧١٨) سلماً فخماً وواجهة ضخمة ، وفي ١٧٢٩ صمم قلعة ستوبينجى الهائلة (التى أكملها بنديتو ألفييري) والى أبرزها الرئيسى كل فخامة الباروك الحالية . وظلت تورين عاصمة لأدواق سافوى حتى أنتقلوا بعد نصرهم النهائى (١٨٦٠ وما بعدها) إلى روما ليتربعوا على عرش إيطاليا الموحدة .

أما ميلان التى طالما خنقتها السيطرة الاسبانية فقد بعثت من جديد تحت

الحكم التساوى الأكثر رفقا . ففي ١٧٠٣ أنشأ فرانتزيفن ، وفي ١٧٤٦ و ١٧٥٥ أستكمل فيليتشى وروكليريتشى بمعونه الحكومة ، مصانع للنسيج وسعت من إحلال الإنتاج الواسع النطاق الذى يموله ويديره رأس المال عمل الحرف والنقابات الحرفية . أما التاريخ الثقافى لميلان فقد لمع فيه الآن أسم جوفانى باتيستا سامارتينى ، الذى نستطيع إلى الآن الاستماع إليه أحيانا على أمواج الأثير المتدفقة . ويلاحظ أنه فى سمفونياته وصوناتاته إستبدل بوقار موسيقى كبار الموسيقيين الإلمان الكونترابنطى تفاعلا ديناميكيا بين الموضوعات والحالات النفسية المتعارضة . وحين وفد التى جلوك على ميلان (١٧٣٧) ليشغل وظيفة موسيقى الحجرة للأمير فرانتشسكوملتسى ، أصبح تلميذ سامارتينى وصديقه واتخذ طريقه فى بناء هيكل الأوبرا . ون ١٧٧٠ صاح المؤلف الموسيقى البوهيمى يوزف مزلفتشك ، وهو يصنع مع موتسارت الشاب إلى بعض سمفونيات سمارتينى فى ميلان « لقد وجدت الألب الذى أنجب أسلوب هايدن ! » (٢٧) - وهو إذن أحد آباء السمفونية الحديثة .

وأما جنوة فقد كابدت خطوبا فى القرن الثامن عشر . كانت تجارتها قد انحطت إثر منافسة المحيطات للبحر المتوسط ، ولكن موقعها الاستراتيجى على ربوة دفاعية تطل على ثغر حسن الاعداد لفت الانتباه الخطر من الدول المجاورة . ووقعت الحكومة المحصورة بين أعداء من الخارج وشعب غضوب جاهل من الداخل فى أيدي أسر تجارية قديمة تحكم عن طريق مجلس مغلق ودوج مطيع . هذه الأوجركية العاملة على تخليد نفسها فى كراسى الحكم أثقلت كاهل الشعب بالضرائب حتى هوى إلى درك الفقر الكئيب الفاقه الصبر ، وسيطر عليها وابتزها هى الأخرى بنك سان جورجو . فلما حاصرت قوات سافوى والنمسا المتحالفة جنوه فى ١٧٤٦ لم تجرؤ الحكومة على تسليح الشعب ليقاوم خشية أن يقتل الحكام ، وآثرت أن تفتح أبوابها للمحاصرين الذين فرضوا تعويضات وفديات جرت عليها الخراب المالى . أما العامة الذين فضلوا المستغنيين من بنى جلدتهم ، فقد ثاروا على الحامية

النمساوية ، وقذفوها بوابل من البسلاط والطوب إنزعه من الأسطح والشوارع ، وطردها طردا مخزيا ثم عاود الطغيان القديم سيرته الأولى .

وشيد نبلاء جنوه القصور الجديدة مثل قصر فيراري ، وشاركت ميلان في رعاية مصور بلغ شهرة من المرتبة الثانية في عصرنا هذا . فتكاد كل صورة باقية من الصور التي رسمها الساندرو ماناسكو تروعا باصالة أسلوبها القائمة . فصورة « بنكينيلو يعزف على القيثارة » — جسد مستطيل في بقع مهمة سوداء وبنية ، واللوحة الرشيقة المسماة « فتاة وموسيقي أمام المدفأة »^(٢٩) ، ولوحة « الحلاق »^(٣٠) تبدو عليه اللهفة على قطع حلقوم زبونه ، ولوحة « حجرة طعام الرهبان » الضخمة الشاهدة على ازدهار مطبخ الكنيسة ، هذه كلها روائع فنية تذكرنا بالحريكو في أجسادها النحيلة وحيلها الضوئية ، وترهص بجويا في فضحها الرهيب لقساوات الحياة ، وتنزع إلى الحدائث في احتقارها الخشن للتفاصيل المتكلفة المترتبة .

وشهدت فورنسة في هذا للعصر نهاية أسرة من أشهر أسر التاريخ . فقد كان حكم كوزيمو الثالث (١٦٧٠ — ١٧٢٣) الذي طال أمده أرشيدوقا لتسكانيا نكبة على شعب مازال فخورا بذكريات عظمة فلورنسة تحت حكم آل مديتشى الأسبقين . وقد سمح كوزيمو هذا الذي تسلط اللاهوت على تفكيره للاكليروس بأن يحكموه ويبتزوا من موارده الهزيلة منحا سخية للكنيسة . وكان من أثر الحكم المستبد ، والإدارة العاجزة ، والضرائب الباهظة أن فقدت الحكومة التأييد الشعبي الذي حظيت به الأسرة المالكة طوال مائتين وخمسين عاما .

وآثر فرديناند بن كوزيمو الأكبر الغواني على رجال حاشيته . ودمر صحته بالافراط في اللذات ، ومات أبتر لا عقب له في ١٧١٣ . وكان لكوزيمو ابن كان يدعى جان (يوحنا) جاستوني أولع بالكتب ، ودرس التاريخ والنبات ، وعاش حياة هادئة . وفي ١٦٩٧ أكرمه أبوه على الزواج من آن أميرة ساكس لاونبرج . وكانت أرملة فقيرة الثقافة . وذهب جان ليعيش معها في قرية بوهيمية نائية ، واحتمل الملل عاما ،

ثم تعزى بالخيانة الزوجية في براغ . فلما ساءت صحة فرديناند ، استدعى كوزيمو جان إلى فلورنسا ، ولما مات فرديناند أعلن جان وريثا لتاج الارشيدوقية . ورفضت زوجة جان أن تعيش في إيطاليا . وخشى كوزيمو أن ينقرض بيت مدينتشى ، فامتنع مجلس الشيوخ الفلورنسى بأن يصدر قراراً يقضى عند موت جان جاستونى دون عقب بأن يؤول العرش إلى شقيقة جان المدعوة آنا ماريا لودوفيكيا .

وحامت الدول الأوربية في لفظة حول الأسرة المحتضرة . ففي ١٧١٨ رفضت النمسا وفرنسا وإنجلترا وهولنده الاعتراف بترتيب كوزيمو ، وأعلنت أنه يجب عند وفاة جان أن تعطى تسكانيا وبارما لدون كارلوس الابن الأكبر لاليزابث فارنيزى ملكة أسبانيا . واحتج كوزيمو ، وأعاد تنظيم دفاعات لجهورن وفلورنسة الحربية ولكن متأخراً . وخلف موته لإبنة دولة أنهكها الفقر وعرشاً مزعزع الأركان .

وكان جان جاستونى الآن (١٧٣٢) في عامة الثانى والخمسين . فجهاد ليصلح مساوىء الإدارة والاقتصاد ، وطرده الحواسيس والمتملقين الأذلاء الذين أثروا في عهد أبيه وخفض الضرائب وأعاد المنفيين ، وأفرج عن السجناء السياسيين ، وعاون على إحياء الصناعة والتجارة ورد الحياة فلورنسة الاجتماعية الأمان والمرح . وبفضل اثناء كوزيمو الثانى وجان جاستونى لقاعة الأوفيتسى للفنون ، وازدهار الموسيقى تحت قيادة كمان فرانسشكو فيراتشيني ، والمراقص التنكرية ، ومواكب العربات المزخرفة ، ومعارك الحلوى والأزهار الشعبية - بفضل هذا كله أصبحت فلورنسة تنافس البندقية وروما في جذب الزوار الأجانب ، مثال ذلك أنه اجتمع فيها حوالى عام ١٧٤٠ الليدى مارى ورتلى مونتاجو ، وهوراس ولبول ، وتوماس جراى حول الليدى هنرييتا بومفريت في قصر ريدولفو . إن في المجتمع المحتضر شيئاً يجذب اليه الناس جذباً حزيناً .

ولما أضنت جان جاستونى جهوده ، أحال في ١٧٣١ تبعات الحكم إلى وزارته وانزلق إلى هوة اللذات الحسية . وجردت أسبانيا جيشاً عده

ثلاثون ألف مقاتل لتضمن الخلافة لدون كارلوس ، وأرسل شارل السادس النمساوي خمسين ألف جندي يرافقوا ابنته ماريا تريزا في طريقها إلى عرش الأرشيدوقية . وأمكن تفادي الحرب باتفاق (١٧٣٦) أبرم بين النمسا وفرنسا وإنجلترا وهولندا . يقضى بأن يأخذ كارلوس نابلي ، وأن تأخذ ماريا وزوجها فرانسوا اللوزيني — وتسكانيا . وفي ٩ يوليو ١٧٣٧ قضى آخر المديتشيين نجبة وأصبحت تسكانيا تابعة للنمسا واردة هرت ناورنسة من جديد .

٥ . ملكة الاثريانيك

بين ميلان والبندقية استرخت بعض المدن الصغرى . فبرجامو اضطرت إلى أن تقنع في نصف القرن الذي نحن بصدده بمصورين مثل جيسلاندي ، وبمؤلفين موسيقيين مثل لوكاتيللي . وقدمت فيرونا الأوبرات في مسرحها الروماني ، وكانت محظوظة برجل مرموق هو المركيز فرانشسكو سكيوني دي مافي . وقد قلده فواتير مسرحيته الشعرية (ميروبي) (١٧١٣) وأهداه في كرم مسرحيته (ميروبي) باعتباره « أول كاتب أوتي من الشجاعة والعبقرية ما أعانه على المغامرة بكتابة مأساة تخلوا من الغزل ، مأساة جديرة بأنينا في عزها ، حيث تكون محبة الأم هي قوام المؤامرة كلها ، وينبعث أرق ضروب التشويق من أطهر الفضائل ^(٣٢) » . وهناك عمل آخر لمافي أبرز حتى من مسرحية تلك وهو « فيرونا المصورة » (١٧٣١ - ٣٢) وهو كتاب بدأ تحديد خطى علم الآثار . واعتزت مدينته به فأقامت له تمثالا في حياته . وكانت فثشتاسا بمبانيا التي شيدها بلاديو كعبة يحج إليها المعماريون الذين يحبون الطراز الكلاسيكي . أما بادوا فكان بها جامعة اشتهرت بكايي الحقوق والطب ولمع فيها جوزيبي تاريني . الذي اعترف به الجميع (علما جمعيا) إماما لعازفي الفيولينه الأوربيين ، ومن الذي لم يستمع إلى موسيقى تاريني : « رعدة الشيطان » ؟

هذه المدن كلها كانت جزءا من جمهورية البندقية . وكذلك كانت تريفيزو وهرينولي ، وفلترى ، وباسانو ، وأوديني ، وبلونو ، وترنتو . وبولسانو

فى الشمال ، واستريا فى الشرق ، وفى الجنوب امتدت دولة فينيثسيا محترقة كيودجا وروفيجو إلى نهر بو ، وملكت عبر الأديرياتيك كتارو وبريفيتسا وأجزاء أخرى مما يقع اليوم فى يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانت تملك فى الأديرياتيك جزائر كورفو وكفالونيا وزنطه . وسكن هذا الملك المعقد نحو ثلاثة ملايين من الأنفس كل منها يعد نفسه مركز العالم .

١ - الحياة الفينيتسية

أما مدينة البندقية (فينيتسيا) ذاتها عاصمة الجمهورية ، فكانت تضم ١٣٧,٠٠٠ - نسمة . وكانت الآن فى فترة اضمحلال سياسى واقتصادى ، بعد أن استولى الترك على امبراطوريتها الأيحية ، وانزعت دول الأطلنطى الكثير من تجارتها الخارجية . وكان فشل الحروب الصليبية ، وإعراض الحكومات الأوربية بعد انتصارها فى ليبانتو (١٥٧١) عن تقديم المعونة للبندقية فى الدفاع عن مخافر العالم المسيحى الأمامية فى الشرق ، ولهفة تلك الحكومات على أن تقبل من تركيا امتيازات تجارية ضنت بها على أشجع أعدائها (٣٣) - هذه التطورات كلها كانت قد خلفت البندقية فى حال من الضعف أعجزها عن الاحتفاظ بها أيام النهضة ، ومن ثم قررت أن ترعى بيتها هى - فتمنح ممتلكاتها الإيطالية والادرياتية حكومة صارمة فى القانون ، والرقابة السياسية ، والإشراف الشخصى ، ولكنها كفاء فى الإدارة ، منساحة فى الدين والأخلاق ، متحررة فى التجارة الداخلية .

وكانت تحكمها أوجركية شأن غيرها من جمهوريات أوزيا فى القرن الثامن عشر . وفى هذا الحليط من حطام السلالات المختلفة - انطونين وشيلوكيين وعطيليين ، وبين جاهير لم تصب من التعليم خطأ يذكر ، بطيئة التفكير سريعة الحركة ، تؤثر اللذة على السلطة ، كان معنى الديمقراطية - لو استقرت فيها - هو الفوضى المتوجة . ومن ثم قصر الحق فى عضوية المجلس الأعلى على نحو ستائة أسرة تضمها « الكتاب الذهبى » ولكن هذه الارستقراطية الوطنية أضيفت لها إضافات حكيمه من صفوف التجار ورجال المال وإن كانوا من دم غريب . وكان المجلس الأعلى يختار السناتو ، الذى

كان يختار مجلس العشرة القوى النفوذ . وكان جيش من الجواسيس ينتقل في صمت بين المواطنين ويبلغ القضاء بأي تصرف أو كلام مريب يصدر من أي بندقي -- حتى من الدوج نفسه . وكان الأدواج الآن عادة حكاماً صوريين وظيفتهم استقطاب الوطنية وتزيين الدبلوماسية .

وكان الاقتصاد يخوض معركة خاسرة ضد المنافسة الأجنبية ورسوم الاستيراد وقيود النقابات الحرفية . ولم تتوسع صناعة البندقية لتبلغ مرحلة المشروعات الحرة والتجارة الحرة والإدارة الرأسمالية ، بل قنعت بشهرة حرفها . ولم يبق في صناعة الصوف التي كانت تشغل ألفاً وخمسمائة عامل في عام ١٧٠٠ غير ستمائة في نهاية القرن . واضمحلت صناعة الحرير في الفترة ذاتها فلم يبق فيها غير ألف واحد بعد أن حفلت بأثنى عشر ألفاً^(٣٤) . وقاوم صناع زجاج مورانو كل تغيير في الطرق التي أذاعت في الماضي شهرتهم في طول أوروبا وعرضها ، وتسربت أسرارهم إلى فلورنسة وفرنسا وبوهيميا وإنجلترا ، واستجاب منافسهم لما طرأ من تقدم على الكيمياء ، وللتجارب التي أجريت في الصناعة ، وهكذا ولى زمان المورانو . وبالمثل استسلمت صناعة الدنتلا لمنافسيها وراء الألب ، فلم يحل عام ١٧٥٠ حتى كان البنادقة أنفسهم يلبسون المخمرات الفرنسية . وازدهرت صناعتان : مصائد الأسماك التي استخلصت ثلاثين ألف رجل ، واستيراد العبيد وبيعهم .

ولم يسمح للدين بالتدخل في أرباح التجارة أو لذات الحياة . ونظمت الدولة جميع المسائل المتعلقة بملكيات الكنيسة وبجرائم رجال الدين . وكان اليسوعيون قد أعيدوا في ١٦٥٧ بعد طردهم في ١٦٠٦ ، ولكن بشروط حددت من نفوذهم في التعليم والسياسة . ووجدت تعاليم فولتير وروسو وهلفتيوس وديدرو طريقها إلى صالونات البندقية ولو بطريق الزوار رغم أن الحكومة حظرت استيراد مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين ، ودأبت الأرستقراطية في البندقية كنظيرتها في فرنسا الأفكار التي استنزفت قوتها^(٣٥) . وقبل الناس الدين على أنه عادة لاشعورية تقريباً من عادات الشعائر والإيمان ، ولكنهم كانوا يلهون أكثر مما يصلون . وقد وصف مثل بندقي أخلاقيات البنادقة

بكل مافى الأبحرام من قصور ، « فى الصباح قداس صغير ، وبعد الغذاء لعبة قمار صغيرة ، وفى المساء امرأة صغيرة » (٣٦) . وذهب الشبان إلى الكنيسة لايصلوا للعداء ولكن ليدققوا النظر إلى النساء . وكان النساء برغم الغضبات الكنسية والحكومية يرتدين « الديكولتيه » الذى يكشف عن نحورهن وظهورهن (٣٧) وكانت الحرب المتصلة بين الدين والجنس تهيء للجنس أسباب النصر .

وأجازت الحكومة البغاء المنظم لإجراء واقيا لسلامة الشعب . واشتهرت غوانى البندقية بجاهن ، ودمائة طباعهن ، وفخامة لباسهن ، وبذخ مساكنهن المشرفة على القناة الكبرى . وكان عدد المعروض من هؤلاء الغوانى (cortigiane) كبيرا ، ولكنه رغم ذلك قصر على الوفاء بالطلب . وكان المقتصدون من البنادقة ، والأغراب مثل روسو ، يتجمعون معا اثنين أو ثلاثة لينفقوا على محظية (٣٨) . ولكن النساء المتزوجات انغمسن فى العلاقات الغرامية الخطرة رغم هذه التسهيلات ، ولم يكتفين بمرافقهن من « السادة الخدام » ، واختلف بعضهن إلى الكازينوات التى وفرت فيها كل أمباب للقاءات الغرامية . ووبخت الحكومة علنا عدة نساء نبيلات لسلوكهن المنحل ، وأمرت بعضهن بأن يلزمن بيوتهن ، ونفت بعضهن خارج البلاد . ولكن الطبقات الوسطى كانت أكثر تعقلا ، وكان تعاقب النسل يشغل الزوجة ويشيع حاجتها لتلقى الحب وبذله . ولم تغدق الأمهات على أطفالهن فى أى بلد آخر ما أغدقته فى البندقية من عبارات الاعزاز الحارة . ومن عباراتهن المأثورة : (ياسبع القديس مرقص ! يا بهجتى ! يا زهرة ربيعى !) .

أما الجريمة فكانت فى البندقية أقل منها فى أى بلد آخر فى إيطاليا ، فقد كبح جماح العدوان كثرة ضباط الشرطة والأمن ويقتظهم . ولكن القوم تقبلوا القمار على أنه عمل من أعمال الإنسان الطبيعية . ونظمت الحكومة يانصيبا فى ١٧١٥ . وافتتح أول ناد للقمار فى ١٦٣٨ ، وسرعان ما كثر عدد هذه الأندية العامة والخاصة التى تهرع إليها جميع الطبقات .

وكان في استطاعة مهرة المقامرين المخادعين من أمثال سكازانوفا أن يعيشوا على مكاسبهم من القمار ، في حين ينسر غيرهم مدخرات عام بأكمله في ليلة واحدة . وكان المقامرون ينحتون على مائدة القمار في حب صامت أحر من عشق الناس . أما الحكومة فكانت تنفجر بعين الرضى (حتى ١٧٧٤) ، لأنها فرضت الضرائب على أندية القمار وبلغ إيرادها السنوى منها نحو ٣٠٠,٠٠٠ جنيه (٣٩) .

وأقبل العاطلون الأغنياء من شتى الدول لينفقوا مدخراتهم أو سنى شيخوختهم وسط الاسترخاء الخلقي والمرح الطلق في الميادين والقنوات . وخفت حمى السياسة بعد أن تخلت الجمهورية عن امبراطوريتها . ولم يجر حديث الثورة هنا على أى لسان ، فقد كان لكل طبقة عاداتها وتقاليدها العاملة على الاستقرار ، واستغراقها في الواجبات التى تقبلتها ، هذا فضلا عن المسرات المتاحة لها . وكان الخدم طيعين أوفياء ، ولكنهم لا يطيقون الأهانة أو الازدراء . وكان ملاحو الجندول فقراء ، ولكنهم ملوك البحيرات ، يقفون على زوارقهم المذهبة في فخر وثقة بمهارتهم الموروثة عن الأسلاف ، أو يدورون حول المنحنيات وهم يصيحون صيحات قوية غريبة أو يدندنون بأغنية تصاحب تمايل أجسادهم ، وإيقاع مجاديفهم .

واختلطت الجنسيات المختلفة الكثيرة في الميادين . واحتفظ كل منها بميزة من زى ولغة وتبدل ، وظلت الطبقات العليا ترتدى ما ارتدته في عز أيام النهضة ، من قمصان من أرق الكتان ، وسراويل من المخمل ، وجوارب حريرية ، وأحذية ذات مشابك ، ولكن البنادقة هم الذين أدخلوا إلى غربي أوروبا في هذا القرن لباسا تركيا هو السراويل الطويلة (البنطولونات) . وكانت الباروكة قد وفدت من فرنسا حوالى ١٦٦٥ . وعنى المثائقون من الشباب عناية بالغة بلباسهم وشعرهم ورائحتهم حتى لقد صعب تمييز جنسهم؛ أما النساء العصريات فقد رفعن فوق رؤوسهن أبراجا عجبية من الشعر المستعار أو الطبيعى . وكان الرجال والنساء جميعا يشعرون كأنهم عراة إذا لم يتحلوا بالجواهر والحلى . وكانت المراوح تحفا فنية ، ترسم في تألق ،

وكثيرا ما كانت تغشى بالأحجار الكريمة أو تحوى منظارا لعين واحسدة
(مونوكل) .

وكان لكل طبقة أنديةها ، ولكل شارع مقهاه ، يقول جولدوني
« فى ايطاليا نناول عشرة أقداح من القهوة كل يوم » ^(٤٠) وازدهرت كل
ضروب الملاهى ، من معارك الجوائز (pugni) إلى المراقص التنكرية .
وكلمة « بالوان » (balloon) مشتقة من لعبة كانت تسمى باللونى pallone
— فيها تنشط كرة منفوخة براحة اليد . وكانت رياضات الماء تتكرر
بانتظام . فمئذ ١٣١٥ كان يقام سباق regatta فى ٢٥ يناير على القناة
الكبرى ، بين زوارق تسير بخمسين مجدافا وتزين كما تزين عرباتنا فى
المعارض ، ويبلغ الاحتفال ذروته بلعبة بولو مائية ينقسم فيها مئات البنادق
إلى جماعات متصاحبة متنافسة . وكان الدوج فى عيد الصعود يمحى عباب الماء
فى أبهة من « سان ماركو » إلى الليد وعلى متن سفينة الدولة الفاخرة الزينة
المسماة « بوتشنتورو » بين مئات من السفن الأخرى يزف البندقية إلى البحر
من جديد .

واتخذت العطلات الكثيرة أسماء وذكريات القديسين والمناسبات السنوية
التاريخية ، لأن مجلس شيوخ البندقية وجد أن الخبز والسرك بديل مقبول
عن الانتخابات . فى مثل هذه المناسبات كانت المواكب البهية تنتقل من
كنيسة إلى كنيسة ومن ميدان إلى ميدان ، وكانت الأبسط الزاهية الألوان ،
وأكاليل الزهر والحرائر تتلدى من النوافذ أو الشرفات على الطريق ، وكان
هناك موسيقى سهلة ، وأغنية دينية أو غرامية ، ورقص رشيق فى الشوارع .
وألف النبلاء الذين يختارون للمناصب المرموقة أن يحتفلوا بانتصاراتهم
بالعروض ، والأقواس ، وتذكارات النصر ، والمهرجانات ، وأعمال البر
التي تكلفهم أحيانا ثلاثين ألف دوقاتية . وكان كل عرس مهرجانا ، ومأتم
الوجه من القوم أفخم حدث فى حياته .

ثم كان هناك الكرنفال --- ذلك التراث المسيحى من « ساتورناليا »
روما الوثنية . وكانت الكنيسية والدولة تأملان أنهما إذا سمحتا بأجاجة

من الأخلاق استطاعتنا التخفيف بقية العام من التوتر القائم بين الجسد والوصية السادسة . وكان الكرنفال في إيطاليا عادة لا يستغرق إلا اسبوعاً واحداً هو الأسبوع السابق للصوم الكبير ، وفي بندقية القرن الثامن عشر امتد من ٢٦ ديسمبر أو ٧ يناير إلى «الثلاثاء السمين» Mardi Gras—Martedì Grasso وربما اتخذ المهرجان اسمه من ذلك اليوم الأخير من الأيام التي يسمح فيها بأكل اللحم Carne Vale أى وداعاً للحم ، وكان البنادقة في كل ليلة تقريباً من أسابيع الشتاء تلك ، والزوار المتجمعون من طول أوروبا وعرضها — يتدفقون على الميادين ، يرتدون ملابس فاقعة الألوان ، ويخفون سنهم ورتبهم وشخصياتهم وراء الأقنعة . وفي ذلك التخفى هزأ الرجال والنساء بالقوانين، وراجت سوق البغايا ، وتطايرت قطع الحلوى ، وقذف البيض الصناعى هنا وهناك لينشر ماءه المعطر حين ينكسر . وكانت شخصيات بانتالونى ، وارلكينو ، وكولمينو ، وغيرها من الشخصيات المحببة من المسرح الكوميدي تبختر وتثرثر لتسلى الجمع المحتشد ، ورقصت الدى ، وبهر السائرون على الحبال مئات الأنفاس . وكانت تجلب الحيوانات الغريبة لهذه المناسبة ، كوحيد القرن الذى شوهد لأول مرة بالبندقية في مهرجانات ١٧٥١ وفى منتصف الليلة السابقة لأربعاء الرماد (Mercoledì della Conoi) تدق أجراس كنيسة القديس مرقس الضخمة مؤذنة بانتهاء الكرنفال، هنا يعود المعربد المنهك إلى فراشه الحلال ، وبعد نفسه للاستماع إلى القسيس يقول له فى الغد: «Memento, homo, quia pulvis es et in pulvcrem redieris» تذكر يا ابن آدم أنك تراب وإلى التراب تعود .

٢ — فيفالدى

كانت البندقية ونابلى مركزى الموسيقى المتنافسين في إيطاليا . فاستمعت البندقية في مسارحها إلى ألف ومائتى أوبرا مختلفة في القرن الثامن عشر . هناك خاضت أشهر كواكب الغناء في ذلك العصر ، فرانشسكا كوتزونى

وفلورستينا بوردونى ، معاركهما المشجعة فى سبيل التفوق ، وكانت كل منهما تهر العالم من خشبة المسرح . فأمل كوتزونى فكانت تغنى أمام فارينالى فى مسرح ، وأما بوردونى فأمام برناكى فى مسرح آخر ، وانقسمت البندقية بأسرها بين المعجبين بهؤلاء المغنين . ولوقد غنى أربعتهم معاً للذات ملكة الأدرياتيكي طرباً فى بحيراتها .

ومقابل قلاع الأوبرا والبهجة هذه قامت الملاجىء الأربعة ospedali التى رعت فيها البندقية بعض فتياتها اليتيمات أو غير الشرعيات . ورغبة فى شغل هؤلاء الأطفال المشرذات واضفاء المغزى على حياتهن كن يدربن على الموسيقى الصوتية والآلية ، وعلى الغناء فى فرق الانشاد ، وأحياء الحفلات الموسيقية العامة من خلف حواجز ذات قضبان كحواجز الأديرة . وقد قال روسو انه لم يسمع فى حياته شيئاً أثر فيه كأصواتهن الرقيقة وهن يغنين فى إيقاع مدرّب^(٤١) ، وذكر جوته أنه لم يسمع قط سوبرانو بهذا الانتقان ، أو موسيقى « لها هذا الجمال الذى لا يوصف »^(٤٢) . وكان يعلم فى هذه المعاهد نفر من أعظم الملحنين الايطاليين ويؤلفون لها الموسيقى ، ويفودون حفلاتها ، أمثال مونتيفردى ، وكافالى ، ولوتى ، وجالوبى ، ويوربورا ، وفيقالدى . . .

واتجهت البندقية إلى مدن إيطاليا ، وأحياناً النمسا وألمانيا ، لتزود مسارحها بالأوبرات وتمد ملاجئها وأوركستراتها وعازفيها المهرة بالموسيقى للصوتية والآلية . وكانت هى ذاتها الأم أو الحاضنة لانطونيو لوتى ، عازف الأرغن ثم رئيس فرقة المزلن فى كنيسة القديس مرقص ، ومؤلف أوبرات غير ذات بال ، ولكنه أيضاً ملحن قداس ذرفت له عينا بيرنى البروتستنتى ، ولبلدا سارى جالوبى الذى اشتهر بأوبراته الهائلة وبهاء الحانه الأوبرالية ورقتها ، ولألساندرو مارتشيللو الذى تتبوا كونه نشراته مقاماً عالياً فى مؤلفات عصره الموسيقية ، ولأخيه الأصغر بنديتو الذى قيل عن تلحينه لخمسين مزموراً أنه « من أبدع المؤلفات الموسيقية قاطبة »^(٤٣) ولا نطونيو فيفالدى .

ولقد كان استماع بعضنا لكونشرتو من تأليف فيفالدى أول مرة مفاجأة أشعرتنا بالحزى . فلم جهلناه طوال هذا الزمن ؟ هنا انسياب جليل للنغم ، وتموجات ضاحكة من اللحن ، ووحدة فى البناء ، وتماسك الأجزاء كان خليقا بأن يكسب هذا الرجل مدخلا أسبق من هذا إلى علمنا ، ومكاناً أرفع فى تواريجنا الموسيقية (*) .

ولد حوالى ١٦٧٨ لعازف فيولينة فى أوركسترا مصلى الدوجات بكندراية القديس مرقص . وعلمه أبوه الفيولينه ؛ وحصل له على وظيفة فى الأوركسترا . وفى الخامسة عشرة كرس تكريسا مبدئياً للدين ، وفى الخامسة والمشرين أصبح قسيساً ولقب « البريتى روسو » لحمة شعره . ولعل ولعه بالموسيقى تعارض مع واجباته الكهنوتية . وقال الأعداء إنه « ذات يوم بينما كان فيفالدى يتلو القداس ، خطر له موضوع يصلح لفوجه ، ولتو غادر المذبح . . . وذهب إلى غرفة المقدسات والملابس ليدون الموضوع ، ثم عاد ليكمل القداس^(٤٤) » . وأهمه قاصد بابوى بأنه يحتفظ بعدة نساء ، وأخيراً نهاء ديوان التفتيش (كما زعموا) عن تلاوة القداس . وقد روى انطونيوى فى سنوات لاحقة قصة تختلف عن هذه تمام الاختلاف . وقال :

« كانت آخر مرة تلاوت فيها القداس منذ خمسة وعشرين عاماً ، لاسبب منعى من تلاوته . . . ولكن بناء على قرار منى اتخذته بسبب علة أرهقتنى منذ ولادتى . فبعد أن رسمت قسيساً كنت أتلو القداس عاماً أو أكثر بقليل ، ثم توقفت عن تلاوته لأن هذا المرض اضطرنى ثلاث مرات إلى مغادرة المذبح دون أن أتمه .

(*) خصصت له طبعة ١٩٢٨ من « قاموس جروف للموسيقى والموسيقين » عموداً واحداً وخصصت له طبعة ١٩٥٤ اثني عشر عموداً ، وأحكم من هذا عل اللبوع الفجائى لشهرة فيفالدى ، فهل الشهرة لزوة من نزوات الصدفة ؟

« ولهذا السبب ذاته أقضى وقى كله تقريباً فى بيتى ولا أبرحه إلا راكباً زورقاً أو عربة لأننى لم أعد قادراً على المشى بسبب حالة الصدر التى أعانيها ، أو على الأصح شعور الضيق والتوتر فى صدرى (strettza di petto) ربما كانت هى الربو) ولا يدعونى أى نبيل لبيته ، لا ولا حتى أميرنا ، لأن الجميع عليهم بمرضى ، وقد كانت أسفارى دائماً غالية النفقة جداً لأننى كنت مضطراً دائماً أن أصحب معى أثناءها أربع نساء أو خمساً ليساعدننى . » ثم أضاف أن هؤلاء النسوة كن نقيات السيرة « يسلم الناس فى كل مكان بعفتم . . وكن يؤدين الصلاة كل يوم من أيام الأسبوع ^(٤٥) » .

على أنه حتى لو شاء لما استطاع أن تغلب الحلاعة على خلقة لأن معهد الموسيقى الملحق بالملجأ الدينى احتفظ به طـوال سبعة وثلاثين عاماً عازفاً للفيولينه ومعلماً وملحناً أو رئيساً للكورس . وقد لحن لتلميذاته البنات معظم أعماله غير الأوبرالية . وتكاثر الطلاب عليه ، ومن ثم كان يكتب فى عجلة ثم يصحح فيما يتاح له من فراغ ، وقد أخبر دبروس أن فى استطاعته أن « يلحن الكونشرتو بأسرع مما يستطيع ناسخ أن ينسخه ^(٤٦) » . وبالمثل كانت أوبراته تلحن على عجل ، وقد سجلت احداها على صفحة الغلاف عبارة تشي بالفخر (أو الاعتذار) هى (Fatto in cinque giorni) كتبت فى خمسة أيام . وقد وفر الوقت كما وفره هندل بالاستعارة من نفسه ، فأقتبس من موسيقاه القديمة ما يلبي حاجاته الحاضرة .

وفى فترات فراغه من عمله فى الملجأ ألف أربعين أوبرا . واتفق كثير من معاصريه مع تارئينى على أنها متوسطة الجودة ، وقد سخر منها بنديتو مارتشيللو (تياترو على الموضة) ولكن جماهير النظارة فى البندقية ، وقتشنتسا ، ومانتوا ، وفلورنسة ، وميلان ، وفيينا ، رحبوا به ، وكثيراً ما كان فيفالدى يترك بناته ليسافر مع نسائه مخترباً شمالى إيطاليا ، بل حتى إلى فيينا وامستردام ليعزف الفيولينه أو ليقود إحدى أوبراته أو ليشراف على إخراجها وديكورها . وأوبراته الآن ميتة ، ولكن هذا مصير معظم

الأوبرات التى ألفت قبل جلوك . فقد تغيرت الأساليب والعادات والإبطال ،
والأصوات ، والجنسان .

ويعرف التاريخ ٥٥٤ من مؤلفات فيفالدى ، منها ٤٥٤ كونشرتو .
وقد قال ناقد ماكر أن فيفالدى لم يكتب ستمائة كونشرتو ، بل هو
كونشرتو واحد أعاده ستمائة مرة^(٤٧) . ويبدو الأمر كذلك أحيانا . ففى
هذه القطع قدر كبير من نشر الاوتار ونغمات الأرغن اليدوى المتصلة ،
وقياس للوقت أشبه بحركات البندول ، بل أننا نجد حتى فى السلسلة الشهيرة
المسماة (الفصول) (١٧٢٥) صحارى من الرتبة ، ولكن فيها أيضاً قما من
الحوية المشبوبة والعواصف القارسة ؛ وواحات من الصراع الدرامى بين
العزفين المنفردين والأوركسترا ؛ وجداول سائغة من الالحن . فى قطع
كهله^(٤٨) ، أبلغ فيفالدى الكونشرتو الكبير مكانة ممتازة لاسبق لها ولايزها
إلا باخ وهيندل .

وكان فيفالدى يعانى كمعظم الفنانين من الحساسية التى غدت عبقريته .
وقد عكست قوة موسيقاه طبعه النارى ، وعكست رقة نغماته تقواه . فلما
تقدم به العمر استغرق فى واجباته الدينية حتى لقد وصفته رواية مبالغة
بأنه لا يترك مسبحته لإلا يلحن^(٤٩) . وفى ١٧٤٠ فقد وظيفته فى الملجأ الدينى
أو استقال منها ، ولأسباب نجعلها الآن نزح من البندقيه إلى فينسا .
ولا نعرف المزيد عنه ؛ اللهم إلا أنه مات هناك بعد سنة ودفن كما يدفن
فقراء الناس .

ومرموته دون أن تلحظه الصحف الإيطالية ، لأن البندقية كانت
قد كفت عن الاهتمام بموسيقاه ، ولم يقدره أحد قدرا يقرب من قمة فنه
لا فى وطنه ولا فى جيله . على أن مؤلفاته لقيت الترحيب فى المانىسا .
فاستورد كوانتسى الذى كان عازفا للفلوت وملحنا لفرديريك الأكبر ،
كونشترات فيفالدى ؛ وقبلها بصراحة نماذج تحتذى . وأشدت أعجاب باخ
بها حتى نقل تسعه منها على الأقل للهاربسكورد ، وأربعة للأرغن ، وواحدا

لأربعة هاريسكوردات ومجموعة وثريات^(٥١) . وواضح أن باخ أخذ عن فيفالدى وكوريللى البناء الثلاثى لكونشرتاته .

وكاد فيفالدى أن يكون نسبياً منسيا طوال القرن التاسع عشر إلا من الدارسين الذين تتبعوا تطور باخ . ثم رده إلى مكان مرموق فى ١٩٠٥ أنرولد شيرنج فى كتابه « تاريخ الكونسيرتات الآلالية » ؛ وفى عشرينات القرن العشرين دافع أرتورو توسكانينى عن قضية فيفالدى بكل عواطفه ومكانته . واليوم يحتل « القسيس الأحمر » مؤقنا أرفع مكان بين الملحنين الإيطاليين فى القرن الثامن عشر .

٣ - ذكريات

من صيف الفن البندقى المؤذن بالأفول يبرز نحو اثنى عشر مصوراً ويلتمسون أن نذكرهم . ونكتفى هنا بتحيةة نقرأها حبا مبهتسا بيتونى ؛ الذى لم ترفع البندقية فوقه غير تيبولو وبياتسيتا ؛ ويأكوبو آميجونى الذى أورث بوشيه أسلوبه الشهوانى ؛ وجوفانى أنطونيو بالمجرينى ، الذى حمل ألوانه إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وهو الذى زين قلعة كمبولتز وقلعة هوارد ، وبنك فرنسا . وألفت للنظر من هؤلاء ماركو ريتشى لأنه قتل أحد النقاد ثم انتحر . وفى عام ١٦٩٩ ، حين كان فى الثالثة والعشرين ، طعن ملاح جندول لاستخف بصوره طعنات قضت عليه ، ثم فرالى دلماشيا ، وأغرم بمشاهدها الطبيعية ، وبلغ من حذقه فى التقاطها بالوانه أن غفرت له البندقية جريمته وهلت له كأنه تنتوريتو مبعوثاً من جديد . وصحبه عمه سبستيانو ريتشى إلى لندن ، حيث تعاونوا على تصوير مقبرة دوق ويفونشير . وكان كثيرين جداً من فنانى القرنين السابع عشر والثامن عشر يحب أن يرسم الأطلال الحقيقية أو الخيالية ولا ينسى فى ذلك نفسه . وفى ١٧٢٩ ، وبعد عدة محاولات ، أفلح فى الانتحار . وفى ١٧٣٣ بيعت إحدى لوحاته بخمسمائة دولار ؛ وفى ١٩٦٣ بيعت من جديد بتسعين ألف دولار^(٥١) ، وهو مايبين مبلغ تقدير قيمة الفن وهبوط قيمة النقود .

وتأمل شخصية روزاليا كارييرا أدعى إلى السرور . فقد بدأت حياتها العملية برسم نماذج للمخمرات الفينيسيه Point de venise ؛ ثم رسمت علب السعوط (كما فعل رينوار الصغير) ثم المنمنمات ، وأخيراً وجدت في الوان الباستيل قمة تفوقها . ولم يحل عام ١٧٠٩ حتى كانت قد أكتسبت من الشهرة ما جعل فرديريك الرابع ملك الدنمرك يدعواها حين أعتلى العرش ليختارها لترسم له لوحات بالباستيل تمثل أجمل سيدات البندقية أو أبعدهن صيتاً . وفي ١٧٢٠ دعاها إلى باريس بيير كروزا جامع التحف المليونير . وهناك لقيت من الترحيب والحفاوة ما لم يلقه فنان أجنبي آخر منذ برتني . وكتب الشعراء فيها الصونينات ؛ وزارها الوصى فليب أورليان ، وصورها فاتو ، وصورته هي ، وجلس إليها لويس الخامس عشر لتصوره ؛ وانتخبت عضواً في أكاديمية التصوير ؛ وقدمت لوحة الديلوم «ربة الفنون» المعروضة في اللوفر . وبدأ للناس كأن روح الروكوك قد تجسدت فيها .

وفي ١٧٣٠ ذهبت إلى فيينا ؛ حيث رسمت صوراً بالباستيل لشارل السادس ؛ وإمبراطورته ، والأرشيدوقة ماريا تريزا . فلما عادت إلى البندقية أستغرقت في فنها أستغراقاً إنساها أن تزوج . وفي أكاديمية البندقية ملء حجرة من اللوحات التي رسمتها ، وفي قاعة الفنون يدرسون ١٥٧ ، معظمها يتميز بالوجوه الوردية ، والخلفيات الزرقاء ، والبراءة المشرقة ، ورقة الوجوه ذات الغمازات ؛ بل أنها حين رسمت هوراس وليول (٥٢) ، جعلته يبدو كأنه فتاة . وكانت ترضى غرور كل من يجلس إليها لتصوره إلا نفسها ، وصورتها الذاتية المعلقة في قلعة ونذر تظهرها في سننها الأخيرة وقد أبيض شعرها وشابها شيء من الاكتئاب كأنها تتوقع أن يكف بصرها بعد قليل . وقد اضطرت طوال الأعوام الأثني عشر الأخيرة من عمرها البالغ أثني وثمانين عاماً أن تعيش محرومة من النور واللون اللذين كانا لها بمثابة رحيق الحياة . وقد تركت بصمتها على فن جيلها : ولعل لا تور قد أستلهم الحرارة منها ، وتذكر جروز تمثيلها لشباب النساء في صورة مثالية ؛ وانحدرت ألوانها الوردية — الحياة بلون الورد — إلى بوشيه ورينوار .

أما جوفاني باتستا بياتسيتا فكان فنانا أعظم يسمو فوق العواطف الهشة ويحتقر الزخرف ولا يسعى وراء ارضاء الجمهور بقدر سعيه إلى تدليل صعاب صناعته والتمسك بأرفع تقاليدھا . وتبين زملاءه الفنانون هذه النزعة فيه ، ومع أن تيبولو كان له فضل السبق في تأسيس أكاديمية البندقية للتصوير والنحت (١٧٥٠) ، فإن بياتسيتا هو الذى اختاروه أول رئيس لها . ولوحته المسماة « رفقة عند البئر » ^(٥٣) جديرة بتتسيانو ، وهى أقل حتى من تتسيانو اكترانا بمفاهيم الجمال المتعارف عليها . واللوحة تكشف من جسد رفقة قدرا يكفى لاثارة غريزة المتوحش ، ولكن وجهها الهولندي وأنفها الأفطس لم يصورا لينتشى بهما الايطاليون . فالذى يثير عواطفنا هنا هو الرجل ، إنه شخصية جديرة بفن النهضة : وجه قوى ، ولحية ملمعة وقبعة ذات ريش وومضة إغراء ماكر فى عينيه . واللوحة كلها آية من آيات اللون والنسيج والتصميم ، وقد تميز بياتسيتا بأنه كان أكثر المصورين البنادقة احتراما فى جيله ، وأنه مات أفقرهم جميعا .

وأشهر منه انطونيو كانالى ، الملقب كاناليتو ، لأن نصف العالم يعرف البندقية بفضل مناظره vedute . أما انجلترا فعرفته دما ولحما . وقد نهج حينما نهج أبيه الذى امتن رسم المناظر للمسارح ، ثم درس العمارة فى روما ، فلما عاد إلى البندقية طبق الفرجار والزاوية على رسمه ، وجعل العمارة ملمحا من ملامح صوره . وفى هذه الصور عرفنا ملكة الادرياتيک كما كانت تبدو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ونلاحظ من لوحة باتشينودى سان ماركو Baccino بحيرة القديس مرقص ^(٥٤) مبلغ ازدحام البحيرة الكبرى بالمراكب ، ونبصر سباق الزوارق Regatta على القناة الكبرى ^(٥٥) ونرى أن الحياة كانت زاحرة مشبوبة شأنها من قبل دائما ، ويهيجنا أن نجد « جسر الريالتو » ^(٥٦) وميدان القديس مرقص ^(٥٧) والميدان الصغير ^(٥٨) وقصر الادواج ^(٥٩) وكنيسة ساننا ماريا ديللا سالوتا ^(٦٠) كما نجدھا اليوم تقريبا ، إذا استثنينا البرج الذى أعيد بناؤه . وصور كهذه هى التى احتاج إليها السياح فى الشمال الملبد بالغيوم ليذكروا فى عرفان شمس البندقية الشديدة

الصفاء وسحرها الفتان . وقد اشترى هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم ، وسرعان ما طالبت إنجلترا بكاناليتو نفسه ، فذهب إليها في ١٧٤٦ ورسم مناظر مستفيضة لها يتحول^(٦١) ، « ونهر التيمز من قصر رتشموند » ، واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هي تحفة كاناليتو الرائعة . ولم يعد إلى البندقية إلا في ١٧٥٥ . وظل هناك عاكفا بهمة على عمله حتى عام ١٧٦٦ حين كان قد بلغ التاسعة والستين . وقد كتب بفخر على لوحته داخل كتدرائية القديس مرقص هذه العبارة « رسمت بدون منظار » .^(٦٢) وقد أسلم أساوبه في القياس الدقيق إلى ابن أخيه برناردو بللوتو كاناليتو ، وولعه بالمناظر إلى « تلميذه الطيب » فرانيسكو جواردي الذي سلتقى به ثانية .

وكما ابرز كاناليتو المنظر الخارجي للمدينة الفخمة ، كشف بييترو لنجي عن الحياة داخل جدرانها باستخدامه أسلوب تصوير مناظر الحياة اليومية في رسم الطبقة الوسطى . فالسيدة التي تتناول فطورها في ثوبها الفضفاض الطويل ، والأب الراهب يعلم ابنها ، وابنتها الصغيرة تدلل كلبا لعبة ، والخياط يعرض فستانا ، ومعلم الرقص يدرب السيدة على خطوات المنويت ، والأطفال وعيونهم تحملق في معرض للوحوش ، والصبايا يمرحن في لعبة « الاستغاية » (الغميضة) ، والتجار في حوانيتهم ، والمتنكرون بالأقنعة في الكرنفال ، والمسارح ، والمقاهي ، « والجمعيات » الأدبية ، والشعراء يتلون أشعارهم ، ودجاجة الطب ، وقارئات البخت ، وباعة السجق والبرقوق ، والتمشي في الميدان ، وفريق القنص ، وجماعة صيد السمك ، والأسرة في عطلتها : كل نشاط بورجوازي يستحق الذكر هناك ، وفي إفاضة ، تفوق حتى ما في كوميديات جولدونى ، صديق لوني . إنه ليس فنا عظيما ، ولكنه فن يشرح الصدر ، ويرينا مجتمعاً أكثر نظاماً وتهذيباً مما كنا نتصوره من أرستقراطى أندية القمار أو أعمال شحن السفن وتفرغها الشتامين السبابين .

٤ — تيبولو

أما البندقى الذى أوهم أوربا لحظة أن النهضة قد عادت فهو جامباتستا تيبولو . ومن المشاهد المألوفة فى أى يوم من أيام الصيف أن ترى موكبا من الطلاب والسياح يدخلون مسكن أسقف فورسبورج ليرى بيت السلم والسقف اللذين رسم تيبولو صورهما الجصية فى ١٧٥٠ — ٥٣ ، هذه الصور هى قمة التصوير الإيطالى فى القرن الثامن عشر . أو تأمل لوحة « الثالث يظهر للقديس كلمنت » فى متحف الفن القومى بلندن ، ولاحظ تكوينها البارع ، ورسمها الدقيق ، وتناولها الحاذق للضوء ، وعمق لونها وتوجهه ، أليس هذا قريبا لفن تنسيانو ؟ ربما ، ولولا أن تيبولو قد طوف كثيرا لكان واحداً من عمالقة التصوير .

أو لعل ثراءه هو الذى عوقه . ذلك أنه كان آخر طفل لتاجر بندقى غنى خلف ثروة كبيرة عند وفاته . ومالبث جان ، الذى كان وسيما ذكيا مرحاً « أن اكتسب الازدراء الارستقراطى لكل ماهو شعبى »^(٦٣) . وفى ١٧١٩ حين بلغ الثالثة والعشرين تزوج تشيشيليا أخت فرانشسكو جواردى ، فولدت له أربع بنات وخمسة أولاد ، أصبح اثنان منهم مصورين وعاشوا جميعاً فى بيت أنيق فى أبرشية سانتا ترينيتا . وكانت موهبته قد تفتحت . وفى ١٧١٦ عرض لوحة « توضحية اصحق »^(٦٤) ، وهى لوحة فجة ، ولكنها قوية ، ووضح أنه كان فى تلك الحقبة متأثراً بفن بياتسيتا . وقد درس فيرونيزى أيضاً ، واتخذ أسلوب باولى فى الملابس الفخمة والألوان الدافئة والخطوط الشهوانية . وفى ١٧٢٦ دعاه رئيس أساقفة أوديني ليزين كندرائيته وقصره . واختار تيبولو مواضيعه من قصة إبراهيم ، ولكن التناول لم يكن كتابياً تماماً . فوجه سارة المنبعث من طوق مكشكش من أطواق عصر النهضة ، هو غضون وتجايعد تكشف عن سنين أثريتين ، ولكن الملاك رياضى إيطالى له ساق فاتنة . ويبدو أن تيبولو أحس أن فى استطاعته ، فى قرن بدأ يسخر من الملائكة والمعجزات ، أن يسمح لمزاجه باللهو بالتقاليد المبجلة ، وقد أتاح له رئيس الأساقفة اللطيف هذا اللهو . ولكن كان على الفنان

أن يكون حذراً ، لأن الكنيسة لم تزل يومها من أهم مصادر تمثيل المصورين في العالم الكاثوليكي .

أما المصدر الآخر فكان العلمانيون أصحاب القصور التي يراد تزيينها بالصور . وقد روى جان في قصر كازالى — دونيانى بميلان (١٧٣١) قصة سكيو بالصور الجصية . ولم تكن هذه الصور معبرة عن فن تيبولو النموذجي ، لأنه لم يكن بعد قد شكل أسلوبه المتميز ، أسلوب الأشخاص الذين يتحركون في يسر وانطلاق في حيز غير محدد ، ولكنها دلت على براعة أثارت ضجة في شمالى إيطاليا . ولم يحل عام ١٧٤٠ حتى اهتدى إلى موطن النبوغ في فنه ، وانجز ما اعتبره البعض ^(٦٥) رائعته الكبرى — وهى سقف قصر كليرنتى بميلان وهو ولائمه . واختار لهذه الرائعة مطايا لخياله أركان الأرض الأربعة « و « مسيرة الشمس » و « أبولو والآلهة الوثنية » وأسعده أن يترك عالم الأساطير المسيحية الكابى ويمرح على قعم أولمب حيث يستطيع استخدام الآلهة اليونانية الرومانية شخصاً في عالم متحرر من قوانين الحركة واغلال الجاذبية بل من قواعد الرسم الأكاديمية . لقد كان في صميمه وثيقاً كأكثر الفنانين الذين يذوب قاموسهم الأدبى في حرارة مشاعرهم ، ثم أن الجسم الجميل قد يكون نتاج روح قوية العزيمة قادرة على التشكيل ، ومن ثم يكون هو ذاته واقعاً روحياً . وراح تيبولو الآن يطلق من جعبته على مدى ثلاثين عاما أرباباً وربات رافلين في غلائل من الشاش ، عراة في غير اكتراث ، يسرحون ويمرحون في الفضاء ، أو يطارد بعضهم بعضاً بين الكواكب أو يتطارحون الغرام على وسادة من السحب .

فلما قفل إلى البندقية عاد إلى المسيحية ، وكفرت صورته الدينية - ن أساطيره الوثنية . فرسم لمدرسة سان روكو لوحة قماشية سماها « هاجر واسماعيل » يلفت النظر فيها جبال الطفل النائم . وفى كنيسة الجزواتى التى سماها الدومنيكان من جديد كنيسة « سانتا ماريا ديل روزاريو » رسم لوحة « تأسيس التسبحة » ورسم لمدرسة الرهبان الكرملين « عذراء جيل الكرمل » وكادت هذه الصورة تضارع تسيانوا « البشارة » . ورسم لكنيسة القديس فيزى ثلاث

صور ، إحداهما المسماة « المسيح حاملا الصليب » تزدهم بشخص قوي
صورت تصويراً نابضاً بالحياة . وهكذا سدد تيبولو دينه لعقيدة وطنه .

على أن خياله كان أكثر تحرراً على جدران القصور . ففي قصر بربارو رسم
« تمجيد فرانشيسكو برباو » - واللوحة الآن في متحف المتربوليتان للفنون
بنيويورك . ورسم لقصر الأدواج لوحة « نبتون يقدم لفينوس خيرات البحر » .
وقدم لقصر بابا دوبولى لقطتين مبهجتين للبندقية في الكرنفال - « المنويته »
و « المشعوذ » . ثم توج كل صور القصور التي رسمها في البندقية بزخرفة
قصر لاييا بصور جصية تحكى قصة انطونيوس وكيلوباتره في مشاهد مبهمة
نفذت تنفيذاً رائعاً . ورسم زميل له يدعى جيرولامو منجوتسى كولونا
الحلقات المعمارية في فورة من بهاء الطراز البلاديوى . فعلى جدار ترى لقاء
الحاكمين ، وعلى الجدار المقابل وليمتها ، وعلى السقف حشد جامع من
شخص طائرة تمثل بيجاسوس ، والزمن ، والجمال ، والرياح التي تثيرها
عفاريت نفاخه مرحة . وفي لوحة « اللقاء » تهبط كيلوباتره من زورقها
في ثياب تهر الأبصار ، تكشف عن صدر ناهد لثقتن حاكما مرهقا في
الحكومة الثلاثية ، حتى يسكن إليها في راحة عطرة . وفي لوحة « الوليمة »
وهي أشد تألقاً حتى من هذه تسقط كيلوباتره لؤلؤة غالية الثمن في خررها ،
ويؤخذ انطونيوس بهذا الثراء الذي لا يعبأ بشيء . وعلى شرفة يعزف
الموسيقيون قياثيرهم ليضاعفوا الخطر مرتين والمثل ثلاثا ، وهذه الرائعة التي
تذكر بفيرونيزى وتنافسه كانت إحدى الصور التي نسخها رينولدز
في ١٧٥٢ .

هذا الإنتاج الذي تميز بالأسلوب الفخم رفع تيبولو إلى قمة ترى من
وراء الألب . فاذاع الكونت فرانشيسكو الجاروتى صديق فردريك وفولتير
اسمه في أوروبا . وفي تاريخ مبكر (١٧٣٦) أبلغ الوزير السويدي في البندقية
حكومته أن تيبولو هو أصلح رجل يرسم القصر الملكي في أستوكهولم ،
« كله ذكاء وغيره » ، سهل المعاملة ، يتدفق أفكارا ، موهوب في اختيار
الألوان الساطعة ، سريع في عمله سرعة خارقة ، يرسم صورته في زمن يقل .

عما يستغرقه مصور آخر في مزج الوانه^(٦٦) . وكانت استوكهولم آنذاك مدينة جميلة ولكنها بدت بعيدة جداً .

وفي ١٧٥٠ جائته دعوة أقرب ، فقد طلب إليه كارل فليب فون جرايفنكلو أمير فورتسبرج الأسقف أن يرسم صوراً للقاعة الإمبراطورية لقصره الإداري الذي بناه مؤخراً . وأغرى الأجر المعروض بالحاح الفنان المسن . فلما وصل في ديسمبر بصحبة أبنيه دومنيكو البالغ أربعة وعشرين عاماً ولورنتسو ذي الرابعة عشرة وجد تحدياً لم يتوقعه في بهاء قاعة التصرف التي صممها بلتازار نويمان ، فأنى لأى صورة أن تخطف العين وسط ذلك الضياء الباهر ؟ وكان نجاح تيبولو هنا القمة التي توجت عمله . فقد رسم على الجدران قصة الإمبراطور فردريك بروسا (الذي كان قد ذهب في لقاء مع بياتريس أميرة برجنديا في فورتسبرج عام ١١٥٦) وعلى السقف رسم « أبولو مصطحبها العروس » ؛ هنا راح يصول ويجول في مهرجان من الخيول البيضاء والأرباب المرحين والضياء يتألق فوق ملائكة تطير وغيوم شفافة . وعلى منحدر في السقف رسم « الزفاف » : وجوه مليحة . وأجسام مهيبة ، وأغطية وأستار مزدانة بالزهر ؛ وأثواب تذكر بالبندقية أيام فيرونيزي لا بالطرز الوسيطة . وانشرح صدر الأسقف فوسع العتد ليحتوى سقف بيت السلم الكبير ونقوش مذبحين اكتدرائيته . وعلى طرقت السلم الفخم رسم تيبولو القارات وجبل أولمب — مرتع خياله السعيد — وصورة رائعة لا بوللو إله الشمس يحجب السماوات .

وقفل جامباتستا إلى البندقية (١٧٥٣) غنيا مرهقا ، وترك دمنيكوليكل المهمة في فورتسبرج . وما لبث أن انتخب رئيساً للاكاديمية . وكان فيه لطف في الطبع جعل حتى منافسيه مولعين به ، فلقبوه (تيبولو الطيب) . ولم يستطع مقاومة جميع المطالب التي تكاثرت على وقته المتضائل . فنحن نجده يرسم في البندقية ، وترفيزو ؛ وفيرونا ، وبارما ، فضلاً عن لوحة قماشية كبيرة طلبها « بلاط موسكوفيا » . وما كنا للنتظر منه في هذه الحالة أن ينتج عملاً كبيراً آخر ، ولكنه في ١٧٥٧ ، حين كان في الحادية

والستين ، أضطلع برسم صور فيلا فالمارانا قرب فيتشنتسا . ورسم منجوتسى كولونا الإطار المعمارى ووقع دومنيكو على بعض الصور فى المضيقة ، أما جامباتستا فقد نشر الوان فرشاته فى الفيلا ذاتها . واختار موضوعات من ملاحم الالياذه ، والأنياذه ، وأورلندو الغاضب ، والقدس المحررة ، وأطلق العنان لخدايعته المرحه فتاه اللون فى الضوء ، والمكان فى اللانهاية ، وترك أربابه ورباته يطفون على هواهم فى جنة سمت فسوق كل الشواغل والأزمان . وقد أخذ العجب جوته وهو يتأمل هذه الصور الحصبة فقال فى دهشة :

« غاية فى البهجة والجرأة » ، وكانت هذه آخر انتصار مثير لنيبولو فى إيطاليا .

وفى ١٧٦١ طلب إليه شارل الثالث ملك أسبانيا أن يحضر ويرسم صورا فى القصر الملكى الجديد بمدريد . وأعتذر هذا التتسيانو المتعجب بشيخوخته ؛ ولكن الملك رجا مجلس شيوخ البندقية أن يستعمل نفوذه . فانطلق على مضض مرة أخرى مع ولديه الوفيين ونموذجه كرسينا ؛ تاركا زوجته مرة أخرى لأنها كانت تحب كازينوات البندقية . وسوف نلقاه راكبا سقالة الرسم فى أسبانيا .

٥ — جولدوفى وجوتسى

يبرز فى إادب البندقية فى هذا العصر أربعة اشخاص كل اثنين منهم معا : أبوستولو تسينو وبييترو متاستازيو وكلاهما كاتب نصوص لأوبرات كانت شعرا ؛ ثم كارلو جولدوفى وكارلو جوتسى اللذان أفتتلا ليحلا عمل الكوميديا البندقية كوميديا أصبحت مأساة جولدوفى . وقد كتب جولدوفى عن الاثنين الأولين يقول :

« لقد أثر هذان المؤلفان المشهوران فى إصلاح الأوبرا الإيطالية . فقبل محبيهما لم يكن غير الأرباب والشياطين والآلات والعجائب فى هذه الملاحى المنعمة . وكان تسينو أول من فكر فى أمكان تمثيل المأساة بشعر

غنائى دون أبتدال ، وإنشادها دون أن يرهق الأنشاد السامعين . وقد أنفذ فكرته بطريقة رضى عنها الجمهور رضاء عظيما ، مما حقق له ولأمته مفخرة كبرى (٦٧) .

وحمل تسينو اصلاحاته إلى فيينا في ١٧١٨ ، ثم اعتزل راضيا ليحلى الحسو لمتاستازيو في ١٧٣٠ وعاد إلى البندقية وعشرين عاما من السلام . أما متاستازيو فقد لعب دور راسين لكورنيي تسينو كما قال جولدوني ، فاضاف الصقل إلى القوة ، وأرتفع بالشعر الأوبرالى إلى قمة لم يرتفع إليها من قبل . وقد وضعه فولتير في مصاف كبار الشعراء الفرنسيين ؛ وعده روسو الشاعر المعاصر الوحيد الذى يصل شعره إلى القلب . وأسمه الأصيل بييترو تراباسى (بيتر كروس) . وقد سمعه ناقد مسرحى يدعى جان فنتشنتو جرافينا يغنى فى الشوارع ؛ ففتناه ؛ وسماه من جديد متاستازيو (وهو المقابل اليونانى لتراباسى) . وأنفق على تعليمه : وخلف له ثروة عند مماته . وراح بييترو يبدد هذه الثروة فى غير تخرج ، ثم تعاقد مع محام فرض عليه شرطا هو ألا يقرأ أو يكتب بيتا واحدا من الشعر . ومن ثم أخذ يكتب تحت اسم مستعار .

وفى نابلى طلب إليه المبعوث النمساوى أن يكتب غنائيات لكتانتا ؛ وألف بوريور الموسيقى ، وغنت الدور الرئيسى ماريانا بولجاريللى المشهورة يومها باسم لارومانينا ، وسار كل شيء على ما يرام . ودعت المغنية الكبرى الشاعر إلى صالونها ، وهناك التقى بليو وفنتشى وبرجوليزى وفارينللى وهاشى والساندرو ودومنيكو سكارلاتى ؛ وتطور متاستازيو سريعا فى تلك الصحبة المثيرة . ووقعت لارومانينا فى غرامه وكانت فى الخامسة والثلاثين أما هو فى الثالثة والعشرين . وخلصته من شباك الحماماه واخذته رفيقا مع زوجها الكيس المتسامح ؛ وأوحت إليه بكتابة أشهر نصوصه « *Didone abbandonata* ديدونى المهجورة » التى لحنها اثنا عشر ملحنا متعاقبا بين ١٧٢٤ و ١٨٢٣ . وفى ١٧٢٦ كتب « *سيروى* » لحبيته وبنى عليها فنتشى وهاسى وهندل أوبرات مستقلة . وأصبح متاستازيو الآن أكثر كتاب النصوص رواجاً فى أوروبا .

وفى ١٧٣٠ قبل دعوة إلى فيينا وترك لارومانيا . وحاولت أن تلحق به . وخاف أن يعرضه وجودها معه للفضيحة ، فحصل على أمر بمنعها من دخول الأراضي الأمبراطورية فطعنت صدرها محاولة الانتحار ، واخفق هذا الجهد الذى بذلته لتلعب دور ديدو ، ولكنها لم تعش أكثر من أربع سنين أخرى .

وعند موتها خلفت لأبنائها الخائن كل ثروتها . ولكن متاستازيو رفض قبول التركة متأثراً بتأنيب ضميره ونزل عنها لزوجها . وكتب يقول « لم يعد لى أى أمل فى أن أوفق لى السلوى . واعتقد أن مابقى لى من عمرى سيكون حزينا لا لذة فيه » (٦٧) . وكان يستمتع بالنصر تلو النصر فى حزن حتى قطعت حرب الوراثة النمساوية عروض الأوبرا فى فيينا . وبعد ١٧٥٠ كان يكرر نفسه دون هدف . لقد استهلك الحياة قبل موته (١٧٨٢) بثلاثين عاما .

طردت الأوبرا الدراما التراجيدية من المسرح الإيطالى كما تنبأ فولتير من قبل وتركه للكوميديا . ولكن الكوميديا الإيطالية كانت تسيطر عليها الكوميديا ديلارتى --- وهى مسرحية الحديث المرتجل والأقنعة المميزة . وكانت معظم الشخصوس قد تقبلت منذ زمن طويل : بنتالونى البورجوازي الطيب ذو السراويل ، وتارتاجايا الخادم النابوليتانى المهته ، وبريجيلا الدساس الساذج الذى يقع فى شرك دسائسه ، وتروفالدينو الأكل الشهوانى اللطيف ، وأرلكنو --- ويقابله هارلكوين (المهرج) عندنا ، وبولتشنيللو --- وبقاباه عندنا بنش ، وأصافت مختلف المدن والأجيال مزيدا من الشخصوس . وترك معظم الحوار والكثير من الأحداث فى الحبكة للاختراع المرتجل . يقول كازانوفا « كان الممثل فى تلك الكوميديات المرتجلة إذا توقف لأن كلمة غابت عنه ، لم يعفه رواد مؤخرة الصالة والشرفات العليا الرخيصة من صياح السخرية والاستهجان » (٦٨) .

وكانت المسارح العاملة فى البندقية عادة سبعة ، كلها مسماه بأسماء قديسين ، ويؤمها جمهور من النظارة شائن السلوك . فكان النبلاء فى

مقاصيرهم لا يهمهم ما يلقونه على العامة تحتهم . وكانت الأحزاب المتخاصمة ترد على التصفيق بالصغير أو الثناؤب أو العطس أو السعال أو صيحات الديكة أو مواء القطط^(٦٩) . وفي باريس كان أكثر رواد المسرح من عليّة القوم ، وأرباب المهن أو المثقفين والأدباء ، أما في البندقية فكانوا أساساً من الطبقة الوسطى ، يتخللهم هنا وهناك الغواني المتبرجات ، وملاحو الجندولات البذيرن ، والقساوسة والرهبان متنكرين ، وأعضاء الشيوخ المتغطرسون في عبااتهم وباروكاتهم . وكان عسيراً أن ترضى مسرحيّة هذه العناصر كلها في مثل هذا الخليط من البشر ، ومن ثمّ نزعت الكوميديا الإيطالية إلى أن تكون مزيجاً من الهجاء والهزل الرخيص والتهريج والتوريات ، وقد أعمّج الممثلين عن التنويع والتمييز طول ما دربوا عليه من تصوير شخصيات ثابتة . هذا هو الجمهور وهذا هو المسرح الذي جاهد جولدوني في رفعه إلى مكانة الكوميديا المشروعة المتحضرة .

ويسر القارئ ما كتبه في « مذكراته » من استهلال بسيط . قال : « ولدت في البندقية في ١٧٠٧ ٠٠٠٠ جاءت بي أمي إلى العالم دون كبير ألم مما زاد حبه لي . ولم تعلن مولدى صيحات كالعادة ، وبدأ هذا اللطف آنثذ دليلاً على الخلق الهادى الذى احتفظت به دائماً منذ ذلك اليوم »^(٧٠) .

وكان هذا القول تفاخراً منه ولكنه حق ، فجردلوني من أحب الرجال في تاريخ الأدب ، وكان من بين فضائله التواضع رغم هذا الاستهلال — وهى خلة ليست في طبيعة الكتاب . ولنا أن نصدقه إذ يقول « كنت معبود الأسرة » وذهب الأب إلى روما ليدرس الطب ، ثم إلى بروجيا ليمارسه ، وتركت الأم في البندقية لتربى ثلاثة أطفال .

وكان كارلو طفلاً نابغة . استطاع أن يقرأ ويكتب في الرابعة ، وألف كوميدياً الثامنة . واقنع الأب الأم أن تسمح لكارلو بالذهاب إليه والعيش معه في بروجيا . وهناك درس الغلام على اليسوعيين ، وتفوق ، ودعى للانضمام إلى الجماعة ، ولكنه رفض . ولحقت الأم وابن آخر بالأب ،

ولكن هواء الجبل البارد في بيروجيا لم يلائمها ، فانتقلت الأسرة إلى ريميني ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلو كية دومنيكية في ريميني ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلو كلية دومنيكية في ريميني ، حيث كان يتلقى كل يوم جرعات من كتاب القديس توما الاكويني « قمة اللاهوت » . ولما لم يجد شيئا يثير مشاعره في تلك الرائعة من روائع العقلانية فقد قرأ أرسطوفان ، وبلوتس ، وترنس ، فلما قدمت فرقة من الممثلين إلى ريميني انضم إليها فترة طالت إلى حد ادش أبويه في كيودجا . فوبخاه ، وعانقاه ، ثم أرسله ليدرس القانون في بافيا . وفي ١٧٣١ نال درجته الجامعية وبدأ ممارسة المحاماة ، ثم تزوج ، « وكان الآن أسعد رجل في العالم » (٧١) ، اللهم إلا أنه أصيب بالجدرى في ليلة زفافه .

وجذبه البندقية فعاد إليها ، ونجح في المحاماة ، وأصبح قنصلا هناك لجنوه . ولكن المسرح ظل يستهويه ، وهفت نفسه للكتابة ، واشتهى أن يخرج مسرحياته . ومثلت مسرحيته « يلزار يوس » في ٢٤ نوفمبر ١٧٣٤ بنجاح ملهم ، وظلت تعرض يوميا حتى ١٤ ديسمبر ، وضاعف سروره افتخار أمه العجوز به . على أن البندقية لم تكن تستسيع التراجيديات ، ففشلت مسرحياته التالية التي من هذا النوع ، فانصرف حزينا إلى الكوميديا . ولكنه رفض كتابة الفارصات « للكوميديا ديلا رتي » ، وأراد أن يؤلف كوميديات السلوك والأفكار على طريقة مولير ، وألا يعرض على خشبة المسرح شخوصا ثابتة تجمدت في أفئدة ، بل شخصيات ومواقف مشتعلة من الحياة المعاصرة . واختار بعض الممثلين من فرقة كوميديا البندقية ، ودرهم ، وأخرج في ١٧٤٠ « مومولو » رجل البلاط . « ونجحت التمثيلية نجاحا مذهشا ، وكان في هذا ما ارضاني » (٧٢) . ولكنه لم يرض تماما ، لأنه كان قد نزل عن بعض أفكاره بتركه الحوار كله دون أن يكتبه إلا للدور الرئيسي ، ويخلفه أدوارا لأربعة من الشخوص المقنعة التقليدية .

وراح يدفع اصلاحاته خطوة خطوة . ففي مسرحية « المرأة الشريفة » كتب لأول مرة الحركة والحوار كاماين . وهبت فرق معادية لتنافس

تمثيلياته أو تسخر منها . وتآمرت عليه الطبقات التي هجاها ، مثل التشيشيبي (مرافقى الزوجات) فحاربها كلها وعقد له النصر . ولكن لم يمكن العثور على مؤلف آخر يزود فرقة بالكوميديات المناسبة . ومن ثم فقدت تمثيلياته هو رضاء الجمهور لكثرة تكرارها . واکرهته المنافسة على أن يكتب ست عشرة تمثيلية في سنة واحدة .

وبلغ أوجهه ١٧٥٢ ، وأشاد به فولتير « بوصفه مولير إيطاليا » . ولقيت مسرحيته « لاوكانديرا » (صاحبة الفندق) في ذلك العام « نجاحا رائعا حتى فضلت على أى عمل انجز في ذلك النوع من الكوميديا » . وقد اعتر بأنه راعى « الوحدات الارسطاطالية في الحركة والمكان والزمان » ، وفيما عدا ذلك كان يحكم على تمثيلياته بواقعية ، فيقول « انها جيدة » ولكنها لم ترق بعد إلى مستوى مولير^(٧٣) . وكان قد تعجل في كتابتها تعجلا لا يتيح له أن يجعلها أعمالا فنية ، فكانت ذكية البناء ، مريحة على نحو سار ، مطابقة للحياة بوجه عام ، ولكن أعوزها ما ميز مولير من اتساع الأفكار ، وقوة الحديث ، وبراعة العرض ، ومن ثم ظلت على سطح الشخصيات والأحداث . ومنعته طبيعة جمهوره من أن يحاول التحليق في أجواء العاطفة أو الفلسفة أو الأسلوب ، وكان في فطرته من البشر ما منعه من سبر الأغوار التي عذبت مولير من قبل .

وقد صدم مرة واحدة على الأقل صدمة أخرجه عن لطفه وجرحته في الصميم ، وذلك حين تحداه كارلو جوتسى على مكان الصدارة المسرحية في البندقية وفاز في المعركة . وكان هناك رجلا ن باسم جوتسى شاركا في الضجة الأدبية التي أثرت في ذلك العهد ، أحدهما جيسارو جوتسى الذي ألف تمثيليات أكثرها مقتبس من الفرنسية ، وكان محررا لدوريتين بارزتين وقد بدأ حركة احياء دانتى . أما الثانى وهو أخوه كارلو فلم يكن فيه هذا اللطف والأنس ، كان رجلا طويل القامة وسيما مغرورا متحفزا للعراك على الدوام . وكان أذكى عضوا في أكاديمية جرانليسكى « التي شنت حملة لاستعمال الإيطالية التस्कانية النقية في الأدب بدلا من اللهجة التي استعمالها

جولدوني في معظم تمثيلياته . ولعله - وهو العشيقي (أو المرافق الخادم) لتيودورا ريتشي - أحسن بوخز موجه حين هجا جولدوني مراقق الزوجات هؤلاء . وقد كتب هو أيضاً « مذاكرات » هي البيان المفصل للحروب التي خاضها . وقد حكم على جولدوني كما يرى مؤلف مؤلفاً آخر فقال :

« تبينت في جولدوني وفرة في الدوافع الكوميديّة ، والصدق والطبيعية . ولكنني اكتشفت فيه فقراً وحقارة في الحكمة » ، وهذه محاسن ومساوئ متنافرة ، والمساوئ كثيراً ما تكون الغالبة ، ثم هناك عبارات سوقية ذات توريثات منحطة ٠٠٠ وتنف وأقوال فيها تنطع ، مسروقة لا أدري من أين ومجلوبة لتخدع جمهوراً من الجهال ، وأخيراً فهو بوصفه كاتباً للايطالية (إلا أنه يكتب باللهجة البندقية التي دل على تمكنه منها) لم يبد غير جدير بأن يوضع في مصاف أغبي المؤلفين الذين استخدموا لغتنا وأحقرهم وأقلهم دقة وصواباً ٠٠٠ وعلى أن أضيف في الوقت ذاته أنه لم يخرج قط تمثيلية دون أن يكون لها سمة كوميدية ممتازة . وقد بدا لعيني أن له دائماً مظهر رجل ولد باحساس فطري بالطريقة التي يجب أن تؤلف بها الكوميديات الأصلية ، ولكنه - لعيب في تعليمه ، ولافتقار إلى التمييز ، ولضرورة ارضاء الجمهور وتقديم بضاعة جديدة للكوميديين المساكين الذين يكسب قوته على حسابهم ، وللعجلة التي كان ينتج بها هذا العدد الوفير من التمثيليات كل سنة ليقى نفسه من الغرق - أقول أنه لهذا كله لم يستطلع قط أن يبتكر تمثيلية واحدة لاتزخر بالاغلاط (٧٤) » .

وفي ١٧٥٧ أصدر جوتسي ديوان شعر يعرب عن انتقادات مماثلة في « أسلوب كبار كتاب التسكانية القدامى » . ورد جولدوني بشعر مثلث القافية (على طريقة دانتي) بما معناه أن جوتسي أشبه بالكلب الذي ينبج القمر
(Come il cane che abbaja la luna)

ورد عليه جوتسي بالدفاع عن « الكوميديا ديللارقي » ضد انتقادات جولدوني للقاسية ، واتهم جولدوني بأن تمثيلياته تفوق كوميديا الأفقعة مائة مرة في فجورها ونبوها وعدوانها على مكارم الأخلاق ، وصنف معجماً من « العبارات الغامضة ، والتوريثات البذيئة . . وغيرها من القذارات »

أخذها من أعمال جولدونى . يقول مولنقى أن الجدل « آثار فى المدينة ضربا من الهوس ، فكان الخلاف يناقش فى المسارح والبيوت والحوانيت والمقاهى والشوارع »^(٧٥) .

ونجدى كاتب مسرحى آخر يدعى (أباقى كيارى) جوتسى أن يكتب تمثيلية خيرا من التمثيليات التى ندد بها ، وكان هذا الكاتب قد لدغه من قبل صل جوتسى التسكانى . ورد جوتسى أن هذا يسير عليه ، حتى عن أتلغه المواضيع وباستخدام كوميدى الأقنعة التقليدية دون غيرها . وفى يناير ١٧٦١ أخرجت فرقة فى تياترو سان صموئيل تمثيلته المسماه « خرافة حب البرتقالات الثلاث » وهى مجرد سيناريو أظهر بنتالونى ، وترتاجليا ، وغيرهما من أصحاب (الأقنعة) يبحثون عن ثلاث برتقالات يعتقد أن لها قدرات سحرية ، وأما الحوار فترك للارتجال . وكان نجاح هذه (الخرافة) حاسما : ذلك أن الجمهور البندقى العائش على الضحك استطاب خيال القصة والهجاء الضمنى لحبكات كيارى وجولدونى . وأردفها جوتسى بتسع (خرافات) أخرى فى خمس سنوات ، ولكنه قدم فيها حواراً شعرياً ، وبهذا سلم جزئيا بنقد جولدونى للكوميديا ديللارنى . على أية حال بدا انتصار جوتسى كاملا . وظل جمهور مسرح القديس صموئيل شديد الاقبال عليه ، فى حين هبط الإقبال على مسرح جولدونى (سانت انجيلو) إلى ما يقرب من الإفلاس . وانتقل كيارى إلى بريشا ، أما جولدونى فقبل دعوة إلى باريس (*) .

وتوديعا للبندقيا . أخرج جولدونى (١٧٦٢) « أمسية من أمسيات الكرنفال الأخيرة » وتروى قصة مصمم منسوجات هو السنيور انتسوليتو الذى كان على وشك أن يفارق وهو حزين فى البندقية النساجين الذين طالما زود أنوالهم بالرسوم . وسرعان ما تبين الجمهور فى هذا رمزاً للكاتب المسرحى الذى يترك أسفا الممثلين الذين طالما زود مسرحهم بالتمثيليات . فلما ظهر انتسوليتو فى المشهد الأخير ضج المسرح (كما يقول جولدونى) « يتصفق

* حولت « خرافتان » من خرافات جوتسى إل أوبرات : « رى توراندوتى » لغير وبوزون ، و « حب البرتقالات الثلاث » : لبروكوفيف .

كهزيع الرعد تسمع خلاله هتافات . . . (رحلة سعيدة) (عدد الينا ثانية)
(لايفتك أن تعود الينا)^(٧٦) . وغادر البندقية في ١٥ ابريل ١٧٦٢ ولم يرها
بعد ذلك قط .

وفي باريس شغل عامين بتأليف كوميديات لمسرح الإيطاليين ، وفي
١٧٦٣ رفعت عليه دعوى إغواء^(٧٧) ، ولكن بعد سنة كلف بتعليم الإيطالية
لبينات لويس الخامس عشر . وقد كتب بالفرنسية ، بمناسبة زفاف ماري
انطوانيت والأمير الذي أصبح فيما بعد لويس السادس عشر ، مسرحية من
أفضل مسرحياته ، واسمها (الحلف الخير) وكوفى عليها بمعاش قدره
١٢٠٠ فرنك ، الغته الثورة حين بلغ الحادية والثمانين . وقد واسى فقره
باملاء مذكراته لزوجته (١٧٩٢) — وهى مذكرات غير دقيقة ، خصبة
الخيال ، مثيرة ، مسلية ، وفي رأى جولدوني أنها (درامية على نحو
أصدق من كوميدياته الإيطالية^(٧٨)) ، ومات في ٦ فبراير ١٧٩٣ . وفي ٧
فبراير ، بناء على اقتراح قدمه الشاعر ماري — جوزف دشنييه ، رد اليه
المؤتمر الوطنى معاشه . ولإذ لم يجده المؤتمر فى حال تسمح له بتسلمه ،
فقد أعطاه لارملته بعد أن خفضه .

كان انتصار جوتسى فى البندقية قصير الأجل ، فقبل أن يموت (١٨٠٦) .
بسنين طويله اختفت (خرافاته) من خشبة المسرح ، وبعثت كوميديات
جولدوني فى مسارح ايطاليا . ومازالت تمثل عليها فى كثرة تكاد تقارب
كوميديات مولير فى فرنسا . ويقوم تمثاله فى الكامبوسان بارتولوميو
بالبندقية ، وفى اللارجو جولدوني (بفلورنسه) . ذلك لأن الإنسانية كما
كتب فى مذكراته واحدة فى كل مكان ، وللسد يعلن عن نفسه فى كل مكان ،
وفى كل مكان يكسب الرجل الهادىء الطبع فى النهاية محبة الشعب ويبل
نخصومه^(٧٩) .

٦ - روما

في جنوبي نهر بو ، وعلى طول الادرياتيک وعبر الأبنين ، كانت تقوم ولايات الكنيسة - فيرارا وبولونيا وفورلى ورافنا وبروجه وبتفتو وروما - فتكون بهذا القسم الأوسط والأکبر من الحذاء السحري .

أما فيرارا فحين أدمجت في الولايات البابويه (١٥٩٨) جعل أدواقها آل استنسى مودينا مقرا لهم ، وجمعوا فيها محفوظاتهم وكتبهم وفنونهم . وفي ١٧٠٠ أصبح لودوفيكو موراتورى القسيس والباحث وفقه القوانين أمينا على هذه الكنوز . واستطاع خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدءوب ، ومن ثمانية وعشرين مجلدا ، أن يصنف « كتاب الشئون الإيطالية » (١٧٢٣ - ٣٨) ، وأضاف بعد ذلك عشرة مجلدات للآثار والنقوش الإيطالية . وكان أثرياً أكثر منه مؤرخا ، وما لبث كتابه « الحوليات الإيطالية » الذى أصدره في اثني عشر مجلدا أن تقادم . ولكن أبحاثه في الوثائق والنقوش جعلته الأب والمصدر للتأليف التاريخي الحديث في إيطاليا .

وكانت بولونيا أكثر هذه الولايات ازدهارا باستثناء روما . وظلت مدرسة تصويرها الشهيرة حية في عهد جوزيبي كرسبي (الأسباني) ، وكانت جامعتها لا تزال من خير الجامعات الأوربية . وكان قصر بفيلاكو (١٧٤٩) من أعظم أبنية القرن أناقة . وسمت أسرة ممتازه تركزت في بولونيا بالعمارة والمسرحية ورسم المناظر المسرحية إلى ذرى الأتقان في العصور الحديثة . فبنى فرديناندو جاللى دابيينا (التياترو ريالى) في مانتوا (١٧٣١) وكتب نصوصا شهيرة عن فنه ، وأنجب ثلاثة أبناء وأصلوا مهارته في الزخرفة الخداعة الفاخرة . وصمم أخوه فرانشسكو المسارح في فيينا ونانسى وروما ، والتياترو فيلارمونيكافيرونا - الذى كثيرا ما يعتبر أجمل مسرح في إيطاليا . وأصبح الساندرو بن فرديناندو كبير معماري ناخب البلايينات . وصمم ابن ثان يدعى جوزيبي مدخل دار الأوبرا في بايروي (١٧٤٨) - أجمل بناء موجود من نوعه^(٨١) . ورسم أنطونيو الأبن الثالث تصميمات « التياترو كومونالى » في بولونيا .

وقد ترددت في ذلك المسرح وفي كنيسة سان بترونيو القديمة الضخمة أفضل الموسيقى الآلية التي عزفت في إيطاليا ، لأن بولونيا كانت المركز الإيطالي الرئيسى للتعليم والنظرية الموسيقيين . فهناك كان بادري جوفانى بأتستا مارتينى يعقد مجلسه المتواضع الصارم كأجل معلم للموسيقى في أوروبا . وكان يفتنى مكتبة موسيقية تضم سبعة عشر ألف مجلد ، وقد ألف نصوصا ممتازة في الكونترابنط وتاريخ الموسيقى ، وراسل عشرات من مشاهير الرجال في أكثر من عشر دول . وكان وسام الأكاديمية فيلارمونيكما التي ترأسها سنين كثيرة مشتهى جميع الموسيقيين . فإلى هنا سيأتى الصبى موتسارت في ١٧٧٠ ليواجه الاختبارات المقررة ، وهنا سيعلم روسينى ودونيتسى . وكان المهرجان السنوى للمؤلفات الموسيقية الجديدة ، التي يؤديها أوركسترا الأكاديمية ذو المائة عازف ، في نظر إيطاليا الحدث الأعظم للسنة الموسيقية .

قدر جيبون سكان روما في ١٧٤٠ بنحو ١٥٦,٠٠٠ نسمة . وحين تذكر زهوة ماضيها الأمبراطورى وتناسى فقراء هذا الماضي وأرقاءه ، وجد أن سحر العاصمة الكاثوليكية يجافى ذوقه :

« في داخل الأسوار الأوريلية الفسيحة تغشى القسم الأكبر من التلال السبعة الكروم والأطلال . ولعل جمال المدينة الحديثة وبهاءها راجع إلى مفاسد الحكومة وتأثير الخرافة . فقد تميز كل حكم (إلا فيما ندر) بصعود أسرة جديدة صعودا سريعا ، أثرت بفضل الحير الذى لا عقب له على حساب الكنيسة والدولة . وقصور أبناء الأخرى والأخوات المحظوظين هؤلاء هى أغلى صروح الأناقة والعبودية ، فقد سخرت لها أسنى فنون المعمار والتصوير والنحت ، وأهاؤها وحادثتها تزينها أنفس الآثار القديمة التي جمعوها تذوقا أو غرورا^(٨١) » .

وقد تميز بابوات هذا العهد بسمو الخلق ، وكانت فضائلهم تسمو كما هبط سلطانهم . وكانوا كاهم إيطاليين ، لأن احدا من الملوك الكاثوليك أب أن يسمح لأى من الآخرين أن يقتضى البابويه . وقد برر كلمت الحادى عشر (حكم ١٧٠٠ - ٢١) أسميه (ومعناه الرحيم) باصلاحه سجون روما .

أما إنوسنت الثالث عشر (١٧٢١ - ٢٤) فهو في رأى رانكى البروتستنتي :

« كان يملك مؤهلات رائعة للحكم الروحي والزمني معا ، ولكن صحته كانت هشه جداً . وقد وجدت الأسر الرومانية المتصلة به بصلة القرابة ، والتي راودها الأمل في أن يرفع من شأنها ، أنها واهمة كل الوهم : لا بل إن ابن أخيه لم يستطع الظفر بالأثنتي عشر ألف دوقانيه كل عام (التي أصبحت الآن الدخل العادى لابن الأخ) دون مشقة^(٨٢) » .

أما بندكت الثالث عشر (١٧٢٤ - ٣٠) فكان « رجلا ذا تقوى شخصية عظيمة^(٨٣) » . ولكنه (كما قال مؤرخ كاثوليكي) سمح بقدر كبير جداً من السلطة لحاسب غير جد يرين بعطفه^(٨٤) » . وأهرق كلمنت الثالث عشر (١٧٣٠ - ٤٠) روما بأصدقائه الفلورنسيين ، وسمح لنفسه حين شاخ وكف بصره أن ينقاد لأبناء أخيه الذين زاد تعصبهم الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين في فرنسا مرارة فوق مرارة .

وفي رأى ماكولى أن بندكت الرابع عشر (١٧٤٠ - ٥٨) « كان أفضل وأحكم خلفاء القديس بطرس المائتين والخمسين^(٨٥) » وهو حكم فضفاضي ، ولكن البروتستنت والكاثوليك وغير المؤمنين على السواء مجمعون على الثناء على بندكت لأنه كان رجلا واسع العلم ، ذا شخصية محبة ونزاهة خلقية . ولم ير وهو رئيس لأساقفة بولونيا أى تناقض بين الاختلاف إلى دار الأوبرا ثلاث مرات في الأسبوع والاهتمام الصارم بواجباته الاسقفية^(٨٦) ، وقد وفق أثناء ولايته منصب البابوية بين حياته الشخصية ومرح الطبع وتحري الحديث وتذوق الأدب والفن تذوقيكاد يكون وثنيا . وقد أضاف تمثالا لفينوس عارية إلى مجموعته ، وقال للكردينال دتسان أن أمير وأميرة فورتمبرج خطا إسميهما على جزء في التشرريح جميل الأستداره لا يذكر كثيرا في المراسلات البابويه^(٨٧) . وكاد يشبه فولتير في حدة الذكاء والظرف ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون إداريا حازما ودبلوماسيا بعيد النظر .

وقد وجد مالية البابوية تشكو الفوضى : فنصف الإيرادات يضيع في الانتقال من بلد إلى بلد وثلث سكان روما كنسيون يفوق عددهم كثيرا ما تحتاج إليه شئون الكنيسة ، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيقه . فأنقص بئذك موظفيه الشخصيين ، وطرد أكثر جنود الجيوش البابوية ، وأنهى محسوبة الأقارب ، وخفض الضرائب ، وأدخل الإصلاحات الزراعية ، وشجع المشروعات الصناعية ، ولم يمر طويل وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفائه فائضا للخزانة البابوية . أما سياسته الخارجية فقد قدمت تنازلات ودية للملوك المشاغبين ، فوقع مع سردينيا والبرتغال وناپلى وأسبانيا إتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسى الأسقفية . وجاهد ليهدىء الضجة العقائدية فى فرنسا ، بالترأخى فى تنفيذ الأمر البابوى unigenitus (الوحيد الجنس) الصادر ضد الجانسينيين ، « ما دام الإلحاد يزداد كل يوم فعلينا أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله لا إن كانوا يقبلون الأمر البابوى^(٨٨) » .

ويذل جهودا شجاعة ليعثر على حل وسط مؤقت modus vivendi مع حركة التبرير . وقد لاحظنا تقبله الودى لإهداء فولتير مسرحية (محمد) إليه رغم أن المسرحية كانت تسلط عليها نيران الكنيسة فى باريس (١٧٤٦) . وعين لجنة لمراجعة كتاب الصلوات اليومية ولتخليصه من بعض الأساطير الأبعد تصديقا ، على أن توصيات اللجنة لم تنفذ . واستطاع بنشاطه الشخصى أن يهتق انتخاب دامبير لمجمع بولونيا^(٨٩) . « وكان يسهل التحريم المتعجل للكتب . فلما أشار بعض مساعديه عليه بشجب كتاب لامترى « الإنسان الآلة » أجاب أليس من واجبكم أن تكفوا عن ابلاغى بوقاحات الحمقى ؟ ثم أردف « اعلموا أن للبابا يدا مطلقة لمنح البركات فقط^(٩٠) » وقد نخلت قائمة الكتب المحرمة التى أصدرها فى ١٧٥٨ عن جميع محاولات تعقب المؤلفات غير الكاثوليكية . واقتصرت ... فيما عدا استثناءات قليلة على حظر بعض الكتب التى ألفها كتاب كاثوليك . وأمر بالأيذان كتاب قبل أن يعطى مؤلفه أن وجد فرصة للدفاع عن نفسه ، ولا يذان كتاب فى موضوع علمى إلا بعد استشارة الخبراء ، وينبغى أن يؤذن لرجال العلم أو المدرس دون

ابطاء بقراءة الكتب المحرمة^(١١) . واتبعت هذه القواعد في طبعات القائمة الثالثة ، وأكدها ليو الثالث عشر في ١٩٠٠ .

وقد ألفى البابوات حكم روما عسيرا عسرا يقرب من عسرحكم العالم الكاثوليكي . ولعل جمهور المدينة كان اشد الجماهير فظاظة وعنفاً في ايطاليا وربما في أوروبا . فأى سبب يمكن أن يفضى إلى مبارزة بين النبلاء أو إلى صراع دام بين الزمر المتحزبة التي قسمت المدينة المقدسة ، وأما في المسرح فان حكم النظارة كان يمكن أن يكون قاسياً لارحمة فيه خصوصاً إذا أخطأ ، وسرى مثالا عليه في حالة برجوليتزى . وجاهدت الكنيسة لتهدىء الشعب بالأعياد والمواكب والغفرانات والكرنفال ، وسمحت للناس في الأيام الثمانية السابقة للصوم الكبير بأن يرتدوا ملابس تنكرية مرحة غريبة الأشكال ، وأن يسرحوا ويمرحوا على (الكورسو) والتس النبلاء رضى الجماهير باستعراضاتهم على الخيل أو العربات تحمل راكبين مهرة أونساء حسنا في أبهى زينة ، وعرضت البغايا بضاعتن لقاء أجور رفعها مؤقتا ، وخففت المغازلات المقنعة من ثقل الزواج الأحادى بضع ساعات . فإذا انقضى الكرنفال عاودت روما مسيرتها المتناقضة من التقوى والإجرام .

أما الفن فلم يزدهر وسط العائدات المتناقضة التي يغلها إيمان مضمحل . لقد أسهمت العمارة ببعض الاسهامات الصغيرة : مثال ذلك أن الساندرو جايلى أضاف لكنيسة سان جوفانى القديمة في اللاتيرانو واجهة فخمة ، وخلع فرديناند وفوجا على كنيسة سانتا ماريا مادجورى وجها جديداً ، وشيد فرانشسكو دى سانكتيس « السكالا دى سبانيا الفسيحة المهيبة من ميدان أسبانيا إلى مزار « الثالوث الأقدس » في مونتى . وأضاف النحت أثرا مشهوراً هو « الفونتانا دى تريفى » . حيث يلقي السائح المسرور قطعة نقود من وراء كتفه في الماء ليضمن عودته لزيارة روما ثانية . وكان لنافورة الخارج الثلاثة تاريخ طريل . ولعل برتيتى ترك رسماً تخطيطيا لها ، وافتتح كلمنت الثانى عشر مسابقة لإنشائها ، وقدم التصميمات لها أدمى بوشاردان الباريسى ولا مبير سجبير آدم النانسى ، واختير جوفانى ماينى ليصممها ،

ونحت بييترو براتشى مجموعة نبتون وفريقه الوسطى (١٧٣٢) ، ونحت فليبيو ديللافاللى أشكالا تمثل الحصوبة والشفاء ، وقدم نيكولو سالفى الخلفية المعمارية ، وأكمل جوزيبي يانينى العمل فى ١٧٦٢ ، وربما أوحى مشاركة العقول والأيدى الكثيرة على هذا النحو خلال ثلاثين سنة بأنه كان هناك شىء من التخاذل فى الإرادة أو الفقر فى الموارد ، ولكنها تدحض أى فكرة بأن الفن فى روما كان ميتاً . وأضاف براتشى إلى مآثره مقبرة (هى الآن فى كتدرائية القديس بطرس) لماريا كلمنتينا سويسكا ، الزوجة الثمسة لجيمس الثالث المطالب الاستيوارنى بالعرش ، وخلف ديللافاللى فى كنيسة القديس أغناطيس نقشاً بارزاً رقيقاً يمثل البشارة ، جديرا بالهبة الأوربية فى أوجها .

أما التصوير فلم يتمخض عن عجائب فى روما فى هذا العصر ، ولكن جوفانى بانستا بيرانيزى جعل الحفر فناً من الفنون الكبرى . ولد لبناء بالحجر قرب البندقية ، وقرأ باللاديو وحلم بالقصور وأضرحة القديسين . على أن البندقية كانت تحوى من الفنانين أكثر مما تحوى من المال ، أما روما فكان فيها مال أكثر من الفنانين ، ومن ثم نزع جوفانى إلى روما وبدأ عمله معمارياً . غير أن الطلب على المباني كان ضعيفاً . ولكنه صمم المباني على أى حال ، أو على الأصح رسم مباني غريبة الأشكال تبدو كأن « السلام الأسبانية » سقطت فوق « حمامات دقلديانوس » . ونشر هذه الرسوم فى ١٧٥٠ باسم « رسوم مختلفة » و « كارتشيرى » (المسجون) ، واشتراها الناس كأنهم يشترون الألغاز أو الأسرار الغامضة . ولكن بيرانيزى وجه مهارته فى حالاته النفسية الأنبل إلى حفر رسومه التخطيطية للآثار القديمة . فقد عشقها كما عشقها بوسان وروبير ، وأحزنه أن يرى هذه الأطلال الرائعة تزداد تحللاً يوماً بعد يوم بفعل النهب أو الإهمال ، وظل طوال خمسة وعشرون عاماً ، فى كل يوم تقريباً ، يخرج ليرسمها ، ويفوته أحياناً تناول وجباته من الطعام ، بل أنه حتى وهو يموت من السرطان واصل الرسم والنقش والحفر . وقد ذاع مؤلفاه « الآثار الرومانية » و « مناظر

روما « في شكل نسخ مطبوعة في أوروبا كلها وشاركت في الإحياء المعماري للأساليب الكلاسيكية .

وقد وجد ذلك الاحياء حافظا قويا في الحفائر التي أجريت في هر كولانيوم وبومبي وهما مدينتان أغرقتهما ثوران فيزوف في ٧٩ م ففى ١٧١٩ أبلغ بعض الفلاحين أنهم وجدوا تماثيل مدفونة في التراب في هر كولانيوم . وأنقضت تسعة عشر عاما قبل أن يمكن الحصول على المال اللازم لارتداد الموقع على نحو نسقى . وفي ١٧٤٨ بدأت حفائر مماثلة تكشف عن عجائب بومبي الوثنية ، وفي ١٧٥٢ كشف عن معابد بايستوم الضخمة الجلييلة بعد اجتنات الأجمة التي غطتها . وأقبل الأثريون من شتى البلاد ليدرسوا الكشف ويصفوها ، وأثارت رسوم هذه الآثار اهتمام الفنانين والمؤرخين جميعاً ، وسرعان ما غزا المتحمسون للفن الكلاسيكي روما ونابلى ، وقدموا على الأخص من ألمانيا . فأتى منجز في ١٧٤٠ ، وفنكلان في ١٧٥٥ . وهفت نفس لسنج للذهاب إلى روما ، « لامتك هناك على الأقل سنة ، وإلى الأبد أن امكن » (٩٢) . ثم جوته — ولكن لرجى هذه القصة الآن .

إما أنطون رفايل منجز فمن العسير أن نضعه في مكان واحد ، لأنه ولد في بوهيميا (١٧٢٨) ، وخص بجهوده إيطاليا وأسبانيا ، واختار روما موطناً له . وسماه أبوه باسم كوريدجو ورفايل ، وكان رساما للممنهات في درسدن ، ونذره للفن ، وظهرت على الصبي مخايل النجابة فأخذه أبوه وهو في الثانية عشرة إلى روما . ويروى أنه حبسه هناك في الفاتيكان يوما بعد يوم ولا غداء له إلا النبيذ والخبز ، وأخبره أن أراد مزيداً أن يطعم على آثار رفايل وميكلانجلو والعالم الكلاسيكى . وبعد أن أقام أنطون برهة قصيرة في درسدن عاد إلى روما واسترعى الأنظار بلوحة رسمها للعائلة المقدسة ، وكانت نموذجها فيها مارجاريتا جواتسى « عذراء فقيرة فاضلة جميلة » (٩٣) وتزوجها في ١٧٤٩ ، وفي المناسبة ذاتها دخل في الذهب الكاثوليكي الروماني . وعاد ثانية إلى درسدن ، وعين مصورا لبلاط أوغسطس الثالث براتب قدره ألف طالر في العام . ووافق

على أن يرسم لوحتين لكنيسة بدرسدن ، ولكنه أقنع الملك الغاضب بأن يسمح له برسميهما في روما ، وفي ١٧٥٢ استقر هناك وهو بعد في الرابعة والعشرين . ولما بلغ السادسة والعشرين عين مديرا لمدرسة الفاتيكان للتصوير . وفي ١٧٥٥ التقى بفنكلان ، واتفق معه على أن الباروك غلطة ؛ وأن الفن يجب أن يظهر نفسه ويهذبها بأشكال الكلاسيكية الجديدة . ولعله في هذه الفترة أو نحوها رسم بالباستل صورته الذاتية الموجودة الآن في متحف فن درسدن — وجه فتاة وشعرها ، ولكن العينين تلمعان بكبرياء رجل واثق من أن في استطاعته أن يهز العالم .

وحين طارد فردريك الأكبر أوغسطس من سكسونيا (١٧٥٦) توقف راتب منجز الملكى ، وكان عليه أن يعيش على الأجور المتواضعة المعروضة عليه في إيطاليا . وجرب العمل في نابلى ، ولكن الفنانين المحليين هددوا حياته باعتباره دخيلا ، وذلك عملا بتقليد نايولتاني قديم ، فقتل منجز إلى روما سريعا . وزين فيللا ألبانى بصور جصية حظيت بالشهرة ذات يوم ، وما زالت ترى هناك لوحته « برناس » (١٧٦١) الممتازة فنيا ، الكلاسيكية هدوءا ، الميته عاطفيا . ومع ذلك أحس الوزير الأسباني في روما أن هذا هو الرجل الذى يصلح لرسم صور يزدان بها القصر الملكى في مدريد . وأرسل شارل الثالث في طلب منجز ووعدته بألفى دبلون في العام مضافا إليها مسكن ومركبة ورحلة بحرية على بارجة أسبانية موشكة على الاقلاع من نابلى . وفي سبتمبر ١٧٦١ وصل منجز إلى مدريد .

٧ — نابلى

(أ) الملك والشعب

أصابته مملكة نابلى التي ضمت كل إيطاليا جنوب الولايات البابوية اللطيات الشديدة في الصراع على السلطة بين النمسا وأسبانيا وإنجلترا وفرنسا . ولكن هذا دأب التاريخ في تمزيقه الكتيب للمنطق ، والتأرجح الدامى بين النصر والهزيمة ، وحسبنا هنا أن نلاحظ أن النمسا استولت على نابلى في ١٧٠٧ ،

وأن دوس كارلوس ، دوق بارما البوربونى وابن فليب الخامس ملك أسبانيا ، طرد النمساويين فى ١٧٣٤ ، وحكم حتى ١٧٥٩ باسم شارل الرابع ملك نابلى وصقلية . وكانت عاصمته التى ضمت ٣٠٠,٠٠٠ من الأنفس أكبر مدينة فى إيطاليا .

وبلغ شارل النضيج فى فن الملك ببطء . فى أول عهده اتخذ الملكية جوازا للبدخ : فأهمل شئون الحكومة ، وأنفق نصف أيامه فى القنص ، وأسرف فى الأكل حتى أصبح بدينا . ثم حوالى ١٧٥٥ ، وبوحى من وزير العدل والشئون الخارجية المركز برناردو دى تانوتشى اضطلع بالتخفيف من مظالم الاقطاع القاسى الذى توارى خلف كد الحياه النابولية ونشوتها .

وكانت تحكم المملكة طويلا ثلاث جماعات متشابكة . فالنبلاء يملكون ثلثى الأرض تقريبا ويستعبدون أربعة أخماس الملايين الخمسة الذين يسكنونها ويسيطرون على البرلمان ، ويتحكمون فى نظام الضرائب ، ويعرقلون كل إصلاح . والأكليروس يملكون ثلث الأرض ، ويسترقون الشعب روحيا بلاهوت قوامه الرعب ، وكتب حافلة بالأساطير ، وشعائر تستغل المصلين ، ومعجزات على شاكلة تسييحهم المصطنع كل نصف سنة لدم القديس ياتيوارس (حامى نابلى) المتخثر . وكانت الإدارة فى يد قانونيين يدينون بالطاعة للنبلاء أو الأحرار ، ومن ثم ألزموا بالوضع الموروث من العصر الوسيط . وكانت الطبقة الوسطى الفقيرة المؤلفة أكثرها من التجار عاجزة سياسياً . وعاش الفلاحون والبرولتاريا فى فقر أكره بعضهم على قطع الطريق وكثيراً منهم على التسول ، وكان هناك ثلاثون ألف شعاذ فى نابلى وحدها^(١٤) . وقد وصف دبروس جواهر العاصمة بأنهم « أبغض الرعاع ، وأقذر الحشرات »^(١٥) — وهو حكم أدان النتيجة دون أن يدمغ السبب . على أننا يجب أن نعرف بأن هؤلاء النابوليين المهلهلى الثياب ، المتشبهين بالخرافات ، الخاضعين لسلطان الكهنة ، يبدو أنهم كانوا يملكون من نكهة الحياة يهيجتها أكثر من أى جمهور آخر فى أوروبا .

وكبح شارل قوة النبلاء باجتذابهم إلى بلاطه حتى يكونوا تحت ناظرى الملك ، وبإقامة نبلاء جدد يلتزمون بتأييده. وثبط تدفق الشباب على الأديرة ، وانقص جموع الكنسيين من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٨١,٠٠٠ ، وفرض ضريبة قدرها اثنان فى المائة على ممتلكات الكنيسة ، وخذ من حصانات الاكليروس القانونية . وضيق تانوتشى من سلطة النبلاء القضائية ، وحارب الفساد فى القضاء ، وأصلح الإجراءات القضائية ، وخفف من صرامة قانون العقوبات . وأبيحت حرية العبادة لليهود ، ولكن الرهبان أكدوا لشارل أن افتقاده الوريث الذكر لعرشه هو العقاب الذى أنزله به الله جزاء تسامحه الآثم فسحب الغفران من اليهود (٩١) .

وكان لولع الملك بالبناء الفضل فى إقامة صرحين شهيرين فى نابلى . وأحدهما هو « التياترو سان كارلو » الشاسع ، وقد أقيم فى ١٧٣٧ ومازال واحداً من أوسع وأجمل دور الأوبرا الموجودة . وفى ١٧٥٢ بدأ لويجى فانفيتى يبنى الصرح الآخر فى كازوتا على واحد وعشرين ميلاً شمالي العاصمة ، وهو قصر ملكى هائل صمم لينافس فرساي وليقوم بوظيفته فى إيواء الأسرة المالكة ونبلاء الحاشية وأهم الموظفين الإداريين . وقد اقتضى بناؤه كد العبيد سودا وبيضاً طوال اثنين وعشرين عاماً . وكانت الأبنية ذات المنحنيات تقوم على جانبي مدخل فسيح إلى الصرح الأوسط الذى مد واجتهه ٣٠ قدماً . وقام فى الداخل مصلى ومسرح وغرف لا حصر لها وسلم مزدوج عريض كانت كل درجة فيه لوحة رخام واحدة . وامتدت وراء القصر على طول نصف ميل الحدائق المنسقة ، وعدد غفير من التماثيل ، ونافورات فخمة تغذيها قناة طولها سبعة وعشرون ميلاً .

ولم يكن فى نابلى فن متميز فى هذا العصر غير قصر كازيرتا هذا (لأن القصر أطلق عليه اسم مدينته شأن الأسكوريال وفرساي) ، ولا كان هناك شئ يستحق الذكر فى الدراما أو الشعر . لقد ألف رجل كتاباً جريئاً « التاريخ المدنى للملك نابلى » (١٧٢٣) وهو هجوم متواصل على جشع الأكليروس ، ومفاسد المحاكم الكنسية ، وسلطة الكنيسة الزميه ، ودعوى

البابويه يحتملها في نابلي كأقطاعية بابوية ، أما المؤلف وأسمه بييترو جانوفى فقد حرمه رئيس أساقفة نابلي ، وفر إلى فيينا ، وزج به ملك سردانيا في السجن ، ثم مات في تورين (١٧٤٨) بعد أن قضى اثنتى عشرة سنة حبساً^(٩٧) . وفقد انطونيو جينوفيزى إيمانه وهو يقرأ لوك ، وحاول في كتابه « مبادئ الميتافيزيقا » (١٧٤٣) أن يدخل سيكولوجية لوك إلى إيطاليا . وفي ١٧٥٤ أنشأ رجل أعمال فلونسي في جامعة نابلي أول كرسي أوربي للاقتصاد السياسى بشرطين ، ألا يشغله كنسى أبداً ، وأن يكون أول شاغل له أنطونيو جينوفيزى . ورد جينوفيزى صنيعة (١٧٥٦) بأول بحث اقتصادى نظامى في اللغة الإيطالية « دروس في التجارة » ، ردد صرخة التجار ورجال الصناعة المطالبين بالتححر من القيود الاقطاعية والكنسية وغيرها على المشروعات التجارية الحرة . وفي العام نفسه أعرب كزنيه عن هذا المطلب ذاته للطبقة الوسطى الفرنسية في مقالاته ، التى كتبها لموسوعة ديدرو .

ولعل بعض الاتصال كان قد تم بين جينوفيزى وكزنيه على فرديناندو جاليانى النابولى الباريسى . وقد نشر جاليانى في ١٧٥٠ « بحثا في النقود » قرر فيه براءة اقتصادى في الثانية والعشرين من عمره ثمن السلعة حسب تكلفة إنتاجها . وألمع منه كتابه « حوار حول تجارة الغلال » الذى ذكرناه من قبل نقدا لكزنيه . فلما اضطر إلى العودة إلى وطنه بعد السنين المثيرة التى قضاه في باريس ، أحزنه إلا يجد في نابلي صالونات ، ولا امرأة كمداام جوفران تطعمه وتثير ذكاه وظرفه . على أنه كان فيها على أية حال فيلسوف ترك بصمته على التاريخ .

(ب) جامباتيستا فيكو

تروى ترجمته الذاتية أنه حين كان في السابعة سقط من على سلم نقالى ، فصدم الأرض برأسه أولاً ، وظل غائبا عن الوعي خمس ساعات . وأصيب بكسر في الجمجمة تكون من حوله ورم ضخم . وكان الورم

مخفف بشقه بمضغ المرة تلو المرة . ولكن الصبي فقد من الدم في هذه العملية ما جعل الجراحين يتوقعون موته القريب . ولكنه بقي على قيد الحياة بفضل الله ، ولكن نتيجة لهذه البلية شبت بمزاج مكتئب حاد^(١٨) . كذلك أصيب بالدرن . ولو كانت العقرية رهنا بمعوق بلدى لكان فيكون موفور الحظ .

وحين بلغ السابعة عشرة (١٦٨٥) كسب قوته بإعطاء الدروس الخصوصية في فاتوللا (قرب سالرنو) لأبناء أنخى أسقف اسكيا . ومكث هناك تسع سنين ، ولكنه كان أثناءها عاكفا في خماسة محموعة على دراسة القانون وفقه اللغة والتاريخ والفلسفة . وافتتن على الأخص بقراءة أفلاطون وأبيقور وأوكريتيوس ومكيافلى وفرانيسيس بيكن وديكارت وجروتوس ، وخرج من هذا كله بشيء من الأذى لإيمانه الدينى . وفي ١٦٩٧ حصل على كرسى أستاذ البيان في جامعة نابلى ، ولم يؤجر عليه بأكثر من مائة دوقاتيه في العام ، زادها بإعطاء الدروس الخصوصية ، ومن هذا الدخل كان يعول أسرة كبيرة . وماتت ابنة له في ريعان الصبى ، وظهرت على ابن له ميول شريفة اقتضت إرساله إلى إصلاحية للأحداث ، أما زوجته فكانت أمية عديمة الكفاية ، فكان على فيكون أن يكون الأب والأم والمعلم جميعاً^(١٩) . وفي وسط هذه الشواغل المشتته للفكر كتب فلسفته للتاريخ .

وقد قدم كتابه « مبادئ علم جديد في الطبيعة المشتركة للأمم » (١٧٢٥) ، وحاول إن يجد في فوضى التاريخ انتظامات من التعاقب قد تفسر الماضى والحاضر والمستقبل . ورأى فيكون أن في استطاعته أن يتبين ثلاث فترات رئيسية في تاريخ كل شعب :

(١) عصر الأرباب الذى اعتقدت فيه الأمم (غير اليهود) أنها تعيش في ظل حكومات إلهية ، وإن كل شيء كان بأمر الأرباب عن طريق الكهنة والوحى .

(٢) عصر الأبطال حين كانوا يسيطرون على جمهوريات ارستقراطية ، يحكم تفوق في طبيعتهم اعتقدوا أنهم يمتازون به على للعامة .

(٣) عصر البشر ، وفيه أقر الجميع بأنهم متساوون في الطبيعة البشرية فأقاموا أولى الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات (١٠٠) .

وقد طبق فيكو الفترة الأولى على التاريخ (الأسمى واللاديني) (غير الكتابي) ، فما كان في استطاعته أن يقول إن يهود العهد القديم إنما « اعتقدوا أنهم » يعيشون في ظل حكومات إلهية « دون المساس بالتقاليد المقدسة . ولما كان ديوان التفتيش (وهو في نابولي أشد صرامة منه في شمال إيطاليا) قد حاكم باحثين نابوليين لأنهم تكلموا على بشروجدوا قبل آدم ، فإن فيكو وفق بمجهود بين صيغته وبين سفر التكوين بالافتراض بأن جميع ذراري آدم ، إلا اليهود ، قد ارتدوا بعد الطوفان إلى حالة أقرب إلى الوحشية فسكنوا الكهوف وتسافدوا دون تمييز في شيوعية نساء . ومن (حالة الطبيعة) الثانية هذه تطورات الحضارة بطريق الأسرة والزراعة والملكية والأخلاق والدين . وكان يذكر الدين أحيانا على أنه طريقة أرواحية (لتفسير الأشياء والأحداث) وأحيانا يشيد به باعتباره قمة التطور .

ويقابل مراحل التطور الإجتماعي الثلاث ، ثلاث (طبائع) أو طرق لتفسير الكون : اللاهوتية ، والأسطورية والعقلية .

كانت الطبيعة الأولى ، بحكم خداع الخيال (وهو أقوى ما يكون في أضعف الناس قدرة على التدليل العقلي) ، طبيعة شعرية أو إبداعية ، قد نسميها على سبيل التجوز إلهية ، لأنها تصورت الأشياء المادية على أنها تخيما بقوة الآلهة . . . وكان الناس نتيجة لخطأ خيالهم هذا يخافون خوفا رهيبا من الأرباب التي خلقوها هم أنفسهم . . . أما الطبيعة الثانية فهي الطبيعة البطولية ، فقد اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهي . . . وأما الثالثة فالطبيعة (الطريقة) البشرية ، طبيعة ذكية . ومن ثم متواضعة ، معتدلة ، منطقية ، تسلّم بأن الضمير والعقل والواجب كلها نواميس (١٠١) » .

وقد حاول فيكو أن يفسح لتاريخ اللغة والأدب والقانون والحكومة:

(م د . . قصة الحضارة ج ٤٠) ،

ممكناً ملائماً في هذا النظام الثلاثي. ففي المرحلة الأولى كان الناس يتواصلون بالإشارات والإيماءات، وفي الثانية بالرموز والتشبهات والصور، وفي الثالثة بالكلمات التي اتفق عليها القوم . . . ليحددوا بهذا معنى القوانين . ومر القانون نفسه بتطور مقابل لهذا : فكان أول الأمر إلهياً ؛ منزلاً كما كان الحال في ناموس موسى ، ثم بطولياً كقانون ليكورجوس ، ثم بشرياً - أملاه العقل البشري المكتمل النمو^(١٠٢) كذلك مرت الحكومة بثلاث مراحل : التيقراطية ؛ وفيها زعم الحكام أنهم صوت الله ، والارستقراطية ، وفيها اقتصرتم جميع الحقوق المدنية على طبقة الأبطال الحاكمة ، والبشرية ، وفيها يعتبر الجميع سواء أمام القوانين . . . وهذه هي الحال في المدن الشعبية الحرة . . . وكذلك في الملكيات التي تجعل جميع رعاياها سواء أمام قوانينهم^(١٠٣) . وواضح أن فيكون استبعاد تلمخيص أفلاطون للتطور السياسي من الملكية إلى الأرستقراطية إلى الديمقراطية إلى الدكتاتورية (حكم الطغاة) ، ولكنه غير الصيغة لتقرأ : تيوقراطية وارستقراطية ، وديمقراطية ، وملكية . وقد اتفق مع أفلاطون في أن الديمقراطية تنزع إلى الفوضى ، واعتبر حكم الرجل الواحد علاجاً ضرورياً للخلل الديمقراطي ، « أن الملكيات هي الحكومات النهائية ، ، التي تصل إليها الأمم لتستريح^(١٠٤) .

وقد ينبعث الخلل الإجتماعي من التدهور الخلقي ، أو الترف ، أو تركيز الثروة تركيزاً يمزق الأمة ، أو الحسد العدواني بين الفقراء . ومثل هذا الخلل يفضي عادة إلى الدكتاتورية ، كما نرى في حكم أوغسطس الذي كان فيه الشفاء من الفوضى الديمقراطية في الجمهورية الرومانية . فإذا عجزت حتى الدكتاتورية عن وقف الإنحلال ، فإن أمة أشد قوة وعنفواناً تدخل فاتحة للبلاد .

« وإذا كان الناس الذين بلغ منهم الفساد هذا المبلغ قد انقلبوا عبيداً لشهواتهم الجاحمة . . . فإن العناية الإلهية تقضى بأن يصيروا عبيداً بحكم القانون الطبيعي للأمم ، . . . فيستعبدوا للأمم أفضل منهم يحكمونهم بعد أن يغلبهم كما يحكم الغالب الأقاليم الخاضعة له . . . وهنا يستطيع ضوئهم أن يظلموا من أضواء النظام الطبيعي . أولها أن من يعجز عن حكم نفسه يجب

أن يدع القادر على حكمه أن يحكمه ، والآخر أن العالم يحكمه دائماً من هم بالطبيعة أصليح الحاكمين^(١٠٦) .

وفي مثل هذه الحالات يترد الشعب المغلوب إلى مرحلة التطور التي وصل إليها غالبوه . وهكذا إرتد سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الهمجية والتخلف بعد غزوات الشعوب الهمجية واضطروا إلى أن يبدأوا بالتيوقراطية (حكم الكهنة واللاهوت) ؛ وتلك كانت العصور المظلمة . ثم جاء عصر بطولة آخر بمجىء الحروب الصليبية ؛ وأمراء الأقطاع يقابلون إبطال هومر . ودانتى هو هومر مكرراً .

ونسلمع في فيكو أصداء للنظرية التي تزعم أن التاريخ تكرر دائر ، ولقانون مكيفالى « c corsi e ricorsi » التطور والتقهقر « وفكرة التقدم تضار في هذا التحليل ، فليس التقدم الأنصف حركة دورية نصفها الآخر الانحلال ؛ والتاريخ ، شأنه شأن الحياة ، هو تطور وإنحلال في تعاقب وحتمية لا محيص عنهما .

وقدم فيكو في الطريق إلىماعات مدهشه . فقد رد الكثيرين من أبطال الاساطير الكلاسيكية إلى الأسماء البعدية eponyms والتشخيصات التالية لعمليات ظلت طويلا لاشخصيه أو متعددة الشخصيات ، فأورفيوس مثلاً كان المدمج الوهمى لموسيقين بدائيين كثيرين ، وليكورجوس كان التجسيد لسلسلة القوانين والعادات التي جمعت اسبرطة ، ورومرلرس كان ألف رجل جعلوا من روما دولة .^(١٠٧) وبالمثل رد فيكو هومر إلى الخرافة ، مدللاً على ذلك - قبل كتاب فريدريك فولف « مقدمات نقدية لهومر (١٧٩٥) » بنصف قرن - بأن الملاحم الهومرية إنما هي حصيلة تجمعت وادجت شيئاً فشيئاً لجماعات وأجيال من رواة الملاحم الذين كانوا ينشدون بطولات طرواده وأوديسيوس في مدن اليونان^(١٠٨) . وقبل قرن تقريباً من صور كتاب بارتهولد نيبور « تاريخ روما » (١٨١١ - ٣٢) رفض فيكو الفصول الأولى من تاريخ ليفي لأنها أسطورية . « كل تواريخ

الأهم غير اليهودية كان لها بدايات خرافية^(١١٩) ، وهنا أيضاً يتجنب فيكو في حذر أن يمس تاريخية سفر التكوين) :

وهذا الكتاب الخطير يكشف عن عقل قسوى تزعجه المضايقات المتصلة ، يكافح لصياغة أفكار أساسيه دون أن يقضى به المسير إلى سجن من سجون ديوان التفتيش . وقد بذل فيكو قصاراه المرة بعد المرة ليعلن ولائه للكنيسة وأحسن أنه جدير بثناء الكنيسة لتفسيره مبادئ القانون بطريقة تتفق واللاهوت الكاثوليكي^(١٢٠) . ونحن نسمع نغمة أكثر لإخلاصه في رأيه في الدين دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي والفضلية الشخصية : « أن للأديان دون غيرها القوة على جعل الناس يعملون الأعمال الفاضله^(١٢١)... » ومع ذلك ، ورغم تكرار استعماله للفظ « العناية الإلهيه » ، يبدو انه يبعد الله عن التاريخ ويزد الأحداث إلى التفاعل الحريين الأسباب والنتائج الطبيعية . وقد هاجم دارس دومنيكي فلسفة فيكو لأنها ليست مسيحية بل لوكريتيه .

ولعل العلمانية المنبعثه من تحليل فيكو كان لها بعض الصله بأخفاقها في أن تظفر بالاستماع إليها في إيطاليا ، وما من شك في أن ما شاب عمله من استطراد فوضوى وعاب فكره من اختلاط قد قضى على «علمه الجديد» ، بأن يولد ميتا وأن تكون ولادته مؤلمة . فلم يوافقه أحد على إعتقاده بأنه كُتب كتاباً عميقاً أو مثيراً . وعبثاً ناشد جان لكليز ولو ليذكره في دورية « أخبار عالم الأدب » ، وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب العلم الجديد خف شارل الرابع لنجدة فيكو ، فعينه مؤرخاً رسمياً للملك براتب سنوى قدره مائة دوقاتية . وفي ١٧٤١ قرت عين جامباتستا برؤية ولده جنازو يخلفه أستاذاً في جامعة نابلي . وفي سنواته الأخيرة (١٧٤٣ - ٤٤) ضعف عقله فتردى في غيبية أشرفت على الجنون .

وكان في مكتبة مونتيسيكو نسخه من كتابه^(١٢٢) ، وقد أقر الفيلسوف الفرنسى في هوامش مذكرات خاصه بدينه لنظرية فيكو في التطور والانحلال الدورى ، ويظهر هذا الدين الذى لم يفصح عنه في كتاب مونتيسيكو « عظمة الرومان وإنحطاطهم » (١٧٣٤) . وفيما عدل هذا ظل فيكو مجهولاً

في فرنسا حتى نشر جول ميشليه (١٨٢٧) ترجمة مختصرة. لكتاب العلم الجديد. وقد وصف ميشليه إيطاليا بأنها « الأم الثانية والحاضنة التي غدتني في صباى بفرجل ، وفي شبابه فيكيكو (١١٣) » . وفي ١٨٢٦ بدأ أوجست كونت المحاضرات التي أصبحت فيما بعد « مجموعة محاضرات في الفلسفة الوضعية » (١٨٣٠ - ٤٢) ، وفيها يشعر القارئ بتأثير فيكيكو في كل خطوة .

أما الأنصاف الكامل لفكيكو فلم يأت إلا على يد رجل نابولي هو بنديتو كروتشي (١١٤) ، الذي ألمع هو الآخر إلى أن التاريخ يجب أن يتخذ مكانه إلى جوار العلم أساساً ومدخلا للفلسفة .

ج - موسيقى نابلي

تليت نابلي قول فيثانورس ، قرأت أن الموسيقى أرفع ضروب الفلاسفة . وقد كتب لالاند ، الفلكي الفرنسي ، بعد جولة في إيطاليا في ١٧٦٥ - ٦٦ يقول :

« إن الموسيقى هي الانتصار الأعظم للنابوليين ، وكان أغشية طلبة الأذن في ذلك البلد أشد توترا وتناغما ورنينا منها في أى بلد آخر في أوروبا . فالأمه كلها تغنى . وإيماءات الجسد ، والنبرة ، والصوت ، وإيقاع المقاطع بل والحديث نفسه . . كلها تنفّس الموسيقى . ومن ثم كانت نابلي المصدر الرئيسى للموسيقى الإيطالية ، ولكبار الملمحين ، وللأوبرات الممتازة ، ففيها أخرج كزريلى وفنتشى ورينالدو وجوميللى ودورانتى وليو وبرجوليزى . . . وكثير غيرهم من أعلام الملمحين روائعهم (١١٥) » .

على أن نابلي تفوقت في الأوبرا الألحان الصوتيه فقط ، أما في الموسيقى الآليه فقد عقدت ازعامة للبلدية ، وشكا هواة الموسيقى من أن أهل نابلي أحبوا جيل الصوت أكثر من لطائف الهارموني (التوافق) والكونترابنت . هنا ملك نيكولو برريورا ، « الذى ربما كان أعظم من عاش من معلمى الغناء (١١٦) » . وكان كل شاد أيطالى يصبو إلى أن يكون تلميذه ، فإذا قبله

احتمل في ذلة شلذوذاته العاتية ؛ روى أنه أبقي جايثانو كفاريللى خمس سنوات في صفحة تمارين واحدة ، ثم صرفه مؤكدا له أنه الآن أعظم المغنين في أوروبا (١١٧) . وكان هناك معلم غناء آخر يدعى فرانثيسكو دورانتى ، لم يفوقه مرتبة غير يوريورو ، وقد علم الغناء لفتشى ، وجوميللى ، ويرجوليزى ، وبايزيللو ، ويتشيني .

أما ليونارد وفنتشى فقد بدأ معوقا بسبب اسمه ، ولكنه ظفر بالغناء المبكر بتأليفه أوبرا متاستازيو *Didone abbandonate* . وقال الجاروتى « أن فرجل نفسه كان يهجه أن يسمع تلحيناً فيه هذه الحويه وهذا التعذيب ؛ تهجم فيه على القلب والروح كل قسوى الموسيقى (١١٨) » . وأشهر منه ليوناردو ليو ، في الأوبرا الجادة والهازله ، والاوراتوربو ، والقداسات والموتيتات ، وقد ترددت نابلى فترة بين الضحك على أوبراه الكوميديه *La finta Fracastana* (الضجة المفتعلة) والبكاء على لحن *Miserere* (ارحمنى) الذى لحنه لخدمات الصوم الكبير في ١٧٤٤ .

و حين استمع ايو حوالى عام ١٧٣٥ إلى كنتانا من تلحين نيكولو جوميللى قال في عجب « لن يمض طويل زمن حتى يغدو هذا الفتى محط عجب أوروبا واعجابها . . (١١٩) وقد حقق جوميللى النبوة تقريباً . فى الثالثة والعشرين من عمره ظفر باطراء نابلى الحامسى على أوبراه الأولى ، وفى السادسة والعشرين حقق نصرا مماثلا في روما . وحين مضى إلى بولونيا قدم نفسه على أنه تلميذ لبادرى مارتيني ، ولكن حين سمعه ذلك المعلم المبعجل يرتجل فوجيه بكل تطورها الكلاسيكى صاح « إذن فمن أنت ؟ أترك تسخر منى ؟ لأننى أنا الذى يجب أن يتعلم منك » (١٢٠) . وفى البندقية أثارت أوبراته من الحماسة ما حمل مجلس العشرة على تعيينه مديرا للموسيقى فى مدرسة ذوى الأمراض المستعصية ، وهناك كتب قطعاً من أفضل موسيقى ذلك الجيل الدينية . وحين انتقل إلى فيينا (١٧٤٨) أخذ يلحن مع متاستازيو الذى ارتبط معه برباط صداقة وثيقة . وبعد أن حقق مزيداً من الانتصارات فى البندقية وروما استقر فى شتوتجارت ولود فجبسبرج

(١٧٥٣ - ٦٨) رئيساً لفرقة مرتلى دوق فورتمبرج . وهنا عدل أسلوبه الأوبرالى فى اتجاه ألمانى ، فزاد من توافقه تركيباً ، واضفى مزيداً من المادة والثقل لموسيقاه الآلية ، وتخلّى عن تكرار الألحان من البداية *da capo* وأضاف مصاحبة أوكستراليه للسرديات وأحل الباليه محللاً بارزا فى أوبراته ، ربما متأثراً بجان جورج نويفر ، أستاذ الباليه الفرنسى فى شتوتجارت ، وقد مهدت هذه التطورات فى موسيقى جوميللى ، إلى حد ما ، لاصلاحات جلوك .

فلما عاد الملحن المسن إلى نابلى (١٧٦٨) أنكر الجمهور ميوله التيتونية ، ورفضوا أوبراته رفضاً باتاً . وقد قال موتسارت بعد أن سمع إحداها هناك فى ١٧٧٠ - « إنها جميلة ، ولكن أسلوبها أرفع وأقدم مما يحتمله المسرح » ، (١٢١) ولقى جوميللى حظاً أفضل بموسيقاه الكنسية . فترتلت موسيقى لحن « ارحمنى » و « قداسة للموتى » فى العالم الكلاثنوليكي طويلاً وعرضاً . وقد كتب ولیم بكفورد بعد استماعه إلى القداس يرتل فى لشبونه فى ١٧٨٧ « لم أسمع قط ولعلنى لن أسمع ثانية مثل هذه الموسيقى المهيبة المؤثرة » . (١٢٢) واعتزل جوميللى فى بلده أفرسا بعد أن ادخر لمستقبله بحرص ثيوتونى ، وأنفق سنواته الأخيرة شيخاً بديناً ثرياً . وفى ١٧٧٤ شيع جثمانه بجميع موسيقي نابلى البارزين .

ولقد ضحكت نابلى أكثر حتى مما غنت . فبأوبرا كوميدية غزا برجوليزى باريس بعد أن أثبت تلك المدينة المستكبرة دون سائر العواصم الأوربية أن تخضع لأوبرا إيطاليا الجادة . ولم يخض جوفانى باتستا برجوليزى تلك المعركة بشخصه ، لأنه مات فى ١٧٣٦ فى السادسة والعشرين من عمره . وقد ولد بقرب أنكونا ، ووفد على نابلى وهو فى السادسة عشرة . وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى كان قد كتب عدة أوبرات ، وثلاثين صوناتا ، وقد أسين ، حظيت كلها بالاعجاب الشديد ، وفى ١٧٣٣ قدم أوبرا تسمى *il prigioniero* « السجين » وقدم لها بمقدمة « الخادمة التى تنقلب سيدة البيت : والنص قصة مريحة تحكى كيف تحتال الخادمة سربينا على سيدها

حتى يتزوجها ، أما الموسيقى فساعة حافلة بالمرح والألحان الرشيقة . وقد أسلفنا كيف أسر هذا المرح البارح مزاج باريس وقلبها في «حرب المهرجين» في ١٧٥٢ ، التي عرضت في الأوبرا مائة مرة ، ثم ستا وتسعين مرة أخرى في ١٧٥٣ في التياتر فرانسيه . وقاد برجوليزي أثناء ذلك أوبراه «الأولمبياد» في روما (١٧٣٥) ، فقبولت بعاصفة من صفيح الاستهجان ، وبمرتقالة صويت بدقة على رأس الملحن . (١٢٣) وبعد سنة ذهب إلى بوتسرولي ليعالج من إصابته بالسل . الذي ازداد فداحة من جراء أسلوب حياته الخليع . وقد كفر موته الباكر عن آثامه ، ودفته في الكتدرائية المحلية الرهبان الكبوشيون الذين أنفق معهم أيامه الأخيرة . أما روما التي ندمت على فعلتها فقد بعثت «الأولمبياد» من جديد ، وصفت لها في طرب شديد ، واليوم تحفظ له إيطاليا ذكرى مجيدة لا لفواصله المرحية بقدر ما تحفظها له لركة العاطفة في «آلام العذراء» التي لم يعش ليكملها . وقد جعل برجوليزي نفسه موضوعا لأوبراوين .

وقد أصاب دومنيكو سكاربوني ما أصاب برجوليزي من مبالغة طفيفة نفختها فيه رياح النوق ، ولكن من ذا الذي يستطيع مقاومة تألق براعته وخفة يده ، ولد في عام العجائب ، عام هندل وباخ (١٦٨٥) ، وكان الطفل السادس لألساندرو سكارلاتي ، الذي كان آنند فردى الأوبرا الإيطالية . وقد تنفس الموسيقى منذ ولد . فقد كان أخوه بيترو ، وابن عمه جوزيبي ، وعماه فرانثيسكو وتومازو موسيقيين . وكانت أوبرات جوزيبي تخرج في نابلي وروما وتورين والبندقية وفينا . وخشى الأب أن تحتق عبقرية الفتى دومنيكو بهذه الوفرة في المواهب فبعث به إلى البندقية وهو في العشرين وقال ، ان ابني هذا نسر كبير جناحاه ، فيجب ألا يبقى في العش ، وعلى ألا أعطل طيرانه (١٢٤) .

وفي البندقية واصل الشاب دراساته والتقى بهندل . ولعاهما قصدا روما معا حيث دخلا بتحريض من الكردينال أوتوبوني في مباراة ودية على الهاريسكور دثم على الأرغن . وكان دومنيكو يوسها أفضل عازف على

الهاري سكورد في إيطاليا ، ولكن يروى أن هتدل لم يكن دونه مهارة عليه ، أما على الأرغن فلأن سكارلاتي اعترف بصراحة بتفوق « السكسوني العزيز » عليه . وتوثقت الصداقة بين الرجلين ، وهذا أمر عسير جدا على كبا، الممارسين لفن واحد ، ولكن يقول معاصر لهما أن « دومنيكو كان صاحب طبع غاية في اللطف ، سلوك غاية في النبل » (١٢٥) . أما هتدل فكان قلبه كبيرا كهيكلة . ومنع الإيطالي تواضعه وحيأوه من عرض براعته في العزف على الهاري سكورد أمام الجماهير . ونحن نعرفها من أخبار السهرات الموسيقية الخاصة فقط . وقد خيل لأحد سامعيه في روما (١٧١٤) « أن عشرة آلاف شيطان كانوا يعزفون على الآلة » إذ لم يسمع قط من قبل « مثل هذه الفقرات تنفيذا وتأثيرا » (١٢٦) وكان سكارلاتي أول من طور امكانيات لوحة مفاتيح اليد اليسرى بما في ذلك إمرارها فوق اليد اليمنى . قال « ان الطبيعة منحته عشرة أصابع ، وبما أن آلتى تتيح تشغيلها جميعا . فلست أرى سبيأ في ألا استعملها » (١٢٧) .

وفي ١٧٠٩ قبل وظيفة « مايسترودى كابللا » للملكة بولنده السابقة ماريا كازيميرا . ذلك أنها بعد موت زوجها جان سوييكي نفيت لاعتبارها دساسة مشيرة للقلقل . فلما قدمت إلى روما في ١٦٩٩ صممت على إنشاء ندوة تحفل بالعقريات كصالون كرستينا ملكة السويد التى ماتت قبل ذلك بعشر سنين . فجمعت الكثير من رواد صالون كرستينا السابقين في قصر على ميسدان « ترينيتا دى موتى » وفيهم عدة أعضاء في الأكاديمية الأركادية . وهناك (١٧٠٩ - ١٤) أخرج سكارلاتي عدة أوبرات . ولما شجعه نجاحها ، قدم « أملتو » (هاملت) على مسرح الكايرانيكو . ولم تلق قبولا حسناً من الجمهور ، ولم يعد دومنيكو بعدها قط لتقديم أوبرا لجمهور إيطالى . فلما وضع أبوه مستوى للأوبرا كان أعلى من أن يدركه .

وظل أربع سنين (١٧١٥ - ١٩) يقود الكايبلا جوليا بالفاتيكان ، ويعزف الأرغن في كتدرائية القديس بطرس ؛ ثم لحن الآن « آلام العذراء » التى حكم الجمهور عليها بأنها « رائعة أصيلة » (١٢٨) وفى ١٧١٩ ، قاد أوبراه

« نار تشيزو » في لندن . ثم نجده بعد عامين في لشبونة قائداً لفرقة المنشدين .
للملك يوحنا الخامس ومعلماً لابنة الملك ماريا بربارة ، التي أصبحت بفضل
تعليمه عازفة ماهرة على الهاريسكورد ، ومعظم صوناتاته الباقية ألفها
لاستعمالها . فلما عاد إلى نابلي (١٧٢٥) تزوج وهو في الثامنة والأربعين بماريا
جنتيلي التي لم تتجاوز السادسة عشرة ، وفي ١٧٢٩ اصطحبها إلى مدريد .
في تلك السنة تزوجت ماريا برباره من فرديناند ، ولي عهد أسبانيا . فلما
انتقلت معه إلى إشبيلية رافقها سكارلاتي وظل في خدمتها إلى أن مات .

وماتت زوجة سكارلاتي في ١٧٣٩ مخلفة له خمسة أطفال . وتزوج
ثانية ، وسرعان ما أصبح الخمسة تسعة . فلما أصبحت ماريا بربارة ملكة على
أسبانيا (١٧٤٦) جلبت أسرة سكارلاتي معها إلى مدريد . وكان فارينيللي
الموسيقى الأثير لدى الملك والملكة ، ولكن المغنى والعازف أصبحا صديقين
حميمين . وكانت وظيفة سكارلاتي وظيفة خادم مميز ، عمد البلاط الأسباني
بالموسيقى . وحصل على إذن بالذهاب إلى دبلن في ١٧٤٠ وإلى لندن في ١٧٤١ ،
ولكنه كان أكثر الوقت يعيش في قناعة هادئة بمدريد وأقربها ، متوارياً عن
العالم تقريباً ، لا يخامره الظن على الأرجح بأنه سيكون أثيراً لدى عازفي
البيان في القرن العشرين .

ولم ينشر سكارلاتي في حياته سوى ثلاثين صوناتا من بين ٥٥٥ صوناتا
تستند الآن إليها شهرته استناداً قلماً بفضل حليتها النغمية . وقد دل عنوانها
المتواضع (تمارين على الهاريسكورد) على هدفها المحدود ، وهو ارتياد
إمكانات التعبير بتقنية الهاريسكورد . وهي ليست صوناتات إلا بالمعنى الأقدم
للفظ ، أي قطع آلية « تعزف » ولا تغنى . ولبعضها موضوعات متعارضة ،
وبعضها تزاوج في مقامات كبيرة وصغيرة ، ولكنها كلها في حركات مفردة
لم تبدل فيها أى محاولة لتفصيل الموضوع وتلخيصه . وهي تمثل تحرر موسيقى
الهاريسكورد من تأثير الأرغن ، وتلقى التأثيرات من الأوبرا بمؤلفات للوحة
المفاتيح . وقد تفوقت على حيوية أصوات السوبرانو والمغنين الحصريين
ورقتها ورعاشاتها وحيالها بالأصابع الخفيفة الرشيقة الطيعة لخيال لعبوب مسرف .

لقد « لعب » سكارلاتى الهاريسكورد بمعنى الكلمة الحرفى . يقول فى هذا :
« لا تتوقعوا أى عمق فى العلم ، بل معاينة بارعة بالفن » (١٢٩) . وهناك أثر
فى الرقص الأسباني وما فيه من أرجل طافرة وتنورات مدومة وصاجات
رنانة تحسه فى هذه التموجات والتذفقات ؛ وفى كل موضع من الصوتانات
تجد استسلام العازف للذة التحكم فى آله (١٣٠) .

ولا بد أن هذا الفرح بالآلة كان من بواعث السلوى لسكارلاتى فى سنوات
خدمته تلك فى أسبانيا . وقد نافسته لذة لعب الميسر الذى أتى على الكثير من
معاشه ، واضطرت الملكة إلى سداد ديونه غير مرة . ثم ساءت صحته
بعد ١٧٥١ ، وزادت تقواه وورعه . وفى ١٧٥٤ عاد إلى نابلى ومات فيها بعد
ثلاث سنين . وتولى فارنيللى الطبيب إعالة أسرته المعوزة .

وقد أرجأنا الكلام على سيرة فارنيللى الغربية فى أسبانيا حتى فصل لاحق .
وقد كان هو ودومنيكو سكارلاتى ، وجامباتستا ودومنيكو نيبولو ، من
الإيطاليين الموهوبين الذين كان لهم الفضل ، هم ومنجز المتطلين تقريبا ،
فى استخدام الموسيقى والفن الإيطاليين فى البعث الأسباني . وفى ١٧٥٩ لحق بهم
ملك نابلى أوسبقهم . فى ذلك العام مات فرديناند السادس دون عقب ،
وورث أخوه شارل الرابع ملك نابلى العرش الأسباني باسم شارل الثالث .
وأسفت نابلى على رحيله عنها . وكان هذا الرحيل فى أسطول من ست عشرة
سفينة يوم عطلة حزينة لأهل نابلى ، فاجتمعوا فى حشود كبيرة بطول الشاطئ
ليشاهدوه وهو يقطع ، ويروى أن كثيرين منهم بكوا وهم يرددون « ملاكاً
أنبت أنه أب لشعبه » (١٣١) . وقد كتب له أن يتزوج أعماله يث الشباب فى
حياة أسبانيا .

الفصل العاشر

البرتغال ويومبال ١٧٠٦ - ٨٢

١ - يوحنا الخامس : ١٧٠٦ - ٥٠

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المجيدة التي أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكامويس ؟ لقد كان في جسدها وروحها يوما ما من الهمة ما يكفي لإرتياد نصف الكرة وانشاء المستعمرات البحرية في ماديرا ، والأزور ، وأمريكا الجنوبية ، وإفريقيا ، ومدغشقر ، والهند وملقا ، وسومطرة : أما الآن ، في القرن الثامن عشر ، فقد باتت تنوءاً ضئيلاً لأوروبا ، مقيدة إلى إنجلترا في التجارة والحرب ، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطاني . فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتلك هذا العدد العديد من المخافر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة ؟ أم لعل تدفق الذهب عليها ترح الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانتكست من حياة الأقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة ؟

أجل ، لا بل أنه أوهن من قوة الصناعة أيضاً . فأى جدوى في محاولة تبذلها لتنافس مهرة الصناع أو ملتزمي الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين في الحرف أو الصناعات ، ما دام في طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والتعم بالذهب المستورد ؟ فأما الأغنياء اللذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى ، وازادوا فخامة ملابس وبهاء زينة ، وأما الفقراء الذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب نقد ظلوا يتردون في فقرهم لا يحثهم على الكد والعرق غير حافز الجوع . وأدخل

تشغيل الرقيق في مزارع كثيرة ، وملاّ المتسولون المدن ضجيجاً بصيحاتهم .
وقد كتب عنهم وليم بكفورد حين سمعهم في ١٧٨٧ بقول « ليس بين
الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذى البرتغال قوة رثاء ، ووفرة قروح ،
وكثرة حشرات ، وتنوع أسماك ، وترتيب خرق ، ومثابرة لآثاب ..
أن عددهم لا يحصى ، عى ، صم . جرب (١) » .

ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الجميلة التى نعهد لها اليوم . لقد كانت
الكنائس والأديرة ضاية فى البهاء ، وقصور النبلاء فسيحة ضخمة ، ولكن
نسبة لا تقل عن عشر السكان بغير مأوى ، وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها
رائحة القمامة والقدارة (٢) . ومع ذلك فهنا ، كما فى سائر بلاد الجنوب ،
عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة ، والأسميات المزدانة بالنجوم ،
والموسيقى ، والدين ، والنساء المتدينات ذوات العيون التى تعذب الناظرين .
وكان القوم يتدفقون فى الشوارع بعد أن تخف وقدة القيظ لا يعوقهم لدغ
البراغيث فى أجسامهم ولا طنين البعوض فى الهواء ، فيرقصون ويغنون
ويعزفون على القياثير ويقتتلون للفوز بابتسامة من عذراء .

وكانت المعاهدات (١٦٥٤ . ١٦٦٢ . ١٧٠٣) قد قيدت البرتغال
بانجلترا فى تكافل عجيب حالف بينهما فى الاقتصاد والسياسة الخارجية
وابقاهما فى الوقت نفسه أشد ماتكونان تبايناً فى العادات وخصومة فى العقيدة .
وتعهدت انجلترا بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالى
(البورت من أوپورتو) برسم جمركى مخفض جداً . أما البرتغال فتعهدت
بالسماح باستيراد المنسوجات الانجليزية معفاة من الرسوم ، وبالوقوف فى
صف انجلترا فى أى حرب تنشب . ونظر البرتغاليون إلى الانجليز على أنهم
زنادقة هالكون يملكون أسطولا قوياً ، ونظر الانجليز إلى البرتغال على أنهم
قوم جهلة متعصبون يملكون الموانى الاستراتيجية . وسيطر رأس المال
البريطانى على الصناعة والتجارة البرتغاليتين . كتب بومبال يشكو من هذه
الأوضاع فى شىء من المبالغة : —

« فى سنة ١٧٥٤ لم تكد البرتغال تنتج أى شىء يعينها على الاستكفاء .

فلما الضروريات المادية تزودها إنجلترا . وغدت إنجلترا السيد المتصرف في تجارتنا كلها ، وكان الوكلاء الانجليز يدبرون تجارتنا الخارجية بحملتها . . فهم يملكون كل شحنات السفن المتقلعة من لشبونة إلى البرازيل ، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلا عن هذه الشحنات . فلم يكن شئ * برتغاليا إلا بالاسم فقط (٣) » .

ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفنضتها وأحجارها الكريمة ما يكفي لتمويل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلا عن مجلس الشعب وسلطانة الضريبي . وهكذا عاش يوحنا الخامس ، طوال ملكه الذي امتد أربعة وأربعين عاماً ، يرغل في رغسد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق ، ويلطف من تعدد نساته بالثقافة ويجعله بالولاء للكنيسة . فوهب الأموال الطائلة أو أقرضها للبابوية ، وتلقى نظير ذلك لقب « صاحب الجلالة العظيم الإيمان » بل نال حتى حق تلاوة القديس . . دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . قال فردريك الأكبر « كانت لذاته في الوظائف الكهنوتية ، ومبانيه أديرة ، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات (٤) » .

وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذي يدين لها بالكثير جدا من الغفرانات . فلكت نصف الأراضي (٥) ، وشغل اتباعها تسعائة دار دينية . وبلغ عدد الكنسيين من مختلف الرتب أو الملحقين بالمؤسسات الدينية زهاء ٢٠٠.٠٠٠ في أمة تعد مليونين من الأنفس . واختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء في أرض الوطن وفي المستعمرات ، فلقد ساهموا في الفوز بالبرازيل للبرتغال ، وكان الناس - حتى فولتير - مسرورين بإدارتهم لبارجواى ، ولقى نفر منهم الترحيب في البلاط ، وتمكن بعضهم التسلط على الملك . وكان الملك في موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أحد أعمدة الظلة التي حمل تحفا بطريرك لشبونة السر المقدس . فلما تعجب الانجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الجند والمصلون وكلهم عارى الرأس جاث على ركبتيه ، قيل لهم في تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

المراسم ، وعرض الآنية التفسيرية والرفات المعجز في الكنائس ، عامل رئيسي في حفظ النظام الاجتماعي بين الفقراء .

وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها . وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنهم المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها^(٦) . ومع ذلك كان لهذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكّنها من إحراق ستة وستين شخصا في لشبونة على مدى أحد عشر عاماً (١٧٣٢ — ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه داسيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذي اتهم بأنه يضمر اليهودية . وفي يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت إحدى مسرحياته في ملهى لشبوني^(٧) .

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن . فاستقدم الممثلين الفرنسيين والموسيقين الإيطاليين إلى عاصمة ملكه . ثم أنشأ أكاديمية التاريخ الملكية . ومول القناة الكبرى التي تمتد لشبونة بالماء . وانفق خمسين مليوناً من الفرنكات ليشيد دير مافرا (١٧١٧ — ٣٢) ، الذي يفوق الأسكوريال سعة ، والذي ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح . ورغبة في تزيين داخل الدير استعار من أسبانيا أعظم مصوري القرن البرتغاليين .

وكان هذا المصور — فرانسيسكو فيرا — البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن في شاعرية إفتنت بها البرتغال بأسرها . ولد بلشبونة في ١٦٩٩ ، ووقع في غرام اجنيز إيلينا دي ليما وهما بعد طفلان . ولذا كان مولعا بالتصوير أيضاً ، فقد ذهب إلى روما في التاسعة ودرس فيها سبع سنين ، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى في مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا . وحين عاد في ١٧١٥ اختاره يوحنا الخامس ليرسم صورة « سر التناول » وروى أنه أتمها في ستة أيام . ثم إنطلق باحثاً عن أجنيز ، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة في دير للراهبات . فلجأ فرانسيسكو إلى الملك ، لكنه أبى أن يتدخل في الأمر . فقصد روما وحصل على مرسوم

بابوى يلغى نذور اجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها . ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم . فتنكر فرانسسكو فى زى بناء بعد أن عاد إلى لشبونه ، ودخل الدير وخطف حبيبته وتزوجها . فأطلق عليه أخوها الرصاص ، ولكنه شفى من إصابته وغفر لمهاجمه . وعينه يوحنا الخامس مصورا للبلاط . ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية . وبعد موت اجنيز (١٧٧٥) انفق فرانسسكو ما بقى من أجله فى الأعتكاف الدينى وأعمال البر . كم من قصص كهذه تروى مغامرات الروح والدم ضاعت وراء وأجهات التاريخ ؟

٢ . بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس الخامس عام ١٧٥٠ بعد أن قضى ثمانية أعوام يعانى الشلل والعتة ، وبدأ ابنه يوسف الأول (خوزيه مانويل) حكما حافلا بالأحداث فعين فى وزارته وزيرا للحرب والشئون الخارجية يدعى سباستيا وخوزيه دى كارفالو اى ميللو ، الذى يعرفه التاريخ باسم المريكز بومبال ، أعظم وأرهب من حكم البرتغال من الوزراء فى أى عهد من عهودها .

كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش . تلقى العلم على أيدي اليسوعيين فى جامعة كويمبرا ، واكتسب أول شهرته رياضياً وزعيماً مشاعباً لعصابة « الموهوك » التى عاثت فساداً فى شوارع لشبونة . وفى ١٧٣٣ أغرى النبيلة دونا تريزا دى نورونها بالفرار معه . فتبرأت منها أسرتها ، ثم تبينت موهبته فأعانتته على الترقى فى حرفة السياسة . وأتته زوجته بثروة صغيرة ، وورث مالا آخر من عم له . وشق طريقه بالوساطة والالحاح والكفاية الواضحة . وفى ١٧٣٩ عين وزيراً مفوضاً لدى لندن ، واعتكفت زوجته فى أحد الأديرة حيث ماتت فى ١٧٤٥ وخلال السنوات الست التى قضها بومبال فى لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الانجليزى ولحظ طاعة الكنيسة الانجلىكانية للدولة ، ولعله نفى عنه بعض إيمانه الكاثوليكي . ثم عاد إلى لشبونة (١٧٤٤) ، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (١٧٤٥) ، وهناك تزوج

ابنة أخ للمرشال داون للذى كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة ، وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرز من انتصارات وما منى به من هزائم .

وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له « قلباً فظاً »^(٨) . ولأنه « سليل أسرة قاسية محبة للثأر »^(٩) ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً . ومع ذلك استدعى بومبال إلى أرض الوطن عام ١٧٤٩ ، ورقى إلى منصب الوزارة بفضل تأييد اليسوعيين . وثبته يوسف الأول في وظيفته . وسرعان ما أتاح له ذكائوه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة ، كتب قائم بالأعمال فرنسى يقول « يمكن اعتبار كارفالو الوزير الأول ، فهو سريع البت وافر النشاط لا يعتريه كلل . ولقد كسب ثقة مولاه الملك ، ولم يظفر بها أبداً . أكثر منه في جميع شئون السياسة »^(١٠) .

وظهر نفوقه واضحاً جلياً في الزلزال الكبير الذى زلزل لشبونة في أول نوفمبر ١٧٥٥ . ذلك أنه في الساعة ٩،٤٠ صباح عيد جميع القديسين بينما كان معظم السكان يصلون في الكنائس ، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت نصفها أنقاضاً ، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص ، ودمرت أكثر الكنائس . وأبقت على معظم المواخير^(١١) وعلى بيت بومبال . وهرع كثير من السكان فرغاً إلى شواطئ تاجه ، ولكن موجة مد بلغ ارتفاعها خمس عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس ، وحطمت السفن الراسية في النهر . وحصدت الحرائق التى اندلعت في أحياء المدينة كلها مزيداً من الأنفس . وفى نهار القوسى التى ضربت أطنابها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون وهم آمنون . أما الملك الذى لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق النفس ، فقد طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغى صنعه . ويقال أن بومبال أجاب « علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء » . وأطلق يوسف يده ، واستعمل بومبال سلطنته بما تميز به من همة وسرعة . فعين الجند لحفظ النظام وأقام الخيام والمسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى . وأمر بأن يشق فوراً كل من وجد يسرق الموتى . ثم حدد أسعار المأون بما لا يزيد على أسعارها (م ٦ - قصة الحضارة ج ٤٠)

السائدة قبل الزلزال ، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبيعها بتلك الأسعار . وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذى لم ينضب ، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة . وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (١٢) .

وكان لنجاحه في هذه الكارثة التى أضعفت معنوية الأمة الفضل في ترسيخ قدمه في الوزارة واضطلع الآن بعمليتين بعيدى الأثر : أولهما تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة ، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا . وتطلبت المهمتان رجلاً أوتى صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التى لا تعرف شفقة أو رحمة .

ولإذا كان عداؤه للكليريكية قد تركز على اليسوعيين فإنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لملك البرتغال للأقاليم البراجوانية التى كان اليسوعيون منذ عام ١٦٠٥ ينظمون فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ هندي في إحدى وثلاثين مستوطنة ، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية في خضوع شكلي لأسبانيا (١٣) . وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطوري تماماً) في تربة براجواي ، وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة الصادر البراجوية ويضيفون الأرباح إلى أموال طائفتهم . ففي ١٧٥٠ فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكومنتو الغنية (على مصب الريودي لابلاتا) بديلا عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجاورة للحدود البرازيلية . واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندي المقيمون في هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين . وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا يسوعي براجواي بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل في هدوء . وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر ، أما الهنود فقاموا في إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشا برتغاليا ثلاث سنين . واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سرّاً .

فَعَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَنْهَى كُلَّ مِشَارَكَةٍ لِلْيَسُوعِيِّينَ فِي الصَّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالْحُكُومَةِ الْبَرْتِغَالِيَّةِ . فَلَمَّا أَدْرَكَ يَسُوعِيُو الْبَرْتِغَالِ نِيَّتَهُ تَضَافَرَتْ جُهُودُهُمْ لِلْإِطَاحَةِ بِهِ .

وَكَانَ قَائِدُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ جَابِرِيْلُ مَالَا جَرِيْدَا ، الَّذِي وَلَدَ بِمَنَادَجُو (عَلَى بَحِيرَةِ كُومُو) عَامَ ١٦٨٩ ، وَتَمَيَّزَ عَلَى أَقْرَانِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ بِمَا مَارَسَ مِنْ عَضِّ يَدَيْهِ حَتَّى يَدْمِيَهُمَا ، وَكَانَ يَقُولُ أَنَّهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَعِدُ نَفْسَهُ لَتَحْمِلِ آلَامَ الْإِسْتِشْهَادِ . ثُمَّ التَّحَقَّقَ بِجَمْعِيَّةِ الْيَسُوعِيِّينَ ، وَأَبْجَرَ إِلَى الْبِرَازِيلِ مَبْعُوثًا . وَرَاحَ يَبْشُرُ الْهِنُودَ فِي الْأَدْغَالِ بِالْإِنْجِيلِ مِنْ ١٧٢٤ إِلَى ١٧٣٥ . وَأَفْلَتْ مِنْ الْمَوْتِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ — مِنْ أَكْلَةِ لَحُومِ الْبَشَرِ ، وَمِنْ التَّمَسُّيحِ ، وَمِنْ الْغُرُقِ فِي السَّنِينَةِ ، وَمِنْ الْمَرَضِ . وَابْيَضَّتْ لَحْيَتُهُ فِي بَوَاكِرِ كَهُولَتِهِ . وَنَسَبَتْ إِلَيْهِ قُوَى خَارِقَةٌ ، وَكَانَتْ الْجُمُوعُ الْمَتَرَقِبَةُ تَتَّبِعُهُ أَيْنَمَا ظَهَرَ فِي مَدَنِ الْبِرَازِيلِ . وَبَنَى الْكِنَائِسَ وَالْأَدِيرَةَ ، وَأَسَّسَ الْمَدَارِسَ الْلَاهُوتِيَّةَ . وَفِي ١٧٤٧ قَدِمَ عَلَى لَشَبُونَةِ فِي طَلَبِ الْمَالِ مِنَ الْمَلِكِ يُوْحَنَّا . وَحَصَلَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَبْجَرَ قَافِلًا إِلَى الْبِرَازِيلِ وَأَسَّسَ الْمَزِيدَ مِنَ الْبُيُوتِ الدِّينِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَاشَارَكَ بِيَدَيْهِ فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ . وَفِي ١٧٥٣ عَادَ إِلَى لَشَبُونَةِ ثَانِيَةً ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وَعَدَ بِأَنْ يَعِدَ الْمَلِكَةَ الْأُمَّ لِقَاءَ رِبِّهَا . وَقَدْ عَزَا زَلْزَالُ ١٧٥٥ لَخَطَايَا الشَّعْبِ ، وَطَالَبَ بِإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَنَبَّأَ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ أَفْرَادِ طَائِفَتِهِ بِمَزِيدَ مِنَ الزَّلَازِلِ إِنْ لَمْ تَتَّصِلِحِ الْأَخْلَاقُ . وَأَصْبَحَ بَيْتُ خُلُوتِهِ الدِّينِيَّةِ بُورَةً لِلْمُؤَامَرَاتِ ضِدَّ بَوْمِبَالِ .

وَكَانَ بَعْضُ أَسْرِ النَّبَلَاءِ ضَالَعِينَ فِي هَذِهِ الْمُؤَامَرَاتِ . وَاحْتَجُّوا بِأَنْ ابْنَ مَالِكِ أَرْضِ رِيْبِي حَقِيرٌ قَدْ سَوَّدَ نَفْسَهُ عَلَى الْبَرْتِغَالِ ، وَقَبَضَ عَلَى مَقَالِيدِ حَيَاتِهِمْ وَمَقْدَرَاتِهِمْ . وَكَانَ أَحَدُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ تَحْتَ زَعَامَةِ دُومِ خُوزِيَه دِي مَاسْكَارِيْنِهَاسَ ، دُوقِ أَفِيرُو ، وَآخِرُ يَرَأْسِهِ ابْنُ أَخِي الدُّوقِ وَهُوَ دُومُ فَرَانْسِيْسْكَو دِي أَسِيْزَ ، مَرْكَيزُ طَابُورِهِ . وَكَانَتْ زَوْجَةُ طَابُورِهِ ، وَهِيَ الْمَرْكَيزَةُ دُونَا لِيُونُورَ ، لِأَحَدِي زَعِمَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْبَرْتِغَالِيِّ ، تَلْمِيذَةً شَدِيدَةً التَّحَمُّسِ الْأَثْبَ مَالَا جَرِيْدَا كَثِيرَةً التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَكْبَرُ أَبْنَائِهَا ، الدُّومُ لُويْزُ بَرْنَارْدُو ، « مَرْكَيزُ طَابُورِهِ الْأَصْغَرُ » مَتَزَوِّجًا مِنْ عَمَّتِهِ . فَلَمَّا رَحَلَ

رجل لويز إلى الهند جندياً ، أصبحت هذه : « المركيزة الصغيرة » الفاتنة الرائعة الجمال خليعة ليوسف الأول ، وهذا أيضاً لم ينس قط آل أفيرو وطابوره . وافقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف .

ورد بومبال باقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سرّاً المزيد من الثورة في بارجواي ، وأنها لا تنأمر على الوزارة فحسب بل على الملك أيضاً . ففي ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ أقصى مرسوم ملكي عن البلاط أباء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين . وأمر بومبال ابن عمه ، فرانسيسكو دى المادا أى مندونسا ، المبعوث البرتغالي لدى الفاتيكان ، ألا يضمن بالمال في سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناوئ لليسوعيين في روما . وفي أكتوبر قسّم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهم الموجهة إلى اليسوعيين : اتهموا بأنهم « ضحوا بكل العهد والواجبات المسيحية ، والدينية ، والطبيعية ، والسياسية في رغبة عمياء ... في جعل أنفسهم سادة على الحكومة » . وبأن الجمعية مدفوعة « بشره لا يشيع لإقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها ، بل حتى لإغتصاب أملاك الملوك ^(١٤) » ، وفي أول إبريل ١٧٥٨ أمر البابا الكردينال دى سالدانها ، بطريك لشبونة ، بالتحقيق في هذه التهم . وفي ١٥ مايو نشر سالدانها مرسوماً يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة . « مغالين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية » ، وأمرهم بالكف عنها . وفي ٧ يونيو ، بتحريض من بومبال في أغلب الظن ، أمرهم بالامتناع عن سماع الاعترافات أو عن الوعظ . وفي يوليو نفى رئيس يسوعى لشبونة إلى مسافة ستين فرسخاً عن القصر الملكي : وخلال ذلك (٣ مايو ١٧٥٨) مات بندكت الرابع عشر ، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى ، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التي رماهم بها بومبال ^(١٥) .

وخامر الناس بعض الشك في أن يوسف الأول سيؤيد وزيره في هجومه على اليسوعيين ، ولكن تحولا فجائياً في الأحداث دفع الملك دفعاً تاماً إلى صف بومبال . ذلك أن يوسف كان في ليلة الثالث من سبتمبر ١٧٥٨ قافلاً إلى قصره القريب من بيليم من لقاء عرام سرى مع مركيزة

طابوره في أغلب الظن^(١٦) ، وقبيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقوا النار على المركبة دون أن يصيبوا هدفهم ، وأطلق السائق لجواده العنان ، وما هي إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر ، وأصابتا الأولى السائق والأخرى الملك في كتفه وذراعه اليمينين ، وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كميناً ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيليم ، ولكن يوسف أمر السائق أن يحمي عن الطريق الرئيسي ويقصد بيت جراح الملك ، الذي ضمد جراح الرجلين . ولعل الأحداث التالية التي أحدثت ضجة في جميع أرجاء أوربا ، كانت تختلف كل الاختلاف لونيح السكين الثالث في الاغتيال المبيت .

وتصرف بومبال بتدبر ودهاء . فنفتت أشاعات الهجوم رسمياً ، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كبرة كبهاها ، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة . فوجدوا رجلاً شهد بأن انطونيو فريرا استعار بنديقية منه في ٣ أغسطس وردها إليه في ٨ سبتمبر ، وقيل أن رجلاً آخر قال أن فريرا استعار مسدساً منه في ٣ سبتمبر ورده بعد أيام . وقال الشاهدان أن فريرا في خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو ، وهو خادم في بيليم ، بأنه في ليلة الهجوم ، بينما كان في لقاء خارج بيت أفيرو ، سمع عفواً أفراداً من أسرة أفيرو عائدين من مغامرة ليلية .

وأعد بومبال لقضيته في حيطة وجراة . فضرب صفحاً عن الإجراءات الذي يتطلبه القانون ، والذي كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء ؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبداً . وبدلاً من هذا ، أصدر الملك في ٩ ديسمبر مرسومين ، وكان هذا الإصدار أول كشف علني عن الجريمة : فعين المرسوم الأول الدكتور بدرو جونسا لفيس بريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى ، وأمره الآخر بأن يميظ اللثام عن المسئولين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعذبهم . ونحول جونسا لفيس بريرا سلطة أغفال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات ، وأمرت المحكمة

بمتنفيذ أحكامها يوم إعلانها . وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة ، يروى أحداث ٣ سبتمبر ، ويعذب بمكافأة أى شخص يقدم الأدلة التي تعين على القبض على القتلة (١٧) .

وفي ١٣ ديسمبر قبض ١٣ موظفاً حكومياً على دوق أفرو ، وعلى ابنه المركز جوفيا البالغ من العمر ستة عشر عاماً ، وعلى خادم أنطونيو فريرا ، وعلى مركزى طابوره الأب والابن ، وعلى مركبة طابورة الأم ، وعلى كل خدم الأسرتين ، وعلى خمسة نبلاء آخرين . وطوق الجند في ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية ، وأودع السجن مالا جريدا واثنا عشر آخرون من زعماء اليسوعيين . وتعجلاً للفصل في الأمر ، أباح مرسوم ملكي صادر في ٢٠ ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه للعرف في البرتغال) استعمال التعذيب لاستخلاص الاعترافات من المتهمين . وفحص خمسون سجيناً بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب . وورطت عدة اعترافات دوق أفرو ، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب ، واعترف أنطونيو فريرا أنه أطلق النار على المركبة ، ولكنه أفسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك . وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدم تلك الأسرة بحملتها للخطر ، واعترف المركز الابن باشتراكه ، أما المركز الأب الذي عذب حتى كاد بلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب . وكان بومبال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين . وكان قد أمر بتفتيش البريد ، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعاً وعشرين رسالة كتبها دوق أفرو . وعدة أفراد من آل طابوره . ومالا جريدا وغيره من اليسوعيين ، لا حاطة أصدقائهم أو أقربائهم في البرازيل بالمحاولة الفاشلة ، واعدتهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة . وفي ٤ يناير ١٧٥٩ عين الملك الدكتور أوزيبيوتافاريس دى سكوبرا للدفاع عن المتهمين . ودفع سكوبرا بأن الاعترافات التي انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة في الدلالة على الجريمة ، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون اثبات غيابهم ليلة الجريمة . على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع . ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحة وأنها تؤيد الاعترافات ، وفي ١٢ يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون .

وأعدم تسعة منهم في ١٣ يناير في ميدان بيليم العام . وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طابورة الأم . فأنحنى الجلاد ليوثق قدميها وهي على المقصلة فدفعته قائلة « لاتمسنى إلا لتقتلنى » (١٨) وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التي سيموت بها زوجها وابناها — وهي دولاب التعذيب ، والمطرقة والخطب — ضرب عنقها . وحطم ولداها على الدولاب ثم شنقاً ، وظلت جثتها على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركيز طابوره الأب . وذاقا مرارة الضربات المخطمة ذاتها ، وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدام آخر المتهمين — وهو أنطونيو فريرا الذى أحرق حياً . ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها في نهر تاجه . ومازال الجدل قائماً في البرتغال حول هؤلاء النبلاء ، هل تعمدوا حقاً قتل الملك أم لا ؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال .

أكان اليسوعيون ضالعين في تلك المحاولة ؟ لم يكن هناك شك في أن مالا جريدا في غضباته المضربة كان قد تنبأ بسقوط بومبال وبموت الملك وشيكا ، (١٩) ولم يكن هناك شك في أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف . وكان قد دل ضمنا على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الخدر من خطر وشيك . فلما سئل وهو في السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب في « كرسى الاعتراف » . (٢٠) وفي غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعيين) « ليس هناك دليل إيجابي يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء » (٢١) . ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم وعظهم وتعاليمهم لإثارة دفعهم إلى محاولة الاغتيال . وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها لمزاء الكنيسة . وعليه ففي ١٩ يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين في المملكة ، وبإلزام جميع اليسوعيين بيوثهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا في التهم الموجهة إليهم . واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة لطبع — ويوزع عماله على نطاق واسع في الداخل والخارج — كراسات تبسط الحجج التي تدين الأشراف واليسوعيين ، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

لتفسير تصرفاتها للأثم الأخرى . وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر في
المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا .

وفي صيف ١٧٥٩ استأذن بومبال كلمنت الثالث عشر في تقديم اليسوعيين
المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الحياة العظمى ، وزاد بالاقتراح بأن يحاكم
جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة ، منذ الآن ، أمام محكمة مدنية
لاكنتسية . وصرحت رسالة شخصية من يوسف إلى البابا بعزم الملك على
طرد اليسوعيين من البرتغال ، وأعربت عن الأمل في أن يوافق البابا على
هذا الإجراء باعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم ، وضروريا لحياة الملكية .
وصدمت هذه الرسائل كلمنت ، ولكنه خشى أن قاومها صراحة أن يقنع
بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية . وتذكر
ما فعله هنرى الثامن عشر في إنجلترا ، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزداد
عداء للجماعة اليسوعيين ، ففي ١١ أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين
أمام المحكمة المدنية ، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها .
ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرافة بالتساوية المتهمين ، وذكر
يوسف بانجازات هذه الطائفة الماضية ، وأعرب عن رجائه ألا يؤخذ
جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم .

ولكن نداء البابا فشل . ففي ٣ سبتمبر ١٧٥٩ - وكان اليوم ذكرى
الاغتيال المبين - أصدر الملك مرسوماً ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة
لليسوعيين ، وأمر بما يأتي :

« أن هؤلاء الرهبان ، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن
رهبنتهم المقدسة ، ولما أصابهم من عجز واضح عن العودة إلى شعائرها
بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة ، يجب أن ينفوا نفياً حقيقياً فعلاً . .
وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أملاك جلالته ، باعتبارهم عصاة سيئى
السمعة وخونة ، وأعداء ، اعتدوا على شخصه الملكى وعلى مملكته . .
ويقضى الأمر ألا يقبلهم أى شخص كائناً ما كانت مكانته أو وضعه فى أى

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتا سواء بالحديث أو المراسلة ، وإلا كان جزاؤه الموت الذى لا رجوع فيه (٢٢) .

واستثنى من المرسوم اليسوعيون الذين لم يندروا أنفسهم النذر الوثيق للرهينة ، والذين يجب عليهم أن يلتمسوا إعفاءهم من ندورهم الأولية . وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها ، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية (٢٣) . واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال فى مركبات أوسيرا على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى ايطاليا . وتم ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغير هامن الممتلكات البرتغالية . ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيتافيكيا فى ٢٤ أكتوبر ، ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك . كان بعضهم ضعيفا لكبره ، وبعضهم يكاد يتضور جوعا ، وبعضهم مات فى الطريق . ورتب قائد الجماعة ، لورنتسوريكى ، استقبال الأحياء منهم فى بيوت يسوعية فى ايطاليا ، وشارك الأخوة الدومسكان فى استضافتهم . وفى ١٧ يونيو ١٧٦٠ أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان .

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً ، ولكنه كان عاجيا بأنه نصر لانخبه الأمة ، وأفضى به الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة ، فبدأ حكما من الاستبدادية والارهاب حتى عام ١٧٧٧ . وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه ، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين . وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لآتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك ، أو باشتراكهم فى المؤامرة القديمة . وأصبحت قلعة جنكيرا ، المتوسطة الموقع بين لشبونة وبيليم ، سجنأ خاصأ للأشراف زج فيه كثير منهم حتى قضوا نحبهم . وفى سجون أخرى أودع اليسوعيون المحبوبون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة — وظل بعضهم نزليها تسعة عشر عاماً .

أما مالا جريدا فقد ظل يدوى فى سجنه اثنين وثلاثين شهرا قبل أن

يمثل أمام المحكمة . وسلى الشيخ سجنه بتأليفه كتاب « حياة القديس حنه البطولية ، أم مريم ، أملت القديسة حنه ذاتها للأب المبجل ما لاجريدا » ، وصودر المخطوط بأمر بومبال ، وقد وجد فيه عدة سخافات يمكن أن ترصف بالهرطقة : فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنه حبلى بها كما حبلى بمريم ، دون أن تلوئها الخطيئة الأصلية ، وأنها كانت تتكلم وتبكي فى بطن أمها^(٢٤) . وبعد أن عين بومبال أخاه بول دى كارفالو رئيساً لديران التفتيش فى البرتغال ، أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه ، وكتب بيده ورقة اتهم تهم اليسوعيين بالجشع ، والرياء ، والدجل ، وانتهاك المقدسات ، وتهديدهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته . وإذ كان مالاجريدا - الذى بلغ الآن الثانية والسبعين - قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابده من عذاب ، فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسه تريزا^(٢٥) . وأراد قاض منهم أن يقف المحاكمة اشفاقاً على الشيخ فحى بأمر بومبال . وفى ١٢ يناير ١٧٦١ حكمت المحكمة المقدسة بأن مالاجريدا مذنب بالهرطقة ، والتجديف ، والضلال ، وبخداع الشعب بما زعم من اعلانات إلهية له . ومد فى أجله ثمانية شهور آخر . وفى ٢٠ سبتمبر سيق إلى مشنقة فى البراسا روسيو ، فشنق ، وأحرق مشدوداً إلى خازوق . وقال لويس الخامس عشر معقبا بعد سماعه بالإعدام « لكأنى أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البتيت (ميزون) الذى يزعم أنه الله الآب^(٢٦) . وكان رأى فولتير فى الحادث وهو يسجله « أنه حماقة وسخف مقرونان بشرغاية فى البشاعة^(٢٧) » .

ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور ، بعد أن كان رأيهم فيه فى ١٧٥٨ أنه « مستبد مستنير » . لقد رحبوا بالإطاحة باليسوعيين ، ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التى انتهجها الدكتاتور ، والنعمة العنيفة التى سرت فى نشراته ، والوحشية التى لوئت عقوباته . وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم ، واعداد الأسر العريقة بالجملة ، والمعاملة غير الإنسانية التى لقيها مالاجريدا . على أنه لم

يصلنا أى سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثمانى ستوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التى سمحت بتداول مؤلفات متطرفه ، كقاموس فولتير الفلسفى وعقد روسو الاجتماعى .

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات ، وكان يختلف إلى القداس بانتظام . ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل اخضاعها للملك ، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام ١٧٧٠ على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفية ، اصطالح مع الفاتيكان : وأسعدت يوسف الأول - وقد دنا أجاه - فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت . وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أخى بومبال ، وأتمحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا ، ومنمنمة إطارها من الماس ، ورفات كامل لأربعة قديسين .

٣ -- بومبال المصلح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية . وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الانجليز والألمان ، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا فى حرب السنين السبع . وانتهج ما انتهجه ريشليو فى فرنسة القرن السابع عشر ، فعهد من سلطان الارستقراطية الممزق للأمة ، ومركز الحكومة فى ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية ، والتطور التعليمى ، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد اعدام آل طابوره عن التآمر على الملك ، ونخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين . وفى فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة ، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما . وحدث مرسوم ملكى من اقتناء الكنيسة للأرض ، وقيد حرية الرعايا البرتغاليين فى تحميل تركاتهم بوصايا لإقامة القداديس^(١٨) وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقي منها قبول رهبان جدد تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين . وأخضع ديوان

التفتيش لإشراف الحكومة . وخولت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة ، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات ، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجددهم (أى اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم) ، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقا ساميا^(٢٩) . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية^(٣٠) ، ولم تحرق محكمة التفتيش انسانا بعد احراق مالا جريدا عام ١٧٦١^(٣١) .

في تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء ، ويسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضي أقل كلفة . وفي ١٧٦١ أعاد تنظيم الخزانة ، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع ، وأمر بأن تراجع إيرادات ومصروفات البلديات كل سنة ، وحقق بعض التقدم في أشد الإصلاحات كلها عسرا - وهو خفض عدد الموظفين في البلاط الملكي والحد من الاسراف في نفقاته . فتخلص من الثمانين طاهيا الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبيطانته ، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ ألغى الرق في الواقع في البرتغال ولكن سمح باستمراره في المستعمرات .

وامتدت يد المصلح إلى كل ركن . فبذل الدعم الحكومي للزراعة ومصايد الأسماك ، وأدخل دودة القز في المقاطعات الشمالية . وأنشأ الفواخير ، ومصانع الزجاج ، ومصانع القطن والصوف والورق ، لينهى اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج . وألغى المكوس الداخلية في انتقال السلع ، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية . وأسس كلية للتجارة يدرب فيها الرجال على إدارة الأعمال . ونظم وأعلن بالمال الشركات لتتلقى تجارة البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها ، وفي هذا فشل - أو فشلت البرتغال - لأن

تجاجة البرتغال في ١٧٨٠ كان أكثرها لا يزال في أيدي الأجانب لاسيما
البريطانيين .

واقضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملا . فشرت
في البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التي بلغ عددها ٨٣٧ —
وحولت الكلية اليسوعية في لشبونة إلى كلية للإشراف يديرها العلمانيون .
ووسع منهج الدراسة في كويمبرا وأضيفت إليه مقررات في العلوم ، وأقنع
بومبال الملك بتشديد دار للآوبرا ودعوة المغنين الايطاليين لقيادة الفرق ،
وفي ١٧٥٧ أسس « أركاديا لشبونة » لتشجيع الأدب .

وحظى الأدب البرتغالي طوال نصف قرن مثير (١٧٥٥ — ١٨٠٥)
بحرية نسبية في الأفكار والأشكال . وبعد أن حرر نفسه من الغاذج
الإيطالية ، أقر بسحر فرنسا ، وأحسن بنسائم تهب عليه من حركة التنوير .
وظفر أنطونيو دينيز داكروز أي سيلفا بالشهرة في وطنه كله بكتابة
هجاء سماه « أو هسوي » (١٧٧٢) ، ووصف فيه في ثمانية أقسام شجارا
بين أسقف وكبير كهنة ، وترجم نحووا أنستاسيودا كونها بوب فولتير ،
وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (١٧٧٨) عقب سقوط بومبال .
وأولع فرانسسكو مانويل دوناسكيمنتو بالكتب ، وكان ابن عامل في
تفريغ السفن وشحتها ، وأصبح قطبا للجامعة تمردت على الأكاديمية الاركادية
لأنها عائق لتطور الشعر القومي . وفي ١٧٧٨ أمرت محكمة التفتيش بالقبض
عليه (مغتمة ثانية فرصة سقوط بومبال) متهمة إياه بالولع بالفلاسفة
المحدثين من اتباع العقل الطبيعي « ففر إلى فرنسا ، حيث انفق تقريرا
كل سنه الواحدة والأربعين الباقية من عمره ، وهناك كتب معظم قصائده
التي تنقد بحب الحرية والديمقراطية ، وفيها قصيده غنائية « لحزية
الولايات المتحدة واستقلالها » وقد عده أنصاره أماما للشعر البرتغالي لايمزه
فيه غير كاموئبس . وحوى مجلد في قصائد الحب يسمى « أماريليا »
أرشق وأرخم شعر العصر ، الذي خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذي عانى
السجن (١٧٨٥ — ٨٨) بتهمة التآمر السياسي ومات في المنفى ، أما خوزيه

أجوستينودى ما سيدو ، الراهب الأوغسطينى الذى جرد لفسقه ، فقد اتخذ فى جرأة ، لقصيدته « أو أورينتى » الموضوع الذى اتخذته من قبل كاموثيس - وهو رحلة فاسكودا جاما إلى الهند . وكان يرى قصيدته أعظم من اللويزياده « والإلياذه » ولكنهم يؤكدون أنها عمل كتيب . وأطرف منها هجاء كتبه فى ستة أقسام « أوس بوروس » شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب ، الأحياء منهم والأموات . وكان ألد خصومه ما نويل ماريا باربوزادى بوساجى ، الذى سجنته محكمة التفتيش (١٧٩٧) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية فى شعره وتمثيلياته . وقد رده لإعدام مارى انطوانيت إلى المحافظة فى الدين والسياسة ، فاستعاد تدينه أيام الشباب ، ورأى فى البعوضة دليلاً على وجود الله (٣٢) .

أما الحدث العظيم فى تاريخ الفن فى حكم بومبال فهو التمثال الذى صنع ليوسف الأول ، والذى مازال قائماً فى ميدان الحصان الأسود ببلشبونة . وقد صممه يواكيم مكادوى كاسترو ، وصبه بالبرونز تر تولوميو داكوستا وهو يمثل الملك راكباً جواداً مطهماً ، ظافراً فوق أفاعى ترمز إلى القوى الشريرة التى غلبها فى حكمه . وجعل بومبال من إزاحة الستار عن هذا الأثر (٦ يونيو ١٧٧٥) احتفالاً بوزارته المنتصرة . فاصطف جنود الجيش فى الميدان ، واجتمع رجال السلك السياسى ، والقضاء ، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسمية ، ثم أقبلت الحاشية ، ثم الملك والملكة ، وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التمثال والقاعدة الضخمة التى صورت ميدالية عليها الوزير لابساً صليب المسيح . وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقى للاحتفال هو بومبال .

وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفا وردى اللون للتقدم الذى حققه بومبال منذ ١٧٥٩ : نشر التعليم والإمام بالقراءة والكتابة ، نمو الصناعة والتجارة ، وتطور الأدب والفن ، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، على أن توخى الصديق لا بد أن يختزل الكثير من وصفه هذا ، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان ، ولكن فى بطء شديد ،

وكلنا تعانين المصاعب المالية ، أما الفنون فركدت ، وكان نصف لشبونة لا يزال (١٧٧٤) في الخراب التي سببها زلزال ١٧٥٥ . وكان تعلق الشعب الفطري بأهداب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده . وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم . وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبنى لنفسه قصرأ غالى التكلفة . ولم تكذ توجده أسرة نبيلة فى المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يندوى فى غياب السجون . وكان الناس فى طول البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سرا بأن يسقط بومبال عن عرشه .

٤ — انتصار المسافى

فى سنة ١٧٧٥ بلغ الملك الستين . وكانت العلل والخليلات قد أشبهه قبل أوانه ، وراح ينفق الساعات متأملاً فى الخطيئة والموت . وسأل نفسه أكان على حق فى انتهاج سياسات وزيره ، وهل كان منصفاً لليسوعيين ؟ ثم ماخطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجون ؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه . ولكن أنى له أن يذكر فكرة كهذه لبومبال الذى لا تلين له قناة ، وماذا تراه صانعاً بغير بومبال ؟ وفى ١٢ نوفمبر ١٧٧٦ أصيب بنوبة فالج ، وكان البلاط يغتبط توقعاً لحكم ملك جديده ووزارة جديدة . وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسيسكا التى كانت زوجاً لأخيه بدرو . وكانت امرأة صالحة ، وزوجاً وأما صالحة ، وإنساناً عطوفاً باراً ، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً ، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرها حملها على ترك البلاط لتعيش فى هدوء مع بدرو فى كيلود على أميال من العاصمة . وأحاط الدبلوماسيون الأجانب حكوماتهم بأن تتوقع انقلاباً وشيكاً فى السياسات البرتغالية .

وفى ١٨ نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة ، وفى ٢٩ نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش . وكان من أول أفعالها إنهاء سجن أسقف كومبرا ، ورد الخبر البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

الشاملة تقريباً . ورأى بومبال سلطانه يتضائل ، ولحظ في نذر قاتمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس اتباعاً أذلاء له ، يرونه الآن وقد قضى على نفوذه السياسى . وفي عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التى عارض أهلها — وكانوا صيادى سمك — تجنيد أبناءهم بالقوة ، فأمر فصيلة من الجند بأن يحرقوا القرية : فأحرقوها بإلقاء المشاعل الملتهبة من نوافذ الأكواخ الخشبية فى ظلام الليل (٢٣ يناير ١٧٧٧) .

وفى ٢٤ فبراير مات يوسف الأول ، وأصبحت الوصية الآن للملكة ماريّا الأولى (حكمت ١٧٧٧ — ١٨١٦) ، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (١٧٧٧ — ٨٦) . وكان بدرو رجلاً ضعيف العقل ، واستغرقت ماريّا فى التقوى وأعمال البر . وسرعان ما استعاد الدين سلطانه ، وقد كان نصف حياة الشعب البر تغالى . واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها فى الرقابة وقمع الهرطقة . وأرسلت الملكة ماريّا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت فى رعاية اليسوعيين المنفيين . وفى غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين ، وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته . وكان كثير منهم قد قضى عشرين عاماً فى غياهب السجون ، فلما خرجوا لم تحتمل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً فى أسماج بالية ، وبدا الكثيرون منهم فى ضعفى سنهم ، وكان المئات من السجناء قد قضوا نحبهم فى سجونهم . ولم يبق على قيد الحياة من بين ١٢٤ يسوعياً زج بهم فى السجون قبل ثمانية عشر عاماً سوى خمسة وأربعين (٣٢) . ورفض خمسة من الاشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم فى مؤامرة قتل يوسف أن يبرحوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً .

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم ، ولنبأ تحريق تريفاريا ، أثرهما فى تفاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم يعد يجرؤ فيه على الظهور علانية . وفى أول مارس أرسل إلى الملكة ماريّا كتاباً يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن فى الاعتكاف فى ضيعته بمدينة بومبال . وطالب

الاشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه ، ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التي استنكرتها كان قد وقعها الملك السابق ، قررت أنها لا تستطيع عقاب بومبال دون أن تلتطخ أمام الناس ذكرى أبيها . فقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال في بومبال ، ولكنها أمرته أن يلزمها وفي ٥ مارس غادر لشبونة في عربة خفيفة مستأجرة آملا أن يفلت من أنظار الناس ، ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم . ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس ، وكان يومها في السابعة والسبعين .

والآن وقد غدا مواطنا عاديا تكاثرت عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها ، وأضرار أوقعها بالشاكين ، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضا كافيا . وحاصر المحضرون أبوابه في بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية . كتب يقول « ما من دبور أو بعوضة في البرتغال إلا طارا إلى هذه البقعة النائية وطنا في أذنى . وساعدته الملكة بأن واصلت اجراء الراتب الذى كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياة وزادت عليه معاشاً متواضعا ، بيد أن اعداء لاحصر لهم الحوا على الملكة في تقديمه للمحاكمة بتهمة الانحراف والخيانة . وقد اتخذت اجراء وسطا بسماعها للقضاة بأن يزوروه ويسألوه في أمر هذه التهم . فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الدكتاتور العجوز الرحمة . وأجلت الملكة التصرف في تقرير الفحص ، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج ، وسعت في الوقت نفسه إلى تهديته خصومه بأن أمرت بإعادة محاكمة المتهمين الذين أدينوا بالاشتراك في محاولة اغتيال أبيها . وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذبذوق أفيرو وثلاثة من خدمه ، ولكنها برأت ساحة باقى المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابورين . وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحياء منهم (٣ . إبريل ١٧٨١) . وفي ١٦ أغسطس أصدرت الملكة مرسوما يدين بومبال « مذنباً بجرائم شائنة » ويضيف قراراً بتركه آمناً في منفاه محتفظاً بثروته مادام قد التمس الصفح .

وكان بومبال يمضى حثيثا إلى مرض الموت ، فقد غشى جسده كله تقريباً قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام^(٣٥) . ومنعه الألم من النوم أكثر من ساعتين فى اليوم ، وأضعفته الدوسنتاريا ، وأقنعه أطباؤه بشرب حساء مصنوع من جلد الثعابين ، وكأنما أرادوا أن يزيدوه عذابا على عذاب . وتمنى الموت ، وتناول الأسرار المقدسة ، وانتهت آلامه فى ٨ مايو ١٧٨٢ وبعد خمسة وأربعين عاما ، وقفت بقبوره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة ، وتلت الجماعة ، بشعوى الانتصار والرافة ، صلاة جنائزية تطلب الراحة لنفسه .



الفصل الحادى عشر

أسبانيا وحركة التنوير

١٧٠٠ -- ٨٨

١ - البيئة

أوصى شارل الثانى ، آخر الهابسبورجين الأسبان ، عند وفاته عام ١٧٠٠ ، بأسبانيا وكل امبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربونيه - العدو القديم لآل هابسبورج ، وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر ، الذى لقب بفيليب الخامس ملك أسبانيا ، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٣-١٢) للاحتفاظ بوحدة تلك الامبراطورية كاملة ، وامتشقت أوروبا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر فى قوة البوربون . وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لانجلترا ، وصقلية لسافوى ، ونابلى وسردينيا وبلجيكا للنمسا .

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التى كانت تغذى تجارتها وثروتها . فتمح أمريكا الأسبانية مثلاً كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً فى القدان لقلة الأرض الأسبانية. وجادت تلك الأراضى المشمسة بالزئبق والنحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكافور والبن والتبغ والشاى والكينين وكثير من العقاقير الأخرى . وفى ١٧٨٨ صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ، واستوردت منها بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ولكن هذا « الحلل فى الميزان التجارى الذى لم يكن فى مصلحة أسبانيا محام سيل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين . وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر . وقد بلغ سكان الفلبين فى تقرير الكسندر فون هوبولت

في ختام القرن الثاني عشر ١,٩٠٠,٠٠٠ ، وسكان أمريكا الأسبانية ١٦,٩٠٢,٠٠٠ ، أما أسبانيا نفسها عام ١٧٩٧ فقد بلغ سكانها ١٠,٥٤١,٠٠٠^(١) . وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعنى تضاعف السكان الذين لم يزدوا على ٥,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٧٠٠ .

لم تسخ الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية . كانت الأرض في الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الدائبة من جبال البرانس ، وكانت قنوات الري (وأكثرها خلفه المغاربة للغالين) قد استصلحت الأراضي الجذباء في بلنسية و مرسية والأندلس ، ولكن باقى أراضي أسبانيا كان جبلها أو قاحلا إلى درجة مشقة للهم . ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادي ، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات ، وفضلت أسبانيا أن تشتري المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها . وماتغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص في أسبانيا ذاتها . وتخلفت صناعاتها التي كانت لا تزال في المرحلة النقاية أو البيئية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة ، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز . واحتكرت «المستأ» لإنتاج الصوف ، وهى اتحاد من ملاك قطاعان الغنم ميزته الحكومة ، ورسمت التقاليد قدمه ، وسيطرت عليه فئة قليلة من النبلاء والأديرة ، وخنقت المنافسة ، وتخلفت أسباب التحسين . وتعفت بروتاريا ضئيلة في المدن ، تشغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة في النقابات الحرفية ، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزنوج أو المغاربة . وعاشت طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة .

وكان ٥١,٥ ٪ من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة في مساحات شاسعة و ١٦,٥ ٪ تملكه الكنيسة ، و ٣٢ ٪ تملكه الكومونات (المسدن) أو الفلاحون . وتأخر نمو ملكة الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الإبن الأكبر ويمنع رهن أى جزء منها أو بيعه . وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

الملك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار ، أو رسوم ، أو خدمات ، أو عينا للملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تبين حسب إنتاجية المزرعة ، فإن المستأجرين افتقدوا الحافز على الابتكار أو الاجتهاد^(٢) . ودافع الملك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد في قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتماشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة . ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كاللحم ، والنبيد ، وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعا على الأغنياء . وترتب على هذه الإجراءات ، وعلى الامتيازات الوراثية ، وعلى الفوارق الطبيعية في القدرة البشرية ، ألا تركز الثروة في القمة ، وران على القاع فقر كثيب اتصل جيلا بعد جيل ، تخففه وتسرى به التعزيات فوق الطبيعية .

وكانت طبقة النبلاء منقسمة إلى درجات من الشرف انقساما يملؤه التحاسد والتناؤد . ففي القمة (في ١٧٨٧) ١١٩ من كبار النبلاء (Grandes de Espana) . وقد نجزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطاني المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه أن ثلاثة من كبار النبلاء . وهم دوق أوزونا ، ودوق ألبا ، ودوق مدينا سلى يملكون إقليم الأندلس بجملة^(٣) . وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماكها وحدها مليون ريال في العام ، ودخل دوق أوزونا السنوي ٨,٤٠٠,٠٠٠ ريال . ودخل كونت أراندا قرابة ١,٦٠٠,٠٠٠ ريال في السنة^(٤) . ويلي كبار النبلاء ٥٣٥ من أصحاب الألقاب titulos — وهم رجال منحهم الملك القابا وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للناج . ويلي هؤلاء الفرسان caballeros الذين يعينهم الملك في عضوية مجزية في إحدى طبقات أسبانيا الحربية الأربع : وهي سنتياجو ، والقنطرة ، وكالاترافا ومونتيزا . أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ ٤٠٠,٠٠٠ هيدلج hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعة من الأرض ، والذين أعفوا من الخدمة العسكرية ومن

السجن للمدين ، وكان لهم الحق في أن يلبسوا شعار النبالة وأن يخاطبوا بلقب « للدون » . وكان بعضهم فقراء ، وبعضهم أنضم إلى المتسولين في الشوارع . وكان معظم النبلاء يعيشون في المدن ، ويعينون موظفي الإقليم .

أما الكنيسة الأسبانية فقد أدعت الحق في نصيب مريح من جملة الناتج القوي بوصفها الحارس الألهي للوضع الراهن . وقد قدر مصدر أسباني موثوق أن دخلها السنوي بعد الضرائب يبلغ ١,١٠١,٧٥٣,٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة يبلغ ١,٣٧١,٠٠٠,٠٠٠ ريال^(٥) . وكان ثلث إيراداتها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائلة تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ صغيرة من مراسيم العماد ، والزيجات ، والجنائز ، والقدايس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا أنهم أن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجحنة دون مساءلة . وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ ريال . على أن أوساط القساوسة كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة ، فقد كان في أسبانيا ٩١,٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦,٤٨١ كانوا قسا « و ٢,٩٤٣ رهبانا يسوعيين^(٦) . وفي ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون في ثلاثة آلاف دير . وكان رئيس أساقفة أشبيلية وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعدا يتمتعون بدخل سنوي مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة — وكان له ستائة مساعد — فبلغ دخله تسعة ملايين ريال . وهنا ، كما في إيطاليا والنمسا ، لم تثر ثروة رجال الدين أي احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائية من خلقهم ، وقد أحبوا أن يروها في زينة بهية .

وقد ضرب تدينهم المثل والتقدوة للعالم المسيحي . فلم يلق اللاهوت الكاثوليكي في بقعة أخرى في القرن الثاني عشر مثل هذا الإيمان الشامل به ، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هذا الاحترام الشديد . ونافست المدارس الدينية السعي وراء العيش ، ولعلها فاقت السعي وراء الجنس ، باعتبارها جزءا من صميم الحياة . وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا ، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم . وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

بكثير ، وانتشرت صورها وتمثيلها في كل مكان ، وكان النساء يخطن الأرواب لتمثيلها في شغف ، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة ، و« أسبانيا أكثر من غيرها أرتفع صوت الشعب مطالبا بجعل ، « حملها غير الدنس » — أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية — جزءا من العقيدة المحددة المشتركة. وكان الرجال يساوون النساء تمسكا بإهداب الدين . فكثير من الرجال ، كالنساء ، كانوا يختلفون إلى القديس يومية . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم في بعض المواكب الدينية (حتى حرم هذا الجلد في ١٧٧٧) بحبال فيها عقد تنهى بكرات من الشمع تحوى زجاجا محطما ، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهانا على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما ، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحة^(٧) وأنه يهـــــىء من شبق لإيروس .

وكانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وقد شكيا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو في مدريد خطوة دون أن يصادف هذا المشهد المهيـب ، وكان في الأمتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالاعتقال أو الاعتداء . فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام ١٧٦٦ وراحوا يهبون ويسلبون ظهر موكب ديني على رأسه أسقف يحمل بين يديه القربان المقدس ، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا في الشوارع ، فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة^(٨) . وكانت كل مصالح الحكومة تشارك في موكب « عيد القربان » العظيم ، يتقدمهم الملك أحيانا . وكانت مدن أسبانيا تجلب بالسواد طوال أسبوع الآلام ، والملاهي والمقاهي تغلق ، والكنائس تغص بالعابدين ، والمذابح الإضافية تقام في الميادين العامة إستجابة لتدفق التقوى والورع . ففي أسبانيا كان المسيح ملكا ، ومريم ملكة ، والأحاساس بالحضرة الألهية في كل لحظة من لحظات اليقظة ، جزءا من صميم الحياة .

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما في أسبانيا . فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم في الحديث وأصبحوا آباء الإعتراف للأسرة المالكة . أما الدومنيكان فسيطروا على ديوان التفتيش ، ومع أن هذه المؤسسة كانت قد ودعت عصرها الذهبي منذ أمد بعيد ، فقد بقي لها

من القوة ما يكفي لأرهاب الشعب ونجدي الدولة . فلما ظهرت فلسول لليهوديه بسبب تراخي البوربون قطع ديوان التفتيش دابرم بإحراقهم علنا . وعلى مدى سبع سنوات (١٧٢٠ - ٢٧) أدان الديوان ٨٦٨ شخصا ، آتهم ٨٢٠ منهم بأنهم يبطنون اليهودية ، وأحرق ٧٥ ، وزح غيرهم في سفن تشغيل العبيد أو أكتفى بجلدهم^(١) . وفي ١٧٢٢ أظهر فليب الخامس تبعية لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجانا فعما لاحتراق المهرطقين ، أحرق فيه تسعة منهم احتفالا بمقدم أميرة فرنسية إلى مدريد^(٢) . أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحا أكثر اعتدالا ، ففي عهده (١٧٤٦ - ٥٩) أحرق عشرة « فقط » أحياء ، وكلهم من اليهود « المرتدين »^(٣) .

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر . وقد قدر راهب دومنيكي أن المطبوع في أسبانيا خلال القرن الثاني عشر كان أقل من المطبوع في القرن السادس عشر^(٤) . وكان أكثر الكتب دينيا ، واحتبها الشعب بوصفها هذا . وكانت الطبقات الدنيا أمية ، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة . وكانت المدارس في قبضة رجال الدين ، ولكن آلافاً من الأبرشيات كانت خلوا من المدارس . أما الجامعات الأسبانية التي كانت يوما ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفا شديدا عن نظيراتها في إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا في كل ناحية إلا اللاهوت التقليدي . وكانت مدارس الطب فقيرة ، ردية الإعداد بالأساتذة ، ناقصة الأجهزة ، وأعتمد العلاج على الحجامة ، وأعطاء المسهلات ، والاستعانة ببركات القديسين ، والصلاة . وكان الأطباء الأسبان خطرا على حياة الناس . وكان العلم علم العصر الوسيط ، والتاريخ أساطير ، وزكت الخرافة وكثرت النذر والمعجزات . وظل الإيمان بالسحر حيا إلى نهاية القرن ، وظهر بين الأهوال التي صورها الرسام جويا .

تلك كانت أسبانيا التي قدم البوربون من فرنسا ليحكموها .

٢ فليپ الخامس ١٧٠٠ - ٤٦

كان فليپ الخامس (Felipe Quinto) رجلا طيبا في حدود فلسفة حياته التي ضيقها تعلية . كان ابنا أصغر للدوفان ، فدرب على التواضع ، والتقوى ، والطاعة ، فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفى للتصدى لنصف قرن من التحديات فى الحكم والحرب . وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل فى أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر فى قرنسا ، وجعلته سهولة إنقياده مطواعا لوزرائه وزوجاته .

وكانت ماريا لويزا جابرييلا ، أبنة فكتور أماديوس الثانى ملك سافوى ، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليپ (١٧٠١) ، ولكنها كانت دغم حداثتها حاذقة لمكر النساء وكيدهن ، وإستطاعت بجهاها وحيويتها وبغضبتها ودموعها ، أن تخضع الملك فيستسلم بعد أرهاق ، بينما تدير هى وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد . وكانت هذه الوصيفة --- مارى آن دلا تريموال ، أميرة أورسان ، والأرملة الفرنسيه لنيل أسبانى كبير ، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة . ومكنها طموحها الممزوج باللباقة من أن تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام . وما كان فى أستطاعتها أن تعتمد على الجلال لأنها كانت فى التاسعة والخمسين فى ١٧٠١ ، ولكنها إمدت الملكة بما تفتقر إليه من معرفة ودهاء ، وبعد عام ١٧٠٥ كانت تقرر السياسة . وفى ١٧١٤ ماتت ماريا لويزا فى السادسة والعشرين ، وتردى فليپ الذى تعلم أن يحبها حباً صادقا فى أكتئاب مرضى . ورأت مدام ديزورسان أن تنقذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (اليزابيث) غارتيزى ، أبنة أودواردو الثانى دوق بارما وبياسنزا . وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند الحدود الأسبانية ، ولكن إيزابيلا أمرتها فى إقتضاب أن ترحل عن أسبانيا ، فاعتزلت فى روما وماتت بعد ثمانى سنوات مغمورة منسية ودغم ثرائها .

لم تعترف إيزابيلا بأن النهضة الأوروبية قدولت ، فقد وهبت كل قوة

الإرادة ، وشدة الذكاء ، وحدة الطبع ، واحتقار الوسواس الذى تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيموا على إيطاليا القرن السادس عشر . وقد وجدت فى فليب رجلا عاجزا عن الجسم ؛ عاجزا عن النوم منفردا ، ومن ثم أصبح فراشا عرشا الذى تحكم منه أمة ، وتدير جيوشا ، وتظفر بامارات إيطاليا . ولم تكن قد عرفت أى شىء تقريبا عن أسبانيا . ولم تألف قط الخلق الأسباني ولكنها درست ذلك الخلق ، ونجحت فى التعرف على حاجات البلد ؛ وادهمش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه لاطلاعا وسعة حيلة .

وكان فليب فى سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أورى وغيره من المساعدين الفرنسيين لإعادة تنظيم الحكومه على الأسس التى وضعها لويس الرابع عشر : إدارة ومالية متركزان . مراقبتان ، مع بيروقراطية مدربه ونظار إقليميين ؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكى التشريعية والقضائية والتنفيذية ؛ وأسمه هنا « مجلس تشتاله » Consejo de Castilla ؛ فقل الفساد ؛ وحد من الاسراف - إلا فى عمليات البناء الخاصه بالملك . ثم خلف هؤلاء الوزراء الفرنسيين فى ١٧١٤ إيطالى كفاء طموح هو الاباتى جوليو البيرونى ، الذى جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون . وكان أبنا لبستانى فى بياتشيزا ، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيرا لدوق فندوم . وكان أول من اقترح إيزابيلا فارنيزى زوجة ثانية لفليب . فيسرب وصوله إلى السلطة سرفانا بصنيعه . وقد وفقا معا فى اقضاء الملك عن شئون الدولة . وعن أى مشورة غير مشورتها . وخططا معا لبناء قوات أسبانيا المسلحة واستخدماها لحرد النمساويين من إيطاليا واستعادة النفوذ الأسباني فى نابلى وميلان ، وإقامة عروش للأدواق يزينا يوما ما أبناء إيزابيلا البعيدة النظر .

وطلب البيرونى خمس سنين للاستعداد ، فأحل فى المناصب الرئيسية رجالا أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب ، وفرض الضرائب على الاكليروس وسجن القساوسة المتمردين (١٣) ، وخرد السفن البالية وبني خيرا منها ، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

والحدود ، وأعان الصناعة بالمال ، وشق الطرق ، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور . وقد أُنذر السفير البريطاني في مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضى عليها بضع سنين أخر من أمثال هذه الخطى حتى تغدو خطرا على غيرها من دول أوربا^(١٤) . ورغبة في تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيروني بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك . والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادى عشر ، الذى كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (١٧١٧) . كتب فولتير « أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيروني^(١٥) » .

ومنح كل شيء إلا الوقت . كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والانجليز عن الأهداف الأسبانية في ايطاليا ، وعرض تنازلات قبة مقابل هذا الرضا ، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته في الحلول محل فليب أوربان حاكما لفرنسا . وانقلب هذا على فليب ، وانضم إلى انجلترا والاقاليم المتحدة في ميثاق للحفاظ على الترتيبات الاقليمية التى حددتها معاهدة أوترخت . وانتهكت النمسا تلك المعاهدة باكراهها سافوى على اعطائها صقلية مقابل سردينيا . واحتج البيروني بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دواة ما زال رئيسها يطالب بنج أسبانيا . ولعن تطور الأحداث بهذه العجلة على غير ما ينبغي ثم أذعن لدخول حرب قبل الأوان . واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (١٧١٨) . وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهما انضمت النمسا إلى انجلترا وفرنسا وهولنده في حلف رباعى ضد أسبانيا . وفى ١١ أغسطس ١٧١٨ دمر أسطول بريطانى بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسبانى نجاة ساحل صقلية ، وحبس خيرة جنود أسبانيا فى تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا . وطلب فليب وايزابيللا الصاحب ، فأجيب الطلب شريطة أن ينفى البيروني . نفر إلى جنوه (١٧١٩) ، وشق طريقه متخفيا إلى ررما عبر لومبارديا التى يملكها النمساويون ، وشارك فى مجمع

الكراولة الذى انتخب البابا انوسنت الثالث عشر ، ومات عام ١٧٥٢ وقد بلغ الثامنة والثمانين . وفى ١٧ فبراير ١٧٢٠ وقع مبعوث أسباني بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه فى عرش فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن ضقلية للنمسا ، ووعدت انجلترا برد جبل طارق إلى أسبانيا ، وتعهدت الحلفاء بأن يكون للنسل ايزابيلا الحق فى وراثة بارما وتوسكانيا .

وفى مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء ، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً . ودعما للسلام مع فرنسا ، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التى لم تسلم من عمرها سوى عامين ، لوليس الخامس عشر فى ١٧٢١ ، وأرسل بها إلى فرنسا (١٧٢٢) وسط دهشة الجمع . ولكن فى ١٧٢٥ ردتها فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فوراً بمهمة انجاب وريث له . ورأت أسبانيا فى هذا الرد اهانة ، فتحالفت مع النمسا ، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق ، فلما حاول جيش أسباني الإستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا ؛ وفشلت المحاولة ، ولم تصطلح أسبانيا مع انجلترا وحسب ، بل ردت لها احتكار الازينتو Asiento الذى يبيع العبيد للمستعمرات الأسبانية ، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس ، ابن ايزابيلا ، على عرش دوقية بارما . وفى ١٧٣١ اتجه كارلوس وستة آلاف أسباني إلى ايطاليا فى حراسة أسطول انجليزى . ونزلت النمسا عن بارما وبياتشيزا لكارلوس رغبة فى الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها فى ارتقاء ماريا تريزا للعرش الامبراطورى . وفى ١٧٣٤ رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلى . وهكذا اكتمل نصر ايزابيلا .

على أن فليب أصابته نوبة من الأكتئاب أخذت بعد عام ١٧٣٦ تنحدر أحيانا إلى درك الجنون . فقبع فى ركن من حجراته ، ظاناً أن كل الداخلين عليه ينوون قتله ، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يدس له السم فيه . وظل

ردحا طويلا يأبى أن يبرح فراشة أو يخلق لحيته . وجرت إيزابيللا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته ، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة . ففي ١٧٣٧ أقنعت فارنيللى بأساليب الملاطفة والتلق أن يجيء إلى أسبانيا . وذات ليلة ، فى جناح ملاصق لجناح الملك ، رتبت حفلا موسيقيا غنى فيه « الخصى » العظيم لحنين من تأليف هاسى . ونهض فليب من فراشة لينظر خلال باب ويرى أى قوة استطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة . وجاءته ايزابيللا بفارنيللى ، فأثنى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت . وكانت الملكة قد أوصت المغنى بما يجيب ، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تخلق لحيته وأن يرتدى ثيابه ويحضر المجلس الملكى . ووافق الملك ونخت مخاوفه . وبدأ أنه شفى كأنما بمعجزة . ولكن حين أقبل المساء التالى أرسل فى طلب فارنيللى ورجاه أن يغنى هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية ، إذ لم يكن فى الأماكن تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة . وهكذا استمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين . وكان أجر فارنيللى ٢٠٠,٠٠٠ ريال فى العام ، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا فى البلاط . وتقبل هو الشرط شاكرا ، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أى من وزرائه ؛ فإنه لم يستغله وأستعمله دائما للخير ؛ وظل بريئا من روح الرشوة وأكتسب أعجاب الجميع (١٦) .

وفى ١٧٤٦ أمر ايب أن يقام ١٠٠,٠٠٠ قداس لخلاص نفسه . فلماذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجحيم فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التى لم يتح لها مثل هذا الاستعداد (١٧) . فى ذلك العام قضى فليب نحبه .

٣ — فرديناند السادس

١٧٤٦ — ٥٩

ونخلفه على العرش ثانى أبنائه من زوجته الأولى ، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاما من الحكم الشافى من عللها . وعمرت إيزابيللا حتى سنة ١٧٦٦ ،

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة ، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير في الأحداث . وأصبحت زوجة فرديناند ، ماريا بربرة ، تلميذة سكارلاتي ، هي المرأة التي تقف وراء العرش . ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال ، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيلا ، وبذلت أكثر همها لتشجيع الموسيقى والفن . وواصل فارنيللى شغاه للحكام الجدد ، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتي أن ينافسه . وعمل الملك والمملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية ، فقبلاً معاهدة لكس - لا -- شابل (١٧٤٨) ، مع أنها أعطت توسكانيا للنمسا ، وبعد عام أنها اتفاق الازينتو الذي عمر ١٣٦ سنة بدفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها في تجارة الرقيق .

كان فرديناند رجلاً حسن النية ، لطيفاً أميناً ، ولكنه ورث جسداً رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان ينجل منها خجلاً مؤلماً . (١٨) وحمله الوعي بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين --- دون خوزيه دى كارفاخال وزينون دى سوموديفللا ، مركز انسناداً . وحسن انسناداً أساليب الزراعة ، وأعان بالمال التعدين والصناعة ، وشق الطرق والقنوات ، وألغى المكوس الداخلية ، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات ، ونظم المالية من جديد ، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعث من الطلبة إلى الخارج . ويرجع بعض الفضل إلى دبلوماسيته انسناداً في إبرام اتفاق مع البابوية (١٧٥٣) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكرامى الأسبانية . وقد حد من سلطان الكنيسة ، وأخضع ديوان التفتيش ، وألغيت الاحتفالات العلنية بإحراق المهرطين .

واختلف الوزيران في سياستهما الخارجية . فأما كارفاخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطانى المخلص ، السير بنجامن كين ، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسألة لهم ، وأما اسنادا فقد حابى فرنسا ، وتحرك نحو محاربة إنجلترا . وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته ، ولكنه أقاله

فى النهاية . وبينما كانت كل أوربا تقريبا تتردى فى سنوات سبع من الحرب ، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فلييب الثانى .

وفى ١٧٥٨ ماتت ماريا بربارة . وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل فى زواجهما ، ومن ثم اعترته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل ، وأصابته هو الآخر لوثة فى آخر سنة من عمره . وفى أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبدا . ومات فى كرسية فى ١٠ أغسطس ١٧٥٩ وبكى الجميع الملكين الحبيبين لأن حكمهما كان بركة نسدر أن حظيت بها أسبانيا .

٤ — التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير فى أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بحسم ثابت لا يقبل الحركة . فالخلق الأسبانى ، ووفاءه لإيمانه الوسيط وفاء كتبه بالدم ، كان يصد كل رياح المهرطقة أو الشك عاجلا أو آجلا ، ويرفض كل دخيل من الزى أو العادات أو الاقتصاد . ولم يبد الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة — هى التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم ، ويعرفون أى قوة و ثراء حققهما ونظراؤهم فى إنجلترا وفرنسا . وكانوا راغبين فى استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التى ورثها النبلاء والأكليروس على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها . وقد علموا أن الدين فقد سلطانه فى إنجلترا ، وسمع بعضهم بنيتون ولوك ، لا بسل أن جبون قدر له أن يحد بعض من يقرؤنه فى أسبانيا (١٩) .

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا . وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فلييب الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التى أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر ، ولكنها انتشرت أيام الوصاية . وفى ١٧١٤ أسس .

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية ؛
وسرعان ما بدأت وضع معجم لغوى ؛ وفي ١٧٣٧ اضطلعت صحيفة
« دياريو دى لوس لتراتوس دى أسبانيا » بمنافسة « الجورنال دى سافان »
الفرنسية . وكان الدوق ألبا الذى أشرف على الأكاديمية الملكية العشرين عاماً
(١٧٥٦ - ٧٦) شديد الإعجاب بجان — جاك روسو ^(٢٠) . وفي ١٧٧٣ .
أكتب بثنائية جنهات ذهبية (لوى دور) لتمثال فولتير الذى كان يصنعه
بيجال . كتب إلى دالامبير يقول « أننى وقد قضى على بنثقيف عقلى سراً
أعتمد هذه الفرصه للشهادة علانية بعرفانى وإعجابى بالرجل العظيم الذى كان
أول من دلى على الطريق ^(٢١) » .

وحظى كتاب روسو « إميل » بإعلان مجانى حين أحرق فى أحتفال
رسمى بكنيسة من كنائس مدريد (١٧٦٥) ^(٢٢) . وعاد شباب من الأسبان
الذين عرفوا بباريس كالمركيز دى مورا الذى عشق جولى دلسيناس إلى
أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشكوكية التى التقوا بها فى الصالونات . وهربت
إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أوديدرو أو رينال ؛ فأيقظت بعض العقول
المحددة . وكتب صفى أسبانى فى ١٧٦٣ يقول « كان من أثر الكتب المؤذية
الكثيرة التى راجت بين الناس ؛ ككتب فولتير وروسو وهلفيتيوس ؛ أن كثر
فتور الإيمان فى هذا البلد ^(٢٣) » . وكان بابلو أولافيدى يجهر بالأفكار
الفولتيرية فى صالونه بمدريد (حوالى ١٧٦٦) ^(٢٤) . وحوت رفوف «الجمعية
الاقتصادية لأصدقاء السلام» أعمالاً لفولتير وروسو وبيل ودالامبير ومونتسكيو
وهوبز ولوك وهيوم ^(٢٥) . وذكر الأبيه كليمان الذى جاب أرجاء أسبانيا
عام ١٧٦٨ أنتشار اللامبالاة بالدين أنتشاراً واسعاً ، لا بل الكفر بالعقيدة ،
المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية فى الظاهر ^(٢٦) . وقد أبلغ ديوان
التفتيش فى ١٧٧٨ أن كبار موظفى البلاط يقرءون لجماعة الفلاسفة
الفرنسيين ^(٢٧) .

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسبانى أن يصبح . بدرو أباركا ،
كونت أراندا ، خلال رحلة قام بها فى فرنسا ، صديقاً لفولتير . وقد نحكم

على علاقاته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرساي ، وقد اختلط في غير تبحر بالمسوعيين في باريس وقامت بينه وبين دالامير صداقة ملؤها الإعجاب به ، وعبر فرنسا ليزور فولتير في فرنيه . وكان يصرح بولائه للمكنيسة في أسبانيا ، ولكنه هو الذي أقنع شارل الثالث بطرد اليسوعيين ، وبأرشاده انضم شارل إلى صفوف « المستبدين المستنيرين » الذين كان يتطلع إليهم بساعة الفلاسفة باعتبارهم خير معصون لهم في نشر التعليم والحرية والعقلانية .

٥ -- شارل الثالث ١٧٥٩ - ٨٨

١ - الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلي كان يناهز الثالثة والأربعين . ورحب به الجميع إلا اليسوعيين^(٢٨) الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناتهم في برجواي إلى البرتغال (١٧٥٠) ، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة ، ورد بعض الامتيازات التي فقدتها الأقاليم في ظل سياسة المركزية التي انتهجها فليپ الخامس . وقد جلى موت زوجته ماريا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا . ولم يتزوج بعدها قط ولأنه لما يشرف آل بوربون الأسبان في القرن الثامن عشر أنهم ضربوا الملوك أوروبا المثل في الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم .

وقد رسم دبلوماسي بريطاني صورة بريطانية لشارل الذي كانت له مواجهات مع الانجليز في نابلي .

و للملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه . فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه يلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين ، لذلك يبدو في سترته وكأنها اتركيبية ، وصدريته وسراويل ركوبه من الجلد عادة ، وعلى ساقيه طماق يقبهما من البلبل . وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عانى بمطر أو ريح^(٢٩) .

ولكن إيرل برستول - أردف في ١٧٦١ ، « إن للملك الكاثوليكي مواهب جيدة ، وذاكرة مواتية ، وسيطرة غير عادية على نفسه في جميع المناسبات . وقد بات يتشكك في الناس لكثرة ما خدعوه . وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين ، وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته . ومع ذلك فرغم سياء اللطف العظيم البادى عليه استطاع أن ييث الرهبة في قلوب وزرائه وحاشيته . » (٣١)

ولم يكن في تقواه الشخصية ما يندلر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطلع بالإصلاحات الدينية . كان يخلف إلى المقداس كل يوم . وقد أدهش عدواً إنجليزياً « وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه وإرتباطاته » (٣١) وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشئون الحكم . يستقيظ في السادسة ، ويزور أبنائه ، ويفطر ، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة ، ويجتمع بوزرائه ، ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره ، ويخصص عدة ساعات للصيد ، ويتعشى في التاسعة والنصف ، ويطعم كلابه ، ويتلو صلواته ، ثم يمضي إلى فراشه . ولعل الصيد كان وقاء صحياً قصده به أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث في الأسرة .

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة . ذلك أنه لجهله بأسبانيا التي لم يرها منذ كان في السادسة عشرة اتخذ اثنين من الايطاليين كانا قد أدخلوا في خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه : المركيز دى جربمالدى في السياسة الخارجية ، والمركيز دى سكللاتشى في الشؤون الداخلية .

وقد وصف إيرل برستول سكللاتشى هذا بأنه « غير ذكي . أنه مولع بالعمل ولا يشكو أبداً من كثرتة رغم تنوع إدارات الحكومة التي تركز فيه . . . وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء ، ولكنني لا أريد أن أكون مسئولاً بهذا القدر عن زوجته » (٣٢) ولم يحب جرائم مديريه ولا روائعها الخبيثة ولا ظلمتها ، ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها ، وأثار

العاصمة بخمسة آلاف مصباح . وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات . وحدث أن الجفاف رفع الأسعار ، فظالبت الجماهير برأس سكللاتشى . وقد أغضب رجال الدين بلوائح خدت من امتيازاتهم وسلطتهم . وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة الخبأة . وأخيرا أثار ثائرة الشعب بمحاولته تغيير زى الشعب . فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذى يخفى البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوبة التى تخفى كثيرا من الوجه ، يسهلان إخفاء السلاح ويعرفان الشرطة عن التعرف على المجرمين . ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة ، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانونى (٣٣) . وكان فى هذا من التحكم فوق ما يطيقه المدريدون الأباة . فثاروا فى أحد الشعانين ، ٢٣ مارس ١٧٦٦ ، واستولوا على مخازن الذخيرة ، وأطلقوا السجناء ، وتغلبوا على الجنود والشرطة ، وهاجموا بيت سكللاتشى ، وحصبوا جريمالدى ، وقتلوا الحرس الولوى الذين يحرسون القصر الملكى ، وجابوا الشوارع يرفعون رءوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف . وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب . وهنا أذعن شارل ، وألغى المراسيم ، وأعاد سكللاتشى إلى إيطاليا محروسة . وكان فى غضون ذلك قد اكتشف مواهب الكونت أراندا ، وعينه رئيساً لمجلس قشتالة . فجعل أراندا العباءة والصمبريرة Sombrero أى القبعة العريضة الحافة الزى الرسمى للبلاد . وكان فى هذا المعنى الجديد المتضمن مازهد الناس فى ارى القديم ، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزى الفرنسى .

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية فى أراجون . رأيناه يتشرب التنوير فى فرنسا ، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكرى ثم عاد إلى أسبانيا متشوقا إلى العمل على أن يصل وطنه إلى مستوى تلك الدول الشمالية . وأفرط أصحابه الموسوعيون فى الجهر باغتيابهم لتقلده السلطة ، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة ، (٣٤) وود لوأنهم درسوا

الدبلوماسية من قبل . وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن « إعادة تنظيم قوة مختلف السلطات ، ومواردها ، ومصالحها ، وحقوقها ، وخاوفها وآمالها ، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدي من هذه القوى ، أو نفرق بينها ، أو نهزمها أو نتحالف معها ، وذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمننا » (٣٥) .

وكان الملك في حالة نفسية مواتييه لإصلاحات الكنيسة لتوجسه من أن الكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشي سرّاً (٣٦) . وكان قد أذن للمطبعة الحكومية في أن تطبع عام ١٧٦٥ مقالا غفلا من اسم الكاتب عنوانه *Tratado de la regia de l'amortization*.

تشكك في حق الكنيسة في جمع الثروة العقارية ، وزعم أن الكنيسة ينبغي أن تكرر خاضعة للدولة في جميع الأمور الزمنية . وكان المؤلف هو كوندليه بدر و رودريجر دى كومبومانيس ، وكان عضواً في مجلس قشتالة . وكان شارل قد أصدر عام ١٧٦١ أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية في أسبانيا ، وفي تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر . ولكنه عاد فجدده في ١٧٦٨ . وأيد الآن أراندا وكومبومانيس في سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكرى طوال جيل مثير .

٢ - الإصلاح الدينى الأسبانى

لم يكن في نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية في أسبانيا - ربما باستثناء أراندا . وكانت الحروب الطويلة التي خاضتها البلاد لطرد العرب (كالكفاح الطويل لتحرير إيرلنده) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكثفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا يتحج التحدى الناجح أو التغير الجذرى . وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة ، وأن يحرقوا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش . وقد بدأوا بمهاجمة اليسوعيين .

كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا في عقل اغناطيوس لويولا

وتجاربه ، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانيا . وكما حدث في البرتغال ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوى ، وزودت الماوكة والملكات بآباء الاعتراف ، وشاركت فى تشكيل السياسات الملكية . وقد أثار سلطانها المنتسح غيرة الأكليروس الكاثوليكي غير الرهبانى ، وأحيانا عداؤه . وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة الحجامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات ، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة البابوات على سلطة الحجامع والملوك . وشكرا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل ما يتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب ، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية . وآمن شارل بأن اليسوعيين مازالوا يشجعون مقاومة هنود براجواى لأوامر الحكومة الأسبانية (٣٧) : وروعه أن يطلعه أراندا وكامبومانيس وغيرهما على خطابات أدعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين ، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكي قائد الطائفة اليسوعية ؛ بأن شارل ابن غير شرعى ويجب أن يحل محله أخوه لويز . وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات (٣٩) ، ولكن شارل ظلها صحبة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأتمرون لخلعه ، وربما لقتله (٤٠) . ولحظ أن محاولة — زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها — بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨) ، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرد الطائفة من مملكته .

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لها النجاح إلا بالاستعدادات المستورة تتبعها ضربه فجائيه مدبرة ، وإلا استطاع اليسوعيين الذين كانوا يحظون بقبيل الشعب أن يثيروا ضجه مؤذية فى الأمة وممتلكاتها جميعا . وعملا بأقتراح أراندا أرسلت رسائل مخطومة موهورة بتوقيع الملك فى مطلع عام ١٧٦٧ إلى الموظفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا فى ٣١ مارس فى أسبانيا ، وفى ٢ أبريل فى المستعمرات ،

وألا كان الموت عقاب المخالفين . وفي ٣١ مارس أستيظ السوعيون الأسبان ليجلدوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجلدوا أنفسهم معتقلين . وأمروا بالرحيل في هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطبقون حملة ، أما سائر ممتلكات السوعين فقد صادرتها الدولة . ومنح كل مبعد معاشا صغيرا يوقف أن عارض أى يسوعى في طرده . ثم أخذوا في عربات تحت الحراسه العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا . وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه « ينقلهم إلى الأراضى الكنسية ليظلوا تحت أشرف قد استه الحكيم العاجل » وأنى أرجو من قد استكم إلا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطا مدنيا لا غنى عنه ، لم أتخذة إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق^(٤١) . »

فلما حاولت أولى السفن التى كانت تحمل ستمائة من السوعيين ، أن تنزلهم فى تشيفبتافكيا ، رفض الكردينال توريجيانى ، السكرتير البابوى ، السماح لهم بالرسو محتجا بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعة المفاجئة أن تغنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين^(٤٢) . وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينما يعانى ركبها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض . وأخيرا سمح لهم بالنزول فى قورسقه ، وبعد حين أستوعبتهم الولايات البابوية فى جماعات سهلة القيادة . ولقى السوعيون فى غضون هذا النفى المماثل من نابلى ويارما وأمريكا الأسبانية والفلبين . وناشدا كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة لما فيها من مباغته وقسوة . فأجاب شارل « أننى لرغبتى فى أن أعفى العالم من فضيحه كبرى سأظل ما حييت مخبئا فى قلبي سر المؤامرة النكراء التى أقتضت هذه الصرامة . وينبغى لقد استكم أن تصدقوا كلمتى . فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق^(٤٣) » .

ولم ينصح الملك قط عن الأدله التى أقام عليها مراسيمه . وفى التفاصيل ، التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزا عن الحكم عليها . وقد اعترض

دالامبير على الطريقة التي نفى بها اليسوعيون ، ولم يكن بصديق لهم . ففي ٤ مايو ١٧٦٧ كتب إلى فولتير يقول :

« ما رأيك في مرسوم شارل الثالث الذي طرد اليسوعيين على هذا النحو المفاجيء ؟ ألا ترى ، رغم إقتناعي بأن لديه مبررات كافية ووجيهة ، بأنه كان ينبغي أن يفصح عنها لا أن يحبسها في « قلبه الملكي » ؟ ألا ترى أنه كان ينبغي له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم ، لا سيما لأن الجميع وأنتون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا ؟ وألا ترى أيضا أن من الظلم البين لهم أن يتركوا جميعا ليوتوا جرعا بينما الواجب على أخ علماني واحد ، ربما يقطع الكرب الآن في المطبخ ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى في الدفاع عنهم ؟ . . . إلا يبدو لك أنه كان مستطيعا أن يتصرف بتعقل أكثر في تنفيذ أمر هو رعم كل شيء أمر معقول^(٤٤) ؟ »

أكان طردهم اجراء محببا لدى الشعب ؟ بعد عام من إستكمال هذا الطرد وفي عيد القديس شارل ، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره ، فلما سألهم جريا على عادة مألوفه عندهم أى منحة يرغبون في أن يهبهم صاحوا « بصوت واحد » أن يسمح لليسوعيين بالعودة ، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهباني - فأبى شارل ، ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهما أياه بأنه المحرض على الإلتماس الذي أشبه في أنه يهدف إلى التوفيق^(٤٥) . ولما طالب البابا في ١٧٦٩ إلى أساقفة أسبانيا رأيهم في طرد اليسوعيين ، وافق عليه أثنان وأربعون ، وعارضه ستة ، ولم يبد ثمانية رأيا في الأمر^(٤٦) . وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتطين باعفائهم من منافسة اليسوعيين لهم . ووافق الآخوة الأوغسطينيون في أسبانيا على الطرد ، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعيين بجمعها^(٤٧) .

أما ديوان التفتيش فلم يكن في الامكان إتخاذ إجراء معجل كهذا معه ، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعيين تغلغلا في رهبة وتقاليد الشعب الذي عزا إلى الديوان الفضل في صيانة الأخلاق والاحتفاظ ببقاء إيمانهم - بل حتى

نقاء دمائهم . وحين وثى شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة . فأى كتاب تظن به الهرطقة الدينية أو الإنحراف الخلقي يقدم إلى الفاحصين ، فإذا رأوم خطرا بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش ، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه . وكان الديوان يصدر دوريا فهرسا بالكتب المحرمة ، وكان اجراز كتاب منها أو قراءته ذون إذن كنسنى جريمة لا يغفرها إلا ديوان التفتيش ، وقد يعاقب مرتكبها بالجرم . وكان على القساوسة خصوصا فى الصوم الكبير أن يسألوا جميع المتعرفين بلذوبهم أن كانوا يملكون أو يعلمون أن أنسانا يملك كتابا محظورا . وكل مقصر فى الإبلاغ عن أنتهك للفهرس يعتبر مذنبا كمنهكه ، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب (٤٨) .

ولم ينجز وزراء شارل فى هذا المضمار سوى إصلاحات صغيرة . ففى ١٧٦٨ حد من سلطة الديوان فى رقابة المطبوعات باسئراط الحصون على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها . وفى ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والإرتداد دون غيرهما ، ولألا تسجن أنسانا ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع . وفى ١٧٨٤ أمر بأن تعرض عليه اجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين ، لمراجعتها . ثم عين رئيسا عاما للديوان أبدى موقفنا أكثر تحورا بأزاء خلافات الفكر (٤٩) .

وكان لهذه الاجراءات المتواضعة بعض الأثر ، لأن الرئيس العام لديوان التفتيش قرر فى حزن أن الخوف من اللوم الكنسى على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح فى خبر كان (٥٠) ، وكان وكلاء الديوان بعد ١٧٧٠ بوجه عام أقل غلوا ، وعقوباته أرحم من ذى قبل . ومنح التسامح الدينى للبروتستنت فى عهد شارل الثالث ، وللمسلمين فى ١٧٧٩ ، وأن لم يمنح لليهود (٥١) . وفى عهد شارل الثالث أحتفل بأحراق المنتحرفين أربع مرات ، آخرها عام ١٧٨٠ فى أشبيلية حين أحرقت عمجوز أنتهمت بالسحر ، وأثار إعدامها

هذا من النقد في كل أرجاء أوروبا^(٥٢) ما مهد الطريق لالغاء ديوان التفتيش الأسباني في ١٨١٣ .

ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى في عهد شارل الثالث تعاقب قانونا بالموت . ففي ١٧٦٨ أتهم بابلو أولافيدى أمام ديوان التفتيش بغيازته صورا بليثه في بيته بمدريد ، وربما كانت نسخا من عرايا بوشيه ، لأن أولافيدى كان قد جاب فرنسا حتى فرنیه . ثم رمى بتهمة أخطر في ١٧٧٤ . هي أنه لم يسمح بأقامة أديرة في اقصى انودجيه التي أنشأها في سيرامورينا ، وأنه حظر على الكهنه تلاوة القداس في غير يوم الأحد أو طلب الصدقات . وأحاط ديوان التفتيش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهدا . وفي ١٧٧٨ استدعى أولافيدى لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيك الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو . فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنسيه ، وصودرت كل أملاكه ، وحكم عليه بالحبس في دير ثمانية أعوام . وفي ١٧٨٠ تداعت صحته . وسمح له بالاستشفاء بمياه منتجع معدنى في قنلونية ، ومنها فر إلى فرنسا . حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة في باريس استقبالا الأبطال . ولكنه لم يقض في منفاه بضع سنوات حتى أستبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانيه . فألف كتابا مشربا بروح التقوى عنوانه « الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهلى » وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته^(٥٣) .

ونلاحظ أن محاكمة أولافيدى جرت بعد سقوط أراندا من رئاسة مجلس قشالة وفي أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهباني للملء الفراغ الذى خلفه اليسوعيون ، وأصلح العملة باحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرقى محل العملات المملوكة (١٧٧٠) . على أن إحساسه بأستنارته الفائقة جعله يمضى الزمن نزقا متغطرسا وقحا . فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء . وفقد اندرة على الرؤية المتناسية وتقدير الأمور في أوضاعها الصحيحة ، وحلم باخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كتلتها المطمئنه إلى تيار الفلسفه

الفرنسية . وأعرب في جرأة مغالية عن أفكاره المهرطقة ، حتى لكاهن اعترافه . ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسية لمسا فيها من نفع للكنسية^(٥٤) ، فإنه أخاف عددا أكبر بالكشف عن أمله في حل ديوان التفتيش جملة^(٥٥) . وأشد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس . وراح يكثر من الشكوى من ثقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عند كلمته فأوفده سفيرا إلى فرنسا (١٧١٣ - ٨٧) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الانجليزية في أمريكا ، التي بدأت ثورتها آنذاك ، ستصبح في الوقت المناسب من أعظم دول العالم^(٥٦) .

٣ — الاقتصاد الجديد

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الأكفاء . فخلف خوزيه مونيرو ، كونت فلوريدا بلانكا ، جريمالدى وزيراً للشئون الخارجية (١٧٧٦) ، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام ١٧٩٢ . وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل . وأرشد الملك في اجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون ، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظا ، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (١٧٩٢) . أما بلدرو دى كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين ، وكان المحرك الأول في الإصلاح الاقتصادى . وأما جسبار ملكور دى خوفلانوس ، أرفع الأسبان في جيله^(٥٧) فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضيا رحيما نزيها في أشبيلية (١٧٦٧) ومدير (١٧٧٨) . وجاء أكثر نشاطه في الحكومة المركزية تاليا لعام ١٧٨٩ ، ولكنه أسهم إسهاما قويا في السياسية الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه في الإصلاح الزراعى (١٧٨٧) . وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعى ، وهو الاقتراح الذى كتبه برشاقة أسلوب كاد يدانى بها رشاقة أسلوب شيشيرون ، شهرته في أوروبا طولا وعرضا . هؤلاء الثلاثة ، بالإضافة إلى أراندا ، كانوا أباء التنوير الأسباني والاقتصاد الجديد . ويرى دارس انجليزى ، بوجه عام ، أن النتيجة الطيبة التى حققوها تضارع ما تحققت في مثل هذا

الزمن القليل في أى بلد آخر ، ولا ريب في أن تاريخ أسبانيا لا يحوى فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث^(٥٨) .

كانت العقبات التى اعترضت الإصلاح في أسبانيا لاتقل خطرا في الاقتصاد عنها في الدين . فقد بدأ تركيز الملكية الثابتة في الأمر الشريف أو الجماعات الكنسية ، واحتكار « المستا » لإنتاج الصوف ، حاجزين في وجه التغيير الاقتصادى لاسبيل إلى التغلب عليهما . وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التى يحيونها ، ولا ينجحون من التسول ، وكانوا لا يثقون في التغيير لأنه خطر يهدد التبطل^(*) . وكان المال يختزن في خزائن القصور والكنايس بدلا من استثماره في التجارة أو الصناعة . وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيرا من مصادر تحسين الزراعة وتطوير التجارة . وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخليين أن تخلف داخل البلاد قرنا عن برشلونه واشبيلية ومدريد .

على أن فريقا من صادق النية - نبلاء وقساوسة وأفرادا من طبقة العامة رجالا ونساء - كونوا رغم هذه المعوقات « جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام » للدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون . فأنشأوا المدارس والمكتبات ، وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار ، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية . وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثرا مذكرا بالركود ، وذلك اعترافا منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وآدم سميث . وأكد واحد منهم : « ان الأمة التى تملك معظم الذهب هى أفقر الأمم ... كما أثبتت أسبانيا^(٦٠) . ورحب خوفلانوس بـ : « علم الاقتصاد المدنى » باعتباره « علم الدولة الحقيقى » . وكثرت المقالات الاقتصادية . وكان مقال كاميو مانيس عن الصناعة الشعبية إلهاما للآلاف ومنهم الملك .

(*) قرر قانون أراجونى أن يزود كل نبيل من طبقة الهيدلج كلا من أبنائه بمعاش لأنه « لا يليق بالنبل أن يشتغل » (٥٩) .

وبدأ شارل باستيراد الغلال والبذور للأقاليم التي اندثرت فيها الزراعة. وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملي . وأنشأ فلوريدا بلايكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرصادة دينية في بلنسية وملقا لا قراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة . ولكي يحد شارل من إزالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الأشجار . ومن هنا ذلك الاحتفال السنوي بـ « يوم الشجرة » الذي ظل في نصفي الكرة تقليداً صحياً أيام شباننا . وقد شجع اغفال الأوقاف القديمة ، وثبط وقف الجديد منها ، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين . ثم اختزلت امتيازات إحتكار أغنام المستأخرالا حاداً وأبيع زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكراً للرعى . واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان ، مثال ذلك أن أولافيدى أنشأ (١٧٦٧ وما بعدها) في إقليم سيرا مورينا بجنوب غربى أسبانيا ، الذي كان إلى ذلك الحين متروكاً للصوم والوحوش ، أربعاً وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان ، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخاتها . وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار ورى مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة . ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت في فترة خير الطرق في أوربا (٦٢) ، فربطت القرى والمدن في تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة .

ومدت الحكومة يد العون للصناعة . ورغبة في إزالة الوصمة التي صبقتها التقاليد بالعمل اليدوى ، أعلن مرسوم ملكي أن لاتعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية ، وأن الحرفيين يصح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية . وانشئت المصانع النموذجية : للمنسوجات في وادى الحجارة وسقوبية ، وللقبعات في سان فرناندو . وللحرائر في طلبيره ، وللصيني في بوين رتيرو ، وللزجاج في سان إلفونسو ، وللزجاج والأثاث الخشبي الفاخر وقطع النسيج المرسوم في مدريد . وشجعت المراسيم الملكية تطور

الإنتاج الرأسمالى على نطاق واسع ، لاسمياً فى صناعة النسيج . فكان فى وادى الحجارة عام ١٧٨٠ ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج ، وأدارت شركة واحدة فى برشلونه ستين مصنعا تضم ٢١٦٢ نولا نساج القطن ، وكان فى بلنسية أربعة آلاف نول تنسج الحرير ، وأخذت تنافس تجارة ليون فى الحرير لما حظيت به من امكانات التصدير . وفى ١٧٩٢ كان فى برشلونه ثمانون الف نساج ، ولم يفقها فى انتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترا الوسطى .

وكانت أشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تحميمه الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية فى الدنيا الجديدة ، فانهمى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لثغفور بالاتجار مع المستعمرات ، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (١٧٨٢) فتحت الموانئ الإسلامية للسلع الأسبانية . وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف . وازداد ثراء أمريكا الأسبانية سريعا ، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة فى المائة فى عهد شارل الثالث ، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات (٦٣) .

وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخولا أكبر . وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندى ، والتبغ ، وورق اللعب ، والبارود ، والرصاص ، والزئبق ، والكبريت ، والملح . وفى بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر فى المائة فى قتلونيا ، وأربعة عشر فى قشتالة . وقد وصف خوفلانوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال « إنها تفاجئ ضحيته ... عند ميلادها ، وتطاردها وتعرضها حين تدور ، ولا تغفل عنها أبدا أو تدعها تغفل منها حتى تقضى عليها . » (٦٤) وفى عهد شارل الثالث الغيت ضريبة المبيعات فى قتلونيا ، وفى قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة فى المائة (٦٥) . وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخول . وضمنا للمزيد من المال بتشغيل مدخرات الشعب ، أقنع فرانسيسكو دى كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية نقل فائدة . فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية وسبعين فى المائة من قيمتها الاسمية ،

أسس (١٧٨٢) أول مصرف قومي أسباني — بنكودي سان كارلوس — استهلك السندات بقيمتها الاسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة .

وأتمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة في ثروة الأمة في حملتها . وكان أكثر الطبقات انتفاعا هي الوسطى ، لأن منظماتها هي التي أعادت تشكيل الاقتصاد الأسباني . ففي مدريد كون ٣٧٥ من رجال الأعمال خمس تقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة . ونستطيع الحكم على مبلغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام ١٧٧٦ ثلاثين مليون ريال (٦٦) .

وقد خبذت الحكومة بوجه عام ظهر طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لاغنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادي والسياسي على دول ذات اقتصاد أرق . ولم تحظ البرولتاريا الناشئة ، هنا شأنها في تلك الدول ، بتضيق مذكور في الثراء الجديد . وارتفعت الأجور لاسيما في قتلونية حيث شكا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم (٦٧) ، ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور ، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة في ختام العهد فقرها في مطلعها . وقد لاحظ الإنجليزى حساب بلنسية في ١٧٩٧ ذلك التناقض بين (ثراء . . التجار ، وأصحاب المصانع ، ورجال الدين ، والعسكريين ، والسادة من ملاك الأرض و « الفقر ، والبؤس ، والاشمال » التي ترى في كل شارع (٦٨) . وعليه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Lucees الآتي من فرنسا وإنجلترا في حين كان موظفهم الذين ملأوا الكنائس واثموا المزارات يعزون أنفسهم بالنعمة الآلهية وبآمال الفردوس .

واتسعت المدن في ظل الاقتصاد الجديد . وكان يعيش في المراكز البحرية الكبرى — برشلونه وبلنسية وإشبيلية وقادس — سكان يتفاوتون من ٨٠.٠٠٠ إلى ١٠٠.٠٠٠ (١٨٠٠) . وكان يسكن مدريد (في ١٧٩٧) ١٦٧.٦٠٧ ، بالإضافة إلى ٣٠.٠٠٠ من الأجانب . وحين ولي شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أفقر عواصم أوروبا . وكان الناس من سكان

الأحياء الفقيرة لا يزالون. يفرغون قمامتهم في الشوارع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها ، فلما حظر شارل هذه العادة رموه بالطغیان . قال « إن الأسباب أطفال ييكون حين يحممون^(٦٩) » . وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاما لجمع القمامة وللصرف ، ونظم الزبالون لجمع النفايات لاستخدامها سمادا^(٧٠) ، وبدل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل ، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين — لاسيما المكفوفين منهم الذين شكوا نقابة قوية فيما بينهم .

وأصبح شارل من أمر عاصمته عاما بعد عام . فجيء لها بالماء من الجبال إلى سبعمائة نافورة ، حملة منها ٧٢٠ سقاء في شقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة . وأضيئت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة في الخريف والشتاء ، وكان أكثر الشوارع ضيقا ملتويا يتبع دروبا عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف ، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت ، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشى الظليلة . وكان أحبا إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج ، الذي لظفت هواءه النواير والأشجار ، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام . وهناك في ١٧٨٥ بدأ خوان دى فيلانوفا تشييد متحف البرادو . وهناك في أى يوم تقريبا كانت تجرى أربعمئة مركبة ، وفي أى عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدریدی . وحظر عليهم التغنى بالأغاني البلدية ، أو الاستحمام عراة في النواير ، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل ، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبندق . ذكر الرحالة أن المشهد الذى كان يرى كل يوم على البرادو في أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى في مدن أخرى في الفترة نفسها في الآحاد والعطلات فقط^(٧١) ، وأصبحت مدرید آئذ ، كما عادت في عصرنا هذا ، من أجمل مدن أوروبا .

لم ينجح شارل الثالث في السياسة الخارجية نجاحه في الشؤون الداخلية . وبدأ أن ثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا تتيح فرصة الانتقام للخسائر التى منيت بها أسبانيا في حرب السنين السبع ، فحث أراندا شارل على تقديم

العون للثوار ، فبعث لهم الملك سرا بجليون جنيه (يونيو ١٧٧٦) . وأفضت هجمات القراصنة الإنجليز على السفن الإسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (٢٣ يونيو ١٧٧٩) . واستعادت قوة أسبانية مينورقه ، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق بائت بالفشل . واتخذت العدة لغزو إنجلترا ، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفي صلح فرساي (١٧٨٣) سحبت أسبانيا مطالبها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا .

وأحزن الملك في سنه الأخيرة إخفاقه في استرداد وحدة الأراضي الإسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التي انتهجها الاقتصاد الجديد . ولم يستطع وزراؤه الأكفاء أن يذغابوا قط على قوتين شديتين من قوى المحافظة — كبار البلاء بضياهم الشاسعة ، والاكليروس بما لهم من مصلحة راسخة في سذاجة الشعب . أما شارل نفسه فندر أن تبدل في ولائه الأصهل للكنيسة . ولم يعجب به شعبه قط لإعجابه حين يراه — وقد لقي موكباً دينياً — يعطى مراكبه للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائراً على قدميه . وأكسبه ورعه المحبة التي افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافد من إيطاليا — في العقد الأول من حكمه . فلما وافته منيته (١٤ ديسمبر ١٧٨٨) ، بعد أربعة وخمسين عاماً حكم فيها نابلي وأسبانيا ، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم . وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً ، فقال متسائلاً « كيف انتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم ؟ لقد غفرت لهم أجمعين في اللحظة التالية للإساءة (٧٢) » .

٦ — الخلق الأسباني

أى طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء ؟ الأجماع على أنهم كانوا قوماً أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم في إنجلترا أو فرنسا . وكان لهم من تدينهم الشديد ، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف ، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين ، عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبريائهم

العدوانية ، حتى مع تكريسهم شوفينية مشروبة في مسائل العرق والدين .
وقد أعاق الانتخاب الجنسي الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن
الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران في الحلبة
أو الشوارع ، أو الذين يبادرون برفض الإهانة والتأثر لأنفسهم ، أو الذين
يعودون من الحرب مكملين بغار الانتصار .

ولانت الفضائل الجنسية بتدفق الأفكار والعادات الفرنسية . وكانت
الصبايا يحرسن حراسة مشددة ، وكان رضا الوالدين (بعد ١٧٦٦) شرطاً
قانونياً للزواج ، ولكن النساء في المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن
في الغزل والمعاينة وأصبح « الفارس التابع » ملحقاً ضرورياً للسيدة العصرية ،
وازداد الفجور ^(٧٣) . وابتدعت جماعة صغيرة تدعى « الماخو » و« الماخا »
مظهراً فذاً من مظاهر الحياة الأسبانية . وكان الماخو رجلاً من الطبقة الدنيا
يلبسون كالغنادير ، ويرتدون العباءات الطويلة ، ويطيلون شعورهم ،
ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة ، ويدخنون السيجار الكبير ،
وكانوا على استعداد دائم للعراك ، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خليلاتهم
- الماخا - كلما أمكن ذلك . ولم يعبأوا بالقانون في اتصالاتهم الجنسية ؛
وكان للماخا في كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هي خليلها الماخو ،
ويعرف نصف العالم الماخا ، كاسية أو عارية من فرشة جويا .

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً . لقد وجد الفساد
السياسي والتجاري ، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنثن في فرنسا
أو إنجلترا ، ذكر رحاله فرنسي أن « الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال
وتتجلى واضحة في العلاقات التجارية » ^(٧٤) . فكانت كلمة السيد الأسباني
مستنداً أدبياً ساري المفعول من اشبونة إلى سانت بطرسبرج . وكثيراً ما كانت
الصدقة في أسبانيا أبقى من الحب . أما البر بالفقراء فوفور . ففي مدريد
وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاب الحساء
المغذى على الفقراء ^(٧٥) . وأسس الكثير من المستشفيات والملاجئ الجديدة ،

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن . وكان جل الأسبان كرماء رُحماء إلا مع المهرطقين والثيران .

وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلاً لحب الأسبان . وكان الدفاع عن هذه المعارك ، شأنه شأن ألعاب المحالدة في روما القديمة ، يقوم على أساسين ، أن الشجاعة يجب أن تربي في الرجال ، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل . وقد حرم شارل هذه المعارك ، ولكنها استؤنفت بعد موته بقليل . وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودى الطبقات كلها . وكان لكل منهم أنصاره ، فدوقة ألبا تؤثر كوستلاريس ودوقه أوزونا تؤثر روميرو ، وقسم الحزبان مدريد كما قسم جلوك ويتشيني باريس . وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران ، وعلى كل شيء آخر تقريباً . وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع ، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب .

وتحلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التي تزيها الجليل السابق ، واستبدلت بها الزى الفرنسي — وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساقان أو الحرير ، وسراويل الركوب ، والجوارب الحريرية الطويلة ، والخذاء ذو المشبك ، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان . أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتها سرّاً غامضاً مقدساً تلفها في صدرات من الدنتلا وتنورات طويلة ، ذات أطواق موسعة أحياناً . وتستعمل براقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التي يود المعجب الأسباني لو أغرق روحه في أعماقها المظلمة . وكانت السيدة في القرن السابع عشر نادراً ما تكشف عن قدميها لأنظار الرجال . أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض ، واستعيز عن الحفين المستوين بخذاء مديب على الكعب . وقد أُنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير المهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالاً . ولكن النساء ابتسمن ، وزين أحذيتن ، ونشرن تنوراتهن ، وروحن بمراوحن

حتى في أيام الشتاء . وكانت ازابيللا فارنيزى تملك ذخيرة من ١٦٢٦ مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوى شهرة قومية .

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة في كل شيء إلا المراقص . فاجتنبت المجتمعات في الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل . وكان الرقص غراماً كبيراً في أسبانيا ، وقد أفرخ ألواناً اشتهرت في أوروبا . فكانت « الفاندانجو » ترقص على ميزان ثلاثي بالمصاحبات ، أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين ، بمصاحبة المصاحبات وبالغناء عادة ، وقد اتخذت رقصة مشتقة منها تسمى البولير وشكلها حوالى ١٧٨٠ ، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة . وفي رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء في تقدم وتأخر متناوبين ، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبديّة بين المرأة والرجل ، أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً في رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا — أى الكدريل . وكانت حفلات الرقص المقنع تجذب أحياناً ٣,٥٠٠ من الراقصين المتحمسين ، وكان القوم في المرافق يرقصون حتى مطلع الفجر .

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعرا حيا وحافزاً جنسياً . قيل إن المرأة الأسبانية التي ترقص السجيديللا كان في رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ويجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم ^(٧٦) . وقد وجد كازانوف نفسه شيئاً يتعلمه في أسبانيا فقال :

« حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنونا وهى الفندانجو ، التى ظننت فى سداجتى اننى طالما شهدتها ، والتى فاقت (هنا) أشد تصوراتى جموحا فى إيطاليا وفرنسا يحرص الراقصون على تجنب الايماءات التى تجعل هذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية . ويخطو الزوجان — راقص وراقصة — ثلاث خطوات فقط ، ثم يرتميان فى مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصاحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامه ومن أول تهيمده إلى آخر نشوه . فلم أملك لشدة انفعالى إلا أن أصبح عالياً . » ^(٧٧)

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة إلى هذا الحد ،
فقيل له أنها « محرمة تحريماً باتاً » ، ولولا أن الكونت اراندا اذن بها لما جرو
أحد على رقصها .

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى
الشعب ، مثال ذلك أن الكانتى فلامنكو أو الغناء العجري (الفلمنكى)
استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين العجبر يصاحبون بها
« السجيدللا جيتانا » . ولعل هذه الأغاني الشعبية كانت أصداءاً لألحان
مغربية ، أو لعلها عكست النوعية المكتنبة للدين والفن الأسبانيين ، أو العجز
المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة ، أو انقشاع الوهم عقب الوصال .
وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (١٧٠٣) وأغاني فازينلى .
ولكن « الحصى » العجوز فقد الخطوة في عهد شارل الثالث بعد أن ظل
يشدو بأغانيه طوال عهدين ، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر « أن
الديوك المحصية لا تصلح إلا للأكل »^(٧٨) . واتصل النفوذ الإيطالى بمجىء
سكارلاتى ، وانتصر مرة أخرى بمجىء بوكيرينى الذى قدم فى ١٧٦٨ ،
وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع ، ومكث
بأسبانيا حتى وافاه الأجل (١٨٠٥) .

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنى مارتن أى سولار ، بعد أن
حقق لنفسه الشهرة فى أسبانيا ، فى أن يخرج الأوبرا الإيطالية فى فلورنسه ،
وفيينا ، وسانت بطرسبرج ونافست صوناتات أنطونيو سولر على
الهاربسكورد صوناتات سكارلاتى ، وحول دون لويز ميسون « التونادا »
أو السولو الصوتية ، إلى « التوناد يلو » فاصلا من الغناء بين فصول
المسرحية . وفى ١٧٩٩ أنهى أمر ملكى حكم الموسيقى الإيطالية فى أسبانيا
يحظر أداء أى تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان^(٧٩) .

والخلق الأسبانى لا يمكن صبه فى قالب متماثل واحد . فالروح الأسبانية
تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعى من ولاية إلى ولاية ، وكان الأسبان المتفرنسون
الذين تجمعوا فى مدريد طرازاً يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

تجمدوا في العادات الأسبانية . ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة أن نثبت في الشعب الأسباني طبعاً أصيلاً متفرداً . فقد كان في الأسباني كبرياء ولكن في قوة صامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية ، كانت كبرياء الفردية ، واحساساً مصمماً بالكفاح المنفرد ضد الأذى الديوى أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدى . ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يتبدى العالم الخارجى أمراً ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد في سبيله ، فلا أهمية إلا مصير النفس في الصراع مع الإنسان والبحث عن الله . إذن فما أتفه مشكلات السياسة ، والسباق على المال ، والاعلاء من قدر الشهرة أو المنصب ، وحتى انتصارات الحرب لا مجد يكملها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين . اما وقد ضربت جذور الأسباني في صميم هذا الدين ، فقد كان في استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء روائى ، وبإيمان بالقضاء والقدر ينتظر في اطمئنان ثواب الجنة بعد المات .

٧ — العقل الأسباني

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج في أسبانيا من الايصاء بتاجه لحفيد الملك العظيم ، صاح سفير أسباني بفرساي في ابتهاج « لم يعد الآن وجود لجبال البرانس ! » ولكن تلك الكتل الرهيبة لم ترحل عن موقفها عقبة كؤودا في سبيل التنوير الفرنسى ، ورمزا للمقاومة التي ستلقاها محاولة قلة مخاصمة أن تصنع العقل الأسباني بالصيغة الأوروبية .

وقد فاجأ كاميو مانيس الشيوخ بمقال في التعليم الشعبى (١٧٧٤ — ٧٦) ، جعل من التوسع في التعليم الشعبى أساساً لا غنى عنه لحوية الأمة ونموها . ولم ير بعض كبار رجال الدين وملاك الأرض معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تفضى في النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية . ولكن خوفيلانوس الذى لم يشته هذا الاعتراض كافح لنشر الإيمان بالتعليم ، وكتب يقول « كثيرة هي الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعى ، ولكنها كلها تنبع من منبع واحد هو التعليم العام . ^(٨١) وكان يعلل نفسه بأن التعليم

سيعلم الناس أن يفكروا ، وإن التفكير سيمحررهم من سلطان الخرافة والتعصب ، وإن العلم الذى بطوره أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر . وتقبل بعض كراثم النيبالات هذا التحدى ، والفن Junta de Damas لتمويل المدارس الإبتدائية . وانفق شارل الثالث مبالغ كبيرة فى إنشاء المدارس الأولية المجانية . وشارك أفراد غير رسميين فى تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أو الأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أو الطب .

وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها . وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم فى هذه الكليات ، وبتحديث كتبها المدرسية ، وبالساح للعلمانيين بالتدريس فى أقسامها . وأعان الكليات بالمنح والهبات ، وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين^(٨١) . ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبنز فى مناهجها . ورفضت جامعة سلمنقة النصيحة بحجة أن « مبادئ نيوتن ٠٠٠ وديكارت لا تشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذى تشابهها به مبادئ أرسطو^(٨٢) » ، ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكى ، وكانت جامعة بلنسية الآن (١٧٨٤) ، بطلابها البالغ عددهم ٢٤٠٠ ، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً فى أسبانيا . وأدخلت عدة طوائف دينية « الفلسفة الحديثة » فى كلياتها . وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة ، المعلمين الكرمليين على قراءة أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفرنسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبنز ولوك وفولف وكوندياك . هنا لم يكن للقيدين حكم . ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز ، وأخرى هلفيتوس . وكانت مثل هذه الدراسات تلاحق دائماً بردود تفندها ، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفندون دعاوى أعدائه .

من ذاك « حادثة » راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً ، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواى مونتيجرو الذى انفق الأعوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمره (١٧١٧ - ٦٤) فى دير بندكتى باوفيدو،

ولمخ ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليليو وبسكال وجاسندى ونيوتن ولينتز ، ورأى فى عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوروبى . فأرسل من قلايته ، بين عامى ١٧٢٦ و ١٧٣٩ ، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro critico وهو لا يعنى نقد المسرح ، بل الامتحان الدقيق للأفكار . وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان فى أسبانيا فى أيامه ، وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائى ، ونخلص كشوف العلماء فى كثير من المجالات ، وهزأ بالسحر والكهانة والمعجزات الزائفة ، والجهل بالطب ، والخرافات الشعبية ، ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القومية الساذجة فى غير رحمة ، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات ، ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء فى التعليم والمجتمع .

واجتمع حول كتبه شرذمة من الإعداء يهتمون وطنيته وينددون باقتحاماته . واستدعاه ديوان التفتيش أمام محكمته . ولكنها لم تهتد إلى هرطقه صريحة لا فى شخصه ولا فى كتابه . وفى ١٧٤٢ استأنف حملته بأول مجلدات خمس عنوانه « رسائل متفهمة مستطلعة » . وكان يكتب بأسلوب جيد . مقرا بالتزام كل مؤلف التزاما أدبيا بأن يكون واضحا . استطاب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على « التياترو » و « الرسائل » حتى بلغ ما طبع منهما خمس عشرة طبعة حتى عام ١٧٨٦ . ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة فى أسبانيا ، فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول ، ولكن كان جهده بداية السير على النزب . ومن مفاخر طاقته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو فى الثامنة والثمانين (١٧٦٤) .

وأكليريكى آخر هو الذى كتب أشهر كتاب نثرى فى أسبانيا فى القرن الثامن عشر . وكما حرص البندكتيون على ألا يلحق بفيخواى أذى ، فكذلك حمى اليسوعيون قسيسا منهم كان أهم إنتاج له نقدا لاذعا للمواعظ . وكان خوزيه فرانسيسكو دى اينزلا هو نفسه وأعظا بليغا ، ولكن أضمحكته

أول الأمر ، ثم أزعجته ، الحيل الخطائية والأوهام الأدبية ، والتمثيل والتهريج الذى يجلب به بعض الوعاظ أنباه الشعب ودراهمه فى الكنائس والميادين العامة . وفى ١٧٥٨ سخر سخرية لاذعة بهؤلاء المبشرين فى « قصة عن الراهب جيروندو الواعظ المشهور » . يقول الأب ايزلا إن الراهب جيروندو :

« ألف أن يبدأ عظامه بمثل أو نكته سوقيه أو شذرة غريبة أنتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقية أو تجديفا أو كفرا حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقبا فى عجب أنسى عبارته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحقيرة . من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله « أنى أنكر إن الله موجود كوحدة فى الجوهر وثالوث فى الذات » ثم توقف لحظة . وتلفت السامعون بالطبع حولهم . . . متسائلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهرطق . واخيرا ، وبعد أن ظن الواعظ أنه قبض على ناصيتهم ، وأصل الحديث قائلا : « كذلك يزعم الأبيونيون ، والمارسيونيون ، والاريوسيون ، والمناويون ، والسوسينيون ، ولكنى أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة ، والمجامع ، وآباء الكنيسة (٨٣) » .

وبعت ثمانمائة نسخة من كتاب « الراهب جيروندو » خلال يوم من صدوره . وهاجمه الرهبان للوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين . وأستدعى أيزلا أمام محكمة التفتيش ، وأدين كتابه (١٧٦٠) ، أما هو فلم يعاقب . ثم انضم إلى أخواته اليسوعيين فى المنفى ، وأصيب فى الطريق بالشلل . وقضى ختام عمره فى بولونيا عائشا على المعاش الضئيل الذى منحته أياه الحكومة الأسبانية .

أما الشعر فكان يقرضه كل أسباني ملم بالكتابة . وقد اجتمع فى ١٧٢٧ فى مباراة شعرية (عام ١٧٢٧) ١٥٠ متنافسا . واضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى ففها ومربيا ورجل دولة . وأصبح بيته

فى مدريد ماتقى لرجال الأدب وقد ألف. الهجائيات على طريقة جوفينال ،
موبخا الفساد الذى وجده فى الحكومة والقانون ، وتغنى بمناهج الحياة الريفية
الآمنة المطمئنة شأن كل ساكن للحدن . ونظم نقولا فرنانديز دى موران
شعرا ملحميا تناول مغامرات كورتيز ، ويقول العارفون أن — هذه القصيدة
« أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا فى القرن الثامن عشر^(٨٤) » .

وكانت الأشعار المرححة المهذبة التى نظمها ديجوجونزالز ، الراهب
الأوغسطينى ، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية « مراحل الإنسان
الأربع » التى إلهناها إلى خوفيلانوس . كذلك اتخذ دون توماس دى
أيريبارتى إى أوروبيزا إتجاها تعليميا فى قصيدته « فى الموسيقى » ، وكان
خيرا منها « قصصه الخرافية » (١٧٨٢) التى طعنت مغامز العلماء وأكسبته
شهرة لم تنزل حية إلى اليوم . وترجم بعض مآسى فولتير وملاهى مولير .
وسخر من الرهبان « الذين يتسلطون على السماوات وعلى ثلثى أسبانيا » ،
وقد حاكمه ديوان التفتيش فانكر آراهه ، ومات بالزهري وهو فى الحادية
والأربعين (١٧٩١)^(٨٥) .

وفى ١٧٨٠ أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد
الحياة الرعوية . فقال إيريارتى الجائزه الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة
الأولى ، لأن خوان ميلانديز فالديس مضى قدما ليصبح كبير الشعراء
الأسبان فى ذلك العهد . وتودد خوان إلى خوفيلانوس ، وحصل بنفوذه
على كرسى الأنسانيات فى جامعة سلمنقه (١٧٨١) وهناك إقنع الطلاب
أولا ، ثم الكلية ، بدراسة منهج أكبر إقتحاما ، بلغ إلى حد قراءة لوك
ومونتسكيو . وألف فى أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلدا من الأغاني
والشعر الرعوى — هو أستحضارات حية لمشاهد الطبيعة فى أبيات بلغت من
الرقه وكمال الصقل ما لم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن . وكان للرضى الذى
أسبغه عليه خوفيلانوس الفضل فى ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطة وإلى
محكمة القضاء العالى فى بلب الوليد ، وأضررت السياسة بشعره . فلما نفي
خوفيلانوس (١٧٩٨) أقصى ميلانديز أيضاً . فجرد قلمه للثنييد بغزاة

أسبانيا الفرنسيين ، وخص منهم جوزف بوناپرت ، ولكنه عاد إلى مدريد في ١٨٠٨ ، وقبل وظيفة تحت رئاسة جوزف بوناپرت ، وصدم أسبانيا بقصائد يثملق بها ساداته الأجانب . وفي حرب التحرير التي خلعت جوزف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر . وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون ، فهرب لحياته من أسبانيا . وقبل أن يعبر البيداسوا إلى فرنسا قبل آخر بقعه من التراب الأسباني (١٨١٣) . وبعد أربع سنوات مات فقيرا مغمورا في مونتبلية .

وكان ينبغي أن يكون لأسبانيا كتاب مسرح أكفاء في هذا العهد ، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح . وقد عملت على أضمحلاله ثلاثة عوامل : ليثار ليزابيللا فارنيزي القوى للأوبرا ، وفليب الخامس لكارينلى ، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذى كان أكثر ما يستحسنه هو « الفارص » ، والمعجزات ، والأساطير والشقشقات اللفظية ، وجهد كتاب الدراما الجادون الحبس تمثيلياتهم داخل « الوحدات الارسطاطالية » في الحركة والمكان والزمان . وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشعب في ذلك القرن هو رامون فرانسسكودى لأكروز ، الذى كتب نحو أربعمئة فارص صغير يهجو فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما ، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحمقاتهم بعطف غافر . أما خوفيللانوس ، « رجل أسبانيا الجامع » فقد جرب الكوميديا ، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعا بملهاته « المحرم المكرم » (١٧٧٣) : وفحواها أن سيداً أسبانيا يرفض مرارا وتكراراً أن يبارز غريباً ثم يقبل التحدى أخيراً بعد الحاح ، ويقتله في معركة عادلة ، ثم يحكم عليه بالاعدام قاض يتبين أنه أبوه . وقد أستهدف خوفيللانوس ، وهو المصلح على الدوام ، من تمثيلته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذى اعتبر المبارزه جريمة كبرى .

أما الحملة الداعية إلى الوحدات الارسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرنانديزى موراتن : وواضلها حتى تكللت بالنجاح ابنه لياندرو . وقد أبهجت خوفيللانوس أشعار هذا الفتى الباكرة ، فحصل له على وظيفة في

السفارة الأسبانية بباريس . وهناك صادق جولدوفنى ، فوجهه إلى كتابة التمثيليات . وأغدق الحظ هباته على صورتين الابن : فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح فى ألمانيا وإيطاليا وأنجلترا . وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحته له الفراغ اللازم للعمل الأدبى . وقدمت ملهاته الأولى لمسرح فى مدريد عام ١٧٨٦ ، ولكن عرضها عطل أربع سنوات ربما يفرغ المديرون والممثلون من الجدل فى استطاعة تمثيلية تتبع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً . وقد نجحت نجاحاً معتدلاً . وانقلب موراتين مهاجماً ، فى تمثيله الكوميديا الجديدة (١٧٩٢) سخر من الملهى الشعبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التى تدرس الخلق وتثير الحياة . وأشاد القوم بموراتين موليرا أسبانيا ، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام ١٨٠٨ . وفادته ميوانه الفرنسية وسياسته التحزبية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بوناپرت ، فلما سقط جوزف لم ينج موراتين من السجن إلا بشق النفس . ولجأ إلى فرنسا . ومات أخيراً بباريس فى ١٨٢٨ . وهى السنة التى مات فيها بوردو الرسام جويا الذى نفى نفسه عن وطنه مختاراً .

٨ — الفن الأسباني

ما الذى يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا فى حرب الوراثة لأسبانية الطويلة ؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس ، ونهبت المقابر ، وأحرقت الصور ، وربطت خيولها فى المزارات المقدسة . ثم جاء غزو جديد بعد الحرب ، وخضع الفن الأسباني طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسى أو الإيطالى فلما انشئت أكاديمية سان فرناندو عام ١٧٥٢ لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم ، جاهدت لتقر فى أذهانهم مبادئ كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية .

وكافح الباروك كنفاحاً عنيفاً فى سبيل البقاء ، وكان لما أراد فى المعار

والنحت . فانتصر في الأبراج التي أضافها فرناندو دي كازيس أي نوبا (١٧٣٨) إلى كتدراية سنتياجودى كومبو ستيل ، وفي الواجهة الشمالية التي شيدتها فنتورا رودريجز (١٧٦٤) لهذا الصرح ذاته تذكراً للقديس يعقوب حامي أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحببة الشعب أن تمثالا للعدراء مقاماً على عمود في سرقسطه دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب . في ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية « كنيسة عذراء العمود » ، ولتلك الكنيسة صمم رودريجز هيكلًا هو مقصورة من الرخام والفضة يضم تمثال العذراء .

وأقيم قصران مشهوران في عهد فليبي الخامس . فقد اشترى على مقربة من سقوية أرض دير ومزرعته الملحقة ، ووكل إلى فليبو يوفارا التورينى أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدفونسو (١٧١٩ وما يليها) ، وأحاط المباني بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساي . وعرفت هذه المجموعة بلاجرانغا ، وقد كلفت الشعب ١٠٠٠٠٠٠ ر ٥٠٠ كراون . ولم تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام ١٧٣٤ « القصر » الذي كان المقر الملكي بمدريد منذ عهد الإمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التي شيد فيها فليبي الثاني قصرًا في ١٦٣١ . فظل هذا المقر الرئيسى للملك طوال ثلاثين عاما .

وصمم يوفارا قصرًا ماركيا آخر عوضًا عن « القصر » المحترق — يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحًا وحدائق — لو شيد لفاق في فخامته أى قصر ملكى عرف يومها ، وكان النموذج وحده يحوى من الخشب كمية تكفى لبناء بيت . ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (١٧٣٦) . ورفضت إيزابلا فارنيزى تصميمه لفداحة تكاليفه ، فشيد خلفه جوفانى باتستا ساكيتى التورينى القصر الملكى (١٧٣٧ — ٦٤) القائم بمدريد اليوم — وطوله ٤٧٠ قدما ، وعرضه ٤٧٠ قدما ، وارتفاعه ١٠٠ قدم . هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك : فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وإيونية ، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

للملك أسبانيا القداشى . وحين صحب نابليون أخاه جوزف لملك فى هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم « ستكون أفضل منى منزلا^(٨٦) » . وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام ١٧٦٤ .

أما النحت الأسباني ففقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفن الفرنسى . والإيطالى ، وخلع الضحك على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين . وكانت موضوعاته ديلية على الدوام تقريباً ، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجور . من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق ٢٠٠٠ر٠٠٠ دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذى أقامه نارسيسوتوى (١٧٢١) خلف خورس الكتدرائية : وهو مجموعة ملائكة من رخام يطفون على سحب من رخام ، وكان فى ممشى الكنيسة المسقوف فتحة جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه . وعاشت الواقعية القديمة فى تمثال « جلد المسيح^(٨٧) » الذى نحته لوزيز كارمونا - وهو تمثال من الخشب ، رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية . وأجمل منه تماثيل الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، التى نحتها فرانسسكو فرجارا الابن لكتدرايات كوينسا (١٧٥٩) . وقد عدها سبان - برموديز ، فازارى أسبانيا ، أروع ما انتجه الفن الأسباني .

وأعظم الأسماء فى فن النحت الأسباني فى القرن الثامن عشر كان اسم فرانسسكو زاركيللو إى الكراز . مات أبوه ومعلمه ، وكان نحاتاً فى كابوا ، وفرانسسكو فى العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة إخوه . وكان الفنى أفقر من أن يستأجر الموديلات ، لذلك كان يدعو المارة ، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم ، وربما كانت تلك هى الطريقة التى عثر فيها على الأشخاص لرائعته « العشاء الأخير » المحفوظة الآن فى « دير يسوع » بمرسيه . وبمساعدة أخته اينيس التى كانت ترسم وتعمل نموذجاً له ؛ وأخيه خوتريه ، الذى كان ينحت التفاصيل ، وأخيه القسيس باتريسيو ، الذى كان يلون الأجسام والثياب ، انتج فرانسسكو فى سنى عمره الأربع والسبعين ١٧٩٢ تماثلاً فيها الكبير وفيها الصغير ، بعضها ذو حيل لاطعم لها كعباءة .

من الخمل المطرز فوق تمثال للمسيح ، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيرا حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكي . ولكنه فضل البقاء في وطنه مرسية الذي شيعه عند وفاته عام ١٧٨١ . في مشهد جليل .

أما التصوير الأسباني في القرن الثامن عشر فكان يزرع تحت كابوس أجنبي مزدوج لم يفق منه حتى حطم جويا كل القيود بفنه الجارف الذي لم يسبق له نظير . جاءت أول الأمر موجة فرنسية بمجىء ران ورينيه وميشيل — آنج هواس ، ولوى — ميشيل فانلو . وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس ، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة بأكملها ، بالبواريك والجونلات المطوقة ، وغيرها (٨٨) . ثم أقبل قطع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفينللى ، واميجونى ، وكورادو .

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد في يونيو ١٧٦٢ . وعلى سقف غرفة العرش في القصر الملكي الجديد رسموا صورة جصيه شاسعة « تمجيد أسبانيا » ، احتفالا بتاريخ الملكية الأسبانية وقوتها وفضائلها وتقراها وأقاليمها : فيها الأجسام الاسطورية الرمزية متوازنة في الهواء ، والنيريدات والريتونات والزفيرات ، والجن المجنح ، والأطفال السماء ، والفضائل الرذائل محلقة في الفضاء المنور ، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها ، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة . وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبولو « اينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود » . وعلى سقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية « انتصار الملكية الأسبانية » . وفي ١٧٦٦ كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات للمذبح كنيسة القديس بسكال بأرائخيز ، واستخدم المصور في احداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس ، ولا تزال الصورة تتألق . في البرادو . وأدان كاهن الملك ، الأب خوالين دى إلكنما في فن تيبولو من وثنية وفجاعات لأبها دخيلة على روح أسبانيا . وتاب تيبولو ، ورسم صورة قوية سماها انزال المسيح عن الصليب » (٨٩) ، وهي تأمل في الموت تنيره الملائكة

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم ، فمات في مدريد عام ١٧٧٠ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وبعد قليل ازيلت لوحات مذبح ارانجيز وكلف أنطون روفائيل منجز برسم لوحات بدلها .

وكان منجز قد وفد على مدريد في ١٧٦١ وهو في الثالثة والثلاثين ، ففى قوى واثق من نفسه أمرناه . ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمراى غيوم تيبولو المنورة — فأنس الآن فى هذا الألمانى المقحام الرجل المطلوب . لتنظيم العمل الفنى اللازم للقصر . وفى ١٧٦٤ عين منجز مديرا لأكاديمية سان فرناندو ، وسيطر على التصوير الأسبانى فى فترات اقامته بأسبانيا . وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكى إلى سكون لادم فيه ولا حياة ، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب . ولكنه كافح كفاحا نافعا لينهى اسراف الرثخرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك . ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولا إلى « أسلوب طبيعى » بمحاكاته الأمانة للطبيعة ، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامى « الذى انتهجه الاغريق . فكيف السبيل إلى هذا التسامى ؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع ، بالربط بين الكمالات الجزئية التى توجد هنا وهناك فى أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الاسراف .

وافتح منجز انتاجه برسم أرباب أولمب على سقف مخدع الملك ، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة . وربما ادرك منجز أن صاحبي الجلالة ، لم يتبعاه تماما حتى جبل أولمب ، لذلك رسم رافدة مذبح للمصلى الملكى ، « ميلاد المسيح » و « انزال المسيح من الصليب » . وكان يضى نفسه فى العمل ، ولا يأكل إلا قليلا ، وبات عصبي المزاج ، وانهارت صحته ، وخيل اليه أنه واجد البرء فى روما . ومنحه شارل أجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام . وفى فترة اقامته الثانية بأسبانيا أضاف مزيدا من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية فى مدريد وارانجيز . ولكن صحته تداعت مرة أخرى ، فالتس من الملك الاذن له بالتقاعد فى روما . ومنحه الملك الطيب طلبته ، وأجرى عليه معاشا متصلا من ثلاث آلاف كراون فى العام .

ولكن ألم يكن في أسبانيا آتخذ فنانون وطنيون يرسمون ؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذى تضاعف مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخالية . كان هناك لويز ميلنديز للذى كاد يعدل شاروان في صور الطبيعة الصامتة (الطيور والفواكه) ويحتفظ بمتحف البرادو بأربعين منها ، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية ، ولكن اللوفر يزهما جميعا بصورة ذاتية رائعة . وهناك لويز باريت أى الكازار ، الذى بارى كاناليتو في تصوير مناظر المدينة كما ترى في لوحته Puerta de Sol — أكبر ميادين مدريد ، وأنطونيو فيلادامات ، الذى شهد له منجز بأنه أكفأ مصورى العصر الاسبان ، وفرانسيسكو بايو إى سوبياس ، الرقيق المتجهم المخلص لفنه ، الذى نال الجائزة الأولى في الأكاديمية عام ١٧٥٨ ، وصمم قطع النسيج المنجز ، وأصبح صديقا ، وعدوا ، وصهرا لجويا .

٩ — فرانسيسكو دى جويا أى لوسينتينس

أ — نشأته

اتخذ فرانسيسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان الايبيرين ، ثم اسم أبيه خوزيه جويا ، واسم أمه أورجاسيا لوسينتينس — أى ربة اللطف والنور . وكانت تنتمى إلى طبقة المهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة « دى » التى أدخلها فرانسيسكو على اسمه . ولد في ٣٠ مارس ١٧٤٦ بفونتينودوس ، وهى قرية أرجونية يسكنها ١٥٠ من الأنفس ولا يزينها شجر — إنما هى تربة حجرية ، وصيف قانظ ، وشتاء قارس ، يأتى على الكثيرين ، ويصيب الأحياء بالاكثئاب والخشونة .

وراح فرانسيسكو يتلهى بفرشاة الرسم ، فرسم في صباه لكنيسة القرية صورة للعدراء « سيدة العمود » ، حامية أرجون . وفي ١٧٦٠ انتقلت الأسرة إلى سرقسطة ، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب ، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان . ومنع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى ، وقلد تلوين تيبولو الناعم ،

وتعلم من التشريح قدرا يكفى لرسم صور العرايا المحرمة . وفي رواية أنه شارك - ثم تزعم بعد قليل - فريقا من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى ، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا في إحدى المعارك ، وكيف فر فرانسيسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه .

وفي ديسمبر ١٧٦٣ دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب . وتصف الأستاذورة حياته الصاخبة في العاصمة ، ولكن لانعلم على التحقيق إلا أن جويًا كان بينه وبين القوانين حب مفقود . وعاد إلى دخول امتحان المسابقة في ١٧٦٦ ورسب . وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظ : فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية ، ودرس الصور التي كان تيبولو يرسمها في مدريد ، ثم أرسى أسس أسلوبه فدل تغلب عليه شخصيته . وتروى الأسطورة بعد ذلك أنه انضم إلى فريق من مصارعي الثيران وسافر معهم إلى روما في تاريخ مجهول . ولقد كان دائماً شديد التحمس لمصارعي الثيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دي لوس تورس . كتب إلى موارنين في شيخوخته يقول « كنت في شبابي مصارع ثيران ، لأرهب شيئاً وسينى في يدي » (١١) . وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون الثيران في الشوارع . على أية حال وصل إلى إيطاليا ، لأنه في ١٧٧٠ فاز بالجائزة الثانية في مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة في بارما . وتحكى الأسطورة أنه تسلى قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطا على دير ليعطف راهبة . وأكثر من هذا احتمالاً أنه كان يدرس صور ماسكو الذي ربما كان لتلوينه القاتم ، وأجساده المعذبة ، ومناظر محكمة تفتيشه ، من الأثر العميق في نفسه ما فاق الأوضاع الهائلة الكلاسيكية التي أوصى بها منجز في أسبانيا .

وفي خريف ١٧٧١ نلتقى به في سرقسطة التي عاد إليها ليزين مصلى في الكاتدرائية « الكنيسة الكبرى لسيدة العمود » .

وقد أجاد التصوير ، وكوفي بخمسة عشر ألف ريال نظير جهده استغرقه ستة أشهر ، واستطاع الآن أن يعول زوجه إذا تزوج . وعامل القرب

(م ١٠ - قصة الحضارة ، ج ٤٠)

في تقرير اختيارنا شريك الحياة ، وهكذا تزوج (١٧٧٣) خوزيفاً بايو ، وكان فيها ريعان الشباب ، ولها شعر ذهبي ، ومكانها في متناولها . وقد استخدمها نموذجاً ، ورسم صورتها مراراً ، وصورتها المعلقة في البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل ، أو محزونة لخانات فرانسيسكو لها (٩٢) .

ثم نقل إلى مدريد (١٧٧٥) . وكلفه منجز (١٧٧٦) - بتوصية من من بايو على الأرجح - بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكي للنسجيات الذي أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان . وغامر جويبا الآن برفض خطير ، فالتخذ قراراً بشكل مستقبلي . ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال ، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين ينتمون إلى طبقته وعصره - رسم كدهم وحبههم ، ومهرجاناتهم وأعيادهم ، مصارعاتهم مع الثيران ولعبهم بطائرات الورق ، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم ، وإلى هذه الواقعية أضاف في جرأة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط . أمام منجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف : فلم يدم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية ، وشعر بنبض الحياة يسرى في الأسلوب الجديد ، وأعطى هذا المتمرد مزيداً من التكليفات . وأنتج جويباً خلال خمسة عشر عاماً خمسة وأربعين كرتوناً أساسياً لعماه ، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة . واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً . كتب إلى صديقه زاباترا « أن دخلي يتراوح بين إثني عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال في السنة » .

على أن نوعاً من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذي أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهري الذي إبتلى به جويبا ، ولكننا نعرف أنه مرض مرضاً خطيراً في أبريل ١٧٧٧ (٩٣) . وأيلي منه شيئاً فشيئاً ، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر في التشاؤم الذي شاب فنه ، وربما في فقدده السمع في ١٧٩٣ . على أنه تملك صحته في ١٧٧٨ بالقدر الذي أتاح له المشاركة في مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع في خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكليشيات ذخائر الفن الأسباني . ولهذا الغرض نسخ جويبا ثمانى عشرة

لوحة لفيلاسكيد ، ومن هذه النسخ صنع محفورات ، وكانت هذه مهارة جديدة عليه . وظل مناقشه حينما مترددا فجأ . ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رمبرانت . وسمح له بأن يقدم نسخه بشخصه إلى الملك ، وفي ١٧٨٠ سجل واحدا من مصورى البلاط . وقبل الآن فى الأكاديمية آخر الأمر . وحوالى ١٧٨٥ رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة . التى بدا فيها الملك لا بسا حلة الصيد . مهياً للقتل ، ولكنه هرم . مكدود ، متقوس الساقين محدودب الظهر ، هنا ضحى جويا كمادته بالرضى فى سبيل الصدق .

واستقدم جويا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال . وقبل شتى التكاليفات ليعول هذه الأسره المتكاثرة : فرسم لوحة جصية فى كنيسة سان فرانسسكو الجراندى ، وصورا دينية لكلية كالاترافا بسامنته ، ومشاهد من الحياة اليومية لمنزل دوق أوزونا الريفى . ثم رسم لوحات للأشخاص لكونها أربح فرع فى مهنته . فرسم عدة لوحات لا وزونا^(٩٤) ، واحدة للدوق وأسرته — يبدو فيها الاطفال شديدي التصلب وأخرى لدوقه أوزونا بثلاثة أرباع طولها^(٩٥) — وهى معجزة من الوان الزيت تستحيل حريرا ومخرمات .

وربما كان جويا سعيدا عام ١٧٨٤ . ففى ذلك العام ولد له خافيد ، وهو الابن الوحيد الذى قدر له أن يبقى حيا بعد موت أبيه . وأزيح الستار عن الصور الجصية التى رسمها لكنيسة القديس فرنسيس الكبير فى احتفال رسمى . وأثنى عليها مشاهدوها كأروع لوحة فى ذلك العهد . وكان الملك وكل حاشيته حضورا ، وقد شاركوا فى الثناء . وحوالى ١٧٨٧ رسم جويا لوحة المركز دى بونتيخوس . وهى الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية فى وأشنطن . وبعد عام عاد إلى رسم الطبيعة فى لوحته La Pradera de San Isidro^(٩٦) . وتمثل حقلا غصص بالمتزهين يحتفلون بعيد القديس خايمى مدريد العظيم بالركوب والتمشى والجلوس والأكل والشرب والغناء

والرقص على شواطئ ما زاناريس المعشية . وهى لا تعدو أن تكون تخطيطا ، ولكنها آية من آيات التصوير .

ولم يزد عمر جوياء على الثالثة والأربعين حين مات شارل (١٧٨٨) ولكنه حسب نفسه قد شاخ . وكان قد كتب فى ديسمبر من العام إلى زياتر يقول « لقد شخت ، وملاأت التجاعيد وجهى حتى أنك لن تستطيع التعرف على « لولا أنفى الأفتس وعينائى الغائرتان » (٩٧) . وما كان فى استطاعته التنبؤ بأنه مازال أمامه فسحة فى الأجل تمتد أربعين سنة ، وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكنان فى مستقبل أيامه . لقد تطور فى بطاء والآن سيكرهه الغرام والثورة على أن يتابع السير وإلا كان من المغرقين . فارتفع مع الأحداث ، وأصبح أعظم فنان فى جيله .

(ب) غرام

وقد شغله ١٧٨٩ رسم صور للملك والملكة الجديدين احتفالا بدخولهما مدريد رسميا فى ٢١ سبتمبر . وكان « فيليبى » بن شارل الثالث البكر ، قد أقضى عن وراثة العرش أخته ، قال العرش للأبن الثانى الذى وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه « نصف معتوه » (٩٨) لا أكثر . وكان شارل الرابع ساذجا حسن الظن بالناس ، فيه من الطيبة ما يكاد يغرى الأشرار بالشر . وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والأنجاب لافتراضه أنه مقصى عن وراثة العرش ، بحكم كونه الأبن الثانى . أما وقد بات الآن بدينا لبين العريكة ، فإنه أستسلم راضيا لزوجته ماريا لويز البارمية ، وتجاهل — أو جهل — فسقها مع عشاقها ، ورقى عشيقها ما نويل دى جودوى رئيسا للوزارة (١٧٩٢ — ٩٧) .

وكانت الملكة الجديدة قد داعبت الأفكار التحريرية قبل ولايتها للعرش ، وقد شجع شارل الرابع فى أول سننى حكمه فلوريدا بلانكا ، وخوفيلانوس ، وكامبومانيس (وكلهم رستهم جوياء) على المضى فى برنامج أصلاحتهم . غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

إلى رجعية سياسية أعادتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسة بأعتمارها أقوى معقل للملكية . وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التي سنت في عهد شارل الثالث ، وأستعاد ديوان التفتيش بعض سلطاته ، وأوقف إستيراد الأدب الفرنسى ، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية ، وأقصى عن البلاط خوفيلانوس وكامبومانيس وأراندا . وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذى يعتزون به . وفى ١٧٩٣ أنضمت أسبانيا إلى الحرب التى خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة .

فى وسط هذا الممعان حالف الحظ جويا . ففى أبريل ١٧٨٩ عين « رساما للبحر » فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجا لها صحبها جويا إلى بلنسية (١٧٩٠) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد . ووأضح أن الطلب أشد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها ، لأننا نجده فى ١٧٩٢ فى قادس ضيفا على سبستيان مارتينيز . وفى طريق عودته أصيب فى أشبيلية بالدوار والشلل الجزئى ، فعاد إلى صديقه فى قادس ، وظل نهباً للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة .

فأى مرض هذا الذى شكاه منه ؟ لقد وصفه بايو وصفا غامضا يقوله أنه « ذو طبيعه رهيبة جدا » . وخامره الشك فى أن جويا سبىراً منه يوماً ما^(٩٩) . وكتب رياتر صديق جويا الوفى فى مارس ١٧٩٣ : « لقد جلب على جويا هذا المأزق إفتقاره إلى التدبر . ولكن لأبد من مواساته بكل الشفقة التى يتطلها مصابه^(١٠٠) . » وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهرى^(١٠١) ولكن آخر تحليل طبي رفض هذا الرأى وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن^(١٠٢) . أيا كان الأمر فإن جويا كان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد فى يوليو ١٧٩٣ ، وكذلك ظل إلى يوم مماته . وفى فبراير ١٧٩٤ كتب خوفيلانوس فى يوميته « كتبت إلى جويا ، فرد بأنه كان عاجزا حتى عن الكتابه نتيجة السكته الدماغيه التى أصيب بها^(١٠٣) » . ولكن الشلل زال شيئاً فشيئاً ، وما وافى عام ١٧٩٥ حتى كان فى جويا من العافيه ما أغراه بالوقوع فى الحب .

وكانت تريزا كاتيانا ماريا ديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة . وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية ، فرباها على مبادئ متحررة ، وتلقت تعليما هيا لها عقلا يقظا وإرادة عنيدة . فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دى توليدو أوزوريو ، ذوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا . وكان الدوق رقيق الجسد معلولا ، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه فى الموسيقى . ورسمه جويا جالسا إلى البيانو أمام نوتة لهايدن . وكانت الدوقة متغطرة جميلة شهوانية . وقد لاحظ رحالة فرنسى أنه « ليس فى رأسها شعرة لا تثير الشهوة »^(١٠٤) ، وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة . وأقننت فى بيتها شخصا معتوها ، وراها أعور ، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبها المفضلة . ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة ، ولعلها أنعطفت نحو جويا لأنه كان أصم تعسا بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته .

ولا بد أنه رآها مرارا قبل أن تقف ليرسمها . لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعنائها الجريء للملكية . وأول صورة تحمل تاريخا رسمها لها تبدو فيها بطولها كله . وقد لفت قسماها النحيفة الحارة فى لمة من الشعر الأسود . ويمناها تشير إلى شئ على الأرض . فلماذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة « إلى دوقة ألبا دى جويا ١٧٩٥ »^(١٠٥) . وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلا . وليست الصورة من روائع جويا . ويفضلها كثيرا تلك التى رسمها فى العام نفسه لفرانسسكو بايو الذى كان قد مات لتوه . وفى نوفمبر خلفه جويا مديرا للمدرسة التصوير بالأكاديمية .

ومات دوق ألبا فى يونيو ١٧٩٦ . وأعتكمت الدوقة فترة حداد وجيزة فى ضيعتها الريفية بسانلوكار ، بين أشبيلية وقادس . وليس من المؤكد أن جويا رافقها ، ولا علم لنا إلا بغيابه عن مدريد من أكتوبر ١٧٩٦ إلى إبريل ١٧٩٧ . وبتدوينه فى كراستين رسوما لبعض ما رأى فى سانلوكار . ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف ، أو ترتب الزنجية ، أو تشد شعرها فى نوبة غضب ، أو تتنقىل (بينما تنقل الخادمة المبولة)^(١٠٦) ، أو يغشى

عليها في نزهة ، أو تعبت مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويا على يديها الملائقتين . وتدل الرسوم التخطيطية على غرته المتصاعدة ، وتبدو فيها أيضا امرأة أخرى - تخرج عارية من الحمام ، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بدية التكوين ، ولعل جويا انغمس كالدوقة في إنحرافات الحب . ومع ذلك فالراجح أنه في سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها (١٧) - في زى « ماخا » وقحه ترتدى ثوبا أسود في صفرة ، بنزام من القرمز والذهب حول خصرها النحيل ، وطرحه سوداء فوق رأسها ، وفي يدها (وهي في حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم « ألبا » والآخر « جريا » ، وتشير سبابتها إلى اسمه ، وتاريخ ١٧٩٧ ، مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها . وكان يرفض دائما بيع هذه اللوحة .

وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد . وتهمها بعض رسومه « الكابريكو » (١٧٩٧) بالاستسلام الفاجر لأشتات من ذكور يفتقرون إلى اللياقة . وقد أتهمها جودوى باغواء وزير الحربنة وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل إنصارها ينبغي أن يدفنوا في حفرة كبيرة (١٨) . . وحين ماتت الدوقة (٢٣ يوليو ١٨٠٣) وهي بعد في الأربعين ، أرجفت مدريد أنها سممت ، وعطف الناس عليها لأنها خلقت قدرا كبيرا من ثروتها الضخمه لخدمها . كذلك أوصت براتب سنوى يبلغ ٣٠٦٠٠ ريال لخافيير بن جويا . وأمر الملك بالتحقيق في موتها - وعين جودوى رئيسا للمحققين -- وزج بالطبيب وبعض أتباع الدوقة في السجن ، وألغيت وصيتها ، وحرم خدمها من أنصبتهم التي أوصت لهم بها ، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا (١٩) .

(ج) قصة المحمد

كان جويا قد إستقال عام ١٧٩٧ من منصبه مديرا للتصوير في الأكاديمية ، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس . وفي ١٩٧٨

أختير لزخرفة قبة كنيسة سأن أنطونيودي لا فلوريديا وقلب قوصراتها ،
ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانية ،
إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة ، في صورة
الهام ، حياة شوارع مدريد ودمها . وفي ٣١ أكتوبر ١٧٩٩ عين « مصور
البلاط الأول » براتب قدره خمسون ألف ريال في العام . ورسم في (١٨٠٠)
أشهر لحياته قاطبة وهي « شارل الرابع وأسرته » (١١٠) - وهي كشف
قاس عن بلاهة الأسرة المالكة ، ونحن نقشع حين نتخيل منظر هذه المجموعة
من الأبدان المنتفخة والأرواح القميثة إذا جردوا من ثيابهم البراقة - وتلك
براعة في الأشعاع والتألق ندر أن بزها رسام في تاريخ الفن . ويروى التاريخ
أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة (١١١) .

وفي ركن من اللوحة رسم جوياء نفسه . وعلينا أن نغفر أنانية صوره
الذاتية الكثيرة ، ولا ريب في أن بعضها كان دراسات تجريبية استخدم فيها
مرأة ، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحته أمام المرأة ، وأثنان
منهما رائعتان . وخيرها (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها في الخمسين ،
أصم ولكن في كبرياء ، له ذقن عدواني ، وشفتان شهوانيتان وعيون فظة ،
وشعر ينمو فوق أذنية ويكاد يصل إلى ذقنه ، وتتوج هذا كله قبة حريرية
فأخرة تعلو رأسه الضخم كأنها تحد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين . وبعد تسعة
عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة ، وبعد أن نجا من ثورة : رمى القبة ،
وفتح قميصه عند عنقه ، وكشف عن نفسه في مزاج ألطف ، لم تزل له
كبرياؤه ، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التخديبات (١١٢) .

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحي فنه . ومع أن معاصريه كانوا
يعلمون بأنه لن يتملقهم ، فأنهم خضعوا في لفة لحكم فن راودهم الأمل في أنه
سيحمل ذكراهم قرونا طوالا سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أوعار
يخزيهم . ولدينا علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضوا في الأسرة المالكة
جلسوا أمامه ليرسمهم ، وقد بقيت من هذه الصور مائتان . ومن أفضلها
صورة لفردينان جيهارويه ، السفير الفرنسي ، وقد أتى بها صاحبها إلى

باريس ، وإقتناها اللوفر في ١٨٦٥ ، وإليها يرجع بعض الفضل في بعث شهرة جويا في فرنسا ، وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون مانويل أوزوريو دي زونيجا ، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ، هنا إدرك جويا فيلاسكيز . وقد ضارع فيلاسكيز ثانياً في كوكبة النساء اللاتي صورهن ، وأنتظمت صورهن لهن أشتاتاً ، فيها النحيلات مثل « الطفلة الملكية ماريلا يوزيفا » ، وفيهن المرأة الساحرة الخلابه مثل السنيورا جارثيا (١١٣) ، والممثلة المكتله « لاتيرانا (١١٤) » .. جمال مصور ولكنه يخلى مكانه للشخصية .

أما أكثر نساء جويا سفورا فهي « الماخا » الوقحة التي رقدت حوالى (١٧٩٨) خالية من كل زينة يرسم لها « الماخا العارية » ؛ ثم كاسية في اغراء يرسم لها « الماخا في ثيابها » وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عدداً غفيراً كالذى تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر . والماخا العارية ولوحة فيلاسكيز « فينوس في المرأة » هما الصورتان العاريتان الوحيدتان في التصوير الأسبانى ، لأن رسم العرايا في الفن الأسبانى كان عقابه السجى سنة ومصادرة المنقولات والنقى . وقد غامر به فيلاسكيز في حماية فليب الرابع ، وجويا في حماية جودوى الذى وافق جويا على تفضيل الثديين الكبيرين والخصر النحيل والشفاه الممتلئة . « وماخا » جويا لم تكن صورة لدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها ، كذلك لم تكن الكاسية التي رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروى الأسطورة) وفي عينيه نذير المبارزة . ولكن اللوحتين اشترتهما الدوقة أو أعطيتا لها ، وانتقلتا بعد وفاتها إلى مجموعة جودوى .

وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذى يكسبه من تصوير الأشخاص ، راح يتسلى (١٧٩٦ - ٩٧) بمحفورات وصور مائية نشرها في ١٧٩٩ على أنها « نزوات » .. ثلاث وثمانون صورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب ، تصف في هجاء قائم وعناوين ساخرة عادات جيله وأخلاقه ونظامه . وألح هذه السلسلة هى رقم ٤٣ : وهى تصور

رجلاً استسلم للنوم على مكتبه بينما العفاريات تحوم حول رأسه : وعلى المكتب عبارة تقول « حلم العقل يبعث العفاريات » . وقد فسر جويوا هذا بأن « الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريات ، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها (١١٤) » . وهذه طعنة للمخرفات التي أظلمت عقل أسبانيا ، ولكنها كذلك وصفت لنصف فن جويوا . فلقد كانت الأحلام المرعبة لا تبرحه ، « ونزواته » على الأخص تمتلئ بمناظرها المروعة . هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى عشرات الأشكال الوارمة ، العجفاء ، الكسيحة ، الوحشية ، والبوم والقطط تنظر إلينا شزراً ، والذئاب والنسور تجوس خلصة ، والساحرات يطرن في الهواء ، والأرض تبعثت فيها الجحائم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثي الولادة حديثي الموت . وكأنما قفز خيال هيرونيوموس بوش المريض عبر فرنسا متخطياً القرون ليدخل عقل جويوا ويشيع فيه الفوضى .

أكان جويوا عقلانيا ؟ كل ما نستطيع أن نقواه هو أنه فضل العقل على الخرافة . ففي أحد رسومه صور شابة مكحلة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيوراً سوداء بالسوط ، وتحت الصورة كتب جويوا « أيها العقل المقدس لا تبق على أحد (١١٦) » . وفي رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أرديتهم (١١٧) ؛ وقد ركب على جسد راهب يصلى وجه مجنون (١١٨) . وصور « محكمة ديوان التفتيش (١١٩) » مشهداً كثيفاً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور . وصور يهودياً مقيداً بالأغلال في زنزانة التفتيش ، وكتب هذا التعليق « أى زاباتا ، أن مجدك سيدوم إلى الأبد (١٢٠) » . أكان هذا صدى لكتاب فولتير « أسئلة زاباتا » ؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات (١٢١) . وفي آخرهم رسم إنساناً مبتهجاً فوق هذا العنوان « الحرية المقدسة ! » (١٢٢) ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه في ورع . ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب ، وربما كانت هذه كلها آثاراً متخلفة من عادات كونها في صباه .

د - ثورة

أكان جويوا ثائراً ؟ كلا . لا بل أنه لم يكن حتى جمهورياً . وليس في فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب في الاطاحة بالملكية الأسبانية . وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث ، وشارل الرابع ، وجودوى ، وجوزف بوناپرت ، وعاشر نبلاء البلاط في سرور وابتهاج . ولكنه خبر الفقر من قبل ، وما زال يراه من حوله ، ونفره إملاق الجاهل وماترتب عليه من جهل وخرافه ، وتقبل الكنيسة للفقر الجماعى نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم . وقد خلد نصف فنه الأغنياء ، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بانصاف الفقراء ، واحتجاجا على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب . كان موالياً للملكية في لوحاته الشخصية ، كاثوليكياً في صوره ، متمرداً في رسومه ، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقتته للظلامية والظلم والحماقة والقسوة . ويمثل رسم منها رجلاً ممدداً فوق مخدعه وعنوان الرسم « لأنه اكتشف حركة الأرض » . ورسم آخر يصور امرأة وضعت في المقطرة لأنها « أبدت عطفها على قضية التحرير » .

ومن هؤلاء الأسبان الذين سموا أنفسهم تحريرين ؛ يبدو أنهم كانوا أول حزب سياسى استعمل ذلك الاسم . وقد عنوا به التدليل على شوقهم إلى الحرية - حرية العقل من الرقابة ، وحرية الجسد من الانحطاط ، وحرية الروح من الطغيان . وكانوا قد تلقوا في عرفان « التنوير » الوافد من حركة التنوير الفرنسية . ورحبوا بدخول قوة فرنسية في أسبانيا (١٨٠٧) ، والواقع أن نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير ؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا . وقد رسم جويوا صورة للحاكم الجديد .

ولكن مزاج الشعب ومزاج جويوا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلعهما ؛ ونفى أحدهما إلى إيطاليا

والآخِر إلى فرنسا ، ونصب أخاه جوزف ملكا على أسبانيا . وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكي . وأمر مورا جنده بأن يخلو الميدان ، ففراجمع ، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين ألفا في ميدان مايور . فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من الثوفاذ والبواكي ، فاشتد غضبهم ، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز . ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار ، هو يوم مايو الأشهر (٢ مايو ١٨٠٨) ، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى ، وشهد جويا من موضع قريب موت شطراً من المذبحة (١٢٣) . وفي ٣ مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار ، وأعدم كل أسباني أمسك متلبساً ببندقية في يده . وهبت أسبانيا الآن كلها تقريبا ثائرة على الفرنسيين ، وسرت « حرب تحرير » من إقليم لأقليم ، ولطمخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته . وفي ١٨١١ كتب وجيته مخافة أن يتفاقم سوء الحال . وفي ١٨١٢ مات نخوزيفا . وفي ١٨١٣ استولى ولنجن على مدريد ، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه .

واحتفل جويًا بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته (١٨١٤) (١٢٤) . إحداها « يوم مايو » أعاد فيها بناء مارأى أو سمع أو تخيل من المعركة الناشئة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك . فوضع المماليك في القلب ، لأن اشتراكهم في القتال هو الذي أثار أبلغ استنكار في الذاكرة الأسبانية . ولا داعي للسؤال هل كانت الصورة تاريخيا صحيحاً ، فهي فن رائع قوى ، ابتداء من تدرجات الألوان التي تومض على جواد المملوك المخذ وانهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يقتلوا . وأنصع حتى من هذه اللوحة اللوحة الأخت « الرمي بالنار في الثالث من مايو » - وفيها فرقة لحماة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان . وليس في فن جويا ماهو أبلغ وقعاً في النفس من التباين بين الرعب والتحدى في الشخصية الوسطى في تلك المذبحة .

والآن وقد بات جويأ أرملا ، أصم ، مكرها على الصمت ، فقد انكفأ إلى فنه وهو ما يزال « مصور الحجرة الملكية » ذا المعاش المقرر ، ولكنه لم يعد أثراً لدى البلاط . ولعل أقوى محفوراته قد حفرها في ١٨١٢ ، وهي « العملاق » (١٢٥) — وتمثل هرقل بوجه كاليبان ، جالسا على حافة الكرة الأرضية ، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة . وكان طوال الفترة من ١٨١٠ يرسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبعا ، وقد سماها « العقابيل القتالة لحرب أسبانيا الدموية مع بونايرت ، وغيرها من النزوات » . ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة والثمانين ، ولكن أوصى بها لولده ، الذي باعها ابنه لأكاديمية سان فرناندو ، والتي نشرتها عام ١٨٦٣ بعنوان « كوارث الحرب » .

وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستخفي القتل فيها في ثوب البطولة والجد ، إنما هي لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزيلة في حميا الصراع ونشوة الدماء . هنا بيوت تحترق وتنهار على ساكنيها ، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق ، هنا نساء تهتك أعراضهن ، ورجال يشدون إلى أعمدة أمام فرق ضرب النار ، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤوسهم ، وجندى يحب الأعضاء التناسلية لرجل (١٢٦) وجثث تحوزق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة ، ونساء ميتات مازان قابضات على أطفالهن الرضع ، وأطفال يرقبون في هلع قتل آبائهم ، وأكداش من الموتى يقذف بهم في الحفر ، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الآدميين . وتحت هذه الصور أضاف جويأ تعليقات ساخرة . « هذا ما ولدت له » (١٢٧) ، « هذا رأيته » (١٢٨) ، « لقد حدث هكذا » (١٢٩) ، « ليدفنوا الموتى ويلزموا الصمت » (١٣٠) . وفي النهاية أعرب جويأ عن يأسره وأمله . فالصورة رقم ٧٩ تمثل امرأة تموت بين الحفارين والكهنة ، وعنوانها « الحق يموت » ، ولكن الصورة رقم ٨٠ تظهرها وهي تشع ضياء ، وتساءل « أتبعث حية مرة أخرى ؟ » .

٥ - المنحدر

في فبراير ١٨١٩ اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهر مازاتارييس . كانت الأشجار تظله ، ومع أنه كان عاجزاً عن سماع شدة الغدير الذي حف به ، فإنه استطاع أن يحسّ الدرس المستفاد من جريانه الهادئ المطمئن . وكان جيرانه يسمون بيته « بيت الأصم » . ولما كان خافير قد تزوج واستقل بيته ، فقد صحب جويّا معه دوناً لونا دياوايس ، خلية ومديرة لبيته . وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن . ولكن جويّاً كان في حصن حصين من لسانها السليط . وأنت معها بطفلين - صبي هو جييرمو ، وفتاة صغيرة مريحة تدعى ماريّا ديل روزاريو . وقد أصبحا عزاء الحياة الفنان في شيخوخته .

واقعد كان في أمس الحاجة لهذا الحافظ الصحي لأن عقله كان على شفا الجنون . على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم « الرسوم الزنجية » التي غطى بها كثيراً من جدران البيت الذي كان مستشفاه . وراح يرسم بالأسود والأبيض في الأغلب ، وكأنه يعكس ظلام عقله . ولم يعط حدوداً معينة للأجساد التي رسمها وكأنه وفي لغموض رؤاه . ولكنه استعمل ألواناً جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صور حلم سريعة الزوال . وقد رسم على جدار جانبي طويل « رحلة سان ايزيدرو » وهو العيد الذي رسمه مبهجاً عام ١٧٨٨ قبل احدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كثيباً لمتعصبين متوحشين مخمورين . وجمع على الجدار المقابل أشخاصاً أفطع حتى من هؤلاء في « سبت الساحرات » وهن يتعبدن لنيس أسود ضخّم على نحو رهيب لأنه شيطانهم وإلاههم الأمر . وفي أقصى الحجرة ارتفعت أبشع صورة في تاريخ الفن ، صورة ساترن يفترس ابنه - مارد يفترس طفلاً عارياً ، أكل رأسه وذراعه وأخذ يلبسهم الذراع الباقية وهو يرش الدم من حواه (١٢١) . وربما كانت الصورة رمزاً مجنوناً للأمم مجنونة تأكل بنينا في الحرب . هذه رؤى رجل تعذبه أطيايف الموت المروعة فهو يرسمها في جنون ليطردها من ذاته ويثبتاً على الجدار .

وفي ١٨٢٣ هربت ايوناديا إلى بوردو بولديها لحوفها من الاعتقال

بسبب نشاطها الماسونى . وقرر جويا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذى رسمه على جدرانہ . ولكنه لو رحل يغير لذن من الملك لفقد حقه فى الراتب الرسمى الذى كان يتقاضاه بوصفه عضواً فى الحجرة ، فالتمس أجازة شهوراً للاستشفاء بمياه بلومبيير ، ففح الأجازة . ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو ، وفى يونيو ١٨٢٤ يم شطر بوردو ، وليوثاريا ، وماريا ديل روزاريو .

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشوبة المتسلطة عليه كما دنت منيته . فأوصى بمعاش سنوى للصبي وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو . ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وابنه ، فلما وصلا عانقهما جويا فى انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش . وكتب إلى ابنه يقول : « يا عزيزى خافيير ، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما احتمال . . . أدعوا الله أن يتيح لك أن تأتى وتأخذها وعندها تفيض كأس سعادتي (١٣٢) » . وفى صباح الغد احتبس صوته وشل نصف بدنه . وطال احتضاره ثلاثة عشر يوماً وهو ينتظر بصبر نافذ مجيء خافيير دون جدوى . ومات فى ١٦ ابريل ١٨٢٨ . وفى ١٨٩٩ نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان انطونيو دى لافلوريدا ، حيث رسم قبل سائة عام تحت القبة آلام الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها .



الفصل الثاني عشر

وداعا إيطاليا

١٧٦٠ - ١٧٨٩

(١) جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى في هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة . فسرى تورين تحتضن الفيرى ، ولوكا تنشر موسوعة ديدرو ، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد ، وميلان تصلح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهتز أطربا لتجارب فولتا وجلفاني ، والبندقية تعاني من سلوك كازانوفا ، ونابلي تتحدى البابوية ، وروما متورطة في مأساة اليسوعيين ، وعشرات من مرابي الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين لهدئوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الالب . وسنلتقي في إيطاليا بمائة ألف أجنبي قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها . ففى هذا العهد وفد عليها جوته بعد أن أرهقه نبلاء قمار ليجدد شبابه ويروض ربة شعره .

كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الالب إلى فينتسيا ترد نتينا (سبتمبر ١٧٨٦) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذى « يضى غاية البهجة على مجرد الوجود بل حتى على الفقر »^(١) ثم هذه الحياة الطليقة : « فالأهالى دائماً خارج بيوتهم وهم نحاول بالهم لا يفكرون فى شيء . إلا فى أن يحبوا » . وظن أن التربة المثمرة لا بد أن تجود على هؤلاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون ابطاء ، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية فى المدن الصغيرة افزاعة :

« حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لى على الفناء قائلا « ممكن ، تحت ، فى الحوش » . فسألته « أين ؟ فقال فى لهجة ودية « فى أى

مكان ، كما نشاء » . . . فكل الافنية الامامية والاعمدة تلونها الاقدار ، لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جدا » (٢) .

على أن التكيف الحسى جعله يسلم بالأمر الواقع شيئا فشيئا ه
وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف ، فحوالى ١٧٧٨ وصف كارلو جوتسى فى مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام فى الأخلاق :

« إن منظر النساء وقد انقلبن رجالا ، والرجال نساء ، وكلهم نسانيس ، وكلهم غارقون . . . فى دوامة الموضه ، يفسدون ويغنون بعضهم بعضا بلهفة كلاب الصيد تجرى وراء رائحة الفريسة ، ويتنافسون فى شهواتهم وسرفهم المدمر . . . ويحرقون البخور . . . ليزيابوس (٣) .
(إله الشهوة) »

وفى ١٧٩٧ ألقى الاوم على الفلسفة فى هذا الانهيار :

« أن الدين ، ذلك الكابح الصبحى لشهوات البشر . . . قد أصبح هزوا بين الناس . ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع ، لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدته نفسه بالإجرام . ولكن فلاسفتنا العصريين بددوا بالمشنقة زاعمين أنها تحيز ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسرقات وأعمال العنف مائة ضعف .

« وقد أكدوا لنا أن ابقاء النساء فى بيوتهن لرعاية بنينهن وبناتهن . . . والأشراف على خدمة الأسرة واقتصادها ، إنما هو تحيز بال وهمى . وللتوانطلقت النساء من بيوتهن معربدات كالباحوسيات ، صانحات « الحرية ... الحرية ... » وغصت الشوارع بهن . . . وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشة إلى الموضات والبدع التافهة ، والملاهى ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف . . . أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومالهم وأسرهم ، وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة ، كلمة « التحيز » . . . فقد وصفت مكارم الأخلاق ،
(م ١١ - قصة الحضارة ج ٤٠)

والخشمة ، والعفة ، بأنها تحيز . . . وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب . . . ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى . كالكفر ، والاطاحة بالاحترام والتوقير ، وقلب العدالة رأساً على عقب . . . وتشجيع المجرمين والرتاء لهم ، والخيالات الملتببة ، والأحاسيس المرفهة ، والغرائز البهيمية ، والانهماك في جميع اللذات والشهوات ، والترف العاقى . . . والتفاليس . . . والحيانات الزوجية (٤) » .

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية ؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذى أتاح لها الدفاع عن قوتها وعلى التقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازديادا مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية ، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة .

وفى ٩ مارس ١٧٨٩ انتخب لودوفيكومائن لرئاسة الجمهورية - وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين الذين تعاقبوا على كرسى رئاسة البندقية فى استمرار رائع منذ عام ٦٩٧ . وكان رجلا ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة ، ولكن ما كان فى طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته . ذلك أن الباستيل سقط بعد أربعة أشهر ، وتسلمت عبادة الحرية على خيال فرنسا ، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل ايطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته . وفرض الكورسيكى الظافر يظاهرة ثمانون ألف جندى على ملكة الادرياتيكي حكومة مؤتمته أملاها بنفسه (١٢ مايو ١٧٩٧) محجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عني بأرض البندقية ، ومتهما البندقية بأنها ساعدت أعداءه سرّاً . فى ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال ، وأمره قائلاً « خذها بعيداً عني فإن نحتاج إليها ثانية (٥) » وبعد أيام مات . وفى ١٦ مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة . وفى ١٧ أكتوبر وقع بونابرت فى كاميو فورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التى تمتلكها تقريباً إلى النمسا فى مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا فى البلجيكيك وضمفة الرين اليسرى . وحدث هذا بالضبط

بعد ألف ومائة عام من انتخاب أول دوج لحكم بحيرات البندقية والدفاع عنها .

أما بارما فكانت محمية أسبانية ، ولكن دوقها ، الدون فيليبي ، ابن فيليب الخامس وايزابيلا فارنيزي ، تزوج لويزا اليزابث ابنة لويس الخامس عشر ، وقد عود نفسه عادتها المسرفة وجعل بلاطه فرمايا مصغرة . وأصبحت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية في بهجة ومرح . يقول كازانوفا « لقد خيل إلى اننى لم أعد عائشاً في ايطاليا ، فكل شىء بدا منتمياً للجانب الآخر من الألب . ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية^(٦) » . وقام وزير مشنير يدعى جيوم دوتيو باصلاحات حافزة للدوقية . هنا كانت تنتج مصنوعات من أبدع أنواع النسيج والبللور والقاشانى .

أما ميلان فقد شهدت توسعا صناعيا يبنى في تواضع بما بلغته من تفوق اقتصادى في إيطالية اليوم . ذلك أن الحكم النمساوى أرحى قبضته على قدرات الأهالى وإقدامهم . وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان ، حاكم لومبارديا ، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة ، وحد من السلطة الظالمة "تى كان يمارسها البارونات الأقطاعيون والإولييجركيون في المدن ، وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بييترو فرى ، وتشيزارى بونيزانا دى بيكاريا ، وجوفانى كارلى ، أعتنقت مبادئ الفزيوقراطيين ، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية ، وأنشؤا نظام الالتزام الضرائبى ، ووزعوا العبء بفرض انضرائب على الأملاك الكنسية . ونمت صناعة النسيج حتى أنتظمت في ١٧٨٥ تسعا وعشرين شركة تشغل ١٣٨٤ نولا . ومسحت الأراضي ، ومولت الدولة مشروعات الري ، وأشتغل الفلاحون بهمة صادقة . وفي السنوات الإحدى والعشرين فيما بين ١٧٤٩ و ١٧٧٠ ارتفع سكان الدوقية من ٩٠,٠٠٠ إلى ١٣٠,٠٠٠^(٧) . في فترة انتعاش ميلانو . هذه بنى مجتمعها الثياترو الاسكالا (١٧٧٦ - ٧٨) ، الذى لاتسع لـ ٣٦٠٠ متفرج تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور ، وأحتوى تسميلات

للموسيقى ، والسمر ، والأكل ، ولعب الورق ، والنوم . وفوق هذا كله صهرنجاً للمياه صمم لاطفاء أى حريق . هنا ظفر تشيا روزا وكيرويني بانتصارات مدوية .

وكان العصر عصر البطولة لكورسكا . لقد كانت تلك الجزيرة الجبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ . فالفينيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرة فيها حوالى ٥٦٠ ق . م . ثم قهرهم الأثوريون ، الذين قهرهم القرطاجنيون ، الذين قهرهم الرومان ، الذين قهرهم الروم البيزنطيون ، الذين قهرهم الفرنجة ، الذين قهرهم المسلمون ، الذين قهرهم إيطاليوتسكانيا ، الذين قهرهم البزاويون ، الذين قهرهم الجنويون (١٣٤٧) . ومات فى ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود . وفى ظل الحكم الجنوى انحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة ، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها ، وانقلبوا إلى نخال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة . . وأخفقت الثورات التى اندلعت بين الحين والحين لما أبطل به القوم من غداوات طاحنة وما أفقدوا من العون الأجنبي . أما جنوه ففى سبيل الدفاع عن حياتها ضد الجيوش النمساوية استنجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام فى كورسكا . واستجابت فرنسا مخافة أن يستولى البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط ، فاحتلت الجنود الفرنسية أياتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (١٧١٩ - ٤٨) . ولما بدا أن الأمن قد أمنت انسحب الفرنسيون ، وعاد سلطان جنوة إلى سابق عهده ، وبدأت ثورة باولى التاريخية .

وقد سبق بأسكالى دى باولى هذا بطولات غاريبالدى بقرن كامل . وقد وصفه اللورد شاتام بأنه « واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا فى صفحات بلوتارخ^(٨) » . ولد (١٧٢٥) أبنا لثائر كورسيكى وتبع أباه إلى المنفى ، ودرس فى نابلى على يد الاقتصادى المتحرر جينوفيزى ، وخدم فى جيش نابلى ، ثم عاد إلى كورسيكا (١٧٥٥)

وأختير ليقود تمردا على جنوه . وبعد عامين من القتال أفلح في طرد الجنوبين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولى رئاسة الجمهورية الجديدة بالانتخاب (١٧٥٧ — ٦٨) أظهر في ميدان التشريع والإدارة نبوغا لا يقل عن نبوغه في إستراتيجية الحرب وتكتيكها . فقد وضع دستورا ديمقراطيا ، وقمع الثورات ، وألغى حقوق أمراء الأقطاع الظالمة ، ونشر التعليم ، وأسس جامعة في عاصمته كورنق .

وأضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (١٥ مايو ١٧٦٨) بمليونى فرنك . ووجد باولى الآن نفسه يقاتل جنودا فرنسيين يعززون بالأمداد المرة بعد المرة . وكان سكرتيره ومساعدته فى ذلك الوقت كارلو بونابرى ، الذى ولد له ابن سماه نابليون بياتشو فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . فلما قهر الفرنسيون باولى فى بونتينوفو (مايو ١٧٦٩) طلق هذا النضال الذى لا أمل فيه ولجأ إلى التجلته ، وهناك منحه الحكومة معاشا ، وأذاع بوزويل اسمه ، وكان جونسون واحداً من أصدقائه . على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه ، وأشادت به « بطلا وشهيدا للحرية » وعينه حاكما على كورسيكا ، (١٧٩١) . ولكن المؤتمر الفرنسى حكم بأن فى ميوله اليقويية قصورا ، فأرسل لجنة للجنة ، وخف الجنود البريطانيون لنجدته ، ولكن القائد البريطانى أستولى على الجزيرة وأعاد باولى إلى التجلته (١٧٩٥) . ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (١٧٩٦) ، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين بأعتبارهم موفدين من قبل « الكورسيكى » ، وانسحب البريطانيون ، وخضعت كورسيكا لفرنسا .

أما توسكانيا فقد إزدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشى (١٧٣٨) . وبعد أن إتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللورينى النمسا مقرا له لزواجه من ماريا تريزا ، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلائين الأحرار فى أصلاحتهم الاقتصادية ، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية فى الغلال (١٧٦٧) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمحاولتهم فى فرنسا بسبع سنين . وحين مات فرانسوا

(١٧٦٥) خلفه دوقا أكبر أبنه الأصغر ليوبولد ، الذى تطور حتى أصبح واحدا من أجراً وأشجع « المستبدين المستنيرين » . كبح الفساد فى المناصب ، وأصلح القضاء والإدارة والمالية ، وسوى بين الناس فى الضرائب ، وألغى التعذيب والمصادرة وحكم الإعدام ، وأعان الفلاحين ، وجفف المستنقعات وأنهى الاحتكارات ، ونشر حرية التجارة وحرية المؤسسات التجارية ، وسمح للكمونات بالحكم الذاتى ، وتطلع إلى وضع دستور شبيه بالدساتير الديمقراطية للدوقية . وقد راع جوته ما شهده من نظافة المدن التوسكانية النسبية وصلاحية الطرق والكبارى ، وجمال الأشغال العامة وفخامتها^(٩) . وحين أصبح يوزف أخو ليوبولد امبراطورا أوحده ، أعان ليوبولد على إلغاء معظم الامتيازات الإقطاعية فى تسكانيا ، وأغلق كثير من الإدارة ، والحد من سلطة الأكلروس .

وفى ميدان الإصلاحات الكنسية تلقى ليوبولد تعاونا صادقا من سكييوى دى ريكي أسقف بستويا وبراتو . وكان فى تسكانيا عرف قاسى يقضى على جميع الفتيات اللاتي لا مهور لهن بالرهبة ، وأنضم ريكي إلى الدوق الكبير فى رفع السن الدنيا لنذر الرهبة وتحويل الكثير من الإدارة إلى مدارس للبنات . واتخذت التدابير لنشر التعليم غير الدينى بأحلال المدارس العلمانية محل مدارس اليسوعيين . وكان ريكي يتلو القداس بالأيطاليه ، ويقاوم الخرافات ، الأمر الذى أساء كثيراً إلى جماهير الشعب . فلما شاع أنه ينوى إزالة « حزام العذراء مريم » الشهير فى براتو لأنه زائف ، أحدث الشعب شغباً ونهبوا قصر الأسقف . على أن ريكي دعا رغم ذلك مجعاً أسقفياً أنعقد فى بستويا عام ١٧٨٦ وأعان مبادئ تذكر بـ « المواد الغالية » الصادرة فى ١٦٨٢ . ومفادها أن السلطة الزمنية مستقلة عن السلطة الروحية (أى أن الدولة مستقلة عن الكنيسة) ، وأن البابا عرضة للخطأ حتى فى الأمور المتصلة بالعقيدة .

وكان ليوبولد يحيا حياة البساطة ، وأحبه الناس لطباعه الفطرية غير المتكلفة . ولكن حين امتد حكمه وأرهقته خصومة السنين بات ظنونا معتزلا للناس ، واستخدم عدداً غفيرا من الجواسيس ليكونوا له عيوناً على مساعديه

وأعدائه على السواء . وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلاً :
« دعهم يغشونك أحياناً ، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذاباً متصلًا
لا غناء فيه » .^(١٠) فلما غادر ليوبولد فلورنسه ليخلف يوزف امبراطوراً
(١٧٩٠) انتصرت قوى الرجعية في تسكانيا وأدان البابا ييوس السادس
ريكي في ١٧٩٤ وأودعه السجن (١٧٩٩ - ١٨٠٥) حتى سحب هرطقاته .
ورد قدوم حكومة نابليون (١٨٠٠) الأحرار إلى سابق سلطانهم .

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا . استمع إليه وهو يكتب في أول
نوفمبر ١٧٨٦ :

« وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه . . وكأنا طرت طيراً
فوق جبال النيرول . إن شوقى لبلوغ روما كان شديداً . . حتى كان التفكير
في التخلف في أى مكان ضرباً من المحال ، وحتى فلورنسا لم أمكث فيها
سوى ثلاث ساعات . والآن ، كما أخالنى سأظفر بالهدوء مدى الحياة ،
فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينه كل مالم يسع
أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلاً . وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابه تتحقق
أمام عيني » .

وأى خليظ يدير الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهى تشغى
بالشحاذين والنبلاء ، بالكرادلة والخصيان المغنين ، بالأساقفة والبغايا ،
بالرهبان والتجار ، باليسوعيين واليهود ، بالفنانين والمجرمين ، بالفتاك
والقديسين ، وبالسباح يبحثون عن الآثار نهارة وعن الغواني ليلاً . وهنا ،
وعلى لئنى عشر ميلاً من أسوار المدينة ، مدرجات وثنية وأقواس نصر ،
وقصور ونافورات من عهد النهضة ، وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس
و ١٧٠,٠٠٠ نسمة . ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية ، عاش
صنف من الرعاع كانوا أشد ماعرف العالم المسيحي صخباً وتمرداً وعداءاً
للأكابروس . وكانت الكراسات البديئة المهاجمة للكنيسة يطاف بها في الشوارع ،
والمهرجون يقلدون في سخرية في الميادين العامة أقدس مراسم القديس .
ولعل فنكلهان وهو الرجل الحى الرقيق كان يبالغ قليلاً حين قال :

« في النهار يسود روما هدوء معتدل ، أما في الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله . ونتيجة للحرية الكبيرة التي تسود هنا ، ولعدم وجود أى نوع من أنواع الشرطة ، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية في جميع الشوارع الليل كله . . . والجواهر عاصية لا تخضع لسلطان ، وقد أعيا الحاكم كثرة النفي والشنق (١١) » .

كانت روما مدينة تنسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس . . . يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأخبار والأميرات في الصالونات وقاعات الفن والمسارح .

هنا كان فنكلمان ومنجز يبنشران بإحياء الطراز الكلاسيكي ، وهنا كان البابوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهدئة نائرة الجماهير التي طحنها الفقر بالخبز والبركات الروحية ، ولتعطيل السفراء الذين يلحون في إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الانهيار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة .

ولكن لننسى قدما مع جيته إلى نابلي . لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة :

« إذا كان في استطاعة المرء وهو في روما أن يعكف من فوره على الدراسة ، فليس في استطاعته هنا أن يفعل شيئا إلا أن يعيش . فأنت تنسى نفسك والعالم ، وأنا عن نفسي أجده شعورا غريبا أن أتنقل مع قوم لا يفكرون إلا في الاستمتاع بالحياة . . . هنا لا يعرف الناس شيئا بعضهم عن بعض . وقلما يلحظون أن غيرهم يسرون أيضا في طريق سيرهم جنبا إلى جنب معهم . وهم يمجرون سحابة نهارهم خلفا وأماما في فردوس دون أن يتلفوا حولهم ، ولابدأ فكا الجحيم المجاوران ينفتحان ويثوران ، فإنهم يستنجدون بالقدّيس يتيوار يوس (١٢) » .

وكان الدون كارلوس بعد رحيله عن نابلي قاصدا أسبانيا في ١٧٥٩

قد أوصى بمملكة نابلي وصباية إلى ابنه فرديناند الرابع البالغ من العمر ثمانية أعوام ، بوصاية المركز دى تانوكى وواصل تانوكى حرب الكنيسة التى بدأها على عهد كاراوس . فألغى الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ولم يتردد فى اتباع تعليمات شارل الثالث ملك أسبانيا بطرد اليسوعيين . فما أن انتصف ليل ٣ - ٤ نوفمبر ١٧٦٧ حتى قبض الجند على جميع أعضاء الطائفة فى المملكة ، وقادوهم - وهم لا يحملون من مقتنياتهم سوى الثياب التى عليهم - إلى أقرب ثغر أو نقطة حدود ، ومن هناك رحلوا إلى الولايات البابوية .

ولما بلغ فرديناند الرابع عامه السادس عشر (١٧٦٧) أنهى وصاية تانوكى . وبعد عام تزوج ماريا كارولينا ، الابنة الثقية لماريا تريزا . وسرعان ما سيطرت على زوجها وتزعمت حركة رجعية ضد سياسات تانوكى المناهضة لرجال الدين . وكانت اصلاحات المركز قد قوت ملكية نابوكى ضد نبلاء الاقطاع والكنيسة ، ولكنها لم تحقق شيئا يذكر فى تخفيف الفقر الذى لم يترك للجهاير أملا إلا فى الآخرة .

وانتهجت صقلية نهجا مماثلا . فكان بناء كندراتية بلرمو (١٧٨٢ - ١٨٠٢) أهم وأخطر فى نظر الشعب من محاولة دومنيكو دى كاراكولى ترويض أمراء الإقطاع الذين سيطروا على البلاد . وكان قد عمل سنوات كثيرة سفيرا لنابلي فى لندن وباريس ، واستمع إلى البروتستنت والفلاسفة . فلما عين واليا على صقلية (١٧٨١) فرض الضرائب الباهظة على كبار ملاك الأراضي ، واختزل حقوقهم الاقطاعية على أفنانهم ، وأنهى ماكان لهم من امتيازات اختيار القضاة المحليين . ولكنه حين تجاسر على حبس أمير يحمى قطاع الطرق ، وأمر بانقاص يومين من العطلات التى تمنح تكريما للقديس روزاليا حامى بلرمو ، ثارت عليه جميع الطبقات ، وقفل إلى نابلي مهزوما (١٧٨٥) . (١٣) فالفلاسفة لم يسكونوا قد برهنوا بعد على أنهم يفهمون حاجات الإنسان وطبيعته خيرا مما تفهمها الكنيسة .

٢ - البابوات والملوك واليسوعيون

استندت قوة الكنيسة الكاثوليكية على إيمان بالخوارق ركب في فطرة البشر ، والتسليم بالدوافع الحسية والمخلفات الوثنية والتسامي بها ، وتشجيع الخصوبة الكاثوليكية ، وغرس لاهوت غنى بالشعر والأمل ، نافع للتهذيب الخلقي والنظام الاجتماعي . كذلك كانت الكنيسة في إيطاليا المصدر الرئيسي للدخل القومي ، وراعاة معترفا بقيمته لشعب يؤمن بإيمانا شديدا بالخرافات ، وثنى النزعة مشبوب العاطفة . وقد كثرت الخرافات بين الإيطاليين ، فحتى (١٧٨٧) أحرقت الساحرات في بلرمو - وقدمت المرطبات للنبيلات العصريات اللاتي حضرن هذا المشهد . (١٤) وعاشت المعتقدات والعادات والمراسم الوثنية في ظل موافقة الكنيسة عليها عن طيب خاطر . كتب جوته يقول « لقد انتهيت إلى الاعتقاد القاطع بأن كل آثار المسيحية الأصلية قد انقرضت هنا في روما (١٥) » . على أنه بقي في العالم المسيحي الكثير من المسيحيين الحقيقيين ، حتى في إيطاليا . ومن هؤلاء الكونت كايستوني دى كيوزانو ، أسقف أسقي ، الذي نزل عن ميراثه الكبير ، وعاش في فقر اختياري ، وكان لا يسافر إلا راجلا . كذلك كان تستا أسقف مونريالي ينام على القش ، ولا يأكل إلا ما يمسك رmqه ولا يحتفظ من دخله إلا بثلاثة آلاف ليرة لحاجاته الشخصية ، ويخصص ما بقى منه للاشغال العامة وللفقراء (١٦) .

واستجابت الكنيسة لحركة التنوير إلى حد ما . وبالطبع أدرجت أعمال فولتير وروسو وديلرو وهلفتيوس ودولباخ ولا متری وغيرهم من أحرار الفكر في قائمة الكتب المحرمة ، ولكن أبيع الحصول على إذن بقراءتها من البابا . وكان المونسنيور فنتيمليو أسقف قطنيا (١٧٥٧ - ٧٣) يقتنى في مكتبته طبعات كاملة من فولتير وهلفتيوس وروسو (١٧) . وألغيت محكمه التفتيش في تسكانيا وبارما عام ١٧٦٩ ، وفي صقلية عام ١٧٨٢ ، وفي روما عام ١٨٠٩ . وفي ١٧٨٣ نشر قسيس كاثوليكي يدعى تابورنى ، تحت اسم صديقه تراوتما نسدورف ، مقالا « في التسامح الكنسى والمدنى » .

أدان فيه محكمة التفتيش وحكم على كل ضروب الأكرام للضمير بأنها منافية للمسيحية ، ودافع عن جميع أنواع اللاهوت إلا الإلحاد^(١٨) .

وكان من سوء طالع البابوات في نصف القرن الثامن عشر هذا أن يضطروا إلى مواجهة مطالبة الملوك الكاثوليك بحل جمعية اليسوعيين كلية . وكانت الحركة المناهضة لليسوعيين جزءا من صراع على القوة بين قومية الدولة الحديثة الظافرة ، ودولية بابوية أضعفتها حركة الإصلاح البروتستنتي وحركة التنوير وصعود طبقة رجال الأعمال . ولم يلج أعداء الجمعية الكاثوليك إلحاحا سافرا بأعتراضهم الرئيسي عليها ، وهو أنها دأبت على تأييد سلطة البابوات بأعتبارها فوق سلطة الملوك ، ولكنهم كرهوا أشد الكره أن يشكل قيام منظمة لا تعترف برئيس غير رئيسها ، والبابا في الواقع داخل كل دولة عميلا لسلطة أجنبية . وقد سلموا بغزارة علم اليسوعيين وتقواهم ، وبإسهاماتهم في العلوم والآداب والفلسفة والفن ، وتبريتهم المثابرة الفعالة للشباب الكاثوليكى ؛ وببطولتهم في البعثات الأجنبية وبإستعدادتهم كثيرا من الأرض التي فقدتها الكاثوليكية وأستولت عليها البروتستنتية . ولكن التهمة التي وجهوها إلى الجمعية هي أنها كانت تتدخل المرة بعد المرة في الشؤون العلمانية ؛ وأنها أشتملت بالتجارة طمعا في الربح المادى ؛ وأنها غرست مبادئ الفتاوى التي تغتفر الفساد الخلقي والجريمة ، وأغضت حتى عن قتل الملوك ، وأنها سمحت للعادات والمعتقدات الوثنية بأن تعيش بين أتباعها المزعومين في آسيا ؛ وأنها أساءت إلى الطوائف الدينية الأخرى وإلى كثير من الكهنة غير الرهبان ، محدثا في الجدل ونغمتها المشربة بالاحتقار . وأصر سفراء ملوك البرتغال وأسبانيا ونابلي وفرنسا على إلغاء الترخيص البابوى الخاص بالجمعية وعلى حل المنظمة رسميا وفي كل مكان .

على أن طرد اليسوعيين من البرتغال في ١٧٥٩ ومن فرنسا في ١٧٦٤ - ٦٧ ، ومن أسبانيا ونابلي في ١٧٦٧ ، ترك الجمعية تواصل نشاطها في وسط وشمالي إيطاليا ، وفي سايبريا وبولنده . وفي ٧ فبراير ١٧٦٨ طردوا من دوقية بارما البوربونيه ؛ وأضيفوا إلى حشد اللاجئين اليسوعيين في ولايات

الكنيسة . واحتج البابا كلمنت الثالث عشر بأن بارما إقطاعية بابوية ، وهذا الدوق فرد يناند السادس ووزراءه بالحرمان إذا نفذ مرسوم الطرد . فلما أصروا أصدر مرسوما أعلن فيه مصادرة رتبة الدوق ولقبه والغاءهما . وبدأت الحكومات الكاثوليكية في أسبانيا ونابلي وفرنسا حربا على البابوية . واستولى تانوتشي على مدينتي بنيفنتو وبونتيكورفو البابويتين واحتلت فرنسا أفنيون . وفي ١٠ ديسمبر ١٧٦٨ قدم السفير الفرنسي في روما باسم فرنسا ونابلي وأسبانيا إلى البابا مطالبا بسحب المرسوم الموجه ضد بارما وبإلغاء جمعية اليسوعيين . وانهار الخبر الأعظم تحت وطأة هذا الإنذار النهائي . وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاما ، فدعا لعقد مجمع من المطارنة والمبعوثين في ٣ فبراير ١٧٦٩ للدراسة الأمر . وفي ٢ فبراير نخر صريعا بانفجار عرق في دماغه .

وانقسم الكرادلة الذين دعوا لاختيار خلف له فريقين : الغيورين الذين اقترحوا تحدي الملوك ، والمهدئين الذين آثروا التسويات الهادئة . ولما كانت الكثرة العظمى من الكرادلة الإيطاليين من فريق الغيورين الذين اجتمعوا سريعا في روما ، فقد حاولوا افتتاح المجمع قبل أن يصل فريق الكرادلة المهدئين من فرنسا وأسبانيا والبرتغال . واحتج السفير الفرنسي ، فأجل المجمع . وفي غضون هذا عرض لورنتسو ريكي قائد اليسوعيين قضيتهم للخطر إذ أصدر كراسة اعترضت على سلطة أي بابا في إلغاء الجمعية ^(١٩) . وفي مارس وصل الكردينال دبيرني من فرنسا وبدأ طوافه على الكرادلة بهدف ضمان انتخاب بابا راغب في إرضاء أصحاب الجلالة الكاثوليك . وقد رفض المؤرخون ، سواء منهم الكاثوليك ^(٢١) . وخصوم الكاثوليك ^(٢٢) ، الشائعات التي زعمت بعد ذلك ^(٢٣) أنه هو أو غيره رشوا أو أغروا بوسيلة ما الكردينال جوفاني جانجانتالي بأن يعد بهذا إذا اختير لكرسي البابوية . وكان جانجانتالي باجماع الكل رجلا عظيم الثقافة والتقوى والنزاهة ، بيد أنه كان ينتمي إلى طائفة الفرنسيسكان التي طالما خاصمت اليسوعيين سواء في ميدان البعثات التبشيرية أو اللاهوت ^(٢٤) .

وفي ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب باجماع آراء الكرادلة الأربعين ، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر ، وكان يرميها في الثالثة والستين .

ثم ألقي نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية . ففرنسا ونابلي . تشبثان بالأقاليم البابوية التي استولتا عليها ، وأسبانيا وبارما تتخذان موقف التحدي ، وهددت البرتغال باقامة بطريركية مستقلة عن روما ، بل أن ماريا تيريزا التي كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها الآن فقدت سلطانها الذي انتزعه منها ابنها حر التفكير جوزف الثاني ، ردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لا تستطيع مقاومة الإرادة الموحدة . لمثل هذا للعدد الكبير من الملوك والحكام . وأصدر شوازيل الذي كان مسيطراً على حكومة فرنسا آنذاك تعليقاته ليرني بأن يخبر البابا أنه « إذا لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففي استطاعته أن يعتبر كل علاقاته بها منتهية (٢٤) » .

وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الانذار النهائي في ٢٢ ابريل . أما كلمنت ، الذي حاول كسب الوقت ، فقد وعد شارل بأنه عن قريب « سأرفع إلى حكمة جلالتهكم وذكايتكم خطة للقضاء المبرم على الجمعية (٢٥) » . وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ جمعية اليسوعيين وانجازاتها وجرائمها المزعومة . ورفض التسليم بما طالب به شوازيل من الفصل في النزاع خلال شهرين . وقد اقتضاه الفصل ثلاث سنين ، ولكنه أذعن في النهاية .

ففي ٢١ يوليو ١٧٧٣ وقع الرسالة البابوية التاريخية ، وقد بدأت بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التي حظرها الكرسي البابوي المقدس . على مدى الأيام ، وذكرت الشكاوى الكثيرة التي رفعت ضد اليسوعيين ، والجهرد الكثيرة التي بذلها مختلف البابوات لعلاج المساويء المزعومة . « وقد لاحظنا ببالحزن أن هذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يضع حداً لهذه المتاعب والهم .

والشكاوى (٢٦) » . واختتمت الرسالة بهذه العبارات « وإذ تبين لنا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتي الثمرات الوفيرة والخير العظيم للذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب ، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً — بل أنه مستحيل إطلاقاً — على الكنيسة أن تتمتع بسلام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة . . . فإنا بعد الفحص المتأن ، ونتيجة لمعرفةنا الخاصة وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ، نحل ونلغي بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين . ونبطل ونأغي كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها وخلواتها ، وملاجئها وسائر المؤسسات التي تخصها على أى وجه كائنا ما كان وفى أى إقليم أو مملكة أو دولة لها وجود فيها (٢٧) » .

ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات اليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين ، وأذن للكهنة اليسوعيين بالانضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأى طائفة دينية يوافق عليها الكرسي البابوي . وسمح لليسوعيين المقبولين فى الرهبنة والذين ندرروا أنفسهم ندراراً نهائياً مطلقاً بأن يبقوا فى بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا رداء الكهنة غير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلى .

وفى معظم الحالات : وبأستثناء بعض المبعوثين فى الصين ، تقبل اليسوعيون حكم الإعدام هذا الذى أصدره البابا على جمعيتهم بامتنال ونظام ظاهرين .. بيد أن كراسيات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعاً عن قضيتهم ، وقبض على ريتشى وعدد من معاونيه بهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يراسلون مع خصوم المرسوم . ومات ريتشى فى السجن فى ٢٤ نوفمبر ١٧٧٥ بالغا الثمانية والسبعين .

ولم يعيش كلمنت الرابع عشر إلا عاماً واحداً أو يزيد بعد المرسوم . وكثرت الشائعات بأن عقله اختل فى ثهوره الأخيرة . وقد اجتمعت عليه

الأسقام ، ومنها الأسكربوط والبواسير ، لتجعل كل نهار وليل في حياته شقاء تعاسة له . وأصابته في إبريل ١٧٧٤ نزاة برد لم تبرحه قط ، ولم تحل نهاية أغسطس حتى كان الكرادلة يناقشون مسألة خلافته ، وفي ٢٢ سبتمبر قضى كلمنت نجبه .

وبعد الكثير من التأجيلات والدسائس أجلس مجمع الكرادلة على كرسي البابوية (١٥ فبراير ١٧٧٥) جوفاني براسكى الذى اتخذ اسم بيوس السادس . وكان رجلاً مثقفاً أكثر منه سياسياً ، يجمع التحف الفنية ، ويسحر الجميع برقته ، وقد حسن إدارة الكوريا (الإدارة البابوية) وأستصلح بعض المستنقعات البونتيه . ورتب حلا وسطا مؤقتا مسالما لليسوعيين مع فردريك الأكبر . وفي ١٧٩٣ انضم للحلف المعادى لفرنسا الثائرة . وفي ١٧٩٦ غزا نابليون الولايات البابوية ، وفي ١٧٩٨ دخل الجيش الفرنسى روما ، وأعلنها جمهورية ، وطالب البابا بالتخلى عن كل سلطاته الزمنية . ولكنه أبى ، فأعتقل ، وظل في أماكن وحالات مختلفة من السجن حتى وفاته (٢٩ أغسطس ١٧٩٩) . أما خليفته بيوس السابع فقد جعل رد جمعية اليسوعيين إلى سابق عهدها (١٨١٤) جزءا من أنقصار التحالف على نابليون .

٣ - القانون وبيكاريا

ظلت أخلاق إيطاليا وسلوكها مزيجاً من العنف والتراخي ، من الثأر والحب . كتب مونتسارت من بولونيا عام ١٧٧٠ ، وكان في الرابعة عشرة من عمره « إن إيطاليا بلد ناعس »^(٢٨) ، ولم يكن قد تعلم فلسفة القيلولة . أما أبوه فكان رأيه في ١٧٧٥ أن « الإيطاليين أوغاد في كل أنحاء العالم »^(٢٩) .

وقد علق مونتسارت وجوته كلاهما على الجريمة الإيطالية . كتب مونتسارت يقول إن في نابلي « زعما للشحاذين يتقاضى من الملك خمساً وعشرين دوقايتيه كل شهر مقابل تهديتهم لا أكثر »^(٣٠) . وكتب جوته يقول « إن أكثر ما يلفت نظر الغريب هو كثرة الاغتيالات . واليوم كان الضحية فناناً ممتازاً هو

شفندمان . . وقد طعنه القاتل الذى اشتبك معه عشرين طعنة ، فلما أقبل الحارس طعن الوغد نفسه . وليس هذا مايجرى به العرف هنا عموماً ، فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة ، فتي بلغها أصبح فى مأمن تام «(٣١) . وكانت كل كنيسة تعطى المجرم الأمان فى حرمها — أى الحصانة من الإعتقال مابقى تحت سقفها .

وحاول القانون كبج الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكهاية الشرطة . فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد ، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات فى سفن الأسرى والعبيد . وكان السطو على دير للراهبات ليلا جنابة كبرى ، إما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن . وكان تشويه السمعة الخلقية ، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادره الممتلكات . (ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية) . ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبينجات الخبأة . على أن الجناة كانوا فى كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضى ، أو الاحتماء بالكنيسة . ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة فى حالات عديدة . من ذلك أن رجلا شتى لإدعائه أنه كاهن ، وآخر لسرقته ثوباً كهنوتياً باعه بفرنك وربع ، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطاباً اتهم البابا كلمنت الحادى عشر بعلاقة غرامية مع ماريّا كلمنتينا سويسكا^(٣٢) . وإلى تاريخ متأخر (١٧٦٢) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب ، عظمة بعد عظمة ، أو يسحلون على الأرض فى ذيل حصان مهموز . على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشراقاً على الصورة ، هو أن بعض الجمعيات الخيرات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم . وغدا إصلاح القانون ، سواء من حيث الإجراءات أو من حيث العقوبات ، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التى أنجبها أبوان — حركة تنوير إنسانية ، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس .

ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون فى هذا

القرن عن شريف ميلاني . وقد كان هذا الشريف - تشاري بونيزانا ، مركز بكاريا ، نتاج اليسوعيين والفلاسفة الفرنسيين . ومع أنه وهب من الثراء مايسمح له بحياة التبطل فإنه كرس نفسه بغيرة لا تفتر لحياة التأليف الفلسفي والإصلاح العملي . وقد أمسك عن مهاجمة دين الشعب ؛ ولكنه تصدى رأساً للظروف الفعلية للجريمة والعقاب . وقد صدمه أن يرى قذارة السجون الميلانية التي كانت مرتعاً للأمراض ، وأن يسمع من السجناء كيف ولم اعتادوا الإجرام وكيف حوكموا على جرائمهم . وأقزعه أن يكشف مخالفات صارخة في الإجراءات القضائية ، وألواناً من التعذيب الوحشي للمشوهين والشهود ، وضروبا من التعسف في الأحكام سواء بالتشديد أو التخفيف ، وألواناً من القسوة الضارية في العقاب . وحوالي ١٧٦١ انضم إلى بيتر وفيري في جمعية سميها « البنيات » (قبضات الأيدي) - نذرت نفسها للعمل والفكر معاً . وفي ١٧٦٤ بدءا مجلة « المقهى » محاكاة لمجلة أديسون « سيكتير » . وفي ذلك العام نشر بيكاريا بحثه التاريخي « بحث في الجرائم والعقوبات » .

وفي مستهل كتابه أعلن في تواضع أنه يتأثر بخطى « روح القوانين » الذي ألفه « الرئيس الخالد » لبرلمان بوردو ، فالقوانين يجب أن ترسى على العقل . ورائدها الأساسي ليس الانتقام من الجريمة بل حفظ النظام الاجتماعي ، وينبغي أن تستهدف دائماً « أوفر سعادة موزعة على أكبر عدد (٣٣) » . هنا قبل بنتمام بخمسة عشر عاما ، نجد المبدأ الشهير لأخلاقيات مذهب المنفعة . واعترف بكاريا بصراحته الممهودة بتأثره بهلفيتيوس ، الذي أورد هذه الصيغة ذاتها في كتابه « في الروح » (١٧٥٨) . (وكان قد صدر في سلسلة فرانسس هتشسن « أفكار في الجمال والفضيلة » (١٧٢٥) . وقال بكاريا أن توسيع التعليم وتعميقه أملا في الحد من الجرائم أصوب لمصلحة المجتمع من اللجوء إلى عقوبات قد تحول شخصا أجرم عرضا من مخالطته المجرمين إلى مجرم عريق . فالواجب أن يكون لكل متهم الحق في محاكمة عادلة وعناية أمام قضاة أكفاء يتعهدون بالحياد والنزاهة . ويجب أن تفقد المحاكمة الإتهام سريعا ؛ وأن يكون العقاب متناسبا مع

الضرر الواقع على المجتمع لامتاع نية الفاعل . فضرارة العقوبة تولد ضرارة
الخلق ، حتى في الجمهور غير المحرم . أما التعذيب فيجب عدم الإلتجاء
إليه إطلاقاً ، فالمذنب الذي تعود على الألم قد يحتمله في تجلد وتفترض
برأته ، في حين قد يكره الألم بريئاً مرهف الأعصاب على الإعراف
بأى شيء فيحكم بأنه مذنب . ويجب ألا يسمح بعد بحماية الكنيسة للمجرمين ،
ويجب إلغاء عقوبة الإعدام .

وطبع الكتيب ست طبعات في ثمانية عشر شهراً ، وترجم إلى اثنتين
وعشرين لغة أوروبية . وأشاد بكاريا بالترجمة الفرنسية التي قام
بها مورليه وقال أنها أفضل من الأصل . وقد شارك فولتير بمقدمة
غفل من الاسم لتلك الترجمة ، وأقر المرة بعد المرة بأثر بكاريا في
جمهوره لإصلاح القانون . وبادرت معظم الدويلات الإيطالية إلى اصلاح
قوانين عقوباتها . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى كانت أوروبا كلها تقريباً قد
ألغت التعذيب . وتأثرت كاترين بيكاريا كما تأثرت بفولتير في إلغاء التعذيب
في أملاكها . أما فردريك الأكبر فكان قد أنهاه فعلاً في روسيا (١٧٤٠)
إلا في حالات الخيانة .

وفي ١٧٦٨ عين بكاريا في كرسى للقانون والاقتصاد أنشئ خصيصاً
له في كلية البالاتين بميلان . وفي ١٧٩٠ عين في لجنة لإصلاح القضاء في
لمبارديا . وقد سبقت محاضراته عدة أفكار أساسية لآدم سميث ومالتامس
في تقسيم العمل والعلاقة بين العمال ورأس المال ، وبين السكان وكمية
الطعام . وفيه بعثت «انسانية» النهضة الأوروبية من جديد في صورة التنوير
في إيطاليا .

٤ — مغامرات

١ — كالبوسترو

ولد جوزيبي بلسامو لصاحب متجر بيلرمو في ١٧٤٣ . ونضج مبكراً
وسرعان ما أصبح لصاً بارعاً . وفي الثالثة عشرة قيد تلميذاً في دير

البنفرا تيللى . وعين هناك مساعدا لصيدلى الدير ، فتعلم من قواريره وتحايره . وكتبه من الكيمياء والخيمايا ما يكفى لاعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطيبة . . . ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم ، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو . وجلد عقاباً له ، فهرب من الدير وانضم إلى عالم المجرمين السفلى ، ودرس فن الأكل دون بدل العرق . واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود ، وقارئاً للبحث ، وساحراً ، ولصاً ، وأفلح عادة فى إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة .

فلما رأى نفسه مشبوها على نحو يضايقه ، أنتقل إلى مسينا ، وعبر إلى ريديجو كالأهريا ، وجرب الفرص التى تتيحها نابلى وروما . وتكسب فترة بادخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه . ثم تزوج لورنتسا فيلكيانى ، وأثرى ببيع جسدها . وأنتحل اسم المريكز دى بللجريفى ، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن . ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعى كويكرى ثرى ؛ وعاشا على المال الذى ابتزاه نتيجة للمخطة شهورا . ثم غير اسمه إلى الكونت دى كاليوسترو ، وتنكر بشوارب ولبس حلة كولونيل بروسى ، وسمى زوجته من جديد بالكونتيسة سيراфина . ثم عاد إلى بلرمو ، وقبض عليه بتهمة التزوير ، ولكن أفرج عنه تحت الحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء .

ولما بلغت سيراфина لكثرة تداولها . فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التى ضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق . ولما عاد إلى إنجلترا أتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة فى السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس ، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين . وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لاعادة الشباب ، الذى يمكن تحقيقه بعلاج يمد أربعين يوما تستعمل فيه المسملات والمهرقات وغذاء من الحذور ، والحجامة ، والتبوصوفة (٣٤) . وكان كلما أفضح أمره فى مدينة مضى إلى غيرها ؛ واتصل بأسرها الفنية

بفضل طريقة المصافحة وخاتمه الماسونيين . وفي سانت بطرسبرج اشتغل طبيباً ، وعالج الفقراء مجاناً ؛ وأستقبله بولمكين ، ولكن طبيب كاترين الكبرى ، وكان اسكتلنديا حاذقاً ، حلل بعض أكاسير هذا الطبيب ووجدها فارغة لقيمة لها . فسمح لكاليوسترو بيوم واحد يحمل فيه بضاعته ويرحل . وفي وارسو أفتضح أمره ثانية على يد طبيب آخر في كتيب سماه « نزع القناع عن كاليوسترو » (١٧٨٠) ، ولكن قبل أن يدركه كان قد إنطلق إلى فيينا وفرانكفورت وستراسبورج . وهناك سحر الكردينال الأمير لوى — رينيه — إدوارد روهان ، الذى وضع فى قصره تمثالا نصفيا لزعيم الماسون الأكبر كتب عيله « كاليوسترو المقدس » وأتى به الكردينال إلى باريس ، وتورط النصاب الكبير على غير قصد منه فى قصة القلادة الماسية . فلما أنكشفت هذه الخدعة زج بكاليوسترو فى الباستيل ؛ ولكن سرعان ما أفرج عنه لبراعته . ولكنه أمر بمغادرة فرنسا (١٧٨٦) . فوجد زبائن جدد فى لندن . وزار جوته أثناء ذلك أم كاليوسترو فى صقلية وأكد لها أن ولدها الدائع الصيت قد أطلق سراحه وأنه فى مأمن^(٣٥) (٥) .

وفى لندن حيث تكاثر المتشككون فى أمره انتقل الكونت والكونتيسة إلى بازل وتورين وزوفريتو وترنت ، يشتهيه فيهما فى كل بلد ثم يطردان . وتوسلت إليه سيرا فينا ان يأخذها إلى روما لتصلى عند قبر أمها ، فوافق الكونت . وفى روما حاولا أن يقيما محفلا لماسونيته المصرية ، فقبضت عليهما محكمة التفتيش (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩) ، واعترفا بأنهما دجالان نصابان ، فحكم على كاليوسترو بالسجن مدى الحياة ، وأنهى أيامه فى قلعة سان ليو قرب بزارو فى ١٧٩٥ وقد بلغ الثانية والخمسين . وهكذا كان هو أيضا جزءاً من صورة القرن المستنير .

٢ — كازانوفا

أضاف جوفانى يا كوبو كازانوفا لقب « دى سينجالى » الفهم لاسمه

(*) أنهر جوته بحياة كاليوسترو وجعلها موضوعاً للتخليية متوسطة الجودة سماها « زعيم الماسون الأكبر » .

بتفنيط عشوائى الأبداعية ، باعتبار هذا اللقب تشريفا يفيد فى أبهر الراهبات وتحدى حكومات أوروبا . ولد لمثل ومثلة فى البندقية عام ١٧٢٥ ، وظهرت عليه منذ طفولته امارات النشاط الذهنى . تتلمذ لاحتراف القانون ، وزعم أنه نال الدكتوراه فى جامعة بادوا وهو فى السادسة عشرة . وعلينا فى كل خطوة من « مذكراته » الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله ، ولكنه يقص قصته بصراحة يدين بها نفسه إدانة نعملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب .

وبينما كان فى بادوا حقق أول غزواته - وهى بتينا ، « فتاة جلوة فى الثالثة عشرة » وأخت لمعلمه الكاهن الطبيب جونسى . فلما مرضت بالجدرى عفى بها كازانوفا وأصيب بالمرض . ويزعم فى روايته أن أعمال الرحمة التى كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية . وحين ذهب فى شيخوخته إلى بادوا لآخر مرة ، « الفيتا عجوزا ، مريضة ، فقيرة ، وتقدمت بين ذراعى » . (٣٧) وكل عشيقاته تقريبا يصورهن مغرمات به إلى النهاية .

على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية . مات أبوه ، وكانت أمه تمثل فى مدن بعضها وصل فى بعده حتى سانت بطرسبورج ، وتساءه عادة . وكسب بعض المال من عزف الكمان فى الحانات والشوارع . ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة . فلما أصيب السناتور البندقى زوان براجادينو (١٧٤٦) بالنقطة وهو يهبط السلم ، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنقله من سقطة فجائية . وبعدها بسط عليه السناتور حمايته فى مآزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا . وفى ليون انضم إلى الماسون الأحرار ، وفى باريس « أصبحت رفيقا ، ثم رئيسا للطائفة » . (ونحن نلاحظ فى شىء من الدهشة قوله « فى زمنى لم يكن فى فرنسا من يعرف كيف يبالغ فى الأسعار ») (٣٨) .

وفى ١٧٥٣ عاد إلى البندقية ، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافه حكمة السحر والتنجم . وبعد عام أبلغ محقق رسمى مجلس الشيوخ عنه فقال :

لقد أفلح في التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو وابتز ماله ابتزازا باهظا وقد أخبرني بنديتو بيزانو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فياسوفا قبلانيا وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يموه بها في مهارة على عقول ضحاياها وقد أمكنه اقناع براجادينو بأن في استطاعته استحضار ملاك النور لينفعه . (٣٩)

ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشي بحقيقته مفكرا ملحدا . ويقول كازانوفا « لقد وقر في نفسي سيدة تدعى مدام ممنو أنني أعلم ولدها مبادئ الإلحاد (٤٠) » .

« أن التهم التي وجهت إلى تتعلق بالكرسي (البابوي) المقدس ، والكرسي المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه . وكانت هناك ظروف معينة . . . جعلت من الصعب عليهم حبسى في السجون الكنسية التابعة لحكمة التفتيش ، ولهذا السبب تقرر في النهاية أن تناط محكمة تفتيش الدولة بمحاكمتي (٤١) » .

ونصحه براجادينو بالرحيل عن البندقية ، ولكن كازانوفا أبى . وفي الغداة قبض عليه ، وصودرت أوراقه ، وحبس دون محاكمة في البيومي « ألواح الرصاص » وهو اسم أطلق على سجن الدولة البندقي نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها .

« حين جن الليل استحال على أن أنعمض عيني لأسباب ثلاثة : أولها الفيران ، وثانيها الطنين الرهيب الذي تحدثه ساعة كتندرائية القديس مرقس التي كانت تدق وكأنها في حجرتي ، وثالثها ألوف البراغيث التي أغارت على بدني تعضني وتلدغني وتسمم دمي بحيث أصابني انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات » (٤٢) .

وحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهرا (١٧٥٧) بفضل سلسلة معقدة من الحيل

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءا من « عدة نصبه » في كثير من الأقطار .

فلما عاد ثانية إلى باريس اشتبك في مبارزة مع فتي يدعى الكونت نيكولا دلانور دوقرن وأصابه بجرح ، ثم شفاه بمهرم « سحرى » ، وكسب صداقته . فقدمه إلى عمه له غنية تسمى مدام دورفيه ، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر ، مؤمنة أن تستعين بها على تغيير جنسها . واستغل كازانوفًا سداقتها ، ووجد فيها وسيلة خفية للثراء .

« إننى لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصرى إلى هذا الفصل من حياتى دون أن أحرر خجلا » (٤٣) . وهذا اتصل على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه . وأضاف إلى دخله بالغش فى لعب الورق ، وتنظيم يانصيب للحكومة الفرنسية ، وبالحصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة . وفى الرحلة من باريس إلى بروكسل « قرأت كتاب هلفتيوس « فى الروح » طول الطريق » . (٤٤) (وسيقدم للمحافظين مثالا مقنعا من إنسان حر التفكير انقلب رجلا فاسقا وان كانت المرحلة التالية هى العكس فى أغلب الظن) . وكان فى كل محطة يلتقط خليلة ، وفى كثير من المحطات يجد خليلة سابقة ، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد انجابها .

وزار روسو فى مونمورانسى ، وفولتير فى فرنيه (١٧٦٠) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهما . وإذا جاز لنا أن أن نصدق كازانوفًا ، فانه اغتتم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية :

كازانوفًا : هيك نجحت فى القضاء على الخرافة ، فاذا تحل محلها ؟

فولتير . يعجبني هذا ! حين أنخلص البشرية من وحش ضار يفترسها ، أتسألنى ماذا أحل محله ؟

كازانوفا : ان الخرافة لا تفترس البشرية ، بل انها على العكس
ضرورية لوجودها .

فولتير : ضرورة لوجودها ! ذلك تجديف مخيف . اننى أحب البشر ،
وأود أن أراهم أحرارا سعداء مثلى . والخرافة والحرية لا يمكن
أن يسيرا يدا بيد . أتظن أن العبودية تؤدي إلى السعادة ؟

كازانوفا : ان ماتريده إذن هو سيادة الشعب ؟

فولتير : معاذ الله ! يجب أن يكون للجواهر ملك يحكمها .

كازانوفا : فى هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية ، لأن الشعب لن يعطى
رجلا هو مجرد إنسان حق حكمه . . .

فولتير : أريد ملكا يحكم شعبا حرا ، ويلتزم قبله بشروط متبادله تمنع
أى ميل من جانبه للاستبداد .

كازانوفا : يقول أديسون أن هذا الملك . . . يستحيل وجوده . وأنا
متفق مع هوبز . فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضررا .
والأمة التى تحررت من الخرافة هى أمة من الفلاسفة ، والفلاسفة
لا يعرفون كيف يطيعون . . وما من سعادة ترجى لشعب
لا يسحق ويذل ويظل مصفدا بالقيود .

فولتير : هذا شنيع ! وأنت فرد فى الشعب ! . . .

كازانوفا : ان العاطفة المسيطرة عليك هى حبك للبشرية .. وهذا الحب
يعميك . أحب البشرية ، ولكنى أحبها كما هى . فالبشرية
ليست قابلة للمزايا التى تود أن تغدقها عليها ، فهذه المزايا
لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافا

فولتير : يؤسفنى أن يكون لك هذا رأى السيئ فى اخوانك
فى الإنسانية (٤٥) .

وكان كازانوفا يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الارستقراطية ،

لأن الكثير من النبلاء الأوروبيين كانوا ماسوناً ، أو روزيكروشين أو مدمنين على علوم السحر . وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبي في هذه الميادين ، بل أضاف إلى دعواه القوام المشوق . والوجه المتميز (وإن لم يكن وسياً) والتكن من اللغات . وتأکید الذات الخداع ، ومعينا من القصص والفكاهات ، وقدرة خفية غامضة على الكسب في لعب الورق أو ألعاب الكازينوات . وكان حينما ذهب يساق عاجلاً أو آجلاً إلى السجن أو حدود البلاد . واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك في مبارزة ، ولكنه كالامة في مراحل تاريخها لم يخسر قط .

وأخيراً غلبه الحنين إلى وطنه . وكان حراً في السفر أينما شاء في إيطاليا إلا في البندقية . والتبس الاذن مراراً بالعودة ، وأخيراً منحه ، وفي ١٧٧٥ عاد إلى البندقية . واستخدمته الحكومة جاسوساً ، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جداً من الفلسفة والقايل جداً من المعلومات ، فرفت . وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدى ، فأمر بأن يبرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى في « ألواح الرصاص » ه ففر إلى فينا (١٧٨٢) . ثم إلى سبا ، ومنها إلى باريس .

وهناك التقى بالكونت فون فالدهشتين . الذي أحبه فدعاه إلى العمل أميناً لمكتبته في قلعة دو كس بيوهيميا . وكانت فنون كازانوفا في العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها ، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورن في العام . فلما وصل وتسلم منصبه ، أحزنه أن يكتشف أنه اعتبر خادماً . وأن يتناول غدائه في قاعة الخدم . وفي دو كس انقضى أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره . وهناك كتب « تاريخ حياتي » « أولاً لتخفيف هذا الركود المميت الذي يقتلني في بوهيميا الخاملة هذه . . . وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثني عشرة كل يوم أن أمتع الحزن الأسود من نهش قلبي المسكين واتلاف عقلي » (٤٦) . وقد زعم الصديق المقنق في روايته . وهي في كثير من الحالات تتفق والتاريخ في الجزء والسخرية . بيد أننا كثيراً ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته ،

ولعل ذاكرته تداعت بينا قوى خياله . ولا نملك إلا القول بأن كتابه من أكثر مخلقات القرن الثامن عشر فطنة واستهواء للقارئين .

وقد عمر كازانوفاً حتى نأح على موت النظام القديم فقال : « إياه يا فرنسا العزيزة الجميلة ! - البلد الذى كانت الأمور فى تلك الأيام تجري فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية ، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب ! أى فرنسا العزيزة ، إلام انتهى أمرك اليوم ؟ لقد أصبح الشعب ملكاً عليك ، الشعب الذى هو أشرس الحكام قاطبة وأشدّهم ظغياناً » (٤٧) .

وهكذا فى آخر أيامه ، وهو ١٧٩٨ ، اختتم حياته فى تقوى أنه فى أوانها . « لقد عشت فيلسوفاً ، وهأنذا أموت مسيحياً » (٤٨) . لقد حسب الفسق فلسفة ، ورهان بسكال مسيحية .

٥ - فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالى على سبيل المقابلة بين الاضداد .

وهذا الرجل الذى كان أعظم الشخصيات أثراً فى تاريخ الفن فى هذا العهد لم يكن فنانياً بل دارساً كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن ، وحرك موته الغريب روح أوروبا المثقفة . ولد فى ٩ ديسمبر ١٧١٧ بمدينة ستنال فى براندنبورج . وكان أبوه الاسكاف يأمل فى أن يحترف ابنه حرفته ، ولكن يوهان رغب فى درس اللاتينية . وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء . ثم تقدم سريعاً مدفوعاً بشوقه واجتهاده . فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية ، ويشتري الكتب والطعام . فلما كف بعصر معلمه كان يوهان يقرأ له ، وراح يلثم مكتبة أستاذه . وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية ، ولم يكن ميالاً إلى اللغات الأجنبية الحديثة . وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس المدارس الكلاسيكية الشهير ستباع بالمزاد لوفاته ، سار ١٧٨ ميلاً من برلين إلى همبرج ، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية ، وحملها على كتفه عائداً إلى برلين (٤٩) . وفى ١٧٣٨ دخل جامعة هاله طالب لاهوت ، ولم يكن به شغف باللاهوت ، ولكنه اغتنم الفرصة

لدراسة العبرية . وبعد أن تخرج كسب قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل « القاموس التاريخي والنقدى » . ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الدينى . وفى عام واحد قرأ الالياذة والاولديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية .

وفى ١٧٤٣ قبل دعوة ليكون مديرا معاونا لمدرسة بزيهاوزن فى القمارك ، بمرتب قدره ٢٥٠ طالرا فى العام . وكان فى النهار يعلم « أطفالا جرب الروس أبجديتهم ، بينما كنت ... أتحرق شوقا لمعرفة « الجميل » ، وأردد تشبيهات من هومر » ^(٥١) . وكان فى المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه ، ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة ، ثم يعود إلى روائعه الكلاسيكية ثانية ، ثم يخرج متعبا ليدرس . وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بوناو ليكون مساعدا لأمين المكتبة فى قصره الريفى بنوتهنز ، قرب درسدن ، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرا فى العام (١٧٤٨) . هناك ألقى المتعة البالغة فى مجموعة من أضخم مجموعات الكتب فى ذلك العصر .

ومن كانوا يختلفون إلى هذه المكتبة الكردينال أركنتو ، القاصد البابوى فى بلاط ناخب سكسونيا . وقد راعه علم فنكلمان وحماسته ، ونحوه وشحوبه . فقال له « ينبغى أن تذهب إلى إيطاليا » . وأجاب يوهان أن هذه للرحلة غاية مشتهى قلبه ، ولكن موارده تعجز عن نفقتها . ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن ، فذهب إليه مرات . وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم فى بيت القاصد وأدبهم . وعرض عليه الكردينال باسيونى — وكان يقطنى ٣٠٠,٠٠٠ مجلد فى روما — وظيفة أمين مكتبته هناك ، لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقانية ، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكي . ووافق فنكلمان على الدخول فى الكاثوليكية . وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك « بعد الموت ليس هناك ما يخيفك ، ولا ما تؤمل فيه » ^(٥١) فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية فى هذا التحول ، وكل صعوباته كانت اجتماعية . وقد كتب إلى صديق لأمه يقول « ان حب

المعرفة ، وهذا الحب وحده . هو الذى يستطيع إغرائى بالاستماع إلى الاقتراح الذى عرض على « (٥٢) » .

وفى ١١ يوليو ١٧٥٤ . فى مصلى القاصد بدرسدن ، أعلن إيمانه الجديد ، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما . ولأسباب شتى مكث فى درسدن عاما آخر ، ساكنادارسا مع الرسام — النحات — الحفار آدم اويزن . وفى مايو ١٧٥٥ نشر فى طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه « خواطر فى تقليد الآثار اليونانية فى الرسم والنحت » . وقد وصف فيه الآثار التى جمعت فى درسدن ، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسنى من الفهم العصرى لها . وهذا هو السر فى التفوق الخلبى فى الفن . ثم اختتم بقوله « إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة ، بل إلى العظمة التى لا تحاكى . . . هو محاكاة القدماء » . (٥٦) ومن رأيه أن رفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذى حقق هذا الهدف الاسمى . وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة فى الفن الحديث . وقد لقي قبولا عظيما ، وأجمع كلويشتوك وجوتشيد على الاشادة بعلمه وأسلوبه . وحصل الأب راوخ . كاهن الاعتراف الخاص بنمردريك أوغسطس ، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتى تالر لكل من العاملين التالين ، وأعانه بثمانين دوقة لرحلته إلى روما . وأخيرا ، فى ٢٠ سبتمبر ١٧٥٥ ، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا فى صحبة يسوعى شاب . وكان قد بلغ السابعة والثلاثين .

(*) أنظر « باتر » فى مقاله الرائع عن فنكلمان « لعله كان يحس بمراقبة ما وبشئ أشبه بالفخامة الوثنية فى المذهب الكاثوليكي الرومانى . وهو فى انصرافه عن البروتستنتية لمعقدة التى كانت مبعث سأم له فى سنابه ، قد يدور بخله أنه بينا كانت روما قد راضت نفسها على النهضة ، فإن المبدأ البروتستنتى فى الفن قد عزل ألمانيا عن تقليد الجمال العظيم » (٥٣) . وكتب جوته فى كتيب عن فنكلمان (١٨٠٤) « ان المزج الوثنى يشع من جميع تصرفاته وكتاباتة . . . ولا يد أن نذكر بعده عن كل أسلوب مسيحي فى التفكير ، لا بل كرهه العام لهذا الأسلوب ، حين نحاول الحكم على هذا التحول المزعوم فى مذهبه . فالفريقان اللذان انقسم إليهما الدين المسيحي كانا فى نظره أمرا لا أهمية له على الإطلاق » (٥٤) . « ولا تعنى كلمة « وثنى » بالضرورة الاتحاد . فغالما أكد فنكلمان إيمانه بالله ، ولكن « ببله جميع الناس والام والمذاهب » . (٥٥)

فلما بلغ روما لقي عنتا في حرك المدينة الذي صادر عدة مجلدات لفولتير من حقايبه ، على أنها أعيدت له بعد ذلك . ووجد سكنا مع خمسة مصوريين في بيت على التل اليئسى — الذي قدسته ظلال نيقولا بوسان وكلود لوران . والتقى بمنجز ، الذي أعانه بشى الطرق الكثيرة ، واطلق له الكردينال باسيونى الحرية في العمل بمكتبته ، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أى وظيفة ثابتة لرغبته في ارتياد فن روما . فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبوللو ، وهرقول النصفى ، واللاوكون ، واتخذت أفكاره شكلا أوضح بعد تأمله في هذه المنحوتات . وزار تيفولى وفراسكاتى وغيرهما من الضواحي ذات الاطلال القديمة . وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكردينال الساندرى البانى ، وأعطاه الكردينال أركنتو مسكنا في البلاطوسيدلا كانسليريا — وهو المقر البابوى ، وفي مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر . وأصبح الآن في سعادة غامرة . قال « لقد كان الله مدينا لي بهذا ، فأنى قاسيت كثيرا جدا في شبانى » (٥٧) . وكتب إلى صديق في ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار :

« كل شىء صفر إذا قورن بروما ! لقد ظننت فيما مضى أننى درست كل شىء دراسة كاملة ، وهأنذا ادرك بعد مجيئى أننى لم أعرف شيئا . لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو . فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال ، فهذا مكانك ، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها ، رجال أوتوا قدرات فائقة ، وآيات في الطابع الرفيع الذى خلعه اليونان على تماثيلهم . . . وكما أن الخزنة التى يتمتع بها الناس في الدول الأخرى ليست إلا ظلا إذا قيست بحرية روما — وهو ما قد تحاله مفارقة — كذلك تجد في هذه المدينة أسلوبا مختلفا في التفكير . فروما في اعتقادى هى المدرسة العليا للعالم ، وأنا أيضا امتحنت فيها وهذبت » (٥٨) .

وفي أكتوبر ١٧٥٧ غادر روما قاصدا نابلى مزودا بخطابات تعريف :

وسكن هناك ديرا ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكى وجاليانى ه
وزار مدنا عابقة باريخ التاريخ القديم - بوتسولى ، وبايا ، وميزينوم ،
وكاوماى - ووقف مدهوشا أمام هياكل بايستوم المهيبة . وفى مايو ١٧٥٨
قفل إلى روما محملا بذخائر العلم والآثار . فى ذلك الشهر استدعى إلى
فلورنسه ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر ، والمحفورات ،
والحرائط ، والمخطوطات التى خلفها البارون فليب فون ستوش . وشغلته
المهمة قرابة عام وكادت تهدم صحته . ومات أركنتو أثناء ذلك ، واجتاح
فردريك الأكبر أرض سكسونيا ، وفقد فنكلمان مسكنه فى الكانسليريا
ومعاشه من الملك الناخب التعس . ونخف ألبانى لنجدته إذ قدم له أربع
حجرات وعشرة أسكوزات فى الشهر لقاء العناية بمكتبته . وكان الكردينال
نفسه أثريا متحمسا ، وفى كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد
التحف القديمة .

وأضاف فنكلمان جديدا إلى سمعته بإصداره كتيبات عميقة فى هذه
الموضوعات المفردة « فى جبال الأعمال الفنية ، ملاحظات على عمارة
القدماء ، وصف لتمثال هرقل النصفى فى البلقدير ، دراسة الآثار الفنية » .
وفى ١٧٦٠ حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدى أوفورد ، زوجة
أخى هوراس ولبول ، ولكن الخطة أخفقت . كتب يقول « ما من شئ
فى الدنيا تقى إليه بحرارة كهذه الرحلة . وما كنت لاضن بأصبع من
أصابعى تقطع ، لابل وددت أن أجعل من نقشى كاهنا لسيبيل (إلهة
الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد فى فرصة كهذه » (٥٠) أما كهنة
سيبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا خصيانا ، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان
من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية
لابولاء واللاردكون وغيرهما من التماثيل فى البلقدير بمآزر من المعدن ،
وقد أعلن فى « إنه لم يشرع فى روما طوال عهدها مثل هذه السنة الغبية » .

وكان للاحساس بالجبال من السلطان عليه ما ألغى تقريرا كل وعى فيه
بالجنس . فإذا شعر بتفضيل جمالى فإن تفضيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

الرجولة عن حلاوة المرأة الحشة العابرة . ويبدو أن تمثال هرقل النصفى (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس مديتشي الناعمة الملفوفة . وقال كلمة طيبة في الحناى — على الأقل في التمثال الذى شاهده في فيللا بورجيزى ^(٦١) . وقال مؤكدا « لم أكن في حياتى عدوا للجنس الآخر ، ولكن أسلوب حياتى أبعدنى عن كل اتصال به . ولعلى كنت أتزوج ، وأكبر ظنى انه كان واجبا على أن أفعل ، لو أننى عدت إلى زيارة وطنى الأول ، أما الآن فلان هذا لا يكاد يخطرلى ببال » ^(٦٢) . وفى زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة ، وفى روما عاش مع رجال الكنيسة ، وندر أن التقي بالشباب من النساء . وذكروا « إنه كان يتناول العشاء فى السبوت فترة طويلة مع فتى من روما ، نحيل وسيم الطلعة ، فارغ القامة ، يتحدث معه عن الحب . » ^(٦٣) وقد رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الخصبان ^(٦٤) ثم إنه أهدى للشريف الفقى البارون فريدرش راينهولد فون برج « رسالة فى القدرة على الاحساس بالجمال » ، « وقد وجد القراء فيها وفى خطاباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة ، وهى فى الواقع كذلك » ^(٦٥) .

وفى ١٧٦٢ و ١٧٦٤ عاد إلى زيارة نابلى . وقد قدم للدارسين الأوربيين فى « خطاب عن آثار هوكولانيوم » (١٧٦٢) و « تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم » (١٧٦٤) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التى تم الحفر عنها فى تلك المدينة وفى بومبي . وكان الآن معترفا به أعظم حجة فى الفن الكلاسيكى القديم . وفى ١٧٦٣ عين بالقاتيكان فى وظيفة « أثرى الحجرة الرسولية » وأخيرا ، فى ١٧٦٤ ، نشر المجلدات الضخمة التى كان يؤلفها ويحياها بالصبر طوال سنوات سبع *Geschichte der Kunst des Alterthums* « تاريخ الفن القديم » . وقد احتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق فى إعداده من وقت وجهد ، واثنان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين . ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

إنهما نسختان دقيقتان لصور أثرية . وأدرج فنكلمان الصورتين في كتابه ، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز . وتضمنت المترجمات التي ظهرت سريعاً في الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريباً ، مما أشعر فنكلمان بالخرى . فكتب إلى بعض أصحابه « إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس . ليتنى أستطيع أن أريك كتابي « تاريخ الفن » وقد نقح تنقيحاً كاملاً ووسع توسيعاً كبيراً ! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت في تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية ، وفي مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق — وهو ملاك الفن الأسس . » ^(٦٥) ومع ذلك أنجز الكتاب عملاً غاية في العسر — هو إجادة الكتابة في الفن . وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل .

ولقد اتجه حرفياً إلى تاريخ الفن لا إلى تاريخ الفنانين ، وهو موضوع أيسر مأخذاً بكثير . وبعد أن مسح مسحاً متعجلاً الفن المصري والفينيقي واليهودي والفارسي والأتروري ، أطلق العنان لحماسته الفياضة في ٤٥٠ صفحة تناولت فن اليونان القديم . وفي فصول ختامية ناقش الفن اليوناني في عهد الرومان . وكان توكيده دائماً على اليونان لأنه كان مقتنعاً بأنهم عثروا على أسس صور الجمال : في رهافة الخط لا في لمعة اللون ، في تمثيل الأنماط لا الأفراد ، في طبيعية الأجسام ونبلها ، في انضباط التعبير العاطفي ، في هدوء المظهر وصقله ، في اطمئنان القسماحتى في الحركة ، وفوق هذا كله في النسبة والعلاقة المتسقيتين بين الأجزاء المتميزة في كل موحد توحيداً منطقياً . لقد كان الفن الإغريقي في رأى فنكلمان هو عصر العقل مجسماً .

وقد ربط تفوق الفن الإغريقي بالاحترام العظيم الذي كان الإغريق يكتونونه لامتياز الجسد في الجنس . « كان الجمال امتيازاً يقضى إلى الشهرة ، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به » ^(٦٦) ، على نحو ما تفعل التواريخ الآن . ذكر كبار الساسة والشعراء والفلاسفة . وكانت هناك مباريات في الجمال عند الإغريق كما كانت مباريات للألعاب الرياضية . وعند فنكلمان أن الحرية السياحية ، وتزعج اليونان لعالم البحر المتوسط

قبل حرب البلوبونيز ، هناك أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال ، وانتجا « الطراز الفخم » في فيدياس وبوليكليتس ، ومبرون . وفي المرحلة التالية أدخل الطراز الفخم الطريق للطراز « الجميل » أو طراز « الرشاقة » ، فأدخل فيدياس مكانه لبراكستليس ، وبدأ الاضمحلال . وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية ، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجرعوا على خلق أجساد مثالية لا توجد في الطبيعة . فلم يقلدوا الطبيعة إلا في التفاصيل ، وكان العمل الفني كله مجموعة كمالات لا توجد في أى شيء طبيعي إلا جزئياً . لقد كان فنكلمان رومانتيكياً يبشر بالشكل الكلاسيكي .

ولقي كتابه القبول في أوروبا بأسرها باعتباره حدثاً في تاريخ الأدب والفن . وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (١٧٦٥) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار . ووافق فنكلمان نظير ألني طالر في العام ، وعرض فردريك ألفاً فقط ، وأصر فنكلمان على موقفه ، وذكر فردريك بقصة المغني الحصى الذي طالبه بمبلغ ضخم نظير أغنية ، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خبر قواده ، فكان رد المغني « إذن فليكلف قائده بالغناء » .

وفي ١٧٦٥ عاد فنكلمان لزيارة نابلي ، هذه المرة في صحة جون ولكز الذي كان قد جعل أوروبا تدوى بتحديه للبرلمان ولجورج الثالث . وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثاني « آثار قديمة غير منشورة » (١٧٦٧) . وكان أصدقاؤه من الأحرار قد شكوا من كتابته « تاريخه » بالألمانية التي لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبجهم الآن باستعماله الإيطالية ، وانتشى المؤلف السعيد ، الجالس بين كرينالين ، بقراءة جزء من كتابه في كاستل جاندولفو على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان . على أنه أتهم بميازته كتباً مهرطقة وأبدائه ملاحظات مهرطقة ، (٦٨) ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذي شعر بأنه جدير به .

(م ١٣ - قصة الحضارة ج ٤)

وقرر أن يزور ألمانيا (١٧٦٨) ربما مؤملاً أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان . ولكن استغراقه الشديد في الفن الكلاسيكي وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة في وجوده بأرض الوطن ، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساء معارها وزخارفها الباروكية . وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته «^(٦٩)» «لنعد إلى روما» وقد احتفى به القوم في ميونخ ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة . وفي فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية ، ودعته الامبراطورة والأمير فون كاونتز للإقامة هناك ، ولكنه مالبث أن قفل إلى إيطاليا في ١٨ مايو وهو لم يكذب عنها شهراً واحداً .

وفي تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى انكونا . وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانسسكو أركانجيلي . وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين في الفندق . وسرعان ما أراه فنكلمان المداليات التي تلقاها في فيينا . على أنه — على قدر علمنا — لم يره كيسه المملوء بالذهب . وفي صبيحة ٨ يونيو ١٧٦٨ دخل أركانجيلي حجرة فنكلمان ، ووجده جالساً إلى منضدة ، فألقى أنشودة حول عنقه ، ونهض فنكلمان واشتبك معه ، فطعنه أركانجيلي خمس مرات وفر هارباً . وضمده طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة . وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة ، وأملى وصيته ، وأعرب عن الرغبة في أن يرى مهاجمه ويصفح عنه ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في الرابعة بعد الظهر . وقد خلدت تريستا ذكراه بتمثال جميل .

وقبض على أركانجيلي في ١٤ يونيو . فاعترف بجريمته ، وفي ١٨ يونيو صدر عليه هذا الحكم : « عقاباً على جريمة القتل التي اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان . . قضت محكمة الجنايات الامبراطورية بأن . . . تحطم حياً على دولايب التعذيب ، من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بذلك » وكذلك صنع به في ٢٠ يوليو .

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا . فلأنه لم يحقق قط أمله في زيارة اليونان في ظروف كانت ستتيح له الدرس المستفيض للآثار القديمة ،

كان يفكر في الفن اليوناني وكأنه الفن اليوناني الروماني كما وجده في المتاحف والمجموعات والقصور في ألمانيا وإيطاليا ، وفي اطلال هركولانيوم وبومبي . وتفضيله النحت على التصوير ، وتمثيل الأنماط لا الأفراد ، والهدوء لا التعبير عن العاطفة ، وإثاره النسبة والتناسق ، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب . كل هذا فرض على الدوافع الخلاقة في الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكي على ما في الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة . وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها ، وكان يرى — كما رأى لويس الرابع عشر — إن رسوم الحياة اليومية التي انتجتها الأراضي الواطئة ليست إلا من قبيل « الجروتسك » .

ومع ذلك كان انجازه رائعا . فقد أحدث انتفاضة في كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربي بتمجيده لليونان . ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التي نزع إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكي ذاته . ونبه العقل الحديث إلى ما في النحت اليوناني من كمال ناصع مطمئن . وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والمجوهرات والعملات آثار علمية . وكان تأثيره على أفضل العقول في الجيل التالي هائلا . فقد ألهم لسبح ، ولو بالاعتراض على آرائه ، وشارك في انضاج هيردر وجوته ، ولعله لولا الإلهام الذي انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت في بلاد اليونان . وقد أعان هذا الملنستي الغيور على تشكيل مبادئ منجز ونورفالدسن الكلاسيكية الحديثة ، وتصوير جاك — لوى دافيد الكلاسيكي الحديث . يقول هيجل « يجب أن يعد فنكلمان واحدا من أولئك الذين عرفوا في ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية » (٧٠) .

٦ — الفنانون

لم تكن إيطاليا في حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان ، لأنها كانت تكرم أربابها ، وكان فيها المتراكم يقوم في كل جيل بمهمة المدرسة التي تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة . من ذلك أن كارلو ماركيوني صمم فيللا

الباني الفخمة (١٧٥٨) التي جمع فيها الكوردينال الباني بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة — لا تزال غنية رغم طول العدوان عليها . (فقد سرق نابليون ٢٩٤ من تحفها لفرنسا ، وربما كان هذا هو العلة في قول إيطالي مأثورة في تلك الأيام : ليس كل الفرنسيين لصوصا ، بل عدد عديد منهم) .

وانجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين في تلك السنين ، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة . أولهم أليساندرو لونيغي بن بييترو ، الذي أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدوني . ^(٧١) ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد ، ويعرض في تواضع تخصصه على عامة الشعب . ففي مضيفة فيللا فالمارنا استهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية في حياة الريف ، فصورة « الفلاحين يستجمعون » أشبه بالقصيدة الرعوية ، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم ، وتصور استرخاءهم في دعة واطمئنان . وبعد أن مات أبوه في أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساحرة الذي اتخذه لنفسه . ^(٧٢)

وثالث هؤلاء هو فرانشسكو جواردي ، صهر جامباتسنا تيبولو ، الذي تعلم التصوير من أبيه ، وأخيه ، وكانا ليتو . وقد فاته التقدير في جيله ، ولكن لوحته « فيدوتي » لفتت أنظار النقاد ببراعتها في التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو ، وربما أوحى ببعض الإلماعات للتأثرين الفرنسيين . ولم ينتظر تخدير كونستابل الذي قال « تذكر أن الضوء والظل لا يقفان ساكنين أبدا » ^(٧٣) . ولعل أحب الساعات إليه كانت ساعة الشفق ، حين تمحي الخطوط وتختلط الألوان وتغيم الأطياف ، كما في صورته « الجوندول على البحيرة » ^(٧٤) وكأنما صممت أجواء البندقية ومياهها لتهيء هذه المناظر المضطربة المنصهرة . وقد ذكروا أن جواردي كان أحيانا يحمل مرسمه في زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول لاف الناس لها . وكان يرسم الناس بغير عناية ، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوار المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم ما يطرأ عليهما من تغير . ولكنه كان قادرا على تصويو الناس أيضاً ، فتراهم يزحمون البياتسيتا في لوحة « المهرجان »^(٧٥) ، أو يسرون في ثياب فاخرة في « ضالة فيلارمونيتشى »^(٧٦) الكبرى . وكان أخوه جوفانى يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه . وكانا ليتوا أعظم من كليهما ، أما اليوم فان جواردى يعد بالبقاء بعد ان تخبو شهرة الاثنين .

وعاد انطون روفائيل منجز من أسبانيا عام ١٧٦٨ ، وسرعان ما أصبح قطب التصوير في روما . ولم يشك أحد في تفوقه على معاصريه من الفنانين . كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته . وتسعى إليها دون جدوى أحيانا . وكان فنكلمان يلقيه برفائيل عصره ، وأشاد بأوجهته الرهيبة « جبل بارناس » « رائعة » خائفة بأن ينحى أمامها حتى رفايل^(٧٧) ، وضمن كتابه « تاريخ الفن القديم » تقديرًا عظيماً لصديقه^(٧٨) .

وأروع الصور التي رسمها منجز في هذه الفترة صورته الذاتية (١٧٧٣) (٧٩) ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيماً أسود الشعر معتزلاً بنفسه في الخامسة والأربعين . وبعد أن أقام فترة ثانية في أسبانيا عاد (١٧٧٧) ليقتضى ما بقي له من أجل في إيطاليا . وواصل نجاحه ، ولكن موت زوجته (١٧٧٨) حطم روحا كانت من قبل شديدة المرح . واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته ، وأجهز عليه التجاوزه إلى المشعوذين والعلاجات السحرية . ومات عام ١٧٧٩ وهو في الحادية والخمسين . وأقام تلاميذه لذكراه نصباً في البانتيون ، إلى جوار تمثال رفايل . واليوم لا تجد من يجمل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه .

٧ - الموسيقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين ، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية . وكانت موسيقى الآلات تزكو ، من جهة بفضل التحسين الطارىء على البيانو ، ولكن أهم

من ذلك لشعبية الكمان (الفيو لينه) المتزايدة . وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفيوتى وناردىنى أوربا بقوس الكمان . وطاف موتزىو كلمنتى ، الذى غادر ايطاليا ليعيش فى انجلترا . عشرين سنة ، بالقارة عازفا على الأرض والبيانو ، ونافس موتسارت فى فيينا ، ولعله أفاد من قول موتسارت تعليقا على عزفه أن هذا العزف آلى أكثر مما يجب . وكان أنجح معلم للبيانو فى القرن الثامن عشر ، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر فى تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيرة « خطوات إلى بارناس » موطن ربات الفنون Muses اللاتى اشتقت من الموسيقى اسمها . وورث جاتيانو بونيانى تفنن أستاذه تاريتىنى فى عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفانى باتستا فيوتى ، الذى عبر أوربا من أولها لآخرها ظافرا . ومزال فى استطاعة أذاننا المؤثرة للقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتى فى مقام الصغير .

أما لويجى بوكيرينى فقد رحل كما رحل الكثير من الايطاليين عن بلد اكتظ بالموسيقين ليلتمس جمهورا من المستمعين فى الخارج . وقد سحر أسبانيا من ١٧٦٨ حتى مماته فى ١٨٠٥ بآلة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللى بصوته وسكارلاتى ببيانته القيثارى (الهاريسيكورد) . وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت فى ظفرها بالاشادة والاطراء من شتى الدول ، وكان فردريك وليم الثانى ملك بروسيا ، وهو نفسه عازف تشيللو ، يفضل رباعيات بوكيرينى على رباعيات موتسارت^(٨١) . وقد ألف خلال سنيه الاثنتين والستين خمسا وتسعين رباعية وترية ، وأربعا وخمسين ثلاثية ، وأثنى عشرة خماسية للبيانو ، وعشرين سمفونية ، وخمسة كونشرتوات لتشيللو ، وأوراتوريوين ، وبعض الموسيقى الدينية . ويعرف نصف العالم حركته « المنويت » وهى حركة من احدى خماسياته . ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشرتو بمقام B الشديد الانخفاض الذى ألفه للفيولونشيللو والأوركسترا .

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الايطالى الجميل « الملعلع » (البيل كانتو) . فن أكثر من عشر من مدن

الحذاء السحري تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللى والمغنين
الخصيان أمثال جسيارو باكيروتي عبر الألب إلى فيننا وميونخ وليبرج
ودرسدن وبرلين وسانت بطزسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس
ومدريد . وكان باكيروتي آخر الخصيان المشهورين في عالم الغناء ، وقد
ناهس فن فارتينلى جيلا بأكمله . واسترق أسماع لندن أربعة أعوام ، ومازال
اطراء الانجليز له يتردد في « يومية »^(٨١) فاني برني ، وفي كتاب أبيها « تاريخ
الموسيقى العام »^(٨٢) .

وتبع المؤلفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الايطاليون المغنين .
غألف بييترو جوليمى مافى أوبر ، وتنقل بين نابلى ودرسدن وبرنزيك
ولندن ليقودها . وقد انحدر الينا ذكر موسيقى آخر من نابلى هو نيكولا بيتشيني ،
ولكنه ذكر شهرته منافسة لم يرغب فيها مسح جلوك في باريس ، ولكن
جاليانى وصفه بأنه « رجل شريف جداً »^(٨٣) . وقد ظلت أوبراته الهائلة
عقدا كاملا للبدعة السائدة في نابلى وروما ، لابل إن أوبرا برجوليزى
« الخادمة التى انقلبت ربة البيت » لم تحظ بمثل الشعبية التى حظيت بها أوبرا
بيتشيني (١٧٦٠) . وكان جوميللى ، وبرجوليزى ، وليو ،
وجالونى قد لحنوا « أولمبيادى » التى ألفها مناستازيو ، فنهج بتشيني - جهم
وبزهم كلهم بإجماع الرأى . وفي ١٧٧٦ قبل دعوة إلى باريس ، أما الحرب
الضارية التى تلت ذهابه إلى هناك فلا بد أن تنتظر دورها الجغرافى ، ولكن
بتشيني سلك من أولها لآخرها مسلكا غاية في الجمالة ، مبقيا على صداقته
مع منافسيه جلوك وساكينى رغم أن المتشيعين لها هددوا حياته .^(٨٤) فلما
أغرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهائلة عاد بتشيني إلى نابلى .
وهناك حددت اقامته في منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا ، وكانت
أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثيلها ، وعاش في فقر يشين
وطنه . وبعد أن فتح نابليون ايطاليا دعى إلى باريس مرة أخرى ١٧٩٨ ،
ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة ، ولكن أصابته بالشلل
عظمته جسدا وروحا ، ومات في باريس عام ١٨٠٠ .

أما أنطونيو ساكينى فقد ولد لأب كان صياد سمك فى بوتسولى ، وكان يدرب ليحلف أباه حين سمعه فرانسكر دورانتى يغنى ، فانطلق به إلى نابلى تلميذاً ومحسوباً له . وقد احتفى الجمهور بأوبراه «سميراميدى» فى التياترو أرجنتينوبروما احتفاءً أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات . وبعد أن أقام ردهاً فى البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت ... ولندن ١٧٧٢ . وصفق الجمهور لأوبراته هناك ، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته ، وأتلفت عاداته الفاجرة صحته . ولما انتقل إلى باريس أخرج رائحته Oedipe a Colone (١٧٨٦) التى احتلت خشبة الأوبرا طوال ٥٨٣ عرضاً فى السنوات السبعة والخمسين التالية ، وفى وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لآخر . وقد اقتبس عدة إصلاحات مما أدخله جلوك ، وأقاع عن أسلوب الإيطاليين فى جعل الأوبرا تلتقيماً من الألحان ، وفى أوديبى تسيطر القصة على الألحان ، وتضئ الكوارس التى استلهمها من أوراتوريوات هندل الحلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما .

وانصل الغزو الغنائى بأنطونيو ساليرى ، عـدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب . ولد قرب فيرونا ، وأرسل وهو فى السادسة عشرة إلى فيينا (١٧٦٦) ، وبعد ثمانى سنوات عينه يوزف الثانى مؤلفاً موسيقياً للبلط ، وفى ١٧٨٨ رئيساً لفرقة الملشدين . فى هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت ، ولكن القصة التى زعمت أن هذه المعارضة سببت لإنهيار موتسارت ليست إلا خرافة^(٨٥) . فبعد موت موتسارت صادق ساليرى الابن وأعان على تطوره الموسيقى . وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لساليرى ، وقبل إقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه .

أما « ألمع نجم فى سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر^(٨٦) » فهو جوفانى بانزيللو . كان أبنا لجراح ييطرى فى تارانتو ، وقد أعجب معلموه اليسوعيون بصوته أعجاباً حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد دورانتى الموسيقى فى نابلى (١٧٥٤) . فلما اتجه إلى تلميح الأوبرات وجد جماهير نابلى شديدي الحب لبشيني ، لذلك قبل دعوة وجهتها إليه كاترين الكبرى . وفى سانت بطرسبرج ألف (١٧٨٢) *Il barbiere di Siviglia*

(حلاق أشبيلية) ، وقد كتب لها من النجاح الخالد في أوروبا كلها ما جعل الجمهور يلحن أوبرا عرضها في نفس الموضوع بروما (٥ فبراير ١٨١٦) الموسيقي روسيني لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبازيللو الذي كان لا يزال على قيد الحياة . وتوقف بازيللو بفينينا في طريق عودته من روسيا عام ١٧٨٤ فترة أتاحته له تأليف اثنتي عشرة « سمفونية » ليوزف الثاني ، واخراج أوبرا Il ne Teodoro تيودور الملك « سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوروبا . ثم عاد إلى نابلي رئيسا لفرقة الممثلين لفرديناند الرابع . وأقنع نابليون فرديناند بأن « يعيره » بازيللو ، فلما وصل المؤلف إلى باريس (١٨٠٢) أستقبل أستقبالا بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عليه عداء الكثيرين . وفي ١٨٠٤ قفل إلى نابلي تحت حماية جوزف بوناپرت ومورا .

وينبج أن نلاحظ في مرورنا مبلغ الصبر والأناة التي كان هؤلاء الايطاليون يعدون بهما مستقبليهم المهني . فبازيللو درس تسع سنين في معهد دورانتى الموسيقى « دى سان أو نوفريو » ، وتشياروزا درس إحدى عشرة سنة في معهد سانتا ماريا دى لورينو ، ثم في نابلي . وبعد أن تتلمذ دومينيكو تشياروزا طويلا على يد ساكىنى وبثينى وغيرهما ، أخرج أول أوبرا له ، *rtravaganze del conte* « إسراف الكونت » وسرعان ما استمع الناس لأوبراته في فيينا ودرسدن وباريس ولندن . وفي ١٧٨٧ ذهب بدوره إلى سانت بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كايوباتره . وحين دعاه ليوبولد الثاني ليخلف سالييرى رئيسا للممثلين بفينينا ، أخرج هناك أشهر أوبراته وهى « الزواج السرى » (١٧٩٢) . وقد بلغ سرور الأمباطور بها حدا جعله يأمر بعد انتهاءها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين . ثم أمر باعادة الاوبرا كلها^(٨٧) . وفي ١٧٩٣ دعى ثانية إلى نابلي « رئيسا للممثلين » لفرديناند الرابع . فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (١٧٩٩) رحب تشياروزا بالحدث ترحيبا حماسيا ، فلما رد فرديناند إلى عرشه حكم على تشياروزا بالاعدام . ثم خفف الحكم إلى النفي . ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبرج ، ولكنه مات في الطرين بالندقية (١٨٠١) . واحتوت خلفاته التي تركها بالإضافة إلى العديد من الكنتاتات ، والتمداسات ،

والاوراتوريات ، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحسانا أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت ، وهى حتى فى وقتنا هذا يجب أن تعد فى مرتبة تالية لأوبرات موتسارت فقط فى أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة .

وإذا كانت الميلوديا هى لب الموسيقى ، فالموسيقى الإيطالية لاذن لاسمى الموسيقىات . كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونية) على الخط الميلودى البسيط . وفى هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الالماني موتسارت البوليفونية للميلودية . ولكن الإيطاليين غلبوا الميلوديا تغلبا جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغاني الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتى قصد إليها أوائل مؤلفى الاوبرا الإيطاليين (حوالى ١٦٠٠) فى محاولتهم منافسة فن الأغريق الدرامى . وهكذا نرى دلالة الحركة فى الأوبرا الإيطالية ، بل دلالة الكلمات فى حالات كثيرة ، تضيق وسط بهاء الأغنية وروعها وكان هذا جميلا ، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة ، فإن الاوبرا فى الأيدى الإيطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها ، وقد اعترف بهذا بعض الإيطاليين مثل جوميللى وترايبتا ، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية فى كل موحد ، ولكن ذلك الأنجاز كان عليه أن ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صوره . وهكذا توقف فى بندوق الحياة الغزو الإيطالى لأوربا بالميلوديا ، حين أخرج جلوك عام ١٧٧٤ فى باريس « افحيينى فى أوليدى » التى أخضعت الموسيقى للتمثيلية . ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل ، وكسب فاجنر معركة للدراما ، وأستولى فردى على عنائم جديده للميلوديا . ولت النصر الكامل لا يتحقق لأى من الفريقين .

٨ - الفيريرى

لم ينبج هذا العصر رجالا على شاكلة دانتى ، ولكن كان هناك بارينى فى الشعر وفيلانجيري فى النثر ، وألفيريرى فى الدراما والنثر والشعر .

ولقد شق جوزيبي بارينى طريقه صعداً من الفقر ، وكسب قوته بنسخ

المخطوطات ، ودخل دنيا النشر (١٧٥٢) بديوان صغير من « الشعر المنشور » واحترف القسوسية وسيلة للعيش ، وحتى بعد هذا اضطر لكسب قوته بأعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا أكتظت بالقساوسة . وأرهدف الفقر قلمه فاتجه إلى الهجاء . تأمل في حياة الكثير من نبلاء الايطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوما نموذجيا في حياة شريف ذى « دم أزرق » . وفي ١٧٦٣ أصدر أول جزء سماه (الصباح) ، وبعد عامين أضاف (الظهر) ، ثم أكمل الجزء الثالث الذى لم يعشن لينشره (المساء) و (الليل) ، وهى في مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها « اليوم » Il giorno وأبدى الكونت فونى فيرميان نبلا حقيقيا بتعيينه القس الشاعر محررا لجازيته ميلان ، واستأذا للآداب البحتة في « السكولا بالاتينا » ورحب بارينى بالثورة الفرنسية ، وكافأه نابليون بمضوية مجاس مدينة ميلان . والقصائد الغنائية التى نظمها بين ١٧٥٧ و ١٧٩٥ تعد من عيون الآدب الايطالى الصغيرة . ولا يصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه ، كما نسمعه في هذه السوتينته التى توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس :

إيه أيها الكرى الرحيم ، يامن تشق بجناحك الرقيق
طريقك الهادى متعجلا في الليل البهيم
وتراءى بالأحلام الكثيرة السريعة
للفنس المضناة على فراشها الساكن :
اذهب إلى حيث تضع « فيليس » رأسها اللطيف
وخدها النضر على الوسادة الهادئة ،
وبينما يرقد جسدها روع روحها
برؤيا جسم كئيب خلقته بسحرك ،
وليكن شـسـايد الشبه بى ،
شوه الشحوب وجهه ،
حتى تستيقظ وقد هزها الحنان على .

إنك لو تفضلت على بهذا الصنيع
جلدت لك إكليلا مزدوجا من الزهر
ووضعت في سكون على مذبحك (٨٨)

ولنصف إلى هذه الباقية من الزهر زهرة من التنوير الإيطالي هي فقرة من
كتاب جايتانو فيلانجييري « على التشريع » La scienza della Legislazione
(١٧٨٠ — ٨٥) ، استوحاها من بكاريا وفولتير .

« ما ينبغي أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولا للحقيقة ،
ومادامت الشرور التي ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء ، ومادام مسموحاً
للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور ، ومادامت الحقيقة مقصورة على القلة
وعلى المميزين ، محجوبة عن معظم النوع الإنساني وعن الملوك ، فسيظل
واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة ، وأن يحافظ عليها ويشجعها ، وينيرها .
وحق إذا كانت الأضواء التي ينشرها لا تفيد في جيله وقومه ، فإنها لاشك
ستفيد في بلاد وجيل آخرين . فالفيلسوف — ذلك المواطن في كل مكان
وزمان — أمامه الدنيا كلها وطناً ، والأرض مدرسة ، والأجيال القادمة
تلاميذ . » (٨٩)

وقد نلخص العهد كله في الفييري : فالانتفاض على الخرافة ، وتمجيد
الأبطال الوثنيين ، والتنديد بالاستبداد ، والاشادة بالثورة الفرنسية ، والنفور
من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا — كل هذا مضافاً إلى قصة غرام
حرام ووفاء نبيل . وقد سجل هذه الحياة المشبوهة في « حياة فيتوريو
الفييري . . . مكتوبة بقلمه ، موصولة إلى ما قبل موته بخمسة أشهر . وهي
من أعظم التراجم الذاتية ، لا تقل كشفاً عن نفس صاحبها عن « اعترافات »
روسو . ويستهلها بعبارة يلقي القارئ أمامها السلاح : « إن حديث المرء
عن نفسه ، وأكثر منه الكتابة عن نفسه — إنما هو دون أدنى شك وليد المحبة
الفائقة التي يجبها المرء لذاته ، وبعدها لا يتوارى الكاتب خاف قناع من
التواضع ولا تند غنه أمارة على عدم الأمانة :

« ولدت في مدينة أسنى ببيدمونت في ١٧ يناير ١٧٤٩ لأبوين شريفيين .
تربين محترمين . وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب
التالية . فقد خدمني شرف المولد خدمة كبرى ، . . لأنه مكّنني من أن أؤم .
النبالة الماتها دون أن أتهم بالدوافع الدنيئة أو بدافع الحسد ، وأن أميط اللثام
عن حماقاتها ، ورذائلها ، وجرائمها . . . أما الثراء فعصمني من قبول الرشوة ،
وأطلق حريتي في خدمة الحق دون سواه » (٩٠) .

ومات أبوه وهو طفل ، وتزوجت أمه ثانية . وانطوى الغلام على نفسه ،
وأطال التفكير ، وفكر في الانتحار في الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أى طريقة
مريحة . وتكفل به خال له وأرسله وهو في التاسعة ليتلقى العلم في أكاديمية
تورين . وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف . وحاول
معلموه أن يخطموا إرادته كأول مرحلة في تنشئته رجلاً ، ولكن طغيانهم
ألهب كبرياءه وشوقه إلى الحرية « إن درس الفلسفة . . . كان من النوع الذي
ينوم الطالب وهو واقف منتصباً » (٩١) . على أن موت خاله تركه المتصرف
في ثروة عريضة وهو بعد في الرابعة عشرة .

وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التي كانت شرطاً للسفر خارج
البلاد بدأ في ١٧٦٦ جولة في أوروبا استغرقت ثلاثة أعوام . ووقع في غرام
نساء شتى ، وعشق الأدب الفرنسي والدستور الإنجليزي . ودمرت قراءته
لمونتسكيو وفولتير ورسولاهوته الموروث ، وبدأت كراهيته للكنيسة
الرومانية — مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر « شيخ لطيف
ذو جلال وقور » . (٩٢) وفي لاهاي شغف حباً بامرأة متزوجة ، فابتسمت
ثم انصرفت عنه ، وعاد يفكر في الانتحار ، وكان العهد عهد فرتر ،
والانتحار فكرة شائعة في الجو . ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية
تطلعاً منها تنفيذاً ، فرجع إلى بيدمونت ولكنه شق في جو ملؤه الخضوع
السياسي والديني شقاء حمله على استئناف أسفاره (١٧٦٩) .

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدنمرك والسويد — حيث أحب الطبيعة كما
يقول وأحب الناس وحتى الشتاء . ومنها إلى روسيا ، فاحتقرها لأنه لم ير في

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة ، ورفض أن يقدم لها . ولم يسغ بروسية فردريك خيرا من إساعته روسيا ، فهرول إلى هولنده التي انتهجت نهج الجمهورية في بسالة ، وإلى إنجلتره التي كانت تحاول أن تعلم جورج الثالث أن يخلى بينه وبين شئون الحكم . وقد أغوى زوجة رجل إنجليزى ، وبارز ، وجرح . ثم أصيب بعدوى الزهرى فى أسبانيا (٩٣) ، وعاد إلى تورين للعلاج (١٧٧٢) .

وفى ١٧٧٤ تماثل للشفاء بالقدر الذى أتاح له الدخول فى ثانيا مغامراته الغرامية الكبرى ، مع امرأة تكبره بتسع سنين . وتشاجرا ثم افترقا . وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها « كليوبطرة » ، وأى شيء أكثر إثارة من عضوية فى حكومة ثلاثية ، وملكة ، ومعركة ، وصل ؟ وأخرجت التمثيلية بتورين فى ١٦ يونيو ١٧٧٥ « وسط تصفيق الاستحسان ليلتين متعاقبتين » ، ثم سحبها لإجراء تعديلات فيها . وأخذ الآن يتحرق شوقاً إلى الشهرة غاية فى النبل والسمو . واعاد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب اللاتينى ، ودرس اللاتينية من جديد ليفوض فى مآسى سنیکا ، وفى هذه القراءات وجد موضوعات وأشكالا لدراماته . وعزم على استعادة الأبطال والفصائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم .

وفى غضون هذا (١٧٧٧) كان يكتب رسالته « فى الطغاة » . ولكنها احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها ، فلم تر النور إلا فى ١٧٨٧ . فقد كانت ملهبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية :

« ليس الفقر الطاحن . . . ولا عطل الأرقاء الذى تردى فيه إيطاليا ، كلا ، فإ هذه هى الدوافع التى وجهت عقلى إلى الشرف الرفيع الحق : شرف تجريد قلمى للهجوم على الامبراطوريات الزائفة . ذلك أن لماضى بالهائج هولا ، ظل يسوط ظهري منذ نعومة أظفارى . . . ان روحى الحرة لن تجد سلاما أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة » (٩٤) .

وهذا تعريفه للطغاه :

« كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة - أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء - إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون ، أو هم كذلك . . . والطغيان هو الصفة التي يجب أن تنعت بها . . . أى حكومة يستطيع فيها الشخص المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضى عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو فى مأمن من العقاب » (٩٥) .

وعند الفيرى أن الحكومات الأوربية كافة مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكيّتين الدستوريّتين فى إنجلترا والسويد . وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثراً فى ذلك بمكيافيللى ، وراوده الأمل فى أن الثورات ستقيم جمهوريات فى أوربا عما قليل . ورأيه أن خير ما يستطيع أى وزير لطاغية مستبد أن يفعله هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوق الشعب إلى الثورة (٩٦) . والثورة فى سنها الأولى معدومة إذ لجأت إلى العنف . لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة :

« وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغييرها تغييراً كاملاً أبداً دون استعمال الكثير من العنف ، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة ، بل تظلم أحياناً حتى تقنع . أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون فى التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه » (٩٧) .

ومع أن الفيرى نفسه كان نبيلاً ، ولقبه الكونت دى كورتيميليا ، فإنه أدان الارستقراطية الوراثية لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته . وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان . وقد سلم بأن « المسيحية أسهمت بقدر غير قليل فى تلطيف العادات الشائعة بين جميع الناس » ، ولكنه أشار إلى « الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة » التى

ارتكبها الحكام المسيحيون « من قسطنطين إلى شارل الخامس » (٩٨) .
ويمكن القول عموماً :

« إن الدين المسيحي يكاد لا يتفق والحرية . . . فالشعب ، ومحكمة
التفتيش والمطهر ، والاعتراف ، والزواج الذى لا انفصام له ، ورهبانية
الكهنة — هذه هى الحلقات الست فى السلسلة المقدسة التى تقيد السلطة
الزمنية (الدولة) بقيود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلاً وامتناعاً على
التحطيم » (٩٩) .

وبلغ من مقت الفيرى للاستبداد أنه نصح باجتنب الخلف أو الزواج
اطلاقاً فى الدولة المستبدة . وبدلاً من أن ينجب أطفالاً ، أخرج فى خصوبة
إيطاليا مائة أربع عشرة مأساة بين ١٧٧٥ ، و ١٧٨٣ ، كلها بالشعر المنثور ،
وكلها كلاسيكية بناءً وشكلاً ، وكلها يشجب الطغيان بسخط خطائى ،
ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة . فترى ميوله فى « البازى »
مع محاولة المتأمرين الأطاحة بلورنتسو وجوليانودى مديتشى ، وفى « بروتس
الأول » و « بروتس الثانى » لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر ، وفى « فليبو
كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا ، ولكنه فى « ماريا ستواردا
(ماري ستوارت) وجد فى رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر
جماً فى الملكة الكاثوليكية . فلما انتقد على اخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن
نفسه بقوله :

« سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول . . . أننى لا أصور شيئاً
إلا الطغاة فى صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها ، وأن قلمي الدموى المنقوع فى
السم يضرب دائماً على نعمة واحدة رتيبة ، وأن ربة شعرى الفضة لا تنهض
نساناً من العبودية الشريره ، بل تثير ضحك الكثيرين . ولكن هذه
الشكاوى لن تحول روحى عن هدف يمثل هذا السمو ، ولا تنوق فى مهمما
كان ضعيفاً غير كفء لتلبية حاجة بهذه الشدة . لا ولن يكون نصيب كلامى
أن تبدده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدنا يؤمنون بأن الحرية لاغنى
عنها للحياة » (١٠٠) .

وقد أولع بكونتيسة ألبانى ولما لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف - أمير شتولبرج - جديرين فترزجت (١٧٧٣) الأمير تشارلز ادوارد ستيوارت ، المطالب الشاب بعرش بريطانيا ، الذى سعى الآن نفسه كونت ألبانى . وقد انغمس هذا الذى كان فى أنيقا جداً يوم كان « الأمير الحلو تشارلى » فى الشراب ومصاحبة الخليلات لينسى هزائمه . ولم يعقب هذا الزواج الذى رتبه البلاط الفرنسى ، وكان زواجا شقياً . ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن مبرأة من العيوب . وقد التى بها الفيرى فى ١٧٧٧ ، ورثى لها ، ثم أحبها . ولكى يكون قريباً منها ، حرراً فى مساعدتها وتبج تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقه الحصول على إذن ملكى لكل خطوة عبر الحدود ، تخلى عن مواطنه بيدمونت ، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته ، ثم انتقل إلى فلورنسه ١٧٧٨ . وكان الآن فى التاسعة والعشرين من عمره .

واستجابت الكونتيسة لغرامه برقه وحذر مراعيه كل أصول اللياقة العامة . وفى ١٧٨٠ حين أمست حياتها فى خطر من جراء عنف زوجها السكير ، اعتكفت فى دير ، ثم فى بيت زوج أختها فى روما . كتب الفيرى يقول « بقيت فى فلورنسه كأنى يتيم مهجور ، وعندها اقتنعت كل الاقتناع اننى بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود ، لأننى الفيتنى عاجزا كل العجز تقريباً عن القيام بأى عمل جيد^(١٠١) » . وما لبث أن ذهب إلى روما ، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين ، ولكن زوج أختها قاوم جهوده فى الحصول على قرار بإبطال زواجهما ، مسترشداً فى ذلك برأى القساوسة . (ومن هنا دفاعه الملتوى عن الطلاق « ديللاتيرانيدى^(١٠٢) ») . وأخيراً منعه زوج أختها من زيارة الكونتيسة ، فغادر روما ، وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيال - التى كانت « غرامه الثالث » - بعد الفنون و« سيدتى النبيلة » . وفى ١٧٨٤ حصلت على انفصال شرعى ، فانتقلت إلى كولمار فى الألزاس . وهناك لحق بها الفيرى ، وبعدها عاشا

في رباط غير زوجي حتى أتاح لها موت زوجها أن يتزوجا . وقد كتب ألفييري عن حبه في نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى في « الحياة الجديدة » .

« هذا الحب المحموم — الحب الرابع والأخير ، . . كان يختلف عن علاقاتي الغرامية الثلاث السابقة . ففيها لم أجد نفسى منفعلا بأى عاطفة ذهنية توازن وتمتزج بعاطفة القلب . نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه كان أكثر استمراراً وأعمت تغلغلا في الشعور والوجدان . وبلغ من قوة عاطفتى أنها . . . سيطرت على كل النفعال وخاطر فى ، ولن تنطفئ فى داخلى أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها . وقد وضح لى . . . اننى وجدت فيها امرأة حقها ، لأنها بدلا من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبة فى طريقى إلى الشهرة الأدبية — امرأة تقدم الاهتمامات النفعية وترخص . . . أفكار المرء — وجدت فيها التشجيع والعزاء والقذوة الحسنة فى كل عمل صالح . ولذا تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره ، فأننى بذلت لها ذاتى باستسلام مطلق . ولا ريب فى أننى لم أكن مخطئاً فى هذا ، لأننى الآن وقد مضى على حبنى لها أكثر من اثنى عشر عاما . . . يزداد حبنى لها كلما ذبلت تلك المفاتن العابرة (وهى ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن . ولكن عقلى وقد تركز فيها يسمو ويرق ، ويزداد حسنا كل يوم ، وأما عقلها هى فأننى أجزؤ على القول بأن هذا يصدق عليها ، وأن من حقها أن تستمد منى العون والقوة (١٠٣) .

وهذا الحافظ مضى يكتب المزيد من المآسى ، وبعض الملاحى ، وشيئاً من الشعر بين والحين والحين . وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان America libra . وفى ١٧٨٨ انتقل الحبيبان إلى باريس ، حيث أشرف ألفييري على نشر مطبعة بومارشين فى كويل على الراين لأعماله . وحين سقط الباستيل هلل ألفييري للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد للبشر . ولكن سرعان ما قزز شطط الثورة وسرقها روحاً كان تصورهما للحرية أرستقراطياً ، روحاً تطالب بالتححرر من الغوغاء والأغليبات ومن البابوات والملوك على حد سواء . وفى ١٨ أغسطس ١٧٩٢ غادر هو والكونتيسة

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما في مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألها عن حقهما في مغادرتها . يقول ألفييري « قفزت من المركبة بين الغرغاء ، ملوحاً بجوازات سفرى السبعة وأخذت أصبح وأحدث ضجة . . وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين (١٠٤) » . وواصل الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل ، وهناك نعى إليهما أن السلطات الثورية في باريس أمرت بالقبض على الكونتيسة . فهرعا إلى إيطاليا ، واستقرا في فلورنسه . وكتب ألفييري الآن Misogallo مضطرباً بنار الحقد على فرنسا و « حشد عبيدها أبناء السفاح » (١٠٥) .

وفي ١٧٩٩ استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسه فلجأ ألفييري والكونتيسة إلى فيلا في ضاحية حتى رحل الغزاة . وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين ، فأعتقد في ختام ترجمته الذاتية التي كتبها عام ١٨٠٢ وهو بعد في الثالثة والخمسين أنه شاخ . وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسة ثم مات بفلورنسه في ٧ أكتوبر ١٨٠٣ ودفن في كنيسة سانتا كروتشي . وهناك أقامت له الكونتيسة أثرا ضخما من صنع كانوفا ، وقد مثلت فيه إيطاليا تنوح فوق المقبرة . وقد ضمت إلى حبيبها هناك في ١٨٢٤ .

وتكرم إيطاليا ألفييري باعتباره Il Vate d'Italia نبي الأحياء الذي حررها من الأغلال الأجنبية والكنيسية . وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدما منشطا خلف وراءه المآسى العاطفية التي كانت تقدم للمسرح الإيطالي قبله . ومن تمثيلاته « فليبو » و « شاول » و « ميرا » أعدت روح إيطاليا نفسها لانتزني وجاريبالدى .

ولم يقتصر نشر الطغاة Della tirannide في الخارج على كيل (١٧٨٧) وباريس ، بل طبع في ميلانو (١٨٠٠) وغيرها من المدن الإيطالية في ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و ١٨٠٥ و ١٨٠٩ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٦٠ ، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وإنجلترا وأمريكا كتاب يبين « حقوق الانسان » (١٧٩١) . وكان ألفييري بداية الحركة الرومانسية في إيطاليا ، بيرونا قبل بيرون ، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها . وبعده كان لزاما على إيطاليا أن تنحرو .

الفصل الثالث عشر

حركة التنوير في النمسا

١٧٥٦ - ٩٠

١ - الامبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة في التعبير قلنا أن كلمة « النمسا » إنما تدل على أمة ، وقد تدل تجاوزاً على الامبراطورية التي تزعمها النمسا . فمن الناحية الشكلية كانت هذه الامبراطورية حتى عام ١٨٠٦ هي الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا . بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للامبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (١٧٥٦) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تضم النمسا وستيريا وكارنتيا وكارنيولا والتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وترير وماينز الكاثوليكية ، وأشتاتا متباينة من إيطاليا ، ثم منذ ١٧١٣ الأراضي الواطئة النمساوية - التي كانت أسبانية فيما مضى - وهي على التقريب بلجيكا الحالية .

أما المجر التي كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور . فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجريون ويفلحه الأقنان ، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهل المدن الألمان أو الصقلية . وكانت الامبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً في ١٦٨٧ ، حين تخلى النبلاء المجريون عن حقهم القديم في اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكاً عليهم . ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجرين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوريون ، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط ، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطوري قانوناً لأملاتهم وفيينا عاصمة لهم . وكلفت الامبراطورة في استجابة سمحة لوكاس فون هاد برانت بعمل

تصميمات للمباني الحكومية في بودا ، وبدأ العمل في ١٧٦٩ ، ثم جدد في ١٨٩٤ ، فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المباني الملكية في العالم . وشيد أغنياء النبلاء المجريين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو في خلواتهم الجبلية منافسين في ذلك الملكة : فبنى الأمير بال استرهاقي مقراً لأسرته في ايزنشتات (١٦٦٣-٧٢) وبنى الأمير ميكولوس يوزف استرهاثسي بطراز النهضة على نحو الثلاثين ميلاً قلعة استرهاثسي الجديدة (١٧٦٤-٦٦) التي ضمت ١٢٦ حجرة للضيوف ، وردهتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص ، ومجموعة غنية من التحف ، وعلى مقربة منها مكتبة بها ٧٥٠٠ مجلد ومسرح به أربعائة مقعد . ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل ، وجهازت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية . يقول رحالة فرنسي « هذه القلعة لا يضارعها أى مكان في فخامتها --- ربما باستثناء فرساي » . وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون ، وهنا ظل هايدن جيلا كاملاً يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب .

أما بوهيميا - وهو اليوم القسم التشيكى من تشيكوسلوفاكيا - فلم تحظ بمثل هذا التوفيق في عهد ماريا تريزا . وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومى حكم أجنبي وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يوما يان هوس وجيروم البراغى . وعانت الملايين الثمانية التى تسكنها من جراح الحرب في الصراع المتكرر الذى دارت رحاه بين بروسيا والنمسا ، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً ، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال في الثقافة والذوق ، فنشأت مؤلفيها الموسيقيين أمثال جيورج بندا ، وتفردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت « دون جوفانى » (١٧٨٧) ، التى لم تصب بعد ذلك في فيينا غير إطراء فاتر كان أشبه بالدم منه بالمديح .

وأما في الأراضي الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه في بوهيميا، وسكيدر أيام « الامبراطور
الثائر » الأخيرة . وقد كان لتلك الأقاليم السبعة - باريانت (التي ضمت
بروكسل ، وأنتورب ، ولوفان) ، ولكسمبورج ، وفلاندر ، وهانوت ،
ونامور ، وجلدز - تاريخ عريق جليل ، وكان النبلاء الذين حكموا
رعاباهم الملايين الأربعة شديدي الحرص على الامتيازات التي ثبتت لامتحان
قرون كثيرة . وعرض المجتمع العصري أزياءه ، وقامر بمكاسبه ، وشرب
أحياناً المياه المعدنية كما شرب الأنبله في سبا في أسقفية ليبج المجاورة ، وكان
زهرة ذلك المجتمع في هذا العصر الأمير شارل - جوزف دلين ، الذي وهبته
بروكسل للعالم في ١٧٣٥ . وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك
« لم يؤمن بالله منهم غير واحد » ؛ أما هو نفسه فكان « متديناً أسبوعين »^(١)
في هذا البلد المغرق في الكثرة . وقد أبلى بلاء حسناً في حرب السنين السبع
وخدم يوزف الثاني مستشاراً وصديقاً حميماً ، والتحق بالجيش الروسي
في ١٧٨٧ ، ثم رافق كاترين الكبرى في « مسيرتها » إلى القرم ، وبنى لنفسه
قطراً ريفياً فاخراً وفاعة للفنون قرب بروكسل ، وكتب أربعة وثلاثين مجلداً
من « المنوعات » ؛ وأثار الإعجاب في النفوس - حتى نفوس الفرنسيين -
بطباعه المذهبة ، وأضحك أندية أوروبا العالمية الطابع بطرقه وخفة دمه
المشربة بالفلسفة . *

هذه الإمبراطورية المعقدة ؛ الممتدة من الكريات إلى الرين ؛ هي التي
دانت أربعين سنة لإمرأة من عظيمات نساء التاريخ .

٢ - ماريّا تريزا

رأيناها من قبل في الحرب ، وفيها لم تسلم إلا لافردريك وأبلى في السياسة
الحربية ، وفي اتساع النظرة والحاح الهدف ، وفي الشجاعة تواجه الهزيمة .

(١) « كانت مدام دي لوكزبني . . . قادرة حل الاصغاء ، وهو أمر ليس بالسهولة التي
يحسبها الكثيرون ، ولم يعرف أحق قط كيف يفعل » (٢) .

قال فردريك عنها في ١٧٥٢ « إذا استثنينا ملكة المجر وملك سربيا (شارل إيمانويل الأول) الذى انتصرت عبقريته على تعليمه الردىء ، لم نجد فى ملوك أوروبا وأمراثا كلهم غير معتمدين مشهورين ^(٣). لقد فاقها فى فن الحكم الزابث الأولى ملكة إنجلترا من قبلها ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها ، ولم يفقها ملكات غير هاتين . وكانت فى رأى فردريك « طموحا محبة للنار » ^(٤). ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيبازيا التى اغتصبها ؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها « ذهنا متوسطا جيدا يرافقه قلب محب ، واحساسا سلميا بالواجب ، وقدرات مذهاة على العمل ، وحضورا قويا وجاذبية غير عادية . . . أما حقيقة لشعبها » ^(٥) . وكانت غاية فى اللطف مع كل من لم يهاجم امبراطورتها أو إيمانها ، وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت فى ١٧٦٨ ^(٦) . وكانت أما فاضلة ، ورسائلها لأبنائها نماذج فى الرقة والمشورة الحكيمة ، ولو استمع إليها يوزف لما مات إنسانا فاشلا ، ولو اتبعت ماري أنطوانيث نصيحيتها لكان من الجائز أن يعفى رأسها من الجيلوتين .

لم تكن ماريا تريزا ملكة « مستبدة مستنيرة » . فهى لم تكن مستبدة . وفى رأى فولتير « أنها وطدت ملكها فى جميع القلوب بدماثة طبع وشعبية لم يؤتيا غير قلة من أسلافها ، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها . . . ولم ترفض مقابلة إنسان ، ولم يبرح شخص حضرتها غير راض » ^(٧). ولم تكن قط مستنيرة بالمعنى الذى يقصده فولتير ، فقد أصدرت المراسيم المتعصبة ضد اليهود والبروتستنت ، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية . وشهدت فى هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لندن وباريس ، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات ، ومنعت تدريس الإنجليزية « لطابع هذه اللغة الخطر من حيث مبادؤها الدينية والخلقية المفسدة » ^(٨) .

ومع ذلك لم تنجح تماما من تأثير ذلك العداء للاكليروس الذى كان يكتنه مستشاروها وابنها . فقد ذكروا لها أن ممتلكات الاكليروس الاقليمية

وغيرها من أسباب الثراء تزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن في استطاعتهم التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالايصاء ببعض الثروة للكنيسة ، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتى قريباً ذلك اليوم الذى تصبح فيه الكنيسة - التى هى فعلا دولة داخل الدولة - سيدة على الحكومة . وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقضى الرجال والنساء عن الحياة النشطة وتعفى المزيد من الثروة من الضرائب . وكانت الصبايا يغربن بنذر أنفسهن للرهينة قبل أن يبلغن السن التى يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تساط الاكليروس هلى التعليم حداً تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة . واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاماً حملها على الأمر ببعض الاصلاحات الهامة . فحظرت وجود الكنسيين عند كتابه الوصايا . وانقصت عدد المؤسسات الدينية ، وأمرت بفرض الضرائب على جميع الثروة الدينية . وحرمت النذر للرهينة قبل سن الحادية والعشرين . وحظرت الكنائس والاديرة لإيواء المحرمين بمقتضى « حق اللجوء » . وأمرت بالألاعتراف بأى منشور بابوى فى المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الامبراطورة . وأخضع ديوان التفتيش لاشراف الحكومة ، لا بل انه فى الواقع ألغى . وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جرهاوت فان سفتن (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتنشاوخ ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين فى كثير من كراسى الأساتذة ^(٩) ، وأخضعت جامعة فيينا للإدارة العلمانية وإشراف الدولة ، وروجع المنهاج فيها وفى غيرها بهدف التوسع فى تعليم العلوم والتاريخ ^(١٠) . وهكذا سبقت الأمبراطورة التقية إلى حد ما الاصلاحات الكنسية التى سيقوم بها ابنها الشكاك .

وكانت مثلاً فى الفضيلة فى زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الآستانة فى تعدد الزوجات . ولعل الكنيسة كانت مستخدمة اياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولنده ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكي كان أشره العشاق

استكثارا من النساء . ولم تقتد ارستقراطية فيينا بها . فقد فر الكونت اركو إلى سويسره مع خليلته ، وهربت الكونتيسة لسترها تسي إلى فرنسا مع الكونت فون در شولنبورج ، وكان الأمير فون كاوتنز يصحب خلياته في تلك الفترة في مركبته ، فلما عاتبته الامبراطورة قال لها « سيدتى ، لقد أتيت لأتحدث عن شئونك لا عن شئوني ^(١١) » ونظرت ماريا تريزا باشمئزاز إلى هذا التحال ، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب ، وأمرت بتطويل تنانير النساء في أسفلها وقمصانهن في أعلاها ^(١٢) . ونظمت جيشاً من ضباط العفة خولت لهم القبض على أى امرأة يشبه في احترامها البغاء . وشكا كازانوفا من أن « تعصب الامبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص ^(١٣) » .

ويرجع الفضل في كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء . فقد قبلت ارشادهم وكسبت اخلاصهم . وظل الأمير فون كاوتنز منوطا بالشئون الخارجية رغم فشل سياسته في « قلب الأحلاف » ، وقد أخلص في خدمة الامبراطورية أربعين عاماً . وغير لودفج هاوجفنز من الإدارة الداخلية ، وأعاد رودلف شوتك تنظيم الاقتصاد . هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا ، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة ، أقوى بما لا يقاس من المملكة المختلة النظام التى ورثها ماريا تريزا .

بدأ هاوجفنز بإعادة بناء الجيش الإمبراطورى . وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أمام الانضباط البروسى لأنه كان مؤلفا من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين ، واقترح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه ١٠٨,٠٠٠ محارب يخضعون لتدريب موحد واشراف مركزى . ولكى يتول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة ، واحتج النبلاء والكهنة ، وتصدت لهم الامبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل . وامتدح فردريك عدوته لإدارية كفتاً ، « لقد نظمت ماليها تنظيمًا لم يبلغه أسلافها قط ، ولم تقتصر على تعويض

تعويض ما فقدته بالنزول عن أقاليم الملكى بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة^(١٤) . وواصل هاوجفنز جهوده لتنسيق القانون ، وتحرير القضاء من تسلط النبلاء ، ولاخضاع أمراء الاقطاع لإشراف الحكومة المركزية . وأذيع في ١٧٦٨ قوانين موحدة .

وكان شوتك يجاهد أثناء ذلك لييث النشاط في الاقتصاد الحامل . فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التي حابت النبلاء ، ولوائح النقابات الحرفية التي ظلت سارية حتى ١٧٧٤ ، على أن لنثر كان بها رغم هذا مصانع للصوف تضم ٢٦,٠٠٠ عامل ، ونفوقت فيينا في صناعة الزجاج والخزف والصيني ، وتصدرت بوهيميا سائر أقطار الامبراطورية في عمليات التعدين . وكان في النمسا والمجر مناجم منتجة ، ففي غاليسيا رواسب ملحية كبيرة ، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن . وحوى شوتك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية ، لأنه كان لزاما أن يتحقق للنمسا ، المشتبكة في حروب متكررة ، اكتفاء ذاتي في السلع الضرورية ، فالتجاره الحرة كالدعراطية ترف لايتأتى إلا في الأمن والسلام .

ومع ذلك ظلت الامبراطورية زراعية إقطاعية . ذلك أن الامبراطورة شاتها في ذلك شأن فردريك ، لم تجرؤ وهى تواجه الحرب على المجازفة بالتفسيخ الاجتماعى الذى قد يحدث نتيجة لمهاجمة الاشراف الراسخين في امتيازاتهم . وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية في أراضيها ، وفرضت على أعيان المجر المتغطرسين مرسوما يحول للفلاح أن ينتقل ويتزوج ويربى أبناءه كما يشاء ، وأن يستأنف أحكام سيده الاقطاعى أمام محكمة المقاطعة^(١٥) . على أن طبقة الفلاحين في المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المسكنات في فقر قريب من فقر فلاحى روسيا . وكانت الطبقة الدنيا في فيينا تعيش في فقر تقليدى ، بين القصور الباذخة والأوبرات المنتنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر .

وكانت فيينا بادئة في منافسة باريس وضواحيها في الأبهة الملكية . فكان قصر شونبرون (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوى ٤٩٥ فدانا من الحدائق ، مخططة (١٧٥٣ - ٧٥) على غرار فرساي ، بسيارات شاذة مستقيمة ، ومغارات غريبة وبرك متناسفة ، وتمائيل يديعه من تحت دونر وبير ومعرض وحوش وحديقة نباتات ، وعلى رابية في خلفية « جلورييت » بناها في ١٧٧٥ يوهان فون هوهنبرج - مبنى مقنطر معمداً في طراز رومانيسكى خالص . أما قصر شونبرون ذاته ، وهو مجمع ضخم من ١٤٤١ حجرة ، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلاخ في ١٦٩٥ ، ولكنه ترك ناقصاً في ١٧٠٥ . فكلفت ماريا تريزا نيكولوباكاسى بتصميمه من جديد ، واستؤنف العمل فيه عام ١٧٤٤ وأكمل عام وفاة الامبراطورة (١٧٨٠) . وكان في داخله قاعة كبرى طولها ١٤١ قدماً لها سقف روكوكى الطراز رسمة جريجوريو جوليامى (١٧٦١) . وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخريف .

وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن ٢٤٠٠ . واقتضت رعاية الخليل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائسا وخادما . وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته ٤,٣٠٠,٠٠٠ جولدن في العام^(١٦) . أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد في النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكى . وعوضت عن بذخ حاشيتها بسخائها في أعمال البر . ذكرت مدام دستال في معرض حديثها عن النمسا بعد جيل « إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء ، فالإحسان الخاص العام يصرف بروح سامية من العدل . . . وكل شيء في هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدينة^(١٧) » .

ولم يكد يوجد أثر للنسول رغم فقر الشعب ، وكانت الجرائم قليلة نسبيا .^(١٨) ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة في التزاور ، واللقاء والاختلاط في الميادين ، والابتعاد في البساتين الوارفة الظلال والتمشى في

طريق البراتر الذى يحفه الشجر ، والنزه فى الريف ، أو — فى أدنى طبقاتهم —
الطرب لمراى المعارك الضارية تنظم بين حيوانات تتصور جوعا . وأجمل
من هذا الرقصات لاسيما المنويت التقليدية ، ففى هذه الرقصة نادرا ما كان
الرجل والمرأة يتلامسان ، فكل حركة تحكمها التقاليد والقاعدة ، وتؤدى
بأنضباط ورشاقة . أما الموسيقى فكان نصيبها فى حياة فيينا من الكبر بحيث
تطالبا بتناولها فى فصل خاص بها .

وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفا فجاء . فلم يكن للنمسا التى
سيطرت عليها المقدسات نصيب فى حركة « شتورم فوند درانج » التى
أثارت ألمانيا . ولم تكن ماريا تريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت . ولم
يكن فى فيينا صالونات أدبية ، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة
بالنساء والنبلاء والساسة كما فى فرنسا . لقد كان مجتمعنا ساكنا ، فيه ما فى
أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة ، أنقذ من ضجيج الثورة
وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية . وكانت صحف فيينا الخاضعة
لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر ، ربما باستثناء « الفييرتسايتونج » التى أسست
فى ١٧٨٠ . أما مسارح فيينا فكان ديدنها الأوبر للارستقراطية والبلاط ،
أو الملاحى الغليظة لعامة الشعب . كتب ليوبولد موتسارت يقول إن « شعب
فيينا فى حملته لا يشعر بالحب لأى شىء جاد أو معقول ، بل ان أفراده
لا يفهمونه . وفى مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون
غيره هو الذى يرضيهم — كالرقصات والمنوعات المسرحية الخفيفة
(البرلسك) والتهريجيات وحيل الأشباح والأعيب الشيطان »^(١٩) . ولكن
بابا موتسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده .

هذا الخليط من الممثلين والموسيقين والعامة والأقنان والبارونات
ورجال البلاط والكنيسة حكمته الأمبراطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها
الشديد . وكان زوجها فرانسوا اللورينى قد توج إمبراطورا فى ١٧٤٥ ،
ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم . فنظم الصناعات ، وزود
الجيوش النمساوية بالحلل والخيول والسلاح ، وباع الدقيق والعلف لفرديريك

بينما كان هذا مشتبكا في حرب مع النمسا (١٧٥٦) (٢١)، وترك إدارة الامبراطورية لزوجته . على أنه في الأمور الزوجية كان يتشبت بحقوقه ، وقد أنجبت له الامبراطورة التي أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلا (٢١) . وريبتهم في محبة وصرامة ، وأكثر من تعنيفهم ، وأعطتهم من جرعات الفضيلة والحكمة ما جعل ماري أنطوانت تتهيج بالفرار إلى فرساي ، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة . ودبرت الخطة بمهارة لتحصل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين ، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلي ، وابنتها ليوبولد دوقا أكبر لتسكانيا ، وابنتها فرديناند حاكما على لمبارديا . وكبرت نفسها لاعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التي ستخلفها له ، وراقبت في قلق تطوره أثناء التعليم والزواج ، وزعزع الفلسفة وخطوب الحب ، حتى أتى الوقت الذي رفعت فيه نشوة من المحبة والتواضع وهو في الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الامبراطورية .

٣ - يوزف في مرحلة النمو :

١٧٤١ - ٦٥

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه ، ولكنها في سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو . (٢٢) فلما ناهز الرابعة شكت من أن « ولدى يوزف لا طاقة له على الطاعة » (٢٣) ولا غرو فالطاعة ليست لهوا . ذكر السفير البروسي حين كان يوزف في السادسة « لقد كبر فكرة مغرورة عن منصبه » ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى ، ولكن الصبي وجد الطقوس الدينية مملة ، وأنكر الأهمية التي يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعي . فحسبه العالم الذي يعيش فيه ويرث جزءا منه . وما لبث أن سئم اتباع العقائد السنية واكتشف ما في فولتير من فتنة . وفيما علما ذلك لم يكن يهتم اهتماما يذكر بالأدب ، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولي . ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

وكبريائه ، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيما يقظا لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه . فكان في أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة .

فلما بلغ العشرين عين عضوا في مجلس الدولة (شتاترات) . ولم يلبث (١٧٦١) أن وضع ورقة تحمل أفكاره في الإصلاح السياسى والدينى وقدمها إلى أمه ، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته . وقد أشار على الامبراطورة بأن تنشر التسامح الدينى في ربوع مملكتها ، وتقلص سلطة الكنيسة ، وتخفف عن الفلاحين أعباء الاقطاع ، وتسمح بحرية أكبر في انتقال السلع والأفكار . (٢٤) وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومواسمه ، وتزيد من نفقة الجيش . وقال إن على كل عضو في الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه ، وإن من الواجب فرض الضرائب على الاشراف . شأنهم شأن سائر الشعب . (٢٥)

وكان أثناء ذلك يتعلم جانبا آخر من الحياة . ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته ايزابللا البارسية عروسا تصلح للدوق الأكبر ، كجزء من اتفاق عكس الاحلاف . وبدا أن الحظ حالف يوزف : فايزابللا فتاة في الثامنة عشرة جميلة ذات خلق طيب باستثناء مياها للاكتئاب . وفي ١٧٦٠ جاءت عبر الألب في قافلة يجرها ثلاثمائة جواد . واحتفل بالزفاف في مهرجان باذخ ، وسعد يوزف بأن يجد بين ذراعيه مخلوقا بهذا الحسن . ولكن ايزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذى تلقته ، ولم تجد لذة في كل الهبات التى حببها بها الحياة ، بل ناقت إلى الموت . كتبت إلى أختها في ١٧٦٣ تقول « أن الموت رحيم ، ولم أفكر فيه يوما أكثر مما أفكر فيه الآن . وكل شيء يوقظ في الرغبة في أن أموت سريعا . علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهيئه تعالى كل يوم . . ولو كان مسموحا للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت في ذلك . » (٢٦) وفي نوفمبر ١٧٦٣ أصيبت بالجدرى ، ولم يبد منها أى تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها ، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة . أما يوزف الذى أحبها حبا عميقا فلم يفق قط من هذه اللطمة :

وبعد شهور أخذه أبوه إلى فرانكفورت - على - المين ليتوج ملكا على الرومان - وهى الخطوة التقايدية إلى العرش الامبراطورى . وهناك انتخب فى ٢٦ مارس ١٧٦٤ (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر) ، وفى ٣ أبريل توج . ولم يستمتع بالمراسم المطولة ، والخدمات الدينية ، والخطب ، وشكا فى خطاب لأمه من « الهراء والحقايات البالية التى كان لزاما علينا أن نستمع إليها طول اليوم . انه يقتضىنى جهودا جبارة أن أمنع نفسى من مصارحة هؤلاء السادة بمبلغ ما فى عملهم . وكلامهم من بلاهة . » ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير فى الزوجة التى فقدها . « على أن أبدو فى غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبي من ألم . . . اننى أحب الوحدة . . ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس . . وعلى أن أثرثر طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة^(٢٧) . » ولابد أنه أحسن إخفاء مشاعره ، لأن أخاه ليوبولد قرر أن « ملكنا - ملك الرومان - ساحر دائما ، رائق المزاج دائما ، مرح ، كيس ، مؤدب ، وهو يكسب جميع القلوب^(٢٨) » .

فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية ، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج . واختار كاوتنز زوجة له هى يوزيفا البافارية ، لأن كاوتنز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا . ووقع يوزف مشروع الزواج الذى وضعه له كاوتنز ، وبعث به ، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيللا) وصفا ليوزيفا قال فيه « إنها مخلوق صغير قصيرة بدنية ، تجردت من سحر الشباب ، على وجهها دما مل وبقع حمراء وأسنان منفرة . . فاحكم بنفسك ما كلفنى هذا القرار . : ألا رفقا فى ، ولا يفتربك لابن لك قد دفن فى قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية^(٢٩) . » وقد زف يوزف إلى يوزيفا فى بواكير عام ١٧٦٥ . وحاولت أن تكون له زوجة صالحة ، ولكنه زهد فيها سرا وعلاية . وقاست فى صمت ، ثم ماتت بالجدري فى ١٧٦٧ . ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى . وكرس الآن مابقى من حياته للحكم وفيه مزيج مخزن من الفتور والاخلاص ، من المثالية والغرور .

٤ - الأم وولدها (١٧٦٥ - ٨٠)

ظلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الإمبراطور فرانسو الأول (١٨ أغسطس ١٧٦٥) . وشاركت خليلته الحزن عليه ، وقالت لها : « يا عزيزتي الأميرة ؛ لقد فقدنا كلنا الكثير » . (٣٠) وقصت شعرها ، وتصدقت بصيوان ثيابها ، ونبلت كل أنواع الحلى ولبست السواد إلى يوم مماتها . وسلمت شئون الحكم ليوزف ورددت حديث الاعتكاف في أحد الأديرة . على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيته من أن يكون وريثها الطائش غير كفء للحكم ؛ ثم وقعت في ١٧ نوفمبر إعلاناً رسمياً بالمشاركة في الحكم . واحتفظت بالسلطة العليا في الشئون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا ؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطوراً أن يناط به الشئون الخارجية والجيش ؛ ثم الإدارة والمالية بسلطة أقل ؛ ولكنه في الشئون الخارجية قبل إرشاد ، كاوتز ، وفي جميع الميادين خضعت قراراته لمراجعة الإمبراطورة . وقد خفف احترامه وحبه لأمه من حدة شغفه بالسلطة . فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدري في ١٧٦٧ لزم سريرها إلا نادراً ، وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه . وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التي أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدري .

وألقى الإبن المحب أمه بالحاح أفكاره المطالبة بالإصلاح . ففي نوفمبر ١٧٦٥ أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لا بد أنها أفرغت قراءها :

« رغبة في الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجال القادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً - مهما قال البابا وجميع الرهبان في العالم - يحرم انقطاع أى من رعاياي للعمل الكنسي قبل . . . سن الخامسة والشرين . فالعواقب الوخيمة - للجنسين - التي كثيرا ما تنجم عن النذور المبكرة خليك بها أن تقنعنا بنفع هذا الترتيب ، فضلا عن المبررات المتصلة بالدولة .

« وينبغي أن يكون التسامح الديني والرقابة المعتدلة على المطبوعات ،

والكف عن المحاكمة على الأخلاق وعن التجسس في خصائص الناس - ينبغي أن يكون هذا كله من مبادئ الحكم الأساسية . إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية . ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم . فالعنف لا جدوى منه في مسائل الدين والأخلاق ؛ إنما الحاجة إلى الاقتناع . أما عن الرقابة فينبغي أن نكون شديدي التنبه لما يكتب ويبيع ولكن تفتيش جيوب الناس وحققهم لاسيما الأجانب إجراء متطرف في الغيرة . ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن في فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن، وفي وسع أى إنسان يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثل ثمنه .

« ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظر جميع البضائع الأجنبية فيما عدا التوابل ، وبإلغاء الاحتكارات ، وإنشاء مدارس تجارية ، وبالقضاء على الرهيم الذى يزعم أن الاشتغال بالتجارة لا يتفق مع النبالة .

وينبغي تقرير حرية الزواج ، حتى ماندهو الآن بالزواج غير المتكافئ . فلا القانون الإلهي ولا الطبيعي يحرمه . فالتحيز وحده هو الذى يوهنا بأننى أعظم قدراً لأن جدى كان كوثناً ، أو لأننى أملك رقاً وقع عليه شارل الخامس . أننا لانرث من آباءنا غير الوجود البدنى ، إذن فالملك أو الكونت أو البورجوازي أو الفلاح كلهم سواء^(٣١) .

ولابد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو «الموروعة» في هذه المقترحات . وكان على الأباطور الشاب أن يسير الهوينا ، ولكنه تقدم . فنقل إلى الخزنة عشرين مليون جولدن - نقداً وسندات وأملاكاً - خلفها له أبوه في وصيته ، ثم غير الدين القومى بفائدة أربعة في المائة بدلا من ستة . وباع أراضي الصيد والقنص التى كانت للأباطور المتوفى ، وأمر ببيع الخنازير البرية التى كانت هدفا للصيادين وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين . وفتح البراتر وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه^(٣٢) .

وفي ١٧٦٩ صدم الإمبراطورة والبلاط بلذاهبه إلى نايسى في سيليزيا
موقضائه ثلاثة أيام (٢٥ - ٢٧ أغسطس) في مناقشات ودية مع
فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا . وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة
الملك « الخادم الأول للدولة » . وأعجب باخضاع فردريك الكنيسة
للدولة ، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات ، وحسد بروسيا على
تنظيمها العسكرى واصلاح شرائعها . وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت
حان لإغراق خلافاتهما في اتفاق وقائى ضد قوة روسيا الصاعدة . وكتب
يوزف لأمه يقول « بعد العشاء . . . دخنا ودار حديثنا حول فولتير^(٣٢) »
ولم يكون الملك البالغ من العمر آنئذ سبعة وخمسين عاما فكرة طيبة عن
الإمبراطور ذى الثمانية والعشرين . كتب يقول « لقد اتخذ الملك الشاب
مظهر الصراحة الذى ناسبه تماما . . . انه رغب فى أن يتعلم . ولكنه
لم يؤت من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه ، ومنصبه الرفيع يجعله سطوحيا
والطمع الذى لا حد له ينهش قلبه . . . وله من الذوق ما يكفى لقراءة
فولتير وتقدير مزاياه^(٣١) .

وقد حمل النجاح المنذر بالخطر ، الذى حققته كاترين الثانية فى روسيا ،
كاونز على ترتيب اجتماع ثان مع فردريك . والتقى الملك والإمبراطور
والأمير فى تويشتات بمورافيا فى ٣ - ٧ سبتمبر ١٧٧٠ . ولابد أن يوزف
تطور تطورا كبيرا خلال ذلك العام ، لأن فردريك كتب الآن إلى فولتير
يقول « أن الإمبراطور الذى نشىء فى بلاط متعصب قد نبذ الخرافة ،
واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربى فى جو مترف . وهو متواضع رغم
ما يحرق له من بخور ، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه فى
سيليل واجبه البنوى^(٣٥) .

وكان هذان اللقاءان جزءا من تربية يوزف السياسية . وقد أضاف
إليها زيارة ممتلكاته وفحصه لمشكلاتها وامكانياتها بنفسه . ولم يزرها
بوصفه إمبراطورا بل مسافرا من عامة الناس يركب جوادا . وتجنب

المراسم ونزل في الفنادق بدلا من قصور الريف . وحين زار الحجر في ١٧٦٤ و ١٧٦٨ لاحظ فقر الأفتان المدقع وصمق حين رأى في أحد الحقول جثث أطفال ماتوا جوعا . وفي ١٧٧١ - ٧٢ رأى مثل هذا في بوهيميا ومورافيا وكان حينها ذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على وخشية الاقطاعيين وجوع الافتان . وكتب يقول « إن الموقف الداخلي لا يصدق ولا يوصف ، أنه يفطر القلوب ^(٣٦) » . فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التي ينورها مستشارو الأباطورة فقال « ان الاصلاحات الصغيرة لن تجدى فتيلا ، إذ لابد من تغيير الكل » . واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضي الكنسية في بوهيميا ليبنى فوقها مدارس وملاجيء ومستشفيات . وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (١٧٧٤) قانونا ميسرا يقلل وينظم حجم تشغيل الأفتان (الذي كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الاقطاعي وقاوم اقطاعيو بوهيميا والحجر ، وهب الافتان البوهيميون في ثورة غير منظمة ، فأخضعتهم قوات الجيش . ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها في باريس مرسى دارجنتو :

« ان الأباطور الذي يسرف في شعبيته قد أفرط في الحديث خلال رحلاته المختلفة . . . حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين . وقد أحدث هذا كله الاضطراب في جميع ولاياتنا الألمانية . . . فليس الفلاح البوهيمي وحده هو الذي يخشى منه ، بل المورافي والستيري والنسوى أيضاً ، لا بل أنهم في قسمنا يجرؤون على التمادي في أشد الوقاحات ^(٣٧) » .

وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (١٧٧٢) حين انضم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية في التقسيم الأول لبولنده . فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية . وبكت حين أقنعها يوزف وكاونتز بعد إلحاح باضافة توقيعها إلى الاتفاق الذي أعطى شطراً من بولنده للنمسا . وقد علق فردريك بحث « أنها تبكى ، ولكنها تأخذ ^(٣٨) » . على أنها كانت مخلصاً في أسفها كما نرى من خطاياها لولدها . فرديناند « كم من مرة جاهدت لاتجنب اشتراكي في عمل يلوث ملكي .

كله ؟ ليت الله يمنحني الاعفاء من تبعته في عالم آخر . إنه يشغل قلبي ، ويعذب ذهني ، ويشيع المرارة في أيامي (٣٩) .

وقد تأملت خلق ولدها في خوف ومحبة . « انه يحب الاحترام والطاعة ، ، ويرى المعارضة شيئاً كريها لا يكاد يحتمل . . . وكثيرا ما يكون غير مراع لشعور الآخرين . . . وحيويته الكبيرة المتزايدة تفضي إلى رغبة عاتية في أن ينال ما يريد بكل دقائقه . . . أن لولدى قلبا طيبا . ومرة أنبته بمرارة :

« حين أموت أخادع نفسي بأنني سأظل حية في قلبك ، بحيث لا تخسر الأسرة والدولة بموتى . . . أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار . فهذا البطل . . . « هذا الفاتح — أله صديق واحد ؟ . . . أية حياة هذه التي تنعدم فيها الإنسانية . أيا كانت مواهبك فليس ممكنا أن تكون جربت كل شيء . حذار من الوقوع في خطيئة الحقد ؟ ان قلبك ليس شريرا إلى الآن ، ولكنه سيكون كذلك . لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الظريفة ، هذه الأحاديث الدكية البارة التي لا تهدف لها إلا السخرية من الغير . . . إنك عابث تتظاهر بالعقلانية وأنت في الواقع لست إلا مقلدا عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكرا مستقلا (٤٠) » .

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف في خطاب إلى ليوبولد :

« لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لا نستطيع تخيلها . فالواجبات تراكم كل يوم ولا شيء يعمل . وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لا يتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً ، ومع ذلك لا شيء يحدث . فإن أسباباً أتافهة ، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق ، وكل شيء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان . انني أهديك منصبي بوصفي الابن البكر (٤١) » .

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا في خدمة أمه . ولم يؤيده غير كاوثنز ، ولكن في حذر يغیطة .

وأما الأمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية في دعو.
وصارحته برأيها :

« إن أهم مبادئك الأساسية هي : ١ - إطلاق الحرية في ممارسة الدين ،
وهو ما لا يستطيع ملك أو أمير كاثوليكي السماح به دون أن يتحمل تبعه ثقلية .
٢ - القضاء على طبقة النبلاء بأنهاء القنيه . . . ٣ - الدفاع عن الحرية
في كل شيء وهو مبدأ يتردد كثيرا جدا . . . اننى بلغت من الشيخوخة
حدا لا أستطيع معه تقبل أفكار كهذه ، وأسأل الله ألا يجزبها خلفى أبتائ .
أن التسامح الدينى . وعدم الاكتراث واللامبالاه هما بالضبط أداة نقويض
كل شيء . فاذا لم يوجد دين غالب فأى ضابط يكبح الجماع ؟ لاضابط
ولا المشقة ولا دولاى التعذيب . . . اننى أتكلم سياسياً لا كسيحية . فامن
شيء ألزم وأنفع من الدين . أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه ؟
وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة ، ونخضوع للكنسية ، فأين ترانا نكون ؟
ستكون النتيجة قانون القوة . . . ليس لى من أمنية إلا أن أستطيع حين
أموت الانضمام إلى أسلافى متعزية بأن ابنى سيكون عظيما تقيا كأجداده ،
وأنه سيقلع عن حججه الباطلة ، وعن الكتب الشريرة ، وعن الاتصال بأولئك
الذين أغروا روحه على حساب كل شيء ثمين مقدس ، لا لشيء إلا
لأقامة حرية موهومة لا يمكن . . . أن تفضى لغير الحراب الشامل (٤١) . »

ولكن إذا كان ثمة شيء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين . ربما لم
يكن ملاحظاً كما خاله بعضهم (٤٣) ، ولكنه كان قد تأثر تأثيراً عميقاً بأدب
فرنسا . وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين قد ألفت فعلا فى
١٧٧٢ حزب التنوير (٤٤) . وفى ١٧٧٢ نشر جورجى بيسيني
المجرى فى فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير ، وقد قبل الدخول
فى الكاثوليكية ارضاء لماريا تريزا ، ولكنه ارتد إلى العقلائية
بعد موتها (٤٥) . ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور
المسمى « الوضع الكنسى والقانونى لبابا روما » (١٧٦٣) ، الذى أكد فيه
أسقف كاثوليكي بارز تخفى تحت اسم فيرونيوس ، من جديد سمو الجماع

العامة على البابوات ، وحق كل كنيسة قومية في أن تحكم نفسها . ورأى
الأمباطور الشاب في ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً
في طريق التطور الاقتصادى ، وفي سيطرة الكنيسة على التعليم ، المعوق
الأكبر لنضج العقل النمساوى . وفي يناير ١٧٧٠ كتب إلى شوازيل :

« أما عن خطتك للتخلص من اليسوعيين فأنا موافق عليها موافقة تامة...
ولاسترف في الاعتماد على أمى ، فإن التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثه
في أسرة الهابسبورج . . . على أن لك صديقاً في كاوتز ، وهو ينفذ مايشاء
مع الأمباطورة^(٤٦) » .

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه في روما ليوصل كلمته الرابع عشر
إلى الخطوة النهائية ، وقد أجهجه إلغاء البابا للطائفه ١٧٧٣^(٤٧) .

ولو عرفت مارياتريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر
« الفلاسفة » لصعقت . لقد بذلت قصارها لتمنح حل جمعية اليسوعيين ،
ولكن كاوتز أقنعها بالامثال لرأى سائر الدول الكاثوليكية . كتبت إلى
صديقه لها تقول « اننى مغمومة يائسة لما أصاب اليسوعيين . لقد أحببتهم
وأكرمتهم طوال حياتى ، ولم أرقط فيهم غير كل شئء بناء للروح^(٤٨) » .
وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوى بتعيين لجنة دراسته . وأتيح لليسوعيين
النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد .
وصودرت أملاك اليسوعيين ، ولكن الأمباطورة حرصت على أن يتلقى
أعضاء الطائفة المعاشات والثياب وشئى العطايا .

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم
وولدها . ففي ديسمبر ١٧٧٣ انهارت تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه
من كل مشاركة في شئون الحكم . وأقزعا اقتراح مذهل كهذا ، وكتبت
إليه نداء مؤثراً للمصالحة :

« يجب أن أعترف بأن قدراتى ، ووجهى ، وسمعى ، وحذقى - كلها

تتدهو سريعا وبأن الضعف الذى ارتعت منه طوال حياتى — وهو التردد فى اتخاذ القرارات — يرافقه الآن، تثبيط الهمة والافتقار إلى الخدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشارى الخاضعين، والمزوق عن الدين، وتدهور الأخلاق ، والرطانة التى تجرى على كل لسان ، والى لا أفهمها — كل هذا يكفى لسحقى . اننى أقدم لك كامل ثقى ، وأسألك أن تنهين لى خطأ ارتكبه . . . أعن أما . . . تعيش فى وحدة ، وسيقضى عاها أن ترى كل جهودها وأحزائها ذهبت أدراج الرياح . قل لى ما تريد أفعله لك (٤٩) :

وتصالح معها ، ووافقت المرأة التى حاربت يوما فردريك وأوقفت تقدمه ، مؤقنا على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به . واستخدما معا ثروة اليسوعيين المصادرة فى الاصلاح التعليمى . وفى ١٧٧٤ أصدرتا « نظاما عاما للتعليم » أحدث تنظيما جديدا . أساسيا للمدارس الابتدائية والثانوية . وفورت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامى لجميع الأطفال ، وسمحت بدخول البروتستانت واليهود طلابا ومعلمين ، وقدمت لتلاميذها التعليم الدينى فى كل دين . ولكنها وضعت الاشراف فى أيدي موظفين حكوميين . وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen . هذه تعد خير المدارس فى أوروبا . وانشئت مدارس لتدريب المعلمين ، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen فى العلوم والتكنولوجيا ، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية ، وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة ، وأدت وظيفة دار الحضانة لموظفى الدولة . واستبدل باشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لا يقل عنه صرامة ودقة .

واستمر التعاون بين الأم وولدها فالغى التعذيب (١٧٧٦) . ويمكن الاتفاق بينهما حطمة أحداث السنة التالية . ذلك ان يوزف كان ينوى منذ زمن زيارة باريس . لاليرى «الفلاسفة» ويستدق فى الصالونات ، بل ليدرس موارد فرنسا وجيشها وحكومتها ، وليرى مارى انطوانيت ،

وليقوى الروابط التي ربطت ربطا واهيا جدا بين الأعداء القدامى في حلفهما الهش . فلما مات لويس الخامس عشر ، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق ، كتب يوزف إلى ليوبولد يقول : « اننى قلق على أختى فسيكون عاها أن تلعب دورا شاقاً ^(٥٠) » . ووصل إلى باريس في ١٨ ابريل ١٧٧٧ ، وحاول أن يتكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكشتين وأشار على الملكة المشابة المرححة بأن تقلع عن الاسراف والطيش ، وصنع وجنتها وشفقتها ، وأصغت إليه في ضجر . وحاول ولكنه فشل في كسب لويس السادس عشر إلى حلف سرى لكبح توسع روسيا ^(٥١) . وتحرك بسرعة في أرجاء العاصمة و « لم تمضى أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيعرف لويس السادس عشر طوال حياته ^(٥٢) » . وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية لذلك المستشفى . وفتن أهل باريس ، وذعرت حاشية فرساي ، حين وجدت أرفع ملوك أوربا يمشى في زى مواطن بسيط ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . ويلتقى بجميع الطبقات دون تكلف . أمان نجوم الأدب فقد التمس أولا لقاء روسو ويوفون . وحضر أمسية عند مدام نكير ، والتقى بجبون ، ومارمونتيل ، والمركيزه دودفان ، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتاه أكثر مما أربكها مقامه الرفيع ، فالعمى يسوى بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب . وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى الأكاديمية الفرنسية . وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا في النهاية الحاكم المستنير الذى تطلعون إليه أداة لثورة سلميه . وبعد أن قضى يوزف شهرا في باريس تركها في جولة بالأقاليم فسافر شمالا إلى نورمندية ، ثم على الساحل الغربى إلى بايون ، ثم تولوز ، فونيليه فرساليا ، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف . ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير ، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهازا برجل يخاله الشعب النمساوى والملك الفرنسى شيطانا مجسما .

وكان حريصا على استرضاء أمه ، لأن عشرة آلاف مورافى هجروا

الكتلكة في غيبتها إلى المذهب البروتستانتي ، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا - أو مجلس الدولة - على هذه الكارثة اتخاذ اجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت المهجونات أيام لويس الرابع عشر . فقبض على زعماء الحركة وشنتت اجتماعات البروتستنت وجند المتحولون العنيدون في الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجيء . فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجا « أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكتلكة أن تجعلى منهم جنودا أو ترسلهم إلى المناجم أو تستخدمهم في الأشغال العامة . . . يجب أن أعلن صراحة . . . أن المسئول عن هذا الأمر ، أيا كان ، هو أحقر خدامك ، وهو لا يستحق منى غير الازدراء ، لأنه أحرق وقصير النظر ^(٥٣) » . وأجابت الأميرة بأنها ليست مصدرة هذه المراسيم بل مجلس الدولة ، ولكنها لم تسحبها . وجاء وفد من المرافقين البروتستنت لمقابلة يوزف ، فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفرادها . وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاوتز بسحب المراسيم . فأوقفت الاضطهادات . وسمح لمعتنقى البروتستنتيه بممارسة عبادتهم الجديدة شريطة أن يكون ذلك في هدوء بيوتهم . وتوقف صراع الجيائن برهة .

ثم استؤنف لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا في ٣٠ ديسمبر ١٧٧٧ دون أن يعقب بعد حكم طويل رنجى . وفي الصراع على وراثته أيد يوزف الثانى ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا ، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق تزفابروكن ، وأعلن أنه سيقاوم أى محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريا . وحذرت الامبراطورة ولدها من تحدى ملك بروسيا الذى لم يزل منيعا لم يقهر بعد . ولكن يوزف تجاهل نصيحتهما ، وأيده كاوتز ، وجردت قوة نمساوية على بافاريا . وأمر فردريك جيشه بدخول يوهيميا والاستيلاء على براغ مالم يحل النمساويون عن بافاريا . وقاد يوزف جيشه الرئيسى ليدافع عن براغ ، واقترب الجيشان العدوان ، ولاح أن حربا نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

دماء الاخوة . أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منهكاً بذلك السوابق والتوقعات ، واكتفى باطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها ، وأما يوزف فقد تردد في الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائدا للجيش . وكان يأمل أن نخف فرنسا لتجدته ، وأرسل على وجه السرعة نداءات للمارى أنطوانيت . فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا ، لأن فرنسا كانت قد وقعت (٦ فبراير ١٧٧٨) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة ، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع إنجلترا . وأقام يوزف في معسكره نهبا للغنيظ والقلق بينما نهبت البواوير في طرف ودمل ضخم في الطرف الآخر .

وهنا قبضت مارياتريزا على أزمة الأمور في انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإرادة ، وأرسلت إلى فردريك سرا عرضا للصليح (١٢ يوليو) . ووافق فردريك على التفاوض ، وأذعن يوزف لأمه ، وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين قيصرة روسيا في النزاع . وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (١٣ مايو ١٧٧٩) التي عزت يوزف بأربعة وثلاثين ميلا مربعا من بافاريا ، ولكن شارل تيودور استأثر بكل مابقى من تلك الإمارة الناجبة ، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات ، واتفق على أن تحصل بروسيا على بايروت وانسباخ بعد موت حاكمهما الأبر . وادعى كل فريق أنه المنتصر .

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها . وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام ١٧٨١ ، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو ، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملا فضلا عن الهم المقيم . وفي نوفمبر حاصر هامطرغزير وهي راكبة عربية مكشوفة ، فأصابها سعال خبيث ، ولكنها أصرت على أن تقضى الغد تعمل في مكتبها . وقد قالت مرة « إننى ألوم نفسي على الوقت الذى أنفقه فى النوم » (٥٤) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسي إذ استحال عليها تقريبا أن تنفس وهي راقدة . واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جزارها ، وقام على رعايتها في محبة . وطلق الأطباء كل أمل في شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة . وفي ساعاتها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيها إلى سريرها . وحاول يوزف أن يريحها فقال « إن جلالتك في سيئ » . فأجابت « نعم ، ولكنه وضع مناسب للموت فيه . » وماتت في ٢٩ نوفمبر ١٧٨٠ .

٥ - المستبد المستنير : ١٧٨٠ - ٩٠

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عمظتها ، شعر بأنه حرقى أن يكون نفسه ، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة في الإصلاح . كان الحاكم المطلق للنمسا والمجر وبوهيميا والأراضي الواقعة الجنوبية ، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له في تسكانيا ، وأخته ماري أنطوانيت معينة له في فرنسا . وأحس احساساً عميقاً بالفرص التي واثته في قمة حياته وذروة سلطته .

فأى رجل كان يومئذ ؟ لقد بلغ الأربعين ، ومازال في ربيع الحياة وكان وسيماً جداً حين يغطي رأسه الأضلع بباروكة . وقد وهب عقلاً يقظاً نشيطاً نشاط شبه محموم ، متمشياً مع جيله ، ولكن هدأه شيئاً لمامه بالتاريخ وخلق البشر . وكان دائم الإحساس بشع الوقت ، لذلك لم يخطئ إلا بسبب التسرع والعجلة ، وقلما أخطأ عن سوء قصد . وتروى القصص الكثيرة عن رفاهة حسه بخطوب غيره واستعداداته لرفع المظالم التي يمكن رفعها^(٥٥) . وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ماسمحت به واجباته . وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدى من الثياب ما يرتديه أى جندي ، ويتجنب الظهور في ثياب الملوك الفاخرة . وكان مبرأ كفردريك من مغاللة الحليللات ، ولم يكن له « أصدقاء لإغريق » ، وكان عمله غرامه الذي استغرقه . وكان كفردريك يبذل من الجهد في عمله أكثر مما يبذل أى مساعد له . وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام ببعثاته . فلم يسافر للمتعة والظهور ، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الاقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية ، ونظر بعينه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها . فصحت نيته الآن ، على قدر ما وسع رجلا واحداً ،

على تحقيق أحلام الفلاسفة . « واهمت قد ارتقيت العرش ، ولبست أعظم تاج في العالم ، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتي » (٥٦) ونظر الفلاسفة في كل أرجاء أوروبا إلى المغامرة الخيالية وكلهم تطلعات صادقة .

وكانت أولى الصعوبات في « مارتن » أن يبيد الأعوان الذين يشاركونه حلمه . فأكثر الذين آلوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التي اختزلت إصلاحاته امتيازاتهم . لقد أيده كاوتز وفان شفين ، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين — هما كوالنبرج وبيار — واثنان من اساتذة جامعة فيينا هما — مارتيني وزونفيلس — ، ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى يبروقراطيين تجمدوا في المؤلف من العادات ، واستراحوا إلى الموروث من التقليد ، وقاوموا التغيير تلقائياً . وراح يوزف في عجلة لاتسمح بالجمالة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم ، ويربكههم بحشد من الأوامر ، ويطلب إليهم إبلاغه عن أى خطأ جسم يرتكبه مساعدوهم (٥٧) ، ويغرقهم بالاستبيانات . ويطلبهم . بجهد لا يفتر كجهده . ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشرين سنين ، فشكروه ، وأنكروا أساليبه ، وسدروا في كبرياتهم . وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش . وكتب إلى شوازيل (الذى كان الآن ينعم بالتقاعد) « عش أسعدما أستطيع إننى لم أكد أعرف السعادة ، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذى رسمته لنفسى » (٥٨) . ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة .

وقد نبذ كل تفكير في الديمقراطية ، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب في السياسة ، وأنهم باستثناءات قليلة سيعتقدون أى آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم . وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مباشرة بخير ؛ فبرلمان كالبرلمان الانجليزى سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدثون أى تغيير جذرى . وكان من المسلمات في رأى يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هى القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكرين .

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه ، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحي الحياة . ورغبة في تشجيع الامتثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسيه أفسدت عليه حسناته . وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشا دائما كبيرا لا يعتمد على أمراء الأقليم ، يغذيه بالتجنيد الإلزامي العام ، ويخشنه بالتدريب البروسي . وراوده الأمل في أن يقوى هذا الجيش من صوته في المسائل الدولية ، وأن يلزم فردريك حدوده ، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرد الترك من البلقان المجاورة (ولاعجب فقد كان في نفس فيلسوفنا شيء من شهوة التملك) . ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها ، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانونا مدنيا جديداً للإجراءات القضائية . فخففت العقوبات ، وألغيت عقوبة الإعدام . (في إنجلترا المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسيمة) . ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون . وحرمت المبارزة ؛ واعتبر قضاء المبارز على غريمه في مبارزة جريمة قتل . وجعل الزواج عقداً مدنياً ، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين ، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية . أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تدريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة ، وألغى الكبير من المحاكم الكنسية . وتقرررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون ، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم في المشهرة وحكم على آخر بكنس الشوارع .

وألغيت القنيه بسلسلة من المراسيم ، ١٧٨١ - ٨٥ . وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة ، وحق التملك ، وحق الزواج بالرضى المتبادل ، وأعد محامون خصيصيون لحماية الفلاحين في حرياتهم الجديدة . وفقد البارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائيا ، ولكن تحاشيا لضعف الإنتاج في ضياع البارونات ، أجاز للسادة أن يقتضوا أقتنائهم السابقين بعض الخدمات المألوفة .

وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن اوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادي ، ولكنه عارض في الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألوف من أرزاقهم)^(٥٩) . وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد ،

ولكنهم تدمروا من انقاصه أيام العطلات المقدسة . ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلع عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومى . وألغى المكوس الداخلية أو خففها ، ولكنه أبقى على رسوم الحماية البحرية المرتفعة على الواردات . ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على هذا التحصن من المنافسة الأجنبية وانتجوا الساع الرديئة^(١١) . وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها في وجه حاصلات الإمبراطورية . وفقد الإلب والادر والدانوب بعض تجارتها . وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الادرياتيكي بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذى اخترق جبال الالب الكرنولييه ، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل في تطوير التجارة مع الشرق وافريقيا وأمريكا بطريق ثغرى فيومى وتريسته الحرين . وفى ١٧٨٤ أبرم معاهدة تجارية مع تركيا ، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربة مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر .

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة ، وأحل القروض بفائدة ٥٪ ورقى مصرفيا يهودياً إلى رتبة البارونية . وقدم القروض الحكومية والاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة . واقتبس فكرة الفيزوقراطيين في فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط ، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة ، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضي الإمبراطورية ، فتم هذا بنفقة بلغت ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ حولدن دفعها الملاك . وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين في المائة من محصوله أو دخله ، ويعطى للدولة اثني عشر في المائة ، ويقسم الباقي بين القروض الاقطاعية والعشور الكنيسية ، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعة وثلاثين في المائة وللمالك تسعة وعشرين في المائة ، وللكنيسة عشرة في المائة ، ولا يحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين في المائة^(١٢) . واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب ، ونى المجر قاموا بثورة .

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من ١٨٧٠,٧٠٠,٠٠٠ في ١٧٨٠
٢١,٠٠٠,٠٠٠ في ١٧٩٠^(٦٢) . وقرر كاتب معاصر أن الأكواح المبنية بالآجر
أخذت تحمل محل الزرائب الريفية العتيقة ، وأن الآجر يأخذ مكان الخشب في
منازل المدن^(٦٣) . وظال الفقر جاثما على الصدور ، ولكن مرسومًا إمبراطوريًا
صدر في ١٧٨١ أنشأ «مؤسسات للفقراء ، يستطيع أى شخص عاجز عن
التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه .

ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية « نائب المسيح » والمدافع عن
الكنيسة المسيحية و« حامي فلسطين . . . والايمان الكاثوليكي » ، فقد شرع
بمجرد تقلده زمام السلطة المطلقة في تقليص دور الكنيسة في أراضيه
«المورثة» — أى النمسا والمجر وبوهيميا . ففي ١٢ أكتوبر ١٧٨١ أصدر
مرسوم التسامح ، وبمقتضاه تقرر حرية البروتستانت والروم الارثوذكس
في أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم ، وفي تملك الأملاك وامتهان
المهن الراقية ، وشغل المناصب السياسية والحرية . وحث الأباطور
الشعب على تجنب كل دواهي النزاع بسبب الخلافات المذهبية
ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود واللفظ^(٦٤) . وفي توجيه
أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف في صراحة عن مصادر إلهامه :
«إن التعصب قضى عليه في إمبراطوريتي التي قد يسعدنا أتمها لم تضح
بأشخاص مثل كالاس وسرفن . . . أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير
(Les lumieres) الذي شاع الآن في جميع أرجاء أوروبا . وهو قائم
على الفلسفة ، وعلى عظماء الرجال الذين أسسوها . . . إن الفلسفة
دون غيرها هي التي يجب أن تكون رائد الحكومات»^(٦٥) .

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان في مقال فولتير «عن التسامح»
(١٧٦٣) ، فقد نبه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط
والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجائحة نموًا مفرطًا ، لا بل الإلحاد السافر ،
وأن هذا سيفضي إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل
سلطة . فلما تمأل إليه أن يضع ميثاق من البوهيميين جاهدوا بالربوبية (١٧٨٣)
أمر بأن أى رجل يجهر بعقيدته هذه « يجب » دون مزيد من التحقيق أن

يجلد أربعاً وعشرين جلدة على ردفه بسوط من الجلد ثم يصرف .
وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة^(٦٦) . ورحل بعض
الغلاة من الزبويين إلى المستعمرات العسكرية . وسترى في مكان لاحق
إلى أى حد بلغت جهود يوزف في تحرير اليهود .

وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة في عدد من جهوا
بالبروتستنتية في المملكة ، من ٧٤,٠٠٠ في ١٧٨١ إلى ١٥٧,٠٠٠ في
١٧٨٦ . ونمت حرية الفكر ، ولكنها ظلت محصورة في الدوائر الخاصة .
أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم في النمسا فقد نظموا في فيينا
(١٧٨١) محفلاً انضم إليه الكثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه
الأمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومه ضمناً) . قال أحد أعضائه
« كان هدف الجماعة أعمال حرية الضمير والفكر التي احتضنتها الحكومة هذا
الاحتضان الموفق ، ومكافحة الخرافة والتعصب في . . . طوائف الرهبان
التي هي أهم سند لهذه الشرور^(٦٧) . وتكاثرت المحافل الماسونية حتى بلغت
ثمانية في فيينا وحدها ، وأصبح من مجارة العصر أن ينتمى شخص
إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى
للمحافل الماسونية . وبمضى الوقت اشتبه يوزف في اشتغال هذه المحافل
بالتآمر السياسي . ففي ١٧٨٥ أمر بأن تندمج محافل فيينا في محفلين فقط ،
ولم يسمح بأكثر من محفل واحد في عاصمة اقليمية .

وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات . وفي ١٧٨٢
نشر النتائج التي انتهت إليها في مدونة جديدة . فحظرت الكتب التي دأبت
على مهاجمة المسيحية أو المحتوية على « عبارات لا أخلاقية وبذاءات قلقة » ،
ولكن حظرت أيضاً الكتب « المحتوية على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى
الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضى بعامة الناس إلى الايمان بالخرعبلات
ويثير الاشمئزاز في نفوس الدارسين »^(٦٨) . وسمح بالمطبوعات المحتوية على
انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الأمبراطور ، شريطة أن تحمل
اسم المؤلف الحقيقي ، وأن تخضع لقانون القذف . وأبيح للدارسين أن
يقرءوا في المكتبات الكتب المدرجة في فهرس الكتب التي حرمها الكنيسة

الرومانية . وتعنى الكتب العلمية من الرقابة كلية ، وكذلك الكتب الثقافية ، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافى سلطة معترف بها . وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغت أجنبية وبيعها دون معوق . ووسعت الحرية الأكاديمية . فلما اتهم أربعة عشر طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطات لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة ، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة « يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر ، لأن أدمغة فى فقر أدمغتهم لن تنفيذ من التعليم^(٦٩) » . وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت ، فرد يوزف باعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (١٧٨٧) . وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخى فى تنفيذ قانون ١٧٨٢ : فاغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش ، وبكشفت أسرار الراهبات ، وبالهجيات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المستيحية ذاتها .

وأحس يوزف أن واجبه أيضا أن ينظم الشؤون الكنسية . ففى ٢٩ نوفمبر ١٧٨١ أصدر مرسوماً أغلق عددا كبيرا من أديرة الرهبان والراهبات التى « لاتدير مدارس ولا تعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات » . فأغلق ٤١٣ بيتا دينيا من ٢١٦٣ بيتاً دينيا فى الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا) . وأفرج عن ٢٧,٠٠٠ من شاغليها البالغ عددهم ٦٥,٠٠٠ وقررت لهم معاشات ، وأجرى مثل هذا الخفض فى بوهميا والمجر . قال يوزف « أن المملكة أشد فقرا وتحلفاً من أن تسمح لنفسها بترف الانفاق على العاطلين^(٧٠) » . أما ثروة هذه المؤسسات المنحلة — التى بلغت نحو ستين مليون جولدن — فقد أعلن أنها ملك للشعب ، وصادرتها الدولة .

وأعلن أن الأديرة الباقية لايجوز لها أن ترث أملاكاً . أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد . وألغيت جماعات الاخوان الدينية . وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة ، التى حرمت بيعها أو تبادلها .

(م ١٦ — قصة الحضارة ، ٤٠)

سم واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفة الكاثوليك لاشراف الدولة .
فاشترط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية .
وتقرر ألا تجاوز أى لائحة أو موسوم بابوى فى النمسا إلا بإذن الحكومة .
أما الأوامر البابوية الصادرة فى ١٣٦٢ و ١٧١٣ ، التى دانت المهرطيين
أو الجانسينيين قهمل . على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة ، وبنى
الكنائس الجديدة ، وقد الرواتب لإعانة طلاب القسوسية ، وفتح مدارس
لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجاً يؤكد على العلوم والمعارف العلمانية
كاللاهوت والطقوس سواء بسواء .

وأثارت هذه القوانين الاكليروس الكاثوليكي فى كل أرجاء أوروبا .
ورجاء أبحار كثيرون يوزف أن يلغى مراسيمه المعادية للاكليروس . فلما
لم يلق اليهم بالاهدوه بالجحيم ، فابتسم ومضى فى طريقه . وأخيراً
اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه ، وكان رجلاً وسيماً مثقفاً رقيقاً
مغروراً ، خطوة غير مألوفة ، إذ غادر إيطاليا (٢٧ فبراير ١٧٨٢)
وعبر الابنين والألب فى الشتاء ووصل إلى فيينا (٢٢ مارس) وقد عقد
النية على الاتجاه برجاء شخصى للإمبراطور ، وكانت هذه أول مرة منذ
١٤١٤ تظاً فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا . أما يوزف فقد خرج
من المدينة مع رفيقه فى الشكوكية كاوتز ليرافقاً الحبر الأعظم إلى الأجنحة
التى كانت تشغلها مارياتريزا . وخلال إقامة البابا كانت الجموع تحتشد
كل يوم تقريباً أمام القصر الملكى التماساً لبركته . وقد وصفهم بعد ذلك
يوزف بهذه العبارات :

غصت جميع ممرات القصر وسلالمه بالناس ، واستحال على الإنسان
رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحصى نفسه من كل الأشياء التى أتو بها
اليه ليباركها : أوشحة كتفيه ، ومسبحات ، وصور . وكان يتجمع
لنيل البركة التى يمنحها من الشرفة سبع مرات فى اليوم حشد من الناس
لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا رآه . وليس من
المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفاً على الأقل . وكان المنظر غاية

في الجمال ، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبناؤهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً . وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتي مباشرة ^(٧١) .

وكان تأثير بوزف بمناسدات البابا البليغة أقل من تأثيره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشري ، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة حتى « حينما كان بيوس في ضيافته ^(٧٢) . » وحذره البابا بتحذير المتنبئ . أنك إن مضيت في مشروعاتك المدمرة للايمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطأة عليك ، ستعطلك في مسيرتك ، وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد في عنفوانك ، وستضع حدا للملك الذي كان في وسعك أن تجعله ملكاً عظيماً مجيداً ^(٧٣) . وبعد شهر من أسباب التكريم والاختفاق عاد بيوس حزينا إلى روما . وعقب ذلك عين الأمبراطور رئيساً لأساقفة ميلان رجلاً يدعى فسكونتي غير مقبول من الإدارة البابوية ، ورفض البابا أن يصدق على التعيين ، وأشرفت الكنيسة والأمبراطورية على القطيعة . ولم يكن يوزف مستعداً لمثل هذه الخطوة العنيفة ، فهرول إلى روما (ديسمبر ١٧٨٢) وزار بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة — حتى في لمبارديه . وافترق الملك والحبر الأعظم على ود . ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودى على جماهير روما ، وهتف له القوم بصيحات الشكر « يحى إمبراطورنا » .

فلما عاد إلى نيينا واصل حركته الإصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد . وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذى شبه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضله) ، وبعد أن هاجم الأديرة كما هاجمها هنرى الثامن ، شرع مثل كلفن في تطهير الكنائس ، فأمر بآزالة لوحات النذور ومعظم التماثيل ، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفات وتوزيع التماثيل . . . ونظم طول الخدمات الدينية وعددها ، والملابس التى تغطي تماثيل العذراء ، وطابع الموسيقى الكنسية ، وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلاً بالألمانية لا باللاتينية ، وأن تحصل رحلات الحج

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية ، وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد — لعيد القربان المقدس ، وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعى للركوع فى الشوارع أمام أى موكب دينى حتى ولو حمل القربان المقدس ، ويكفى فى هذه المناسبات خلع القبعات . وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لا حاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس .

ولم يستطع أحد أن يتشكك فى إنسانية أهداف يوزف . فالثروة التى أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات ، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم ، ولصرف اعانات اضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء . وأصدر الأمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم ، فكان على كل الجامعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم . وتقرر أن يكون التعليم الأولى إلزامياً وعاماً . ووفرت الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات فى فيينا وبراغ ولبرج وبست ولوفان ، أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفرايبورج فحولت إلى معاهد Lycées . لتعليم الطب أو القانون أو الفنون العملية . وأنشئت مدارس للطب من بينها « اليوز فينوم » للطب والجراحة العسكريين . وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية فى العالم .

٦ — الإمبراطور والإمبراطورية

تضاعفت المصاعب فى وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه . لقد كان يعرف النماذج المعروفة ، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجريين فى حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية ، ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية . ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليدا جرى عليه السلف فيذهب إلى برسبورج ليتوج ماكما على الحجر ، لأنه سيطالب فى ذلك الحفل.

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجرى الذى يكرس أنظمة المجتمع الاقطاعية . ثم أغضب كل مجرى حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامي المجر من بودا إلى فيينا (١٧٨٤) . وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية لغة للقانون والتعليم في المجر . وأغضب رجال المال والأعمال المجريين حين عطلت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا . ثم أنه صدم الكنيسة الكاثوليكية بتدخله في طقوسها التقاليدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية المجرية بالتكاثر من ٢٧٢ إلى ٧٥٨ في عام واحد (١٧٨٣ — ٨٤) . ووقعت المجر في فوضى اضطرت فيها الطبقات والقوميات واللغات والمذاهب .

وفي ١٧٨٤ قام فلاحو فلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية) بثورة عنيفة ضد سادتهم الاقطاعيين ، وأشعلوا النار في ١٨٢ قصرا ريفيا للاشراف وستين قرية ، وقتلوا ٤٠٠٠ مجرى ، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا كله برضى الامبراطور . وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل^(٧٥) ، ولكنه كان يحاول لإنهاء الإقطاع سلميا بالتشريع ، وما كان في وسعه أن يسمح للفلاحين بتعجل الأمور بالتحريق والتقتيل . وعليه فقد أرسل جنوده لقمع الثورة ، وأعدم مائة وخمسون من زعماء الثورة ، وهدأت الثورة . ولامه النبلاء على الثورة ، ولامه الفلاحون على فشلها . وتهاى المسرح لثورة قومية على الامبراطور في ١٧٨٧ .

وفي نوفمبر ١٧٨٠ ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضي الواطئة النمساوية . فزار تامورومونز وكورتراى وبيير ودنكرك وأوستند وبروج وغنت وأودنارد وانتوب ومالين ولوفان وبروكسل . وقام برحلة جانبية إلى الأراضي الواطئة المتحدة . إلى روتردام ، ولاهاى ولايدن وهارلم وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغذى مع الفيلسوف رينال) . وقد راعه التناقض بين رخاء هولنده والركود النسبي في الاقتصاد البلجيكي . وعزا هذا إلى نشاط رجال الأعمال الهولنديين وفرصهم ، وإلى إقفال شهر الشلت في وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (١٦٤٨) فعاد إلى

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجارة والإدارة والمالية والقضاء . وفي يناير ١٧٨١ عين أخته ماريا كرسطينا وزوجها ألبرت دوق ساكسشن حاكمين على الأراضي الواطئة النمساوية .

وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين اصلاحاته والامتيازات الموروثة التي تمتعت بها الطبقات العليا في هذا البلد التاريخي . فكان لإقليم من أقاليمها مثلاً ، وهو برابانت ، يملك مرسومًا للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف به « المدخل البهيج » . وكان يتوقع من من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم بين الولاء لهذا المرسوم ، وجاء في إحدى مواده إنه لو انتهك الحاكم أى مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق في أن يمتنعوا عن أداء أى خدمة له وأن يرفضوا طاعته . وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية ، في جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الراهنة ، وأن يطبق جميع قرارات مجمع ترنت . وأشبه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والاكليروس الأقاليم الأخرى . وعقد يوزف النيسة على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته . وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو ١٧٨١) قفل إلى فيينا .

وفي نوفمبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الديني على هذه الأقاليم . فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا ، وأغلق عدداً منها وصادر لإيراداتها . واحتج أساقفة بروكسل وانتورب ومالين ، ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على « باجيكا » لوائحه الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية . ثم سحب من الأساقفة حقهم في الاشراف على المدارس قائلاً « إن أبناء لاوى (أى الكهنة) ينبغي أن يكفوا عن احتكار عقول البشر »^(٧٦) . ثم ألغى الامتيازات الخاصة التي طالما تمتعت بها جامعة لوفان . وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محرة من السيطرة الأسقفية ، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكي للقسوسية خمس سنين^(٧٧) . وإذا كان توافقاً إلى تحسين حكومة الأقاليم ، فقد استبدل بالمجالس الاقليمية والمجالس الخاصة

الارستقراطية القديمة (يناير ١٧٨٧) مجلسا واحدا للإدارة العامة يرأسه مفوض يعينه الامبراطور ، ثم أحل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك ، من اقطاعية وإقليمية وكنسية . وأعلن أن جميع الأشخاص أيا كانت طبقتهم سواسية أمام القانون .

وانضم الاشراف وكثير من البورجوازيين إلى الأكليروس في مقاومة هذه القوانين . ولم يلف من عدائهم تلك الجهود العقيمة التي بذلها يوزف لإعادة فتح الشلت أمام تجارة المحيط . فقد رفضت هولندة الأذن بها ، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات ماري أنطوانيت . وفي يناير ١٧٨٧ أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات في دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس ، ومعنى ذلك في الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضي الواطئة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة . وتجاهل هر الإعلان ، وأمر بتنفيذ مراسيمه . ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلق اعتراضاتهم الاهتمام . ثم تفجر الهياج في عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرسطينا إلى الوعد بإلغاء الاصلاحات البغيضة (٣١ مايو ١٧٨٧) .

أين كان الامبراطور خلال هذا الجو الهائج المائج ؟

كان يغازل كاترين الثانية دبلوماسيا ، مؤمنا بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا في حربها مع الترك . وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرية في موجيليف (٧ يونيو ١٧٨٠) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبرج . وفي مايو ١٧٨١ وقعت النمسا وروسيا تحالفا تعهد فيه الطرفان بأن يحف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم .

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سينشل حركة الملك السبعيني فردريك ، عاد من جديد (١٧٨٤) يعرض الأراضي الواطئة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بدبلا عن بافاريا . وكان العرض مغريا للأمير ، ولكن فردريك استنفر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة . فحرك ثورة على

الامبراطور في المحر وبلجيكا ، وحرص دوق تزفايبروكن-الوريث لعرش بافاريا - على مقاومة هذا البذل ، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يتهده التوسع النمساوى . وأفلح في أن ينظم (٢٣ يوليو ١٧٨٥) بروسيا وسكسونيا وهانوفر وبرونزيك وماينز وهسي كاسل وبادن وساكسى فيمار وجوتا ومكلنبورج وانزباخ وأنهالت في حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أى توسع للنمسا على حساب أى دولة ألمانية . واستجد يوزف ثانية بشقيقته في فرساي ، وألقت ماري انطوانيت تعويلتها على لويس السادس عشر لتكسب تأييده لشقيقها ، ولكن فرجين وزير خارجية فرنسا حذر لويس من الموافقة ، واعترف يوزف بهزيمته أمام الثعلب العجوز الذى كان يوما ما معبود شبابه. ولما تلتق في أغسطس ١٧٨٦ نبأ موت فردريك أعرب عن أسف مضاعف : « بوصفى جندياً يؤسفى رحيل رجل عظيم كان صانع جيل في فنون الحرب، وبصفى مواطناً يؤسفى أن موته تأخر ثلاثين عاماً » (٧٨) .

أصبح الآن أمل الامبراطور الوحيد في توسيع ملكه معقوداً على الانضمام إلى كاترين في حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوروبية فيما بينهما . فلما خرجت قيصرية روسيا في يناير ١٧٨٧ لتزور وترهب فتوحها الجديدة في الجنوب دعت يوزف ليلتقى بها في الطريق ويرافقها إلى القرم . ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشن حرب صليبية موحدة ، وقال « إنما أريد سيليرنيا ، والحرب مع تركيا لن تنيلنها » (٧٩) . ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٥ أغسطس ١٧٨٧) وجد يوزف نفسه مكرها على خوضها ، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها في حرب « دفاعية » . يضاف إلى هذا أن الفرصة أتاحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا في الحرب اشتباكاً حرجاً لاسترداد الصرب والبوسنة ، وربما أيضاً للحصول على ثغر على البحر الأسود . وعليه ففي فبراير ١٧٨٨ أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد .

ولكن السويديين اعتمدوا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

بطرسبورج . واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها . فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين . وحين ذهب يوزف ليقود جيشه رآه وقد أضعفته الالمبالاة وفرار الجند ومرضهم ، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس وبجلاء العار . وسلم القيادة إلى لاودن ، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوى باستيلائه على بلغراد (١٧٨٩) . ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب وتباروا مع الأتراك في مذايح رهيبة تركت الأحياء منهم أكثر قليلا من أعدائهم . وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكري الذي طال ارتقاؤه ، وإذا ببروسيا وانجلترا والسويد وهولندا تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس . ووجد يوزف فجأة أن جميع أوروبا البروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده . وعاد ثانية يستنجد بفرنسا ، ولكن فرنسا كانت في ١٧٨٩ مشغولة بالثورة . ووقعت بروسيا التي كان يملك عليها فردريك وليم الثاني حلفاً مع تركيا (يناير ١٧٩٠) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الامبراطور في المجر والأراضي الواطئة النمساوية .

ورحبت المجر بهذه الدسائس لأنها كانت في ثورة سافرة على مراسيم يوزف في التجنيد الإجباري والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الديني . وفي ١٧٨٦ دعا لإمريش مالونجي المجرين إلى انتخاب ملك خاص بهم . وفي ١٧٨٨ دبر ريميغيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك وليم ملكاً على المجر ، وأفشى الكونتان استرهادتسي وكارولي سر المؤامرة للأمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن سبعة أعوام . وفي ١٧٨٩ وجه مجلس الطبقات المجرى إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا . ولما بلغ نأ الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال في أرجاء البلاد . أما يوزف الذي شعر بالموت يسرى في عروقه فلم يعد له من القوة ما يمكنه من الثبات على موقفه . وحشد أخوه ليوبولد على الاستسلام . وفي يناير ١٧٩٠ أعلن ما يأتى :

« لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة — أى المجر — إلى وضعها في ١٧٨٠

لقد أرسينا [الإصلاحات] بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم ، بيد أننا الآن أقنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرن النظام القديم . . . ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذا . . . وكذلك قانون الاقنات ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم » (٨٠) .

وفي فبراير رد تاج القديس اسطفانوس إلى بودا وكان يلقي الترحيب والابتهاج من الجماهير في كل خطوة على الطريق . وهدأت الثورة .

أما الثورة في الأراضي الواطنة النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحركة الثورية في فرنسا المجاورة . وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذي قطعته شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التي كرهوها . فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده باطلاق النار على أى حشود تقاومها ، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب في بروكسل (٢٢ يناير ١٧٨٨) وعدد غير معروف في أنتورب ولوفان . ودعا محام من بروكسل يسمى هنرى فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسليح والتطوع في جيش استقلال . وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابياً ، وأضيف إليه حافز لم يكن في الحسبان هونياً سقوط الباستيل ، وسرعان ما احتشد في الميدان عشرة آلاف من الوطنيين وعلى رأسهم قادة أكفاء . وفي ٢٤ أكتوبر أذاع إعلان « للشعب البرابانتى » خلع يوزف الثانى من منصب الحاكم عليهم . وفي ٢٦ أكتوبر هزمت قوة من الوطنيين الجنود النمساويين . واحتل الثوار المدينة تلو المدينة . وفي ١١ يناير ١٧٩٠ أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها ، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية . واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التى دوخت قيصر قبل ثمانية عشر قرناً . وأسعد إنجلترا وهولندا وبروسيا أن تعترف بالحكومة الجديدة . واستنجد يوزف بفرنسا ، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بخلع ملكها . وبدأ أن كل العالم القديم الذى عرفه يوزف يتمزق وينهار . ثم إن الموت كان يدعوه إليه .

٧ - الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة . فقد كانت المجر وبلجيكا تضطربان بالثورة ، والأتراك يتقدمون ، وجيشه متمرداً ، وشعبه من النمساويين الذين أحبوه يوماً ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة . وندد به القساوسة ملحداً ، وكرهه النبلاء لأنه حرر أقدانهم ، ونصايح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض ، وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً ، ولعنت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التي سببتها الحرب . وفي ٣٠ يناير ١٧٩٠ ألغى يوزف جميع الإصلاحات التي أمر بها منذ وفاة ماريان تريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلماً ، ولم يبق منها إلا على إلغاء القنية .

ترى لم فشل ؟ لقد قبل بملء الإيمان وبصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذي يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتطوير والإصلاح . وقد أوقى التعليم الجيد ، أما النية الحسنة فقد شوهاها حبه للسلطة ، وأخيراً غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسه لإجلال الفلسفة على العرش . كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك ، وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته . وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور في وقت واحد ، وفي عجلة كبيرة ، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قراراته المربك . ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع ، وحاول أن يحقق في عشر سنين ما يحتاج تحقيقه إلى قرن من التعليم والتغيير الاقتصادي . والشعب أساساً هو الذي خذله . فقد تعمقت جذوره وترسخت في امتيازاته وأهوائه ، في تقاليده وكنائسه ، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزاً لا حول له في مثل هذه الإصلاحات العسيرة . وآثر أفراد كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبهم . ولم يستطيعوا وضع ثقتهم في رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبية ، ويضايق أساقفتهم ، ويلذل باباهم .

وطوال هذه السنوات المرهقة بعد ١٧٦٥ كان بدنه متمرداً على إرادته :

فلم تقو معدته على هضم سرعة عدوه ، وقد حذرته مرارا ودون جدوى بحاجته إلى الراحة . وألذره الأمير دلين بأنه يقتل نفسه ، وكان عليا بهذا ، ولكنه قال « وما الذى أستطيعه ؟ أننى أقتل نفسى لأننى لا أستطيع أن أستنفر الآخرين ليعملوا »^(٨١) . وكانت رثاه مريضتين ، وصوته ضعيفاً مكتوماً ، وكان يشكو الدوالى وتدميع عينيه ، والحمرة ، والبواسير . . . وقد عرض نفسه لكل الأجواء فى حربه مع الترك ، وأصابته حمى الربيع كما أصابت الألوف فى جيشه . وكان لا يقوى على التنفس أحياناً ؛ « أن قلبى يخفق لأقل حركة »^(٨٢) . وفى ربيع ١٧٨٩ بدأ يتقيأ دماً — تقريباً ثلاث أوقيات فى الدفعة كما كتب لأخيه ليوبولد . وفى يونيو أصيب بالأم عنيقة فى كليتيه . « لأننى أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا آكل لحماً ولا خضراً ولا مستحضرات ألبان ، وعذائى الحساء والأرز »^(٨٣) ثم طلع له خراج شرجى وكان لا بد من شقه هو وبواسيره بمبضع الجراح . وأصيب بالاستسقاء . فدعا ليوبولد ليعضد ويتسلم شئون الحكم . وقال : لست آسف على التخلي عن العرش . كل ما يحزننى أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه »^(٨٤) . وكتب إلى الأمير دلين « لقد قتلتى وطنك . كان الاستيلاء على عنت عذابي وخسارة بروكسل هى موتى . . . اذهب إلى الأراضى الواطئة وأعددها إلى ملكها ، فإن لم تستطع فابق هناك . لاتضع بمصالحك من أجل فانت أب لأطفال »^(٨٥) . ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمه ولد « سيدات الخمس اللاتي أطلقن عشرين »^(٨٦) . وألف قبريته التى قال فيها : « هنا يرقد يوزف ، الذى لم يستطع أن ينجح فى شيء »^(٨٧) . وتناول فى استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية الأخيرة وطلب الموت وفى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ استجابت السماء وكان يومها فى الثامنة والأربعين . واغتبطت فيينا برحيله وقدمت الحجر الشكر لله .

أكان لإنسانا فاشلاً ؟ فى الحرب نعم ، بلا جدال . وقد وجد ليوبولد الثانى (١٧٩٠ — ٩٢) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصالح مع تركيا (٤ أغسطس ١٧٩١) على أساس الوضع السابق للحرب . ولإذ عجز عن تهدئة الأشراف المجريين فقد ألغى منح الحرية للأقنان . أما فى بوهيميا والنمسا فقد احتفظ بمعظم الإصلاحات ولم تلغ مراسيم التسامح ، ولم تفتح

الأديرة التي أغلقت ، وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة . وكان التشريع الاقتصادي قد حرر التجارة والصناعة وحفزهما . وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية ، وشاركت في حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المنوعة .

وكان يوزف قد كتب إلى كاوندز يقول « إننى لإقتناعى العميق بنزاهة نياي أن أرجو أن يبحث الخلف بعد موتى أعمالى وأهدانى قبل أن يحكم على وسيكون أميل وأنزه ومن ثم أكثر انصافاً لى من معاصرى » (٨٨) .

وقد اقتضى هذا البحث الخلف ردحا طويلا ، ولكنه تعلم فى النهاية أن يرى فيه — رغم أسفه على أو تقراطيته وتعجله — أكثر « المستبدين المستنيرين » جرأة وتطرفاً وإن كان أقلهم حكمة . . وبعد أن ولى رد الفعل الذى جاء فى عهد مترنيخ ، أعيدت إصلاحات يوزف الثانى واحداً بعد الآخر . ووضع نوار ١٨٤٨ لإكليلا من الزهور على قبره اعترافاً بفضله .



الفصل الرابع عشر

إصلاح الموسيقى

إننا لانتصور بسهولة يوزف الثانى موسيقيا وهو الرجل المتأهب للمعارك ومع ذلك يقال لنا أنه تلقى « تعليماً موسيقياً دقيقاً شاملاً » وإنه كان صاحب صوت جدير وخيم ، وكان يستمع إلى حفلة موسيقية كل يوم تقريباً ، وكان عازفاً ماهراً على الفيولنشيللو والفيولا والكلافير ^(١) . وكان كثير من النبلاء موسيقيين ، وأكثر منهم رعاة للموسيقى . وحذت الطبقات الوسطى حذوهم ، فكان فى كل بيت بيان قيثارى (هاربيسكورد) وتعلم كل إنسان أن يعزف على آلة موسيقية ، وعزفت الثلاثيات والرباعيات فى الشوارع ، والحفلات الموسيقية فى المتنزهات ومن زوارق مضاءة على قناة الدانوب فى عيد القديس يوحنا . وازدهرت الأوبرا فى البلاط وفى مسرح الأوبرا القومى الذى أنشأه يوزف الثانى فى ١٧٧٨ .

وارتقت فيينا إلى مقام الصدارة فى مطالع القرن التاسع عشر بوصفها العاصمة الموسيقية لأوروبا لأنها جمعت فى آخريات القرن الثامن عشر بين تقاليد ألمانيا وإيطاليا الموسيقية المتنافسة . فمن ألمانيا جاءت البوليفونية ، ومن إيطاليا الميلوديا ، ومن ألمانيا جاءت الزنجشيل — وهو مزيج من الدراما الهزلية والحوار المنطوق والموسيقى العارضة والأغاني الشعبية ، ومن إيطاليا جاءت الأوبرا الهازلة ، وتحالف الشكلاى فى فيينا كما نرى فى أوبرا موتسارت « الاختطاف من السراى » . ويمكن القول عموماً أن التأثير الإيطالى غلب الألمانى فى فيينا ، فلمد غزت إيطاليا النمسا بالألحان كما غزت النمسا ستملى إيطاليا بالسلاح . وفى فيينا كانت الأوبرا الجادة إيطالية فى أكثرها . إلى أن جاء جلوك . وجلوك نشأ على الموسيقى الإيطالية .

١ — كرسطوفر فليبالت جلوك ١٧١٤ — ٨٧

ولد في إيرازباخ من أعمال البالاتينات العليا ، لحراج كاثوليكي انتقل بأمرته في ١٧١٧ إلى نويشلوس ببوهيميا . وتلقى كرسطوفر في المدرسة اليسوعية بكمونتاو تعليماً في الدين واللاتينية والآداب القديمة والترتيل والكنان والأرغن والبيان القيثاري . فلما رحل إلى براغ ١٧٣٢ تلقى دروساً في الفيلولنشلو ، وتعيش بالترتيل في الكنائس ، والعزف على الكمان في المراقص ، وإحياء الحفلات الموسيقية في المدن المجاورة .

وكان كل صبي ذكي في بوهيميا ينجذب إلى براغ ، واستطاع نفر من ألمهم شق طريقهم إلى فيينا . واستهدف جلوك الحصول على وظيفة في أوركستر الأمير فرديناند فون لوبكوفتس . وفي فيينا استمع إلى الأوبرات الإيطالية وأحس جاذبية إيطاليا القوية . وأعجب الأمير فرانزشكو مازي بعزفه ، فدعاه إلى ميلان (١٧٣٧) . ودرس جلوك التأليف الموسيقي على يد سامارتنى ، وتعلق بالأساليب الإيطالية في الموسيقى ، وانتهجت أوبراته الأولى (١٧٤١—٤٥) نهج الطرائق الإيطالية ، وقاد حفلاتها الافتتاحية في إيطاليا . وأتته هذه الخطوات الموافقة بدعوة لتأليف وإخراج أوبرا لمسرح هيماركت في لندن .

وهناك قدم أوبرا *La caduta degiganti* (سقطعة العملاق) (١٧٤٦) . ورفضت مصحوبة بمدح هزيل ، وقال هندل العجوز اللفظ أن جلوك لا يعرف « عن الكونترابنت أكثر مما يعرف طباشخي »^(٢) ولكن الطباخ كان صاحب صوت باص — جهير — حسن ، ولم يكتب لجلوك أن تعتمد شهرته على الكونترابنت . والتقى برنى بجلوك وقال في وصفه « إن له مزاجاً في شراسة مزاج هندل . ويشوّه الجدرى تشويها رهيباً .. وله جبهة كريهة »^(٣) . وأذاع جلوك على الجماهير — ربما لموازنة ميزانيته — أنه سيقدم « كونشرتو على ست وعشرين كأس شراب ضببطت (بملئها إلى مستويات مختلفة) بماء نبع تصاحبها فرقة موسيقية كاملة (أوركسترا) ، لأن هذه آلة موسيقية جديدة من اختراعه يعزف عليها كل ما يمكن عزفه على كمان أو بيان قيثاري » . ومثل هذه

« الهارمونيكا الزجاجية أو الكؤوس الموسيقية » كانت قد أدخلت في دبلن قبل سنتين . واستحضر جلوك الأنغام بلمس حواف الكؤوس بأصابعه المبللة ، واستهوى الحفل (٢٣ ابريل ١٧٤٦) أصحاب الفضول ، فكرر بعد أسبوع ،

وغادر جلوك لندن قاصدا باريس في ٢٦ ديسمبر وهو مبتئس بهذا النجاح . وهناك درس أوبرات رامو الذي كان قد اتجه إلى الإصلاح بإدماج الموسيقى والباليه بالحركة . وفي سبتمبر قاد الأوبرات في هامبورج وأنصل في علاقة غرام مع مغنية إيطالية وأصيب بالزهرى . وكان شفاؤه بطيئا جدا ، حتى إنه حين ذهب إلى كوبنهاجن كان عاجزاً عن قيادة الأوركسترا . ثم عاد إلى فيينا ، وتزوج ماريان برجيا (١٥ سبتمبر ١٧٥٠) ابنة تاجر نعى . وقد منحه صداقها الأمن المالى فاتخذ بيتا في فيينا، واختفى عن الأنظار في استجمام طويل .

وفي سبتمبر ١٧٥٤ عينه الكونت مارتشالو دوراتزو قائدا للأوركسترا نظير ألني فلورن في العام ليلحن للبلاط . وكان دوراتزو قد مل الأوبرا الإيطالية التقليدية، فتعاون مع جلوك في دراما موسيقية سميت L'innocenza giustificata (البراءة المبررة) لم تكن فيها القصة مجرد تكتة للموسيقى ، ولا الموسيقى مجرد تجميع الألحان، إنما الموسيقى تعكس الحركة ، والألحان حتى الكوارس — تدخل في الحبكة دخولا فيه شيء من المنطق . وهكذا كانت حفلة الافتتاح (٨ ديسمبر ١٧٥٥) البشير والنتاج الأول للإصلاح الذي يقرن التاريخ بينه وبين اسم جلوك . وقد رأينا في موضع سابق مساهمات بنديتو مارتشالو وجوملي وترايتا في هذا التطوير ، والنداء الذي وجهه روسو وفولتير والموسوعيون لربط أوثق بين الدراما والموسيقى . وكان مناستازيو قد أعان عليه باصراره في إباء على أن الموسيقى يجب أن تكون خادمة للشعر^(٤) . وربما تأثر جلوك بشغف فنكلمان بأحياء المثل الإغريقية في الفن ، وكان الملحنون يعرفون أن الأوبرا الإيطالية بدأت كمحاولة لإحياء الدراما الكلاسيكية التي أخضعت موسيقاها للتمثيلية وكان جان — جورج نوفيرون أثناء ذلك ينادى (١٧٦٠) بالتسامى بالباليه من مجرد الرقص الإيقاعى إلى الإيماء

الدرامى المعبر عن « عواطف كل شعوب الأرض وعاداتهم وتقاليدهم ومراسمهم وأزيائهم »^(٥) . ونسج جلوك هذه العناصر كلها فى شكل أوبراوى جديد بفضل ما أوتى من كيمياء العبقرية العجيبة .

ان من أسرار نجاح المرء أن يغتنم الفرصة إذا سنحت . فما الذى حدا بجلوك إلى هجر نصوص أوبرات متاستازيو ويتخذ رانيريو ذا كالتسايجى شاعرا لأوبرا « أورفير وأورديتشى » ؟ لقد ولد الرجلان فى سنة واحدة (١٧١٤) ولكن فى مكانين مختلفين - فقد ولد كالتسايجى فى ليفورنو . وبعد مغامرات فى الحب والمال وفد على على باريس ونشر هناك ترجمة لـ « الشعر الدرامى » لمتاستازيو (١٧٥٥) وقدم لها بـ « رسالة » أعرب فيها عن أمله فى ظهور نوع جديد من الأوبرا - « كل مبهج يكون خلاصة التفاعل بين كورس كبير وبين الرقص والحركة التمثيلية التى يتحد فيها الشعر والموسيقى بطريقة رائعة »^(٦) . فلما انتقل إلى فيينا أثار اهتمام دورانتزو بأفكاره عن الأوبرا ، ودعاه الكونت ليكتب نصا لأوبرا ، فكتب . « أورفيو وأورديتشى » . وعرض دورانتزو القصيدة على جلوك ، فرأى فى الحكمة البسيطة الموحدة موضوعا يمكن أن يبتعث كل طاقاته .

وقدمت النتيجة لفينا فى ٥ اكتوبر ١٧٦٢ . واستطاع جلوك أن يجند لدور أورفيوس أكبر المغنيين الحصيان ذوى الصوت الكونترالتو وهو جاتيانو جواديني . أما القصة فقد عهده قدم الأوبرا ، وقد استعملها أكثر من عشرة كتاب لنصوص الأوبرا بين ١٦١٠ ، ١٧٦١ ، واستطاع جمهور السامعين تتبع الحركة دون أن يفقهوا الإيطالية . واستغنت الموسيقى عن السرد الذى لا يصاحبه العزف ، والألحان الأساسية المعاده ، (da capo) ، والزخارف والمحسنات ، وفيما عدا ذلك نهجت نهج الأسلوب الإيطالى ولكنها سمت الى آفاق غنائية فيها من النقاء ما ندر أن بلغه أحد من قبل ولا من بعد . وصرخة اليأس المنبعثة من أورفيوس بغد أن أفقده الموت حبيبته مرة ثانية ؟ Che farò sanz Euridice « ماذا أفعل بدون أورديتشى » ؟ ما تزال أجمل الحان الأوبرا قاطبه ، ونحن

حين نسمع هذا اللحن ، ولحن الفلوت الحزين في «رقصة الأرواح المباركة»
تعجب كيف وجد هذا البوهيمي العاصف هذه الرهافة في روحه .

ولم تلق أورفيو استقبالا حارا في فيينا ؛ ولكن ماريا تريزا تأثرت
بها تأثراً عميقاً وأرسلت الى جلوك صندوق سموط محشوا بالدوقاتيات .
وما لبث أن اختبر لتعليم الغناء للارشيدوقة ماريا انطونيا . وكان أثناء
ذلك مكباً هو وكازابيجي على تأليف أوبرا عندها البعض أكمل ما ألفاه
من أوبرات ، وهي «السيست» . وقد اعلن المؤلف في مقدمة النسخة
المنشورة كتبها كلزايبيجي لجلوك مبادئ اصلاحه للابوبرا . قال :

« حين اضطلعت بكتابة الموسيقى لألسيست صممت على أن أجردها
تماماً من كل تلك المساوئ . . . التي طالما شوهت الأوبرا الإيطالية . . .
وقد جهدت لأقصر الموسيقى على وظيفتها الحقيقية وهي خدمة الشعر
بالتعبير وبمتابعة مواقف القصة دون قطع الحركة المسرحية أو خنقها بحشو
لا غناء فيه من التعليقات . ولم أر أن من واجبي أن أمر مرور الكرام
بالقسم الثاني من لحن ما ، ربما كانت كلماته آخر وأهم الكلمات . . .
لكي اعيد بانتظام . . . كلمات القسم الأول . . . وقد احسست أن
الإفتتاحية يجب أن تحيط المتفرجين بطبيعة الحركة التي ستقدم لهم وتكون
— إن شئت — خلاصتها . . . وأن الآلات الأوركسترالية يجب أن تدخل
متناسبة مع أهمية الكلمات وقوتها ولا تترك ذلك التناقض الحاد بين اللحن
والسرد في الحوار . . . الذي يشوه بشكل غشوم قوة الحركة وحرارتها . . .
وقد آمنت بأن جهدي الأعظم يجب أن ينصرف الى البحث عن البساطة
الجميلة (٧) » .

وباختصار ، يجب أن تخدم الموسيقى الدراما وتزيد من حدتها ،
لا أن تجعل منها مجرد تكتة للعروض الصوتية أو الأركسترالية . وقد عبر
جلوك عن الأمر تعبيراً فيسه غلو بقوله « انني أحاول أن انسى انني
موسيقى (٨) » . وأن عليه ان يندمج مع كاتب النص في تأليف « دراما

بالموسيقى . « وقصة الست تمتنع قليلا على التصديق ، ولكن جلوك أنقذها بافتتاحية قائمة سبقت بتصوير الحركة المأسوية وأفضت إليها ، وبمشاهد عاطفية مؤثرة بين الست وأطفالها ، وبدعائها لآلهة العالم السفلى في لحن «أرباب ستاكس» ، وبالكورالات الجلييلة والمجموعات الفخمة . واستمع جمهور فيينا لهذه الأوبرا في ستين حفلة بين الافتتاح في ١٦ ديسمبر ١٧٦٧ و ١٧٧٩ . ولكن النقاد وجدوا فيها أخطاء كثيرة ، أما المغنون فشكوا من أنها لم تفسح لهم المجال الكافي لعرض فنهم .

وبذل الشاعر . والمؤلف محاولة ثانية في أوبرا «باريز وهيلانه» (٣٠ نوفمبر ١٧٧٠) . وقد اقتبس كلزايبجى الحبكة من أوفيد الذى جعل من قصة باريز وهيلانه مغامرة غرامية شخصية بدل أن تكون فاجعة دولية . وعرضت الأوبرا عشرين مرة في فيينا ، ومرة في نابلى ، ولم تعرض في غيرهما . وتحمل كلزايبجى تبعة هذا الفشل النسبى ، وطلق كتابة النصوص للأوبرات . وراح جلوك يبحث عن تربة أخرى يلقى فيها بذرتة . وأشار عليه صديق في السفارة الفرنسية في فيينا يدعى فرانسوا دوى روليه أن يقدم لجماهير باريس تحية يرحبون بها ، في صورة أوبرا فرنسية يضع موسيقاها مؤلف ألماني . وعلا باقتراحات لديدرو وألجارتى أشارا فيها بأن تمثيلية راسين «إفجينيى» تتيح موضوعا مثالياً للأوبرا صاغ دوروليه التمثيلية نصا لأوبرا وقدمها لجلوك . . ورأى جلوك مادتها متفقة تمام الاتفاق مع ذوقه فمكف على العمل من فوره .

ورغبة في تمهيد الطريق إلى باريس وجه دوروليه خطابا إلى مدير دار الأوبرا نشر في المريكز دفرانس أول أغسطس ١٧٧٢ - ذكر فيه أن «سيو جلوش» كان ساخطا أشد السخط على الزعم بأن اللغة الفرنسية لاتتلائم مع الموسيقى ، وأنه اقترح إثبات العكس بـ «إفجينيى في أوليد» . ولطف جلوك من غضب روسو المتوقع (وكان يومها يعيش منزويا في باريس) بأن أرسل إلى المريكز خطاباً (أول فبراير ١٧٧٣) أعرب فيه عن أمله في التشاور مع روسو حول «الوسيلة التى أنوى اتخاذها لإخراج مرسيقى

صاحبة لجميع الأمم ، وإزالة فوارق الموسيقى الوطنية السخيفة^(٩) . واستكمالا لهذا الإعلان الذى يبلغ الغاية فى البراعة ، استعملت ماري الطوانيت - التى لم تنس استاذها القديم - نفوذها فى دار الأوبرا . ووافقت مديرها على اخراج « افجيني » ، وحضر جلوك إلى باريس ، وألزم المغنين والأوركسترا ببروفات بلغت من الشدة والانضباط حداً ندر ان عرفوه من قبل . وتبين ان صوفى أرنو كبيرة المغنيات متمردة على أوامره فهدد بالإقلاع عن المشروع . وبدا ان جوزف لجرو قد أضعفه المرض إلى حد منهه من تمثيل دور الجبار أخيل : « أما جانتان فسترى » إله الرقص وقتها ، فأراد ان يكون نصف الأوبرا باليه^(١٠) . وشد جلوك شعره ، أو قل باروكتته ، وأصر على موقفه ، وانتصر . وكانت حفلة الافتتاح (١٩ ابريل ١٧٧٤) حدث العالم الموسيقى المثير . وقد نحس بما كانت عليه العاصمة الجياشه من هياج إذا قرأنا خطاب ماري انطوانيت لأختها ماريا كرسيتينا فى بروكسل . قالت :

« انه نصر عظيم ياعزيزتى كرسيتين ، إن الحماسة تجرفنى ، ولم يعد الناس يتكلمون على شيء غير هذا . وكل الرؤس تجيش نذيجة لهذا الحدث . . . فهناك انشقاقات ونزاعات أشبه بالنزاع الدينى . ومع اننى أعلنت فى البلاط أننى فى صف هذا العمل الملهم ، فان هناك تحريات ومناقشات شديدة الحيوية . أما فى المدينة فيبدوا ان الحال أسوأ من هذا^(١١) . »

ورد روسو بحجة جلوك باعلانه أن « أوبرا مسيو جلوك قلبت كل أفكاره رأساً على عقب ، وقد اقتنع الآن أن اللغة الفرنسية تستطيع أن تنسجم كأي لغة أخرى مع الموسيقى القوية المؤثرة الحساسة^(١٢) . وكانت الإفتتاحية رائعة حتى ان الجمهور فى الليلة الأولى طالب باعادتها ووجه النقد للالحان لأنها مسرفة فى الطول ، ولأنها تقطع سير الدراما ، ولكنها تميزت بعمق مركب فى الشعور تفردت به موسيقى جلوك . وقد قال الأبييه أرنو عن أحدها وهو « أجائمنون » بمثل هذا اللحن قد يؤسس المرء ديناً^(١٣) .

ونافس جلوك الآن لويس الخامس عشر المحتضر محرراً لحديث باريس . وكان بدنه الضخم القوى ووجهه الأحمر وانفه الكبير يشار إليها كلها حينما ذهب . واصبح طبعه الغضوب موضوعا لعشرات النوادر . ورمم له جروز صورة ظهرت فيها طبيعته الطيبة المرححة من خلف خطوط النضال والتوتر . وراح يأكل كما يأكل الدكتور جونسون ، ويسرف في الشراب إسرافا لا يميزه فيه غير بوزويل ، ولم يتظاهر باحتقار المال ، وكان يبادر للاشتراك في الثناء على عمله . وقد عامل الحاشية وعامة الناس معاملة واحدة باعتبارهم أدنى منه قدرا ، وكان ينتظر من كبار النبلاء ان يتناولوه باروكته ومعطفه وعصاه ، ولما قدم اليه أحد الأمراء فلم يبرح جلوك م ه علل سلوكه هذا بقوله « لقد ألفت الناس في ألمانيا إلا يقوم الواحد منهم إلا لمن يحترمه (١٤) . »

وكان د. الأوبرا قد أنذره بأنه في حالة نجاح « افجينى وأوليد » ، فسيضطر جلوك إلى كتابة خمس أوبرات أخرى في تعاقب سريع ، لأن افجينى ستطرد جميع الأوبرات الأخرى من المسرح . ولم يهرب الانذار جلوك لأنه اعتاد ان يقطع اجزاء من مؤلفاته القديمة ويحشرها في الجديدة وترجمت له « اورفيو واوريديتشي » إلى الفرنسيه ، ولما لم يجد مغنيا كفوا ذا صوت رنان « كونترالتو » في متناوله ، اعاد كتابة دور اورفيو ليحجرو ذى الصرت الصارخ (التينور) . اما صوفى أرنو التى لانت عريكها الآن فقد لعبت دور اوريديتشي . ونجحت حفلة الافتتاح الباريسية نجاحا ادفا صدره . وجادت ماري انطوانيت ، ملكة فرنسا الآن ، بمعاش قدره ستة آلاف فرنك لـ « عزيزى جلوك » (١٥) . وقفل إلى فيينا ورأسه بطاول النجوم .

وفي مارس ١٧٧٦ عاد إلى باريس بترجمة فرنسية لألسيست ، أخرجت فلم تلق غير استحسان متوسط في ٢٣ ابريل . أما جلوك الذى تعود النجاح فقد استجاب لهذه النكسة بكبرياء غاضبة وقال « ليست ألسيست من نوع الأعمال التى تسر الجمهور سرورا مؤقتا ، أو التى تسهرهم لجلتها .

فليس للزمن عليها سلطان . وأنا أزعـم أنها ستسر السامعين نفس السرور بعد مائتي عام إذا لم يطرأ على اللغة الفرنسية تغيير» (١٦) . وفي يونيو عاد إلى فيينا ، وسرعان ما بدأ يلحن النص الذي كتبه مارمونتيل من جديد لمسرحية «رولان» التي سبق ان كتب نصها كينو .

وبدأت الآن أشهر المعارك في تاريخ الأوبرا . ذلك أن إدارة الأوبرا كانت أثناء هذا قد كلفت نيكولوبتشيني النابولي بتلحين النص ذاته ، وأن يحضر إلى باريس ويخرجه . وحضر (٣١ ديسمبر ١٧٧٦) ، فلما انيـه جلوك بهذا التكليف أرسل إلى دروليه الذي كان بباريس آنذاك خطابا يضطرم بغضبة أولمبية :

«لقد تلقيت للتو خطابك الذي . . . ناشدني فيه مواصلة تلحين أوبرا «رولان» . ولكن هذا لم يعد ممكنا ، لأنني حين سمعت ان إدارة الأوبرا التي لم تجهل انني كنت ألحن رولان كلفت بهذا العمل ذاته مسيوبتشيني ، أحرقت كل ما كتبت منه ، ولعله لم يكن يساوى الكثير . . . وأنا لم أعد رجلا يدخل في منافسة ، وسكون للمسيو بيتشيني ميزة كبيرة جدا على لأنه بغض النظر عن كفايته الشخصية وهي بلاشك عظيمة جدا — سيكون له ميزة الجدة . . . وأنا واثق ان سياسيا معينا من معارف سيقدم الغداء والعشاء لثلاثة ارباع باريس ليكسب له انصارا» (١٧) .

ولأسباب ليست الآن واضحة نشر هذا الخطاب . . . الذي كان من الواضح انه خطاب خاص — في «الأنية ليترير» عدد فبراير ١٧٧٧ فأصبح عن غير قصد إعلاناً للحرب .

ووصل جلوك إلى باريس في ٢٩ مايو ومعه أوبرا جديدة هي «أرميد» والتقى المؤلفان الغريمان على الغداء ، فتعانقا وتحادثا حديثاً ودياً . وكان بتشيني قد حضر إلى فرنسا دون ان يخطر له انه سيكون بيدقاً في مواءمة حزبية قدرة وتجارة أوبرالية ، وكان هو شخصياً شديد الإعجاب بفن جلوك . ولكن الحرب مضت في الصالونات والمقاهي ، وفي الشوارع

والبيوت ، رغم ما بين الغريمين من مودة ؛ وروى تشارلز بېرنى أنه « مامن باب فتح لزاثر دون أن يوجه إليه هذا السؤال قبل يسمح له بالدخول : سيدى أنت من أنصار بېتشينى أم من انصار جلوك^(١٨) ؟ » أما مارمونتيل ودالامبير ولاهارب فقد تزعموا الحزب المناصر لبېتشينى والأسلوب الايطالى ، وأما الأبيه أرنو فقد دافع عن جلوك فى « اعلان للإيمان بالموسيقى » ، وأما روسو ، الذى كان قد افتتح الحرب بمقاله المناصر للموسيقى الإيطالية « فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) ، فقد ناصر جلوك .

وأخرجت أرميد فى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ . وكان موضوعها وموسيقاها رجوعا إلى أشكال رسخت قبل اصلاح جلوك ، وقد اقتبست القصة من تاسو ، ومجدت رينالد والمسيحى وأرميدا الوثنية ، وكانت الموسيقى موسيقى لوللى معادة برقة رومانسية ، وأما الباليه فباليه نوفر فى أروعه ، واعجب هذا المزيج الجمهور فاستقبل الأوبرا استقبالا حسنا ، ولكن انصار بېتشينى نددوا بأرميدا قائلين إنها ليست سوى صقل للوللى ورامو . وانتظروا فى شوق أوبرا رولان الذى كان يلحنها حامل لوائهم . وأهداها بېتشينى إلى مارى انطوانيت مشفوعة باعتذاراته : لقد كنت فى حاجة لـ لكل شجاعى وأنا مزدرع ومعزول فى بلد كل شيء فيه جديد على تفت فى عضدى مئات العقبات المعترضة عملى ، ولقد فارقتنى شجاعى^(١٩) . وكان أحيانا يوشك ان يكف عن النضال ويعود إلى ايطاليا . ولكنه ثابر ، ووجد عزاء فى نجاح حفلة العرض الأولى (٢٧ يناير ١٧٧٨) . وبدأ أن الانتصارين يلغى أحدهما الآخر . وواصلت الحرب السافرة احتدامها . وقد رأتها مدام فيجييه لبرون رأى العين فقالت « كانت ساحة القتال العادية هى حديقة الباليه رويال . فهناك كان انصار جلوك وبېتشينى يتشاجرون مشاجرات بلغ من عنفها أنها أفضت إلى مبارزات كثيرة .

وعاد جلوك إلى فيينا فى مارس ، وتخلف فى فرتية ليرى فولنير . ثم صعب معه إلى بيته نصين أولها كتبه نيكولا — فرانسوا جيار وبناه على مسرحية أوربيدس « افجينى فى تاورس » . أما الثانى فسكتبه البارون

جان - باتيست وتشودى عن موضوع الصدى ونارسييس . وعكف على الكتابين فما حل خريف ١٧٧٨ حتى شعر أنه على استعداد لخوض معركة أخرى . وهكذا نجده فى نوفمبر فى باريس مرة أخرى ، وفى ١٨ مايو ١٧٧٩ قدم فى دار الأوبرا أوبرا « أفجيني فى تاوريد » التى يعدها معظم الطلاب أعظم مؤلفاته الموسيقية . وهى قصة قاتمة ، وكثير من موسيقاها شكاة رهيبة ، ونحن نمل أحيانا لنواح أفجيني العالى . ولكن حين ينتهى العرض ويسكت سحر الموسيقى والأبيات عقلنا الشكاك ندرك اننا استمعنا إلى دراما عميقة قوية . وقد لاحظ معاصر ان فيها فقرات كثيرة رائعة ، أما الأبييه أرنو فقال « ان فيها فقرة رائعة واحدة فقط ، هى العمل كله ^(٢١) » . واستقبل الجمهور العرض الأول للأوبرا بخماسة بالغه .

على ان جلوك تحدى الآلهة ، فتعجل بتقديم أوبراه الثانية « الصدى ونارسييس » (٢١ سبتمبر ١٧٧٩) . ولكننا فشلت ، فغادر المايسترو باريس فى غضبة مضرية معلنا أنه شيع من باريس وأنه لن يكتب مزيدا من الأوبرات . ولوأطال مكثه فيها لسمع « أفجيني فى تاورند » . أخرى أخرجهما بتشيى بعد عامين من الجهد الشاق . واستقبل الجمهور العرض الأول (٢٣ يناير ١٧٨٠) استقبالا حسنا ، ولكن فى الليلة الثانية كانت الأنسة لاجير التى غنت دور أفجيني مخمورة بصورة واضحة ، حتى لقد حطمت صوفى أرنو العرض بتلقيها الأوبرا « أفجيني فى شمبانيا ^(٢٢) » . وانهى هذا الحادث المؤسف الحرب الأوبرالية ، واعترف بيتشيى بهزيمته إعترافا جحيلا .

أما جلوك فقد حلم فى فيينا بانتصارات أخرى . وفى ١٠ فبراير ١٨٨٠ كتب إلى كارل أوجست دوق ساكسى - فيمار راعى جوته : لقد شذت كثيرا ، وقد بعثت خير طاقات ذهنى على الأمة الفرنسية . ولكنى أشعر بدافع باطنى يدفعنى لكتابة شىء لبلدى ^(٢٣) . ثم لحن بعض أناشيد كلويشتوك التى مهدت الطريق لأجمل الليدات . وفى ١٧٨١ أصيب بالنقطة ، ولكن كان عزاء له استقبال فيينا لأفجيني فى تاورس واحياء

«أورفيو والست» . وفي ١٥ نوفمبر ١٧٨٧ بينما كان يستضيف جماعة من أصدقائه تعاطى في جرعة واحدة قدحا من مسكر قوي كان محظورا عليه . وأصابته تشنجات لم تمهله غير ساعات . وحاول بتشيني وهو في نابلي دون جدوى جمع المال لأحياء حفلات موسيقية سنوية تذكارا لمنافسه^(٢٤) . ذلك ان ايطاليا التي كانت تحب الميلوديا لم تأبه باصلاحات جلوك : ونهج موتسارت نهج الإيطاليين ، ولا بد أنه صعب لفكرة تسخير الموسيقى للشعر . أما هرذر الذي جاء في ختام هذه الفترة الخلاقة والذي رجع البصر اليها بمعرفة محدودة بباخ وهايدن وموتسارت فقد وصف جلوك بأنه أعظم ملحنى القرن قاطبة^(٢٥) .

٢ - يوزف هايدن : ١٧٣٢ - ١٨٠٩

من الأيسر علينا أن نحب هايدن ، فهأنا رجل لم يتشاجر مع إنسان غير زوجته ، رجل يشيد بمنافسيه كأنهم أصدقاؤه ، رجل أشرب موسيقاه بالمرح ، وكان بمزاجه الفطري عاجزا عن المأساة .

ولم يحبه الحظ شرف المولد . فقد كان أبوه صانع عربات ونقاشا في روراو ، وهي مدينة صغيرة على الحدود بين النمسا والمجر . أما أمه فكانت طاهية لأشراف هاراش وكان أبواه كلاهما من أصل سلافي كرواني لا ألماني . وكثير من الحان هايدن تردد صدى الأغاني الكرواتية . وكان الثاني بين اثني عشر طفلا مات ستة منهم في مستهل طفولتهم . وقد عمده باسم فرانتس يوزف هايدن ، ولكن كان من المألوف يومها أن ينادى الأطفال باسمهم الثاني .

فلما ناهز السادسة أرسل ليعيش مع قريب يدعى يوهان ماتياس فرانك ، صاحب مدرسة في هاينبورج . هناك كان يومه يبدأ بدروس في الفصل من الساعة السابعة إلى العاشرة ، وبلى ذلك القداس ، ثم الرجوع للبيت لتناول الغداء ، ثم دروس من الثانية عشرة إلى الثالثة ، ثم دروس في الموسيقى . وقد درب على التدين ولم يفقده قط . وكانت أمه تتوق إلى

تخريجه قسيساً ، وأحزنها حزناً عميقاً اختباره حياة الموسيقى التى لا ضمان لاستقرارها . على أن فرانك شجع ميل الطفل للموسيقى وعلمه كل ما فى طاقته أن يعلمه ، وألزمه نظاماً صارماً للدرس . وقد ذكر هايدن فى شيخوخته هذا الرجل وغفر له قائلاً « سأكون ما حييت شاكرًا لذلك الرجل أنه الزمنى العكوف على العمل وإن إعتدت أن أنال من الجلد أكثر مما أنال من الطعام^(٢٦) » . وبعد أن قضى يوزف عامين مع فرانك أخذته إلى فيينا جهورج رويتر ، مدير فرقة المارتلين فى كنيسة القديس اسطفانوس ، ورأى رويتر إن صوته « الضعيف الحلو » قد يجد مكاناً متواضعاً فى فرقة المارتلين . وهكذا ذهب الغلام الحى المشتاق ليعيش فى مدرسة المارتلين « الكانتوربى » الملحقة بالكاتدرائية . وهناك كان يتلقى دروساً فى الحساب والكتابة واللاتينية والدين والترتيل والكنان . ورتل فى الكندراية وفى المصلى الامبراطورى ، ولكنه كان لا ينال إلا أتفه الغذاء ، فكان يرحب بدعوات للغناء فى البيوت الخاصة حيث يستطيع أن يمسأ معدته فضلاً عن إنشاد أغانيه .

وفى ١٧٤٥ انضم إليه فى مدرسة المارتلين أخوه ميخائيل الذى كان يصغره بخمس سنين . وحوالى هذا التاريخ بدأ صوت يوزف يصبح أجش ، فعرض عليه أن ينحصر ليحتفظ بصوته السوبرانو ، ولكن أبويه لم يوافقا . واحتفظ به رويتر أطول ما يستطيع ، واخيراً فى ١٧٤٨ وجد يوزف نفسه وهو فى السادسة عشرة حراً ومفلساً ، لم يؤت من حسن السمات وجاذبية ما يكسبه رضى الحظ عنه . فقد نقر الجدرى وجهه ، وكان أنفه بارزاً ، وساقاه أقصر مما يناسب جسمه ، ولباسه رثا ، ومشيته لا رشاقة فيها ، ومسلكه خجولاً مترددا . ولم يكن بعد قد حلق العزف على أى آلة ، ولكنه كان فى تلك الآونة يقلب الألحان فى رأسه .

وعرض عليه زميل فى صف المارتلين حجرة على السطح ، وأقرضه أنطون بوخهولتز ١٥٠ فلورينا ردها إليه هايدن الأمين فيما بعد . وكان عليه أن يجلب الماء صعداً إلى حجرته العليا كل يوم ، ولكنه حصل على

كلافير (لوحة مفاتيح) قديم ، وبدأ يعلم بعض التلاميذ ، فأعانه هذا على الحياة . وكان في أكثر الأيام يعمل ست عشرة ساعة بل أكثر ، ويعزف على الكمان في كنيسة ، ثم على الارغن في مصلى خاص للكونت هاوجفنز وزير ماريا تريزا ، ويعنى بصوت التينور بين آن وآخر في كاتدرائية القديس اسطفانوس . وكان لمناستازيو الشهير شقة في البناء ذاته فحصل هايدن على وظيفة معلم موسيقى لأبنة صديق له ، وعن طريق مناستازيو ألتقى هايدن ببوربورا ، ووافق هايدن على أن يخدم أمير معلمى الغناء هذا على أى وجه شاء مقابل تعليمه التأليف الموسيقى . ثم تلقى دروس التأليف الثمينة ، وكان ينظف حذاء المايسترو ومعطفه وباروكتته ويقوم بمصاحبة بوربورا وتلاميذه على الكلافير . وقد قال هايدن وهو يذكر تلك الأيام فيما بعد « يستطيع الشباب أن يتعلموا منى أن شيئاً يمكن أن يخرج من لا شىء . فكل ما أنا عليه الآن إنما هو ثمرة أوقات الشدة التى عانيتها » (٢٧) .

وعن طريق أصدقائه الجدد تعرف إلى جلوك وديتزدورف وعدة أفراد من النبلاء . وأخذ كارل يوزف فون فورنبرج (١٧٥٥) ليكنث معه طويلاً في بيته الريفى - فينزيرل - بقرب ملك ، هناك وجد هايدن أوركستراً من ثمانية عازفين واتسع بعض الفراغ للتأليف . فكتب الآن أولى رباعياته . ثم إضاف إلى هيكل الصوناتا المكون من ثلاث حركات ، الذى نقله عن كارل فيليب إيمانويل باخ منويتاً ، ودون الحركات الأربع لقطع أربع ، ثم أعطى الرباعية الآلية شكلها الحديث . وعاد إلى فيينا في ١٧٥٦ ولفت أنظار نفر من التلاميذ النبلاء مثل الكونتيسة فون تون . ثم قبل (١٧٥٩) وظيفة مدير الموسيقى للكونت مكسمليان فون مورتن الذى كان أوركستراه الخاص المؤلف من إثني عشر إلى ستة عشر عازفا يعزف في فيينا شتاء ، وفي فيللا الكونت بلوكافيك ببوهيميا صيفاً . ولهذا المجموعة كتب هايدن أولى سمفونياته (١٧٥٩) .

وإذ كان يكسب الآن مائتي فلورين في العام يضاف إليها المسكن والمأكل ، فقد رأى أن في وسعه المغامرة بالزواج . وكان من بين تلاميذه

إبنتان لصانع باروكات ، فأغرم بالصغرى ولكنها ترهبت ، وأقنع الأب هايدن بأن يتزوج شقيقها ماريا أنا (١٧٦٠) . وكانت في الحادية والثلاثين وهو في الثامنة والعشرين . وتبين أنها مشاغبة متعصبة مسرفة عقيم . يقول هايدن « لا يهملها مثقال ذرة أن كان زوجها فنانا أو إسكافاً (٢٨) » . وبدأ ينظر إلى غيرها من النساء .

وكان يختلف إلى بيت مورتزن أحيانا للاستماع إلى الموسيقى الأمير يال أنطون إسترهاتسى . فلما حل مورتزن أوركستراه لاستخدام الأمير هايدن (١٧٦١) مساعداً للمدير الموسيقى في مقره الريفى يأيزنشات في الحبر . ونص العقد على أن يتقاضى هايدن أربعمئة فلورن في العام بالإضافة إلى مكان على مائدة الموظفين ، و « يلاحظ بصفة خاصة أنه حين يدعى الأوركستر للأداء أمام جمهور أن يبدو الموسيقيون في بزة رسمية مرتدين الجوارب الطويلة البيضاء والقمصان البيضاء . . وضميرة أوباروكة (٢٩) » . وفى أيزنشات كان رئيس فرقة المارتلين جريجور فرنر عاكفا على الموسيقى الكنسية ، فجهز هايدن الحفلات وألف لها الموسيقى . وكان يترأس على أربعة عشر موسيقيا وسبعة مغنين وكورس أختير من بين خدم الأمير . وقد شارك حجم الأوركسترا الصغير ، وطابع المستمعين ، في تقرير نوع الموسيقى الخفيف اللطيف الذى كتبه هايدن لأسرة إسترهاتسى . وأكسبته طبيعته الطيبة محبة الموسيقيين ولم يمحض على مجيئه إلى أيزنشات كثير حتى راحوا يلقبونه « بابا هايدن » رغم أنه لم يجاوز وقتها التاسعة والعشرين (٣٠) . وألف لهم الصوناتات والثلاثيات والرباعيات والكونشرتوات والاعانى والكتناتات ونحو ثلاثين سمفونية . وكثير من هذه المؤلفات وإن كانت ملكا للأمير حسب نص العقد نشر أو تداولت الناس مخطوطا في فيينا وليبزج ولأمستردام وباريس ولندن ، ولم يحل عام ١٧٦٦ حتى كان اسم هايدن ذائعا دوليا .

فلما مات بال أنطون (١٨ مارس ١٧٦٢) خلفه في رئاسة أسرة إسترهاتسى أخوه ميكولوس يوزف الذى كاد يحب الموسيقى حبه لخلته

المرصعة بالماس . وكان يحسن العزف على « الفيولادى بوردونى » . (وهى شكل مختلف من أشكال الفيولادا جامبا) ، وكان سيدا لطيفا هايدن طوال عشرينهما التى إمتدت قرابة ثلاثين عاماً . يقول هايدن « كان أميرى على الدوام راضيا عن إعمالى فلم احظ منه بمجرد تشجيع الاستحسان الدائم ، ولكن بوصفى قائدا للاوركستر إستطعت أن أجرى التجارب والأحظ ما يحدث منها أثراً وما يضعف هذا الأثر ، وهكذا كنت فى وضع إتاحة لى إن أحسن ، وأغير . . وأغامر كما أشاء . لقد كنت مقطوع الصلة بالعالم وما من أحد يشوش على أو يعذبنى ، فأكهرت على الابتكار^(٢١) .

ومات فرنر فى ٥ مارس ١٧٦٦ ، واصبح هايدن رئيسا لفرقة المزلتين . وسرعان ما انتقلت الأسره إلى القصر الجديد « قلعة استرهاتسى » التى كان ميكلوس قد بناها فى الطرف الجنوبى لنويديلزى فى شمال غربى المجر . وكان الأمير شديد التعلق بهذا القصر حتى إنه كان يسكنه من مطلع الربيع حتى آخر الخريف ، ثم ينتقل شتاء إلى فيينا مصطحباً موسيقيه احيانا . وكان العازفون والمغنون يكرهون هذه العزلة الريفية لاسيما لأنها كانت تفصلهم عن زوجاتهم وابنائهم ثلاثة فصول فى العام ، ولكنهم كانوا يتعاطون اجوراً حسنة ولم يجرؤا على الشكوى . وذات مرة إراد هايدن أن يلحح لميكلوس بأن موسيقية مشتاقون إلى أخذ اجازة ، فألف « سمفونية الوداع » (رقم ٥) وفى ختامها كانت الآلة تلو الأخرى تحتفى من المدونة والعازف يطفى شمعته ويتناول موسيقاه وآلته ثم يغادر المسرح . وفطن الأمير إلى القصد فرتب رحيل الفرقة إلى فيينا فى وقت قريب .

وسمح لهايدن على سبيل الاستثناء بأن يصحب معه زوجته إلى إسترهاتسا ، ولكنه لم يقدر هذا الامتياز . ففي ١٧٧٩ وقع فى غرام لويجا بولتسلى ، وكانت مغنية وسطا استخدمتها استرهاتسا مع زوجها عازف الكمان أنطونيو . ويبدو أن هايدن أحس أنه مادامت الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح له بتطبيق زوجته المتعبة فإن عليها من قبيل الرأفة أن تسمح له بانحرافه أو اثنتين ، ولم يبذل كثيراً من الجهد فى اخفاء علاقته الغرامية هذه . أما أنطونيو فقد بلغ

من الكبر والمرض ما منعه من الاحتجاج الفعال ، وكان يعلم أن الفضل في بقائه في وظيفته راجع إلى إن رئيس فرقته يستطع لويجا . وكانت قد قدمت إلى استر هاتسا بغلام في الثانية ، وفي ١٧٨٣ ولدت صبيا آخر نسبته الشائعات إلى بابا هايدن ، وتعلق قلب هايدن بالغلامين جميعاً وكان عوناً لهما طوال حياته .

وخلال تلك السنوات الحافلة بالشواغل في استرها تسا لم يتطور هايدن في فن التلحين إلا تطوراً بطيئاً لأنه افتقد الحافز والمنافسة الخارجيين ، فلم ينتج شيئاً يستحق أن يذكر به إلى أن بلغ الثانية والثلاثين — وهي سن كان موتسارت قد أكمل فيها « أعماله الكاملة » باستثناء « الناي السحري » و « القداس الجنائزى » . وقد أنتج هايدن أبداع أعماله بعد بلوغه الخمسين ، وأولى سمفونياته الكبرى حين قارب الستين . و « الخليقة » حين كان في السادسة والستين . وكتب عدة أوبرات تؤدي في استرها تسا ، ولكن حين دعتة براغ لتقديم أوبرا فيها ، ضمن سلسلة تقصر أن تحتوى على زواج فيجارو ودون جوفانى ، أحجم في رسالة كلها تواضع نبيل (ديسمبر ١٧٨٧) ، قال :

« تريد منى أوبرا هازلة . . . فإذا كان قصدك إخراجها في براغ فاني لا أستطيع أن اسدى إليك هذا الصنيع . ذلك أن أوبراى لا تنفصل عن المجتمع الذى كتبت له ، وإن تحدث التأثير المقصود منها إذا عزلت عن يئمتها الأصلية . ولكن يكون أمرا آخر أن أشرف بتكليفى بكتابة أوبرا جديدة لمسرحكم . على أنه حتى في هذه الحالة ، سيكون من المغامرة أن أضع نفسى منافسا لموتسارت العظيم . ولو اننى استطعت فقط أن ألهم كل عاشق للموسيقى ، خصوصا بين العظماء ، بمشاعر تبلى في عمقها مشاعرى ، وفهم واضح كفهمى ، وهم يستمعون إلى أعمال موتسارت الممتنعة على التقليد . إذن لتبارت الأمم على حياة هذه الجوهرة الكريمة داخل حدودها . وعلى براغ أن تجاهد للاحتفاظ بهذا الكنز في قبضتها ، ولكن بمكافأته المكافأة اللائقة . واغفال هذا الجزاء كثيراً ما يكون مصدر حزن في حياة عبقرى

عظيم ، وتثبيط للمزيد من الجهود والمستقبل الأيام . وانى لأشعر
بالسخط لأن موتسارت لم يستخدم إلى الآن فى أى بلاط امبراطورى
أو ملكى . عفوا ان كنت قد خرجت عن الموضوع ، فوتسارت رجل
عزيز على جداً » (٣٢) .

وكان هايدن نفسه يتوق إلى بلاط تنشر فيه موهبته جناحها على نطاق
أوسع ، ولكن كان عليه أن يقنع بالمجاملات الملكية . ووصلته الهدايا من
فوديناند الرابع ملك نابلى وفردريك وليم الثانى ملك بروسيا وماريا فيودروفنا
الأرشيدوقة الروسية . وفى ١٧٨١ بعث إليه شارل الثالث ملك
أسبانيا علبة سعوط ذهبية مرصعة بالماس ، وسافر السفير الأسباني لدى فيينا
إلى استر هاتسا ليقدم إليه هذا الكنز الصغير بشخصه . ولعل لبوكيرنى يدا
فى هذه اللقطة ، وكان يومها يقيم فى مدريد ، لأنه اقتبس أسلوب هايدن
بحماسة شديدة حتى لقد لقب بـ « زوجة هايدن » (٣٣) . ولما قرر مجلس
الكندرائية فى قادس تكليف موسيقى بوضع الاطار الموسيقى لـ « كلمات
مخلصنا السبع الأخيرة » رسا التكليف على هايدن ، فاستجاب بأوراتوريو
(١٧٨٥) لم يلبث أن أدى فى أقطار كثيرة — فى الولايات المتحدة الأمريكية
فى تاريخ مبكر (١٧٩١) . وفى ١٧٨٤ طلب مخبرج باريسى ست سمفونيات ،
فأتخفه هايدن بست « سمفونيات باريسية » . ووصلته عادة دعوات ليقود
الحفلات الموسيقية فى لندن . وشعر هايدن بأنه مربوط باستر هاتسا برباط
الولاء كما هو مربوط برباط التعاقد ، ولكن خطاباتة الخاصة تشى بشوقه
المتزايد إلى مسرح أرحب لفنه .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٠ مات الأمير نيكائوس يوزف . ولم يكن الأمير
الجديد انطون استر هاتسى ولوعا بالموسيقى ، ففصل كل الموسيقيين تقريبا ،
ولكنه احتفظ بهايدن اسميا فى خدمته ، ومنحه معاشا سنويا قدره ألف
وأربعمائة فلورين ، وسمح له بأن يسكن حيث يشاء . وانتقل هايدن إلى فيينا
لنزه تقريبا ، وتلقى الآن عدة عروض ، أعجلها من يوهان بيتر سالومون ،

الذى صرح له بهذه العبارة « لقد جئت من لندن لاخلدك معي ، وسنبرم اتفاقنا غدا » . وعرض عليه ٣٠٠ جنيه لقاء أوبرا جديدة ، و ٣٠٠ أخرى نظير ست سمفونيات ، و ٢٠٠ أخرى نظير حق تأليفها ، و ٢٠٠ أخرى نظير عشرين حفلة موسيقية في إنجلترا ، و ٢٠٠ أخرى نظير حفلة موسيقية تحيا فيها لصالح هايدن — ومجموعها كلها ١٢٠٠ جنيه . وكان هايدن يجهل الإنجليزية ويخشى عبور المائش . وتوسل إليه موتسارت ألا يضطلع بهذه الأعباء والمغامرات قائلا « يا أبت ، إنك لم تتلق أى تعليم يؤهلك للعالم الواسع ، وأنت لا تتكلم إلا القليل جدا من اللغات ! » وأجاب هايدن « ولكن لغتي مفهومة في العالم كله . » (٣٤) وباع البيت الذى منحه إياه الأمير ميكلوس يوزف في أيزنشتات ، ودبر معاش زوجته وخليته ، ثم انطلق إلى مغامرته الكبرى . وأنفق مع موتسارت الأيام الأخيرة قبل الرحيل ، وبكى موتسارت حين رآه يرحل (لئن أخشى يا أبته أن يكون هذا آخر وداع لنا) .

وغادر هايدن وسالومون فيينا في ١٥ ديسمبر ١٧٩٠ ، ووصلا إلى لندن في أول يناير ١٧٩١ . وكانت أولى حفلات هايدن الموسيقية (١١ مارس) انتصارا له . وختمت صحيفة « المورننج كرونكل » تقريرها عنها بهذه العبارة « لا نستطيع أن نخفى أملنا الوطيد في أن يكون في هذا الترحيب البالغ الذى لقيه منا أعظم عباقرة الموسيقى في جيلنا هذا ما يغريه بأن يتخذ مقامه في إنجلترا . » (٣٥) ونجحت كل الحفلات الموسيقية ، وفي ١٦ مايو أبهج قلب هايدن حفلة أحييت لصالحه بـ ٣٥٠ جنيه . وفي ذلك الشهر حضر حفلة تذكارية هندل في كنيسة وستمنستر . واستمع إلى (المسيا) وبلغ به التأثير حد البكاء ، وقال في تواضع (هندل ، أستاذنا جميعا .) (٣٦) واقترح بيرنى على جامعة أكسفورد أن تمنح هندل الجديد درجة فخرية ، وقبل الاقتراح ، وذهب هندل إلى الجامعة في يوليو ، وأصبح دكتورا في الموسيقى ، وقاد هناك سمفونيته في مقام G الكبير (رقم ٩٢) وكان قد ألفها قبل ثلاث سنوات ، ولكن التاريخ يعرفها منذ ذلك الوقت بسمفونية

أكسفورد . . وتذكرنا حركتها البطيئة الجميلة بالاغنية الشعبية الانجليزية القديمة « لورد راندول » .

ولقد اتيح لهايدن أن يستمتع بمشهد الريف الانجليزي الذي رأى فيه تمجيذا سماويا للنبات والمطر ، لذلك قبل مغتبطا عقب عودته إلى لندن دعوات لبيوت ريفية . وهناك وفي لندن كسب الكثير من الأصدقاء بترحيبه بالعزف والغناء في حفلات خاصة . واتخذ له تلاميذ متقدمين في الموسيقى ليعلمهم التأليف ، ومن بينهم أرملة وسيمة غنية تدعى يوهانا شروتر . ومع أنه كان في الستين ، فان هالة شهرته أدارت رأسها فعرضت عليه حبها . وقد ذكر هذا الحديث فيما بعد فقال « أغلب الظن أنني كنت متزوجها لو كنت عزبا . » (٣٧) وفي غضون هذا كانت زوجته تلح عليه في العودة . وفي خطاب أرسله إلى لويجا بولتسيللي قال متهذرا (إن زوجتي — الوحش الجهنمي — كتبت لي أشياء بلغت من الكثرة ما أكرهني على الجواب بأنني لن أعود أبدا .) (٣٨)

وراح يشتغل بهمة رغم ما أثقل ضميره وجيبه من النسوة الثلاث ، فألف الآن ستا (رقم ٩٣ — ٩٨) من سمفونياته اللندنية الأثني عشرة . ونرى فيها تطورا ملحوظا من إنتاجه في إيزتشتات واسترهاتسا . ولعل سمفونيات موتسارت قد شجذت فنه ، أو لعل احتفاء إنجلترا به قد أخرج خيرا ما فيه ، أولعل إستماعه إلى هندل حرك فيه أعماقا لم تمسها يديته الساكنة الهادئة في ربى البحر ، أو لعل علاقاته الغرامية قد رفعته إلى العواطف الرقيقة كما بعثت فيه الفرحة البسيطة . وشق عليه إن يرحب إنجلترا ، ولكنه كان مرتبطا بعقد مع الأمير أنطون استرهاتسي الذي أصر الآن على عودة هايدن ليشارك في المهرجانات الممهدة لتتويج الأمبراطور فرانسيس الثاني . ومن ثم نراه يقتحم المانش ثانية في أواخر يونيو ١٧٩٢ ، وينتقل من كاليه إلى بروكسل إلى بون ، ويلتقى ببيتهوفن (الذي كان آنذاك في الثاني والعشرين) ، ويحضر التتويج في فرانكفورت ، ثم يصل إلى فيينا في ٢٦ يونيو .

(م ١٨ — قصة الحضارة ج ٤٠)

ولم تشر صحيفة واحدة إلى عودته ، ولا نظمت له حفلات موسيقية ، ولا حفل به البلاط . ولو كان موتسارت موجودا لاحتفى بمقدمه ، ولكن موتسارت كان قد قضى . وكتب هايدن إلى أرملته ، ونطوع باعطاء دروس مجانية لابنه ؛ وحث الناشرين على طبع المزيد من موسيقى موتسارت . ثم ذهب ليعيش مع زوجته في المنزل المحتفظ به الآن متحفاً لهايدن (هايدن — جاسي ١٩) . وأرادته الزوجة إن يكتب لها البيت فرفض . وازدادت مشاجراته معها حدة . وقدم بيتهوفن في ديسمبر ١٧٩٢ ، أيدرس عليه . ولكن العبقرين لم ينسجما معا ، فقد كان بيتهوفن متكبراً مسيطراً ، وكان هايدن يلقبه « المغولى الأكبر » (٣٩) . وقد شغله استغراقه في عمله هو عن تصحيح تمرينات تلميذه بأمانة ، ووجد بيتهوفن سرّاً معلماً آخر ، ولكنه واصل تلقى الدروس عن هايدن . قال الجبار الصغير « لم أعلم منه شيئاً (٤٠) » ، ومع ذلك فكثير من قطعه الأولى تنهج نهج هايدن ، وقد أهدي بعضها لمعلمة الشيخ .

وازداد تقدير القوم لهايدن في النمسا وفي روراو ، فأقام الكونت فون هاراخ في روراو ، عام ١٧٩٢ ، تمثالا لابن البلدة الذي غدا الآن ذائع الصيت ، ولكن ذكرى إلتصاراته وصدقاته في إنجلتره كانت لا تزال حارة ، ومن ثم لم يتردد الموسيقى في الموافقة على العرض الثاني الذي قدمه له سالومون بالذهاب إلى لندن وتكليفه كتابة ست سمفونيات جديدة . فغادر فيينا في ١٩ يناير ١٧٩٤ ووصل إلى لندن في ٤ فبراير . وكانت إقامته هذه التي امتدت ثمانية عشر شهراً في إنجلتره نصراً مؤزراً شدد عزمه كنصره الأول . وظهرت المجموعة الثانية من « السمفونيات اللندنية » (أرقام ٩٩ — ١٠٤) باستقبال طيب ، وخرج هايدن من حفلة أحييت لصالحه بدخل صافي قدره ٤٠٠ جنيه . وكان تلاميذه يدفعون له جنيتها إنجليزيا في الدرس ، وكانت السيدة شروتر تسكن بقرية ، وعاد الأثير المقرب للطبقة الارستقراطية ، فاستقبله الملك وأعداء الملك على السواء ، وأمير ويلز ، وعرضت عليه الماسكة مسكنا في ونزر طوال الصيف إذا أطل مقامه في إنجلتره موسماً آخر . ولكنك إعتذر بأن

أمير استرهاتسى الجديد يدعو للعودة ، وأنه لا يستطيع الغياب عن زوجته فترة طويلة كهذه (١) . وكان الأمير أنطون قد مات ، وأراد خلفه الأمير ميكولوس الثانى أن يعيد الحفلات الاوركسترالية فى ايزنشتات . وهكذا غادر هايدن لندن فى ١٥ أغسطس ١٧٩٥ بعد أن حزم حقايبه وجيوبه عامرة بالنقود ويمم شطر وطنه .

وبعد أن زار تمثاله فى روراو قدم نفسه لميكولوس الثانى فى ايزنشتات ونظم الحفلات الموسيقية لشئى المناسبات هناك . على أنه كان يقيم فى بيته فى أطراف فيينا باستثناء الصيف والحريف . وفى عامى ١٧٩٦ - ٩٧ كان نابليون يسوق النساء فى إيطاليا ، وهدد تصاعد المشاعر الثورية فى النمسا نظام هابسبورج الملكى ، وتذكر هايدن كيف شددت الحماسة التى أثارها إنشاد النشيد الإنجليزى « حفظ الله الملك » إزر اسرة هانوفر فى إنجلترا ، وساءل نفسه إلا يمكن أن يفعل نشيد قومى مثل هذا فى شد أزر الامبراطور فرانسيس الثانى ؟ وتقدم صديقه البارون جوتفريد فان زفيتن (ابن طبيب ماريا تريزا) بهذا الاقتراح إلى الكونت فون زاوراو وزير الداخلية . وعين زاوراو ليوبولد هاشكا ليؤلف نصا للنشيد ، ولستجاب الشاعر بنشيده «حفظ الله الإمبراطور فرنسيس، إمبراطورنا الصالح فرانسيس»

ووفق هايدن لهذه الكلمات لحنا لأغنية كرواوية قديمة ، وكانت النتيجة نشيداً قومياً مؤثراً ، رغم بساطته . وأنشد علانية فى عيد ميلاد الإمبراطور فى ١٢ فبراير ١٧٩٧ فى جميع المسارح الكبرى فى مملكة النمسا والمجر . وقد ظل مع بعض التغيير فى الفاظه — النشيد القومى النمساوى حتى ١٩٣٨ . وطور هايدن اللحن . مع تنويعات : ليصبح الحركة الثانية فى رباعيته الورتية (٧٦ رقم ٣) .

ثم حاول أن ينافس « المسيا » وهو ما يزال أسيراً لسحر هندل . وكان

سالمون قد قدم له نصا مصنفًا من قصيدة لثن « الفردوس المفقود » ، وترجم فان زفيتن النص إلى الألمانية ، ولحن هايدن الأوراتوريو الضخم « دى شويغونج » (الخليقة) . وأدى لأوراتوريو « الخليقة » أمام جمهور دعى إلى قصر الأمير فون سفارتسبرج في ٢٩ - ٣٠ إبريل ١٧٩٨ . وبلغ احتشاد الجمهور خارج القصر مبلغا إقتضى معه حفظ النظام لإستخدام خمسين شرطيا من الخيالة (كما يؤكدون)^(٤١) . ومول الأمير حفلة عامة في المسرح القومى في ١٩ مارس ١٧٩٩ ، ونفح مؤلف الموسيقى بكل دخلها (الذى بلغ أربعة آلاف فلورن) . وحيا السامعون الموسيقى بحماسة أشبه بالحماسة الدينية ، وما لبث الأوراتوريو أن أستمع إليه الناس في كل مدينة كبرى تقريبا في العالم المسيحى . وأدانت الكنيسة الكاثوليكية اللحن لأنه أخف وأجذل من إن يصلح لموضوع جليل كهذا ، ووافق شيلر بيتهوفن في السخرية من تقليد هايدن لحيوانات جنة عدن ، أما جوته فقد أشاد بالعمل ، وظفر اللحن في بروسيا بعروض في القرن التاسع عشر فاقت في كثرتها أى لحن كورالى آخر .

وقدم فان زفيتن نصا آخر إقتبسة من قصيدة جيمس طومسن « الفصول » . وعكف هايدن عاياه بهمة قرابة عامين (١٧٩٩ - ١٨٠١) ، مما أضر كثيرا بصحته . وقد قال « أن » « الفصول » قصمت ظهري » . وحظيت حفلة العرض الأولى باستقبال طيب ، ولكن اللحن لم يثر حماسة واسعة أو دائمة . وبعد أن قاد هايدن « كلمات المسيح السبع الأخيرة » لصالح احد المستشفيات اعتزل حياته النشيطة .

وكانت زوجته قد ماتت في ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ولكنه كان الآن قد بلغ من الكبر حدا لا يتيح له الاستمتاع بحريته وإن لم يمنعه من الاستمتاع بشهرته . فقد اعترف به الناس إماما للمؤلفين الموسيقيين ، وتكاثرت عليه أسباب التشريف من شتى المدن ، ووفد عليه مشاهير الموسيقيين - أمثال كيرويينى ، وآل فيبر ، واجناز بلييل ، وهوميل - لتقديم واجب الاحترام والأجلال له . ولكن الرومانزم والدوار وغيرهما من الأوصاف أورثته

الاكتئاب وسرعة الغضب والتشبث الرهيب بأهداب الدين . وحين زاره كاميل بلييل في ١٨٠٥ وجده « ممسكا بمسبحة في يديه ، وأعتقد أنه يقضى أكثر يومه في الصلاة ، وهو لا يقتأ يقول أن نهايته قد دنت . . . ولم نطل المكث معه لأننا رأينا أنه يريد أن يصلى » (٤٢) . في ذلك العام انتشرت شائعة كاذبة زعمت أن هايدن مات . وكتب كيروبينى كنتاتا عن موته ، وخططت باريس لحفلة موسيقية تذكارية يعزف فيها قداس موتسارت الجنائزى ، ثم وصل نبأ بان الشيخ ما زال على قيد الحياة . فلما سمع هايدن بالأمر قال معقباً « إذن لسافرت إلى باريس لأقود القداس الجنائزى بنفسى » (٤٣) .

وظهر آخر مرة أمام الجمهور في ٢٧ مارس ١٨٠٩ حين رتل « الخليقة » في جامعة فيينا احتفالاً بعيد ميلاده السادس والسبعين الوشيك . وأرسل الأمير استر هاتسى مركبته لنقل الرجل العاجز إلى الحفلة الموسيقية . وحمل هايدن على كرسى ذى مسندين إلى القاعة بين جمهور من النبلاء ومشاهير القوم ، ولفت الأميرات شيلانهن حول جسده المرتعش . وجثا بيتهوفن وقبل يده . وغلب التأثر المؤلف العجوز ، ولم يكن بد من اعادته إلى بيته في فترة الاستراحة .

وفي ١٢ مايو ١٨٠٩ بدأت مدفعية نابليون تقصف فيينا . وسقطت قبلة على مقربة من بيت هايدن فهزته هو وسكانه ، ولكن هايدن قال ليطمئنه « يا أبناءى لا تخافوا ، فحيث يوجد هايدن لن يصيبكم سوء » . وصدق قوله إلا عن نفسه ، فقد حطم القصف جهازه العصبي . فلما استولى الفرنسيون على المدينة أمر نابليون بأن يربط حرس شرف أمام بيت المؤلف . ورتل ضابط فرنسى عند دخوله لحنا من « الخليقة » بطريقة فيها كثير من الرجولة والسمو حتى أن هايدن عانقه وفي ٣١ مايو قضى نحيبه وهو في السابعة والسبعين ، وأقامت كبرى مدن أوروبا كلها الصلوات تذكارا له .

يقتصر انجاز هايدن التاريخى على تطوير الأشكال الموسيقية . وقد أضفى على الأوركستر حيوية جديدة بما أوجده من توازن بين الأوتار وآلات النفخ والنقر . وإذ بنى فوق جهود سامارتينى وشتامز وكارل

فليب إيمانويل باخ : فانه أرسى شكل الصوناتا باعتبارها عرضاً وتفصيلاً وتلخيصاً لموضوعات متعارضة وأعد لموتسارت الموسيقى الخفيفة المسلية المسماة « ديفرتمنتو » باعتبارها أقل شكلية من المتتالية وأنسب اللقاءات الاجتماعية. وأعطى الرباعية الوترية صورتها الكلاسيكية باطالتها إلى أربع حركات ، وباعطاء الحركة الأولى «شكل الصوناتا» . وهنا كان على خلفائه أن يستخدموا عدد ونوع الآلات التي استخدمها هايدن ، وقد حقق في كثير من الحالات جمالا مشرقاً رقيقاً يعود إليه بعضنا متخففاً من التعقيدات العسيرة التي نَجدها في رباعيات بيتهوفن الأخيرة .

ولا تزال على قيد الحياة تسمع سمفونيات أو عشر من سمفونيات هايدن المائة والأربعة . ولم تكن الأسماء التي تحملها من اختياره ولكنها من وضع المعلقين أو الناشرين . وقد لاحظنا في مكان سابق تطور «السمفونية» (أى الأصوات المجمعة) من المقدمة بفضل تجارب سامرتيني وشنامز . وقد سبق كثيرون هايدن في صياغة بناء السمفونية «الكلاسيكية» فلما خرج من استر هاتسا إلى عالم أرحب لم يكن قد بلغ من الكبر حداً يعجزه عن أن يتعلم من موتسارت كيف يملأ البناء مغزى وعاطفة . وتحدد «سمفونية أكسفورد» مرحلة صعوده إلى مدى أبعد وقوة أعظم ، وترينا «السمفونيات اللندنية» هايدن في قمة آفاقه السمفونية . والسمفونية رقم ١٠١ (سمفونية الساعة) مبهجة ، ورقم ١٠٤ لا يقل مستواها عن سمفونيات موتسارت .

ويمكن القول بوجه عام إننا نحس في موسيقاه طبيعة لطيفة سمحة ربما لم تشعر قط بأعماق الحزن أو الحب ، طبيعة اضطرت إلى الانتاج في عجلة لم تسمح بانضاج الفكرة أو الموضوع أو الجملة . لقد كان هايدن أسعد من أن يبلغ العظمة العميقة ، ولقد تكلم أكثر مما يتيح له التعبير عن الكثير . ومع ذلك فن في هذه الانغام اللعوب ذخيرة من البهجة الصافية الهادئة ، فهنا كما قال « قد يستمتع المتعبون المكثرون ، أو الرجل الذي أثقلته هموم الحياة ، ببعض السلوى والانتعاش » (١) .

وعقب موت هايدن انصرف العصر عن موسيقاه . فلقد عكست أعماله عالما اقطاعيا ثابتا وطيد الأركان ، وبيئة من الأمن والدعة الارستقراطيين ، وكان في هذه الأعمال من المرح والرضى عن النفس ما لا يشبع قرنا ملؤه الثورات والأزمات والنشوات الرومانسية واليأس . ولكن الناس عادوا يقبلون عليه حين امتدحه براهز وكتب دبوسى « تحية اجلال لهايدن » (١٩٠٩) . عندها أدرك الناس أنه إذا كان رفائيل وميكلانجلو الموسيقى اللذان جاء بعده قد سكبا فكرا أعمق مع تمكن أرهف في مؤلفاتهما الموسيقية ، فانهما لم يستطيعا ذلك إلا لأن هايدن ومن سبقوه صاغوا الأشكال التى تلقاها فنهما الرائع . قال هايدن « انى أعلم أن الله منحنى موهبة ، وأنا شاكر له هذه المنحة وأحسبنى قمت بواجبى وكنت ذا نفع . . فليصنع الآخرون كما صنعت . » (٤٥)

الفصل الخامس عشر

موتسارت

١ - الصبي العجيب : ١٧٥٦ - ١٧٩١

كانت سالزبورج مخفرا موسيقيا أماميا لفينا ، شأنها في ذلك شأن براغ وبرسبورج واسترهابس ، لها طابعها الخاص أولا بسبب مناخها التي تعلل اسمها ، وثانيا بسبب جبالها المحاورة ونهر زالتساخ الذي يشطرها شطرين ، وثالثا بسبب نموها حول الدير والكرسى الاسقفى اللذين أنشأهما هناك القديس روبرت الفورمزي حوالى عام ٧٠٠ م . وقد رقى رئيس أساقفتها لرتبة (الأمير الامبراطورى) في ١٢٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٢ ظل حاكم المدينة المدني والدينى جميعا . وفي ١٧٣١ - ٣٢ أكره نحو ثلاثين ألف بروتستنتى على الهجرة ، مخلفين سالزبورج كاثوليكية خالصة محكومة كلها بحكومة من رجال الدين الكاثوليك . وفيما عدا ذلك كان نير رئيس الاساقفة خفيفا على سكان سني العقيدة ، أقبلوا على المتع الجسدية وغيرها من مباحج الدنيا بعد أن أطمأنوا إلى حقائق الأبدية المؤكدة . وكان زيجسموند فون شراتنباخ رئيس الاساقفة أيام سمى موتسارت ، وجلا يتحلى بقدر كبير من الطيبة والشفقة إلا مع المهرطقين .

إلى هذه البلدة الجميلة إذن قدم ليوبولد موتسارت ، ١٧٣٧ وهو في الثامنة عشرة من وطنه أوجزبورج ، ربما ليدرر اللاهوت ويمتنن القسوسية . ولكنه أسلم قلبه للموسيقى ، وخدم ثلاث سنين موسيقيا وتابعا في بيت أحد النبلاء ، وفي ١٧٤٣ أصبح رابع عازفى الكمان فى أوركسترا رئيس الاساقفة . فلما تزوج آنا ماريا بيرتل (١٧٤٧) عدهما القوم أجمل عروسين فى سالزبورج . وقد ألف الكونشرتوات والقداسات والسمفونيات ، كما ألف كتابا مدرسيا لتقنية الكمان حظى طويلا بالتقدير . وفي ١٧٥٧ عين مؤلفا موسيقيا لبلاط رئيس الاساقفة . ولم يبق الموت إلا على اثنين من

أطفاله السبعة جاوزا سن الطفولة : ماريا آنا (ماريانا « نانيزل ») المولودة في ١٧٥١ ، وفولفجانج أماديوس المولود في ٢٧ يناير ١٧٥٦ (واسم الغلام الكامل - الذى تشفعت به الأسرة لدى قديسين عديدين - كان يوانس خريسوستومس فولفجانجس تيوفيلوس موتسارت ، وقد ترجم تيوفيلوس من اليونانية إلى اللاتينية بأماديوس أى محب الله .) وكان ليوبولد زوجا وأبا طيبا ، مخلصا ومجتهدا . وخطاباته لولده تفيض محبة ولا تعوزها الحكمة . وكان بيت موتسارت - إذا أعطينا عن قليل من ناي الحديث يدور فيه - مرفأ للحب المتبادل ، والتقوى الأبوية ، والدعابات الطفلية ، والموسيقى التى لا تنقضى .

كان القوم يتوقعون من كل طفل ألمانى أن يصبح موسيقيا إلى حد ما ، يعزف على إحدى الآلات . وعلم ليوبولد أطفاله الموسيقى مع مبادئ القراءة . فكانت ماريانا قد اتقنت فى الحادية عشرة العزف على الكلافيكورد . أما فولفجانج فقد عكف على الكلافير فى شغف بعد أن حفزته قدوتها ، فأستطاع فى الثالثة أن يميز بين الأوتار ، وفى الرابعة أن يعزف عدة قطع من الذاكرة ، وفى الخامسة ابتكر ألحانا سجلها أبوه أثناء عزفها . وأمتنع ليوبولد عن إتخاذ تلاميذ آخرين يلقنهم الموسيقى ليفرغ بجملة لطفلية وإن كلفة ذلك بعض التضحية . ولم يرسل « فولف » إلى المدرسة ، لأنه نوى أن يكون معلمه فى كل شيء . ولعل هذا التعليم إقتضى شيئا من الضبط الألمانى ، ولكن لم تكن الحاجة لكثير منه فى هذه الحالة ، ذلك أن الغلام كان يلزم لوحة المفاتيح من تلقاء نفسه ساعات طوالا إلى أن يجبر على مبارحتها^(١) . وقد كتب إليه ليوبولد بعد هذه الفترة بسنوات يقول :

« لقد كنت فى مرحلة الطفولة والصبي تسلك مسلكا جادا مختلف عن مسلك سائر الأطفال ، وحين كنت تعزف الكلافير ، أو تعكف على الموسيقى ، لم تكن تسمح بأقل مزاح معك . لا بل إن سمعتك ذاتها كانت تنقسم بطابع الجد الشديد ، حتى لقد تنبأ الكثيرون بمن راقبك بأنك ستعوت قبل أوانك بسبب نبوغك المبكر ومظهرك الجاد^(٢) » .

وفي يناير ١٧٦٢ ، حين كانت ألمانيا مازالت تمزقها الحرب ،
اصطحب ليوبولد ابنته وابنه إلى ميونخ ليعرض على الأمير الناخب مكسميليان
يوزف براءتهما في العزف ، وفي سبتمبر استصحبهما إلى فيينا . ودعيا إلى
شونبرون ، ولبتهجت ماريا تريزا وفرانس الأول بالطفلين ، وقفز فولفجانج
إلى حجر الأميرة ، وضمها إليه وقبلها ، ولمسا تحداه الإمبراطور
عزف على الكمان بأصبع واحدة ، وعزف على الكلافيكورد دون أن يخطيء
رغم حجب المفاتيح بقطعة من قماش . وفيما كان فولفجانج يمرح وهو
يجرى مع الأميرات ، زلت قدمه وسقط ، فالتقطته الأرشيدوقة ماريا
أنطونيا — وكانت في السابعة — وراحت تسرى عنه . فقال لها « أنت طيبة » ،
ثم أضاف شاكراً « سوف أتزوجك » (٣) . وفتح الكثير من النبلاء بيوتهم
لآل موتسارت وجهتوا للموسيقى التي سمعوها وأثابوا ثلاثتهم بالمال والهدايا .
ثم ألزم الغلام الفراش أسبوعين لأصابة بالحمى القرمزية ... وكان هذا أول
الأمراض الكثيرة التي ستتخلص عليه رحلاته . وفي ١٧٦٣ عادت الفرقة
إلى سالزبورج .

وأغضى رئيس الأساقفة المتسامح عن تجاوز ليوبولد فترة أجازته ،
لا بل رقاها نائباً لرئيس فرقة المرتلين ولكن في ٩ يونيو شد ليوبولد رحالة
مرة أخرى مضجياً بالمزيد من الترقيات ، مصطحباً هذه المرة زوجته ،
ليعرض ولديه على أوروبا ، إذ لم يكن ممكناً أن يظلا أبد الدهر طفلين
معجزين . وقدم الطفلان حفلتين موسيقيتين في ماينز وأربعاً في فرانكفورت
وقد استعاد جوته بعد ستين عاماً ذكرى استماعه إلى إحداها ، وكيف تعجب
من « الرجل القصير ذي الباروكة والسيف » — لأنه هكذا ألبس ليوبولد
ابنه فولفجانج كأنه عجيبة من عجائب السرك . ففي إعلان نشر في جريدة
فرانكفورتية بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٧٦٣ وعد المتفرجون في حفلة ذلك
المساء بالآتي :

« ستعزف الفتاة الصغيرة ذات الأحادي عشرة سنة أعسر مؤلفات كبار
الموسيقين ، أما الصبي الذي لم يبلغ السابعة بعد فسيعزف على الكلافيكورد

أو الهاربيسيكورد . كذلك سيعزف كونشرتو للفيولينة ، ويصاحب سمفونيات على الكلافير ولوحة المفاتيح مغطاة بالقماش في يسر بالغ كأنه يبصر المفاتيح . وسيسمى جميع النغمات التي تعزف عن بعد ، سواء مفردة أو متوافقة ، على الكلافير أو على أية آلة أخرى — جرسا كانت أو كأسا أو ساعة . وأخيراً سيرتجل على الهاربيسيكورد والأرغن طوال ما يراود له أن يعزف ، وفي أى مقام (٤) .

وربما أضرت هذه المطالب المرهقة التي فرضت على مواهب الصبي بعض الضرر بصحته أو أعصابه ، ولكن يبدو أنه استمتع بتصفيق الجمهور لاستمتاع أبيه بدنانيره .

وقد عزفوا في كوبلنتز ، ونخاب أملهم في بون وكولونيا ، ولكنهم أحيوا حفلة في آخن . وفي بروكسل توقعوا أن يشرف الحاكم العام الأمير شارل اللورينى الحفل بحضوره ، ولكنه كان مشغولا . كتب ليوبولد غاضباً :

« لقد إنقضى علينا الآن قرابة ثلاثة أسابيع في بروكسل . . دون أن يحدث شئ . . . وما من شغل لسموه غير الصيد والتهام الطعام والشراب ، وقد يتبين لنا في النهاية أنه مفلس . . . صحيح أننا تأقمينا العديد من الهدايا هنا ، ولكننا لا نريد أن نحوّلها إلى تقوّد . . . وسيكون في إستطاعتنا بعد قليل أن نفتتح متجرّاً بكل هذه الهدايا من علب النقوش والحقائب الجلدية وما إليها من توافه رخيصة (٥) » .

وأخيراً وافق الأمير على الحضور فأحييت الحفلة ، وجمعت الدنانير ، وركبت الفرقة ميممة باريس .

وفي ١٥ نوفمبر ١٧٦٣ بلغوا باريس بعد معاناة ثلاثة أيام من السفر على طريق وعرة تملؤها الحفر . وكانوا يحملون خطابات تقديم إلى كثير من الأعيان ، ولكن تبين أن أثنمها خطاب إلى ملشيور جريم ، الذي رتب أن يستقبل آل موتسارت مدام ديمبادور ، والأسرة المالكة ، وأخيراً لويس الخامس عشر والملكة ماري لسزنسكا . وفتحت الآن أفخم البيوت للزائرين ،

وحالف التوفيق حفلاتهم الخاصة والعامة ، وكتب جريم إلى قرائه في حماسة يقول :

« إن المعجزات الحقيقية نادرة ، ولكن ما أعجب أن تتاح لنا الفرصة لرؤية واحده منها ! لقد قدم لتوه رئيس فرقة مرتلين من سالزبورج اسمه موتسارت بصحبة إثنين من أجمل الأطفال في العالم في فاماً لابنته البالغة من العمر أحد عشر ربيعاً فتعزف على البيان أروع عزف ، وتؤدي أطول المقطوعات وأصعبها بدقة مذهلة . وأما أخوها الذى سيبلغ السابعة في فبراير القادم فظاهرة خارقة بحيث لا تكاد تصدق ما تراه بعينيك . . . فيداه صغيرتان جداً . . . وهو يرتجل ساعة ، مستسلماً لوحى عبقريته ، يذخيرة من الأفكار المبهجة . . . وليس لدى أكفأ رئيس لفرقة موسيقى ما لهذا الطفل من المعرفة العميقة بتألف الألحان والتنقل بين النغمات . . . وليس أيسر عنده من حل أى رموز تضعها أمامه . وهو يكتب ويؤلف بيسر مدهش ، ولا يحد ضرورة للذهاب إلى البيانو واختبار الأوتار التى يريدتها . وقد كتبت له « منويتنا » وطلبت إليه أن يضع باصاً لها . فأمسك بقلم وكتب الباص دون أن يذهب إلى البيان . . . أن الطفل سيدبر رأسى إن استمعت إلى المزيد من عزفه . . . ومن أسف أن الناس في هذا البلد لا يفقهون عن الموسيقى إلا أقل القليل^(٦) » .

وبعد أن حققت الأسرة الكثير من الانتصارات في باريس غادرتها إلى كالية (١٠ أبريل ١٧٦٤) . وفي لندن استقبلهم جورج الثالث . وفي ١٩ مايو ، أمام الملك والحاشية ، طوال أربع ساعات عزف فوافهجانج موسيقى هندل وباخ ، غيرهما من كبار الموسيقيين بمجرد النظر إلى المدونة وصاحب غناء الملكة شارلوت ، وارتجل لحناً جديداً لباص أغنية لهندل . أما بوهان كرستيان باخ ، الذى كان قد اتخذ لندن مقاماً له في ١٧٦٢ ، فأجلس الصبي على ركبة وعزف معه صوناتا ، وكان كل منهما يعزف فاصلة بدوره « في دقة بالغة ما كان في استطاعة أحد معها أن يحسب العزف من عازفين لا من عازف واحد^(٧) » . وبدأ باخ « فوجرة » ، وتابعها

فولفجانج ، كما لو كان العازفان العبقريان عازفا واحداً هنا أيضاً . وبعدها طلت مؤلفات موسارت سنوات عديدة متأثره ببوهان كرستيان باخ . وفي ٥ يونيو أحيا الطفلان حفلة أبهجت قلب ليوبولد بمائة جنية انجليزية خالصة . ولكن الأب أصيب بالتهاب شديد في الحلق ، واعتكفت الأسرة في تشلسي للاستجمام أسابيع عدة ، ألفت فيها فولفجانج سمفونيتين (ك ١٦ و ١٩) ، وكان الآن يناهز الثامنة .

وفي ٢٤ يوليو ١٧٦٥ غادروا لندن إلى هولنده ، ولكن في مدينة ليل مرض الوالد وولده ، وأرجعت الجولة شهراً ، وإن كان رئيس الأساقفة فون شراتنباخ قد طلب إلى ليوبولد أن يعود منذ زمن . ووصلوا إلى لأهاى في ١١ سبتمبر ، ولكن في الغد مرضت ماريانا بدورها ، ولم تلبث أن تدهورت حالها حتى أنها في ٢١ أكتوبر تناولت الأسرار المقدسة الأخيرة . وفي ٣٠ سبتمبر أحيا فولفجانج حفلة بدون مساعدة أخته . وما إن تماثلت للشفاء حتى دهمته الحمى ، واضطرت الأسرة إلى تمطل كلفها غالياً حتى يناير ١٧٦٦ . وفي ٢٩ يناير و ٢٦ فبراير أحيا حفلات في امستردام ، وعزفت الآن لأول مره سمفونية لموسارت (ك ٢٢) أمام الجمهور . وكان الصبي خلال هذه الشهور يؤلف في نشاط محموم . ون مايو قفلوا إلى باريس حيث كانوا قد تركوا كثيراً من حوائهم . وهياً جريم لهم مسكناً مريحاً ، وعادوا يعزفون في فرساي وفي حفلات عامة ، ولم يقتلوا أنفسهم من العاصمة الفاتنة إلا في ٩ يوليو .

وأطالوا المكث في ديجون ضيوفا على أمير كونديه ، وأنفقوا أربعة أسابيع في ليون ، وثلاثة في جنيف ، وأسبوعاً في لوزان ؛ وآخر في برن ، وأثنى في زيورخ ، واثنى عشر يوماً في دوناوشينجن ثم وقفات قصيرة في بيبراخ ، وأولم ، وأجزبورج ، وفترة أطول في ميونخ ، حيث مرض فولفجانج مرة أخرى . وأخيراً ، في آخريات نوفمبر ١٧٦٦ ، وبعد غيبة ثلاث سنين ونصف ، وصلت الأسرة إلى سالزبورج . وصفح عنهم رئيس الأساقفة الشيخ ، وإستطاعوا الآن أن ينعموا بأسباب الراحة المتاحة في

يتمهم . وبدأ أن كل شيء على ما برام ، ولكن موتسارت لم يستعد بعدها
صحة موفورة قط .

٢ -- مرحلة المراهقة : ١٧٦٦ -- ٧٧

كان ليوبولد رب عمل صارماً لا يعرف هواة ولا تلين له قناة . درب
ولده تدريباً شاقاً على دراسة الكونترا بنظ ، والباص الدقيق الكامل ، وغير
ذلك من عناصر التأليف الموسيقي التي تلقاها من الموسيقى الألمانية والإيطالية .
وحين سمع الأسقف أن فولفجانج يؤلف الموسيقى تساءل ألم يتعاون معه
أبوه في هذا التأليف . ولكن يقطع الشك باليقين دعا الغلام ليقم معه أسبوعاً
ثم عزله عن كل معونة خارجية ، ودفع إليه ورقاً وقاماً وأعطاه هاربيكورداً
وطلب إليه أن يؤلف قصفاً من أوراتوريو عن الوصية الأولى . وفي ختام
الأسبوع قدم إليه موتسارت نتيجة عمله ، وقيل لرئيس الأساقفة . إنها
جديرة بالثناء . وكلف رئيس أوركستراه ميخائيل (أخا يوزف) هايدن
بأن يؤلف قصفاً ثانياً ، وعازف أرغنه أن يؤلف قصفاً ثالثاً ، ثم عزف الكل
في قصر رئاسة الأسقفية في ١٢ مارس ١٧٦٧ ، ورؤى أنه يستحق الأعادة
في ٢ أبريل . وقسم موتسارت وارد الآن تحت رقم ٣٥ في كتالوج كوشل (*)

وبلغ ليوبولد أن الأرشيدوقة ماريا يوزفا ستزف قريباً إلى فرديناند
ملك نابلي ، فخطر له أن الاحتفالات التي ستقام في القصر الإمبراطوري
ستتيح فرصة جديدة لولدية . وعليه قصدت الأسرة فيينا في ١١ سبتمبر
١٧٦٧ . فاستقبلوا في القصر ، وكانت النتيجة إصابة فولفجانج وماريانا
كليهما بالجذري الذي التقطاً عدواه من العروس . وأخذ الأبوان التعسا
طفليهما المعجزين إلى أواموتز بمورافيا ، حيث قدم لهما الكونت بوتستاتسكي

(*) صدر هذا أصلاً في ليبرج عام ١٨٦٢ تحت اسم Chronologisch-thematisches
Verzeichniss sammtlicher Tonwerke W.A. Mozarts
ونحن نستعمل الطبعة المنقحة من عمل ألفريد أينشتين في كتابه « موتسارت شخصيته وآثاره
(لندن ١٩٥٧) ، ١٧٣ ، ٨٣ -

المأوى والرعاية وظل مونتسارت أعمى تسعة أيام . وفى ١٠ يناير عادت الأسرة إلى فيينا . واحتفلت بهم الأمباطوره ويوزف الثانى ، ولكن البلاط كان فى حداد على وفاة العروس ، ولم يكن هناك محل لأحياء حفلات موسيقية .

وبعد غياب طويل لا نفع فيه عادت الأميرة إلى سالزبورج (٥ يناير ١٧٦٩) وواصل مونتسارت دراساته مع أبيه ، ولكن فى أو اخر ذلك العام قد ر ليوبولد أنه علم الصبى كل ما يستطيع أن يعلمه ، وأن ما يحتاج إليه فولفجانج الآن هو الألمان بحياة إيطاليا الموسيقية . ومن ثم حصل الأب وابنه على خطابات تقديم لكبار الموسيقيين الإيطاليين من يوهان هاسى وغيره ، ثم انطلقا فى رحلتهم فى ١٣ ديسمبر ١٧٦٩ تاركين ماريانا وأمها ليحتفظا بموطىء قدم فى سالزبورج . وفى الليلة التالية أحيوا مونتسارت حفلة فى لازبروك ، وعزف بمجرد الاطلاع على النوتة كونشرتو غير مألوف وضعه أمانة امتحانها لمهارة ، وهملت الصحافة المحلية لـ « معلومات الموسيقية الحارقة » (٨) . وفى ميلان التقيا بسامارتنى وهاسى وبتشنى ، وحصل الكونت فون فرميان لفولفجانج على تكليف بتأليف أوبرا ، وهذا معناه مائة دوقة تدخل خزانة الأسرة . وفى بولونيا استمعا إلى صوت فارينلى الذى لم يزل معجزا ، وكان قد عاد من انتصاراته فى أسبانيا ، ورتبا مع بأدرى مارتينى أن يعود فولفجانج ليدخل الاختبارات المؤهلة للدهوم « الأكاديمية فيلارمونيك » المرموق . وفى فلورنسة ، فى قصر الأرشيدوق ليوبولد ، عزف مونتسارت على الهاربسيكورد مصاحباً فيولينة ناردنى . ثم هرع الأب وولده إلى روما ليلحقا موسيقى أسبوع الآلام .

ووصلا فى ١١ أبريل ١٧٧٠ ، أثناء عاصفة رعدية برقية ، فعن ليوبولد أن يكتب أنهما « استقبلا استقبال عظماء الرجال بإطلاق المدافع » (٩) . وكان وصولهما بالضبط فى وقت سمح لهما بالذهاب إلى كنيسة السنتين والاستماع إلى « ميزيريرى » (لحن المزمور الخمسين « أرمنى ») الذى ألفه جريجوريو اليجرى ، والذى كان يرتل هناك كل عام . وكان من العسير

الحصول على نسخ من هذا الكورال الأشهر المكتوب لأربعة أصوات أو خمسة أو تسعة ، فأصغى إليه موتسارت مرتين ثم كتبه من الذاكرة . ومكثا في روما أربعة أسابيع ، وأحييا حفلات موسيقية في بيوت النبلاء مدنيين وكنسيين . وفي ٨ مايو انطلقا في رحلتهما إلى نابلي . وكان الطريق خطرا لانتشار اللصوص فيه ، فسافر موتسارت وأبوه مع أربعة رهبان أو غسطينيين لابتلا الحماية الدينية أو يظفرا بتناول القربان قبل الموت في هذه الضرورة الملحة . واستبقتهما نابلي شهرا بأكمله لأن النبلاء ابتداء من ثانوشى فتازلادعوها لأسميات ووضعوا كل أسباب الترف تحت تصرفهما . فلما عزف فولفجانج في « الكونسرفتوريو ديلا بيتا » عزا الجمهور المؤمن بالخرافات براعته لضرب من السحر كامن في خاتم يلبسه . وأدهشهم أنه واصل العزف بالبراعة ذاتها بعد أن خلع خاتمة .

وبعد أن استمتعا بالمقام في روما مره أخرى عبرا الأبنين ليهلميا للعدراء في كنيسها « سانتا كازا » بلوريتا ، ثم اتجها شمالا لينفقا ثلاثة أشهر في بولونيا . وكان موتسارت يتلقى كل يوم تقريرا دروسا من بادري مارتيني في أسرار التأليف الموسيقى . ثم تقدم لاختبار القبول في « الأكاديمية فيلارمونيك » ، فأعطى قطعة من ترنيمة بسيطة جرجورية ، طلب إليه أن يضيف إليها وهو محبوس وحده في حجرة نوتات عليا ثلاثا بالأسلوب التقليدى الدقيق « stile osserrato » وأخفق في المحاولة ، ولكن البادري الطيب صحح إجابته ، وقبل المخلقون الصورة المنقحة « نظرا إلى الظروف الخاصة » - ربما لصغر سن موتسارت .

وفي ١٨ أكتوبر كان الوالد والولد في ميلان . هناك حقق فولفجانج أول انتصاراته مؤلفاً موسيقيا ، ولكن بعد الجهد الجهد والمعاونة الكثيرة وكان موضوع الأوبرا التى كلف بها « مترداتى ، ملك بنطس » ، وقد أخذ النص من راسين . وراح الفتى الذى لم يجاوز الرابعة عشرة يكبد ويكدهج تأليفاً وعزفاً وتنقيحا حتى كلفت أصابعه واستحالت حماسه ضربا من الحمى ، فاضطر أبوه إلى أن يحدد ساعات عملة ويهدىء من اضطرابه بنزهة على

الأقدام بين الحين والحين . وأحبس موتسارت أن هذا الاختبار ، وهو أول أوبرا جاده يؤلف موسيقاها ، أشد خطرا له من ذلك الامتحان العتيق الذى أداه فى بولونيا . فقد يكون مستقبله مؤلفا للموسيقى الأوبرا رهنا بنتيجته . وترسل الآن إلى أمه واخته ان يصليا من أجل نجاح هذه المغامرة رغم انه لم يكن شديد الميل إلى التقوى والورع ، « حتى ننعم كلنا بالعيش معا مرة أخرى » (١٠) . وأخيرا حين كادت تضنيه كثرة البروفات ، قدمت الأوبرا للجمهور (٢٦ ديسمبر ١٧٧٠) ، وقادها مؤلفها ، وكان انتصاره كاملا . وقوبلت كل أغنية هامة بالتصفيق الحاد ، وبعضها بهتافات يحي المايسترو يحي المايسترو الصغير . وأعيد عرض الأوبرا عشرين مرة . كتب الأب الفخور التقى « بهذا نرى كيف نعمل قوة الله فينا حين لاندفن المواهب التى منحنا إياها فضيلا منه » (١١) .

واستطاعا الآن أن يعودا إلى موطنهما برؤس مرفوعه . ففى ٢٨ مارس ١٧٧١ وصلا إلى سالزبورج . وما إن بلغاها حتى تلقيا طلبا من الكونت فون فرميان ، باسم الأمبراطورة ، يرجو أن يكتب فولفجانج سريناتا أو كنتاتا ، ويحضر إلى ميلان فى أكتوبر ليقودها جزءا من الاحتفالات التى ستقام بمناسبة زفاف الأرشيدوق فرديناند إلى أميرة مودينا . ووافق رئيس الأساقفة زجسموند على أن يتغيب ليوبولد مرة أخرى عن أعماله ، وفى ١٣ أغسطس يمم الوالد والولد من جديد شطرا إيطاليا ، فلما وصلا إلى ميلان وجدا فيها هاسى يعد أوبرا للاحتفالات ذاتها . وقد رتب المديرون — ربما عن غير عمد منهم — لقاء للعبقرية يتنافس فيه أشهر مؤلفى الأوبرا الايطالية الأحياء ، البالغ آنذاك ثلاثة وسبعين عاما ، مع غلام الخامسة عشرة الذى لم يكديفرغ من اختبار جناحيه فى التحليق الأوبرالى . وأديت أوبرا هاسى المسماة « رورجيرو » فى ١٦ أكتوبر فقبولت بتصفيق حار وفى الغد رثت كنتاتا موتسارت المسماة (Asennio in Alba) تحت عصا قيادته ، وكان التصفيق خارقا . وكتب ليوبولد لزوجته « يؤسفنى ان سريناتا فولفجانج طمست أوبرا هاسى طمسا تاما » (١٢) . وكان هاسى

كريمًا صمغ النفس ، فشارك في الثناء على موتسارت ، وفاه بنبوءة مشهورة « ان هذا الفتى سيلقينا كلنا في زوايا النسيان » (١٣) .

وعاد الوالد والولد إلى سالزبورج (١١ ديسمبر ١٧٧١) . وبعد خمسة أيام مات زجسموند الطيب . وكان خلفه في رئاسة الأسقفية ، وهو هيرونيموس فون باولا ، كونت كوللوريدو رجلا عفلاني الثقافة ، معجبا بروسو وفولتير ، مستبدا مستنيرا يتوق إلى تنفيذ الاصلاحات التي كان يعدها يوزف الثاني . ولكنه فاق حتى يوزف في استبداده مع استنارته : فكان يشترط الانضباط والطاعة ولا يطبق المعارضة . ولم يقنع من موتسارت إسهاما في حفل تنصيبه في ٢٩ ابريل ١٧٧٢ بأقل من أوبرا يؤلفها لهذه المناسبة . واستجاب الفتى الذي ذاع صيته الآن سريعا بأوبرا « حلم سكيبو » ، وقد وفّت بالغرض منها ثم نسيت . واغتفرها كوللوريدو ، وعين فولفجانج رئيسا لفرقة الموسيقى براتب سنوى قدره ١٥٠ فلورينا . وعكف الفتى شهورا على تأليف السمفونيات والرباعيات والموسيقى الدينية ، ولكنه أكب أيضا على أوبرا « لوتشيو سيللا » التي طابعتها ميلان لتعرض في ١٧٧٣ .

ولم يحل ٤ نوفمبر ١٧٧٢ حتى كان ليوبولد وصانع ثروته في عاصمة لومبارديا مرة أخرى ، وراح فولف بعد قليل يكد ويكدح ليوفق بين أفكاره الموسيقية ونزوات المغنين وقدراتهم . وبدأت مغنية الأوبرا الأولى « البريمادونا » بالغطرسة والبرم بكل شيء ، وكان « المايسترينو » صبورا طويل الأناة معها ، وانتهت بحبه وصرحت بأنها « قد فتنها المعاملة الفذة التي عاملها بها موتسارت » (١٤) . ولم تلق حفلة الافتتاح (٢٦ فبراير ١٧٧٢) النجاح الأكيد الذي لقيته « ميرياداتي » قبل عامين ، فقد مرض المغنى التينور أثناء البروفات ، واقتضى الأمر لإحلال مغن آخر محله لم يكن له سابق خبرة على خشبة المسرح ، ومع ذلك احتملت الأوبرا تسعة عشر عرضا . وكانت موسيقتها صعبة ، والأغاني منسودة بالانفعالات فوق ما ينبغي . ولعل أثرا من الحركة الأدبية الألمانية المسماة

Sturm und Drang (أى الدفع والجهاد ، وهى ثورة على التنوير الفرنسى) وقد دخل هنا دخولا معارضا إلى الأوبرا الايطالية^(١٥) . على موتسارت جلب معه نظير هذا وضوح الغناء الايطالى الجميل (البيل كانتو) ، وزادت أجواء ايطاليا المشرقة وحياة هوائها الطلق من إشراق روحه السعيدة بفطرتها . وتعلم فى ايطاليا أن الأوبرا الهازلة ، كما سمعها فى أعمال بنتشيني وبايزيللو ، يمكن أن تكون فنا رفيعا ، فدرس شكائها ، وأبلغه الكمال فى « فيجارو » و « دون جوفانى » . لقد كانت كل تجربة يمر بها تعلما للدهنه اليقظ وأذنيه المراهفتين .

وشهد ١٣ مارس ١٧٧٣ الوالد والولد مرة أخرى فى سالزبورج . ولم يكن رئيس الأساقفة الجديد متسامحا فى فترات غيابهما الطويل كما كان زجسموند ، ولم ير مبرا لمكافأة ليوبولد بترقيته ، وعامل فولفجانج كأنه مجرد فرد فى حاشيته الخاصة . وتوقع من موتسارت وأبيه أن يزودا كورسه وأوركستراه بالموسيقى فورى ، جديدة ، جيدة . فظلا يشقيان عامين ليرضياه . ولكن ليوبولد لم يدركيف يستطيع أن يعول أسرته دون هذه الجولات الاضافية ، أما فولفجانج الذى تعود على سماع تصفيق الاستحسان له فلم يستطع تقبل وضعه خادما موسيقيا . ثم أنه أراد أن يكتب الأوبرات ، وكان مسرح سالزبورج ، وكورسها ، وأوركستراها وجمهورها - كل أولئك أصغر من أن يسمح لهذا الفرخ الألعى بأن يرفرف جناحيه النامين .

ثم إنقشعت السحب فترة حين كلف مكسميليان يوزف أمير بافاريا الناخب موتسارت بأن يكتب أوبرا هازلة لكرنفال ميونخ لعام ١٧٧٥ ، وحصل على موافقة رئيس الأساقفة ، بمنح المؤلف وأبيه أجازة من العمل . فغادرا سالزبورج فى ٦ ديسمبر ١٧٧٤ . وعانى فولفجانج من البرد القارس الذى ابتلاه بوجع فى الاضراس أقسى من إن تخفف منه الموسيقى أو الفلسفة ولكن حفلة الافتتاح لأوبرا « البستانية المزعومة » التى قدمت فى ١٣ يناير ١٧٧٥ حملت كرسنيان شوبارت - وكان مؤلفا مرموقا - على التنبؤ بأنه

« ما لم يثبت موتسارت في النهاية أنه نبات ربي في مستنبت زجاجي [أى
عجلت بنموه العناية البيئية المكثفة] ، فلست أشك في أنه سيصبح من أعظم
المؤلفين الموسيقيين حتى يومنا هذا » (١٦) وعاد موتسارت إلى سالزبورج
ورأسه يدوم بنشوة النجاح ليقوم بخدمة أحسن أنها ضرب حقير
من العبودية .

وأمر رئيس الاساقفة بدراما موسيقية احتفالاً بزيارة الأرشيدوق
مكسميليان ابن ماريا تريزا الأصغر ، وأخذ موتسارت نصاً قديماً لمتاستازيو
وألف « الملك الراعى » . وقد أديت في ٢٣ أبريل ١٧٧٥ . والقصة
سخرية ، أما الموسيقى فرائعة ، ومازالت مقتطفات منها تظهر في
ربرتوار الحفلات الموسيقية . وكان موتسارت في غضبٍ هائل يتدفق
بالمصنوعات والسمفونيات والكونشرتوات والسريناتات ، والقداصات ،
ومن مؤلفات هذه الأعوام التعسة قطع تعد من روائعة الخالدة — مثل كونشرتو
البيانو في مقام E الخفيض (ك ٢٧١) والسرينادة في مقام B (ك ٢٥٠) .
على أن رئيس الاساقفة قال له إنه لا يفقه شيئاً في فن التأليف الموسيقي ،
ولأن عليه أن يذهب ليدرس في كونسرفتوار نابلي (١٧) .

وطلب ليوبولد الأذن بأن يأخذ ابنه في جولة بعد أن عجز عن احتمال
الموقف فوق ما احتمال ، فرض كوللوريديو وقال إنه لا يسمح بأن يظل
أفراد من موظفيه « يستجدون الرحلات » فلما عاود ليوبولد الطلب فصله
رئيس الاساقفة هو وابنه من وظيفتهما . واغتبط فولفجانج ، ولكن ليوبولد
روعه فكرة القذف به وهو في السادسة والخمسين في خضم عالم لا يميز
الطيب من الخبيث . ولانت قناة رئيس الاساقفة ورده إلى منصبه ، ولكنه
لم يسمح له بأى غياب عن عمله . فممن تراه يصحب فولفجانج الآن في الغزوة
البعيدة التي اختطت له ؟ لقد بلغ موتسارت الحادية والعشرين ، وهي سن
المغامرة الجنسية والقيود الزيجية ، ولقد كان الآن أحوج إلى الإرشاد منه في
أى وقت مضى . ومن ثم تقرر أن تصحبه أمه . أما ماريانا التي حاولت أن
تنسى أنها هي أيضاً كانت فيما مضى فتاة عبقرية فقد مكثت لتبذل لأبها

أكرم الرعاية والمحبة . وفي ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ غادرت الأم وأبناها سالزبورج ليغزوا ألمانيا وفرنسا .

٣ - الموسيقى والزواج : ١٧٧٧ - ٧٨

كتب موتسارت لابيه - من ميونيخ في ٢٦ سبتمبر يتغنى بما ظفر به من تحرر : « إننى فى أفضل حالاتى النفسية ، فأسى تخفف من الأثقال كأنه الريشة منذ إنطلقت بعيداً عن ذلك الهراء ، وفوق ذلك أصبحت أسمن من ذنى قبل^(١٨) . ولا بد أن هذا الخطاب تقاطع مع خطاب آخر من ليوبولد ، الذى قد يذكرنا انفعاله مرة أخرى بأن أحداث التاريخ كتبت على أجساد البشر :

« بعد أن رحلتما كلاكما صعدت ساحنا فى غاية التعب ، وألقيت بنفسى على مقعد . وحين تبادلنا عبارات الوداع بذلت جهودا كبيرة لأتماسك حتى لا أجعل فراقتا شديد الأيلام ؛ وفى غمرة الزحام والأضطراب نسيت أن أمنح ولدى بركة الأب . فعدوت إلى النافذة وأرسلت بركتى خلفك ولكنى لم أرك . . . وقد بكى نانيرل بكاء مرا . . . وكلانا نرسل التحيات لأملك ونقبلك أنت وهى ملايين المرات »^(١٩) .

وعلمت ميونيخ فولفجانج إنه لم يعد معجزاً فى عالم الموسيقى ، إنما هو موسيقى فرد فى بلد يفوق فيه المعروض من مؤلفى الموسيقى وعازفيها عدد المطلوب منهم . وكان الأمل قد راوده فى الحصول على وظيفة طيبة فى حاشية الناخب الموسيقية ، ولكن كل الوظائف كانت مشغولة . فمضت الأم وولدها إلى أوجزبورج ، حيث أفنيا نفسيهما فى زيارة أصدقاء ليوبولد أيام شبابه لاستجابة لألحاح ليوبولد ، ولكن الأحياء منهم كان أكثرهم الآن يشكو السمنة والركود ، ولم يجد فولفجانج فيهم ما يثير إهتمامه اللهم إلا ابنة عم مريحة تدعى ماريانا تكلاموتسارت سوف يخلد اسمها بعبارات بلديئة . وكان ادنى إلى غرضه صانع بيانات يدعى بوهان إندرياس شتاين ، هنا

ولأول مره بدأ موتسارت الذى كان إلى الآن يعزف على الهاربسيكورد يقدر إمكانات الآلة الجديدة ، وما إن بلغ باريس حتى كان قد تم إنتقاله إلى البيانو . وفى حفلة موسيقية فى أوجزبورج عزف على البيانو والفيولينة فظفر بتصفيق شديد وريح ضئيل .

وفى ٢٦ أكتوبر مضت الأم وابنها إلى مانهايم . هناك استمتع موتسارت بالصحبة والتشجيع من موسيقيين بارعين ، واسكن الأمير الناخب كارل تيودور لم يستطع أن يجد له وظيفة ، وأكتفى بأن أتابه على أدائه فى البلاط بساعة ذهبية لا أكثر . وكتب موتسارت إلى أبيه يقول « كان أصلح لى أن ينفعنى بعشرة كارولينات . . . إن النقود هى ما يحتاج إليه المرء وهو فى رحلة ، واعلم أنى الآن أملك خمس ساعات . . . وأنا أفكر جدياً فى عمل جيب للساعات فى كل سروال من سراويلى ، وحين أزور شريفنا كبيراً سألبس ساعتين . . . حتى لا يخطر له أن ينفعنى بساعة (٢٠) » . ونصحه ليوبولد أن يبادر بالرحيل إلى باريس حيث يتلقى المساعدة من جريم ومدام ديبنيه ، ولكن فولفجانج أقنع أمه بأن الرحلة أشق من أن تطيقها فى شهور الشتاء . وإذا افترض ليوبولد أنهما راحلان عما قليل إلى باريس ، فقد حذر فولفجانج من نساؤها وموسيقيها ، وذكره بأنه الآن الأمل المرجو فى أعادة الأسرة . وقال ليوبولد إنه إستاذان سبعمائة جولدن ، وإنه يعطى دروساً خصوصية فى شيخوخته .

« وهذا أيضاً فى بلدة يبخس فيها أجر هذا العمل المرهق . . . إن مستقبلنا (نحن بفطنتك الكبيرة . . . وأنا عليم بأنك تحببى ، لا بوصفى أباك فحسب ، بل أصدق أصدقائك وأوفاهم ، وأنك تفهم وتقدر أن سعادتنا وشقاءنا ، وأكثر من ذلك طول أجلي أو التعجيل بموتى ، كلها . . . فى يديك أنت بعد الله . وإذا كنت قد أصبت فى قراءة أفكارك ، فإنى لا أتوقع منك غير الفرح والاعتباط ، وهذا وحده خليق أن يعزبنى وأنا محروم لغيابك من بهجة الأب وأنا أسمعك وأبصرك وأضمك بين ذراعى .. من صميم قلبى أمنتك بركتى الأبويه (٢١) » .

وفي أحد خطابات ليوبولد (٩ فبراير ١٧٧٨) أضافت « نانيريل » التي بلغت الآن السادسة والعشرين والتي كانت لعدم توفر المهر تواجه مستقبل العوانس ، سطوراً تكمل صورة هذه الأسرة المتحابة :

« إن بابا لا يترك لي أبداً متدماً لأكتب لماما ولكن . . . إنى أتوسل إليها ألا تنسأني ... وأتمنى لكما رحلة سارة إلى باريس مقرونة بالصحة السابعة . على أنى أرجو صداقة أن أستطيع عناقكما سريعاً . والله وحده عليم متى يحدث هذا . كلانا تواق لأن تحقق لنفسك الثراء ، فهذا معناه سعادتنا جميعاً . إنى أقبل يدي ماما وأعانقك ، وآمل أن تذكرنا وتفكر فينا دائماً . ولكن عليك ألا تفعل إلا إذا كان في وقتك متسع ، ولو ربع ساعة تتخفف أثناءه من التأليف والتدريس » (٢٢) .

في هذا المزاج من التفاؤل العظيم والثقة المشربة بالحلب تلقى ليوبولد خطاباً كتبه فولفجانج في ٤ فبراير يعلن إليه فيه وصول كيوييد . ذلك أن رجلاً من صغار الموسيقيين في مانهايم يدعى فريدولين فيبر ، حباه الحظ وأثقل كاهله بزوجة وخمس بنات وولد . وكانت السيدة فيبر تلقى شباكها لتقتنص الأزواج ، لاسيما لكبرى بناتها يوزيفا ذات التسعة عشر ربيعاً ، التي بلغت سن الزواج وخيف إن تفوتها سوقه . ولكن موتسارت تعلق بالويسيا ذات الستة عشر ربيعاً ، التي جعلها صوتها الملائكي ومفاتها الرائعة حلماً يراد خيال الموسيقى الشاب . ولم يكده يلحظ كونستانسى ذات الأربعة عشر ربيعاً التي قدر لها أن تكون زوجته . وقد ألف لألويسيا بعضاً من أرق أغانيه . فلما غنتها نسي مطامحه وفكر في مرافقتها - مع يوزيفا وابيهما - إلى إيطاليا حيث تستطيع الحصول على تدريب صوتي وتتاح لها فرص أوبرالية ، بينما يعينهم هو على العيش باحياء الحفلات الموسيقية وتأليف الأوبرات . كل هذا شرحه العاشق الصغير الشجاع لأبيه قال :

« لقد أحبيت هذه الأسرة التسعة حبا جعل أعز أمانى أن أسعدهم ونصيحتي إليهم أن يقصدوا إيطاليا . والآن أود أن تكتب لصديقتنا الطيب

لوجاني ، وخبر البر عاجله ، وتستفسر منه عن أفضل الشروط التي تعطى
لمغنية أوبرا أولى في فيرونا . . . أما عن غناء ألويسيا فأني أراهن بحياتي
أنها ستجلب لي الشهرة . . فإذا نجحت خططنا - فانتا - المهر فيبر ، وابنتاه
وأنا - سنشرف بزيارة أختنا العزيزة أسبوعين في طريقنا مرورا
بسالزبورج . . . وسيسرنى أن أكتب أوبرا لفيرونا لقاء خمسين تسكينى
(٦٥٠ دولارا) ولو لتتاح لها فرصة الشهرة . . . وسوف تكون الابنة
الكبرى نافعة جداً لنا ، لأنها تستطيع أن تدير شئون بيتنا ، فهي خبيرة
بالظهور . وبالمناسبة ، لا تدهش كثيرا إذا عرفت أنه لم يبق معي سوى اثنين
وأربعين جولدينا من السبعة والسبعين ، وليس هذا إلا نتيجة أبهاجى
لوجودى مرة أخرى في صحبة قوم شرفاء على شاكلتي في التفكير . . .

« وافنى برد سريع . ولا تنس مبلغ شوقى لكتابة الاوبرات . وأنا
أحسد أى إنسان يؤلف أوبرا . وأكاد أبكى غيظا حين أسمع . . . لحنا
(آربا) . ولكن أوبرا أيطالية لا ألمانية ، وجادة لاهازلة . . . والآن
قد كتبت كل ما يثقل صدرى . وأنى راضية تمام الرضى عن أفكارى . . .
وفكرة مساعدة أسرة فقيرة دون الأضرار بى تبهج نفسى فى الصميم . إنى
أقبل يدك ألف مرة ، ومازلت حتى الموت ولدك المطيع جداً (٢٢) »

ورد ليوبولد فى ١١ فبراير :

« ياولدى العزيز : لقد قرأت خطابك المؤرخ ٤ الجارى بدهشة
ورعب . . لقد جفانى النوم الليل كله . . يا إلهى الرحيم ! ... لقد ولت
تلك اللحظات السعيدة حين كنت وأنت طفل أو غلام لا تمضى إلى فراشك
دون أن تقف على كرسى وترتل لى . . . وتقبلنى المرة بعد المرة على طرف
أنفى وتقول لى إننى حين أشبخ ستضعنى فى صندوق زجاجى وتحمينى من
كل نسمة هواء ، حتى تحتفظ بى دائماً معك وتكرمنى . أصنع إلى إذن
وتذرع بالصبر ! . . .

ومضى يقول إنه كان يأمل أن يؤجل فولفجانج زواجه حتى يؤمن

لنفسه مكانا مكيئا فى عالم الموسيقى ، وعندها ينى بزوجة صالحة ، وينجب أسرة طيبة ، ويعين أبويه وشقيقته . ولكن هذا الأبن ينسى الآن أبويه بعد أن فتنه « سيرانة » شابة ، ولا يفكر إلا فى أن يتبع فتاة إلى ايطاليا كأنه فرد فى بطانها . فياله من هراء لا يصدق !

« انطلق إلى باريس ، ومن فورك ، وابحث عن مكانك بين عظماء القوم ، فأما أن تكون شيئاً عظيماً أو لا شيء إطلاقاً » ، فن باريس يدوى اسم الرجل ذى الموهبة العظمى وشهرته ويجلجلان فى أرجاء الدنيا بأسرها . هناك يعامل النبلاء العبقريين بأعظم إحترام وتقدير ومجاملة ، وهناك سترى أسلوباً مهذباً من الحياة هو النقيض المذهل لخشونة رجال حاشيتنا الألمان ونسائهم ، وهناك تستطيع التمكن من اللغة الفرنسية « (٢٤) » .

وأجاب موتسارت فى تواضع بأنه لم يأخذ مأخذ الجدل الشديد خطة مرافقة آل فير إلى ايطاليا ، ثم ودع الأسرة وداعاً باكياً ، ووعد بأن يراهم فى طريقه إلى أرض الوطن . وفى ١٤ مارس ١٧٧٨ اتخذ هو وأمه طريقهما إلى باريس مستقلين المركبة العامة .

٤ — فى باريس ١٧٧٨

وبلغاها فى ٢٣ مارس ، وصادف وصولهما بالضبط حركة تمجيد فولتير التى طغت على نأى قدومهما . واتخذا لهما مسكناً بسيطاً ، وانطلق موتسارت باحثاً عن عمل يكلف به . واستجمع جريم ومدام ديبنيه جهدهما ليلفتا بعض النظر إلى الشاب الذى هلت له باريس عجيبة موسيقية قبل أربعة عشر عاماً . فعرضت عليه فرساي وظيفة عازف أرغن البلاط لقاء ألقى جنينه لخدمة ستة أشهر كل سنة ونصحه ليوبولد بقبول العرض ، وعارض جريم ، ورفض موتسارت الوظيفة لأن الأجر بخس ، وربما لأنها لا تناسب موهبته . وفتحت له بيوت كثيرة إن قبل العزف على البيانو لقاء وجبة غداء أو عشاء . ولكن حتى الوصول إلى هذه البيوت اقتضى رحلة غالية فى عربة تشق طرقاً موحلة . ولاح بصيص من الأمل

في أحد النبلاء المدعو الدوق دجين ، والف موتسارت له ولابنته الكونشرتو الرائع في مقام (C) للفلاوته والمهارب (ك٢٩٩)، وأعطى الشابة الذبيلة دروسا في التأليف الموسيقى لقاء أجر طيب، ولكنها لم تلبث أن تزوجت ولم يدفع الدوق سوى ثلاثة جنيهات ذهبية « لوى دور » (٧٥ دولارا) لكونشرتو كان خليقا بأن يطرح باريس تحت قدمي موتسارت . ولأول مرة في حياته فارقت شجاعته . فكتب إلى أبيه في ٢٩ مايو يقول « اننى فى صحة لا بأس بها ولكننى كثيرا ما أتساءل هل الحياة تستحق أن يعيشها المرء » . وانتعشت روحه المعنوية حين كلفه لجرو ، مدير الكونسير « سيرتيوبل بكتابة سمفونية (ك ٢٩٧) أدت بنجاح فى ١٨ يونيو .

ثم ماتت أمه فى ٣ يوليو . وكانت قد بدأت حياتها الجديدة بالاستمتاع بتخفيفها من مناعب سالزبورج وعناء الزوجية ، ولكن سرعان ما حنت إلى بيتها وواجباتها واتصالاتها اليومية التى تضى على حياتها غنى ومغزى . وحطمت صحتها رحلة الأيام التسعة إلى باريس فى مركبة مهتزة ورفقة منفرة ومطر غزير ، وألقى فشل ابنها فى أن يجد له وظيفة فى باريس ظلا من الكتابة على روحها المرحه عادة . وراحت تقضى الأيام وحيدة وسط بيئة غريبة وألفاظ لاتفهمها ، بينما يذهب ابنها إلى تلاميذه وإلى الحفلات الموسيقية والأوبرات ... وأما موتسارت الآن تذبل فى هدوء ، وانفق الأسابيع الأخيرة بجوارها برعاها ويحنو عليها ولايكاد يصدق أنها قد تموت بهذه السرعة .

وقدمت له مدام دينيه حجرة فى منزلها مع جريم ، ومكانا على مائدتها ، وحرية استعمال بيانها . ولم ينسجم تماما مع جريم فى هذه الجيرة ، القرية فلقد كان جريم يمجّد فولتير وموتسارت يحترقه ، وصدمه زعم مضيفيه وأصدقائهم بأن المسيحية ليست سوى أسطورة نافعة فى ضبط المجتمع . وأراد جريم أن يقبل التكاليفات الصغيرة سبيلا إلى الكبيرة ، وأن يعزف دون أجر الأسر ذات النفوذ ، بيد أن موتسارت أحس أن عملا كهذا سينضب قوته التى يؤثر أن يسخرها للتأليف . وحكم

جريم بأنه كسلان ، وأخبر ليوبولد بحكمه هذا فأمن عليه^(٢٥) . وزاد الموقف سوءاً اقتراض موتسارت المرة بعد المرة من جريم مبالغ بلغت جملتها خمسة عشر جنيها ذهبيا (٣٧٥ دولارا) . وأخبره جريم أن في امكانه تأجيل السداد إلى أجل غير مسمى . وكذلك كان^(٢٦) .

وحسم الموقف خطاب (٣١ أغسطس ١٧٧٨) من موتسارت الأب يقول إن رئيس الأساقفة كوللوريديو عرض أن يرقى الأب رئيسا للمرتلين إذا عمل فولفجانج عازفا على الأورغن ورئيسا للموسيقين ، على أن يعطى كل منهما خمسمائة فلورين في العام ، يضاف إلى هذا « أن رئيس الأساقفة صرح أنه على استعداد لأن يسمح لك بالسفر حيث تشاء ان أردت كتابة أوبرا » . ثم أضاف ليوبولد طعما قدر أن موتسارت لا بد مبتلعه . فقال ان ألويسيا فيبر ستدعى على الأرجح للانضمام إلى كورس سالزبورج ، وفي هذه الحالة « لا بد ان تعيش معنا »^(٢٧) . ورد موتسارت (١١ سبتمبر) حين قرأت خطابك حزنى الطرب لأننى شعرت بأننى أصبحت فعلا في حضنك . صحيح أن العرض لا يحمل أملا كبيرا لى في المستقبل كما إخالك معترفا ، ولكن حين أنطلع إلى لقائك وعناق أختي العزيزة جدا لا أفكر في أى أمل آخر .

وعليه ففي ٢٦ سبتمبر استقل المركبة إلى نانسى . وفى ستراسبورج كسب بضعة جنيهات لقاء حفلات شاقة في مسارح كادت تخلو من روادها . وتلبث في ماهايم أملا في تعيينه قائدا للأوبرا الألمانية ، ولكن هذا الأمل أيضا خاب كغيره ومضى إلى ميونخ وهو يحلم بألويسيا فيبر . ولكنها كانت قد وجدت مكانا في كورس الأمير الناخب ، ربما في قلبه ، فاستقبلت موتسارت بهدؤ لم يبد فيه أى رغبة في أن تكون عروسا له . فألف وغنى أغنية مره ، ثم راض نفسه على قبول سالزبورج .

٥ - سالزبورج وفيينا : ١٧٧٩ - ٨٢

وصل إلى البيت في منتصف يناير ، واستقبل باحتفالات ألقى عليها ظلا من الحزن لإدراكه الألم الآن لحقيقة موت الأم . وسرعان ما شد إلى

نيره عازفا للأرغن ورئيسا لفرقة الموسيقى ، وسرعان ما أصابه القلق والتبرم وقد تذكر هذه الأيام فيما بعد :

« في سالزبورج كان العمل عبثاً على ، ولم أكد أستطيع إن أسكن إليه قط . فلم ذلك ؟ لأننى لم أكن قط سعيداً . . . فليس في سالزبورج — من وجهة نظرى على الأقل — تسليّة لها أى قيمة . وأنا أرفض الاختلاط بأشخاص كثيرين هناك — أما غيرهم فأكثرهم لا يرونى ضالّحا لصحبته . أضف إلى ذلك إنه ليس هناك من حافظ لموهبتي . وكأن الجمهور خشب مسندة لا تستجيب حين أعزف أو حين تؤدي قطعة من تأليفي . أتمنى لو كان في سالزبورج ولو مسرح واحد متوسط الجودة (٢٨) » .

وناقث نفسه إلى كتابة الأوبرات ؛ ورحب بطلب الأمير الناخب كارل تيودور أن يكتب أوبرا للمهرجان ميونخ التالى . فشرع يكتب « لايدومنيو ملك كريت » في أكتوبر ١٧٨٠ ، وفي نوفمبر ذهب إلى ميونخ لعمل البروفات . وفي ٢٩ يناير ١٧٨١ أخرجت الأوبرا بنجاح رغم طولها غير العادى . ومكث موتسارت في ميونخ ستة أسابيع أخرى ، يستمتع بحياتها الاجتماعية ، حتى استدعاه رئيس الأساقفة كولوريدو ليلحق به في فيينا . هناك سره أن يسكن القصر الذى يسكنه رئيسه ، ولكنه كان يأكل مع الخدم . « يجلس التابعان على رأس المائدة ؛ وأنا أحظى بشرف الجلوس مقدما على الطبّاخين (٢٩) » . وكان هذا عرفا شائعا في ذلك العصر في بيوت النبلاء ، وقد احتمله هايدن باستياء مكظوم ، أما موتسارت فقد تمرّد عليه في علانية متزايدة . وقد سره أن تعرض موسيقاه وموهبته في بيوت أصدقاء رئيس الأساقفة ؛ ولكنه استشاط غيظاً حين رفض كولوريدو معظم توسلاته أن يأذن له بقبول ارتباطات خارجية قد تأتيه بدخل إضافي وشهرة أوسع . « حين أفكر في أننى سأعادر فيينا دون أن يكون في حوزة ألف فلورين على الأقل يغوص قلبي في باطنى (٣٠) » .

وصحت نيّته على أن يترك خدمة كولوريدو . ففي ٢ مايو ١٧٨١ ذهب ليسكن نزىلا مع آل فيبر الذين كانوا قد أنقلوا إلى فيينا . ولما أرسل

إليه رئيس الأساقفة تعلية بالعودة إلى سالزبورج ، أجاب بأنه لن يستطيع الرحيل قبل ١٢ مايو . وتلا ذلك لقاء مع رئيس الأساقفة ، روى موتسارت مادار فيه لأبيه فقال :

« إنه رمانى بأفزع الشتام - أوه ! إننى فى الحق لا أستطيع حمل نفسى على أن أكتبها كلها لك ! وأخيراً ، حين أحسست بالدم يغلى فى عروقى ، لم أطق أن أحتمل أكثر مما احتملت ؛ فقلت له : « إذن فسموك لست راضياً عني » ماذا ! أتريد أن تهددنى : أيها الوغد ، أيها النذل ؟ دونك الباب إذن ، لن يكون لى صلة بعد اليوم برجل تعس مثلك ! « وأخيراً قلت « ولا أنا بك . « إذن فأخرج ! « وفيما أنا خارج قلت « فليكن ، وغدا سيصلك منى خطاب » . قل لى يا أبى العزيز أما كان لزاماً على أن أقول هذا عاجلاً أو آجلاً ؟ . . .

« اكتب لى سرّاً بأنك مسرور - لأن لك الحق فى أن تسر حقيقة - وانتقدنى إنتماذا قاسياً علانية ، حتى لا يقع عليك أى لوم أو تهريب . ولكن إذا نالك من رئيس الأساقفة أى اهانة فتعال إلى فوراً فى فيينا . ففى وسعنا نحن الثلاثة أن نعيش على دخلى (٣١) » .

ودفع ليوبولد فى أزمة أخرى . وبدا أن منصبه تعرض للخطر ، وكان لأبد أن ينقضى بعض الوقت حتى تصله تأكيدات من كوللوويدو . وافرعه نبأ مساكنة ابنه لآل فير . فقد مات رب الأسرة ، وتزوجت اليوسيا الممثل يوزف لانجى ، ولكن كان الأرملة بنت أخرى تدعى كونستانسى تنتظر زوجاً . أفهذا طريق مسدود آخر أمام فولفجانج ؟ وتوسل إليه ليوبولد أن يعتذر لرئيس الأساقفة ويعود . ورفض موتسارت لأول مرة أن يطيع أباه . « إننى فى سبيل رضاك يا أبى مستعد لأن أنخلى عن سعادتى وصحتى بل وحياتى ذاتها ، ولكن شرفى فوق كل شئ عندى ، وكذلك يجب أن يكون عندك . يا أعز الآباء وأكرمهم ، طالبنى بما شئت إلا هذا (٣٢) » . وفى ٢ يونيو بعث إلى ليوبولد بثلاثين دوقانية عربونا لمساعدته المقبلة .

وتوجة ثلاث مرات إلى مسكن رئيس الأساقفة بقمينا ليقيم إستقالة الرسمية . ورفض حاجب كولوريدو أن ينقلها لسيدته ، وفى المرة الثالثة « ألقى بموتسارت خارج حجرة الانتظار وأردف ذلك بركلة فى ظهره » - وهى العبارة التى وصف بها موتسارت المشهد فى خطابه المؤرخ ٩ يونيو (٢٣) . ولكى يرضى أباه أنتقل من بيت فير إلى مسكن آخر . واكد لليوبولد أنه إنما كان « يمزح » فقط مع كونستانسى . « ولو كان على أن أتزوج كل من ضحكت معهن لكان لدى على الأقل مائتا زوجة (٢٤) » . على أنه كتب لأبيه فى ١٥ ديسمبر يقول إن كونستانسى غاية فى اللطف والسذاجة وحب البيت ، وهو لذلك يريد أن يتزوجها .

« أنرعبك الفكرة ؟ ولكنى أتوسل إليك يا أعز أب وأحبه أن تصنى إلى . . . إن صوت الطبيعة يتكلم فى باطنى عالياً كما يتكلم فى غيرى - بل ربما أعلى مما يتكلم فى رجل ضخم قوى غليظ . لأننى ببساطة لا أستطيع أن أعيش كما يعيش معظم الشباب فى هذه الأيام . أولاً لأننى متدين جداً ، وثانياً لأننى أشد حباً للجار وأرفع احساساً بالشرف من أن أغوى فتاة بريئة ، وثالثاً لأنى من الرعب والتقرز ، ومن رهبة الأمراض والخوف منها ، ومن الرعاية لصحتى ، ما يعصمنى من العبث مع النسوة الفاجرات . وفى وسعى أن أقسم أنه لم يكن لى قط علاقات من هذا النوع مع أى امرأة . . . وأراهن بحياتى على صدق ما قلته لك . . .

« ولكن من هى موضوع حبي ؟ . . أليست إحدى بنات فير ؟ بلى . . . لأنها كونسانتى . . . أرقهن كلهن وأذكاهن وأفضلهن جميعاً . . . قل لى هل فى استطاعتى أن أتمنى لنفسى زوجة خيراً منها . . قصارى ما أطمع فيه أن يكون لى دخل مضمون صغير (وهذا رجائى الوطيد بحمد الله) ، وعندها لن أكف عن رجائك بأن تسمح لى أن أنقل هذه الفتاة المسكينة وأن أحقق لى - ولنا جميعاً إن جاز لى القول - السعادة الكاملة . فلا أشك أن سعادتى تسعدك ؟ وستحظى بنصف دخلى الثابت . . . أرجوك أن تشفق على ولدك ! (٢٥) »

ولم يعرف لوبولد ماذا يصدق . فقد بذل كل جهد ليثنى ولده .
المفلس تقريباً عن الزواج ، ولكن موتسارت أحس بأنه بعد أن قضى ستة
وعشرين عاماً من الطاعة لأبيه آن الأوان لينفذ مشيئته ويحيا حياته . وظل
سبعة أشهر يلتمس عذراً موافقة أبيه ، وأخيراً ، في ٤ أغسطس ١٧٨٢ ،
تزوج دون هذه الموافقة . وفي ٥ أغسطس وصلت الموافقة ، وأصبح
موتسارت الآن حراً في أن يكتشف إلى أي حد يستطيع المرء أن يعول
أسرة بتأليف حشد من أكثر أنسواع الموسيقى الرائعة تنوعاً في
تاريخ الإنسان .

٦ - المؤلف الموسيقي

كان له عذره في الثقة بنفسه ، لأنه كان قد أشهر عازفاً على البيان ،
وحصل على دروس خاصة لتلاميذ يدفعون أجوراً مجزية ، وأخرج أوبرات
ناجحة ، فلم يمض شهر على تركه خدمة رئيس الاساقفة حتى تلقى
من الكونت أورسيني - روزنبرج مدير مسارح بلاط يوزف الثاني ،
تكليفاً بتأليف (دراما منظوقة) تتخللها الأغاني . وعرضت النتيجة في
١٦ يوليو ١٧٨٢ ، في حضرة الامبراطور ، تحت اسم (الاختطاف من
السراي) . وأدائها فريق من خصومه ، ولكن كل السامعين تقريباً فتنهم
الأغاني المرححة التي ازدان موضوع عتيق : حسناء مسيحية يأسرها القراصنة ،
ويبعونها لحریم تركي ، ثم ينقذها حبيبها المسيحي بعد دسائس لا تصدق .
وكان تعليق يوزف الثاني على الموسيقى « أنها يا عزيزي موتسارت أجمل
مما تحتماه آذاننا ، وأنغامها كثيرة جداً » . وهو تعليق أجاب عنه المؤلف
المتهور « أنها بالضبط يا صاحب الجلالة بالكثرة التي يقتضيها المقام » . (٣١)
وأعيد عرض الأوبريت ثلاثاً وثلاثين مرة في فيينا في سنها الست الأولى .
وقد أطراها جلوك ، وإن أدرك أنها أغفلت تماماً « إصلاحه » للأوبرا ،
وأعجب بالتأليفات الآلية لهذا الشاب العتيق ، ودعاه لتناول الغداء معه .

وقد استمد موتسارت الهامه من إيطاليا لا من ألمانيا ، وآثر اللحن
والتوافق البسيط على البوليفونية « تعدد الأصوات » المعقدة المتعمقة . ولم

يشعر بتأثيرات قوية من هندل ويوهان سبستيان باخ إلا في عقده الأخير .
وفي ١٧٨٢ انضم إلى الموسيقيين الذين كانوا يحيون الحفلات تحت رعاية
البارون جوتفريد فان زفيتن ، وأكثرها من تأليف هندل وباخ ، في المكتبة
القومية أو في بيت فان زفيتن . وفي ١٧٧٤ كان البارون قد جلب من برلين
إلى فيينا كتاب (فن الفوج) و (الكلافورد الحسن الضبط) وغيرهما من
أعمال س . س . باخ . واستنكر الموسيقي الايطالية لأنها تفتقر إلى
الاتقان الشديد ، ورأى أن الموسيقى الحقة تتطلب الالتفات الدقيق للفوج ،
والبوليفونية ، والكونترابنط . أما موتسارت فهو وإن لم يسمح قط للبناء
أو القاعدة أو الشكل بأن تكون غاية في ذاتها ، فقد أفاد من نصيحة فان
زفيتن وموسيقاه ، ودرس هندل وأل باخ الكبار بعناية . وبعد ١٧٨٧
قاد موسيقى هندل في فيينا ، وسمح لنفسه بشيء من الحرية في توفيق
مدونات هندل لأوركسترات فيينا . وفي موسيقاه الآلية اللاحقة زواج
بين الميلوديا الايطالية والبولفونية الألمانية في وحدة متسقة .

والنظرة العجلى إلى كتالوج كوشل لمؤلفات موتسارت هي إحدى
التجارب الشديدة الوقع في النفس . فهناك قائمة ضمت ٦٢٦ عملا - وهي
أكبر حجم من الموسيقى خلفه أى مؤلف عدا هايدن ، وكلها أنتج في حياة
صاحبها التي لم تتجاوز ستا وثلاثين سنة ، ونحوى روائع من شتى الأشكال :
٧٧ صوناتا ، و ٨ ثلاثيات ، و ٢٩ رباعية و ٥ خماسيات ، و ٥١ كونشرتو ،
و ٩٦ قطعة خفيفة (ديفرتمنتى) أوركصات أو سرينادات ، و ٥٢
سبفونية ، و ٩٠ لحنا أو أغنية ، و ٦٠ مؤلفا دينيا ، و ٢٢ أوبرا .
وإذا كان بعض من كانوا قريبين من موتسارت حسبوه كسولا ، فربما
كان السبب أنهم لم يدركوا تماما أن عناء الروح قد يضنى الجسد ، وأن
العبقرية إذا حرمت فترات الكسل انزلقت إلى الجنون . وقد قال له أبوه
(إن التأجيل خطيئتك التي لا تفتأ محدقة بك) (٢٧) . وكان موتسارت في
كثير من الحالات يؤجل إلى آخر ساعة تدوين الموسيقى التي كانت تتخلق
في رأسه . قال « لاني - إن شئت - منقوع في الموسيقى . فهي في عقل
طوال اليوم ، وأنا أحب أن أحلم بها ، وأدرسها ، وأتأملها . » (٢٨) وقد
روت زوجته « كان دائم النقر على شيء ما - على قبعته ، أو كاتينة

ساعته - أو المائدة أو المقعد وكأنها لوحة المفاتيح . » (٣٩) وكان أحيانا يواصل هذا التأليف الصامت حتى وهو يبدو مصغيا لاحدى الأوبرات . وكان يحتفظ بقصاصات من ورق تدوين الموسيقى فى جيبوبة أو فى جيب العربة الجانبي وهو مسافر ، ثم يدون عليها نوتات متناثرة ، وقد ألف أن يحمل علبة من الجلد تتلقى هذه الاشيات . فإذا تأهب للتأليف لم يجلس إلى لوحة المفاتيح بل إلى منضدة . تقول كونستانسى « كان يكتب الموسيقى كما يكتب الخطابات ، ولم يحاول قط عزف حركة حتى تكتمل . » أو قد يجلس إلى البيان ساعات بأكملها يرتجل ويترك خياله الموسيقى حرا طليقا فى الظاهر ولكنه فى نصف وعى يخضعه لبناء متميز - كشكل الصونانا ، أو الآريا ، أو الفوجة . . . وكان الموسيقيون يستمعون بارتجالات موتسارت لأنهم كانوا يستطيعون أن يتبينوا فى ابتهاج خفى الذسق المتوارى خلف أنغام تبدو عفوية فى ظاهر الأمر . قال نيمتشك فى شيخوخته « لو جرؤت على أن أصلى طلبا لفرحة أرضية أخرى لكأنت أن أسمع موتسارت يرتجل » (٤٠)

وكان فى إستطاعة موتسارت أن يعزف أى موسيقى تقريبا بمجرد الاطلاع نوتها لأن طول خبرته بارتباطات النوتات وتعاقباتها المعينة أتاح له قراءتها كأنها نوتة واحدة ، وكانت أنامله المدربة تعزفها كأنها جملة أو فكرة موسيقية واحدة ، تماما كما يستوعب القارئ المدرب سطرا كأنه كلمة ، أو فقرة كأنها سطرا . واقترنت ذاكرة موتسارت بهذه القدرة على إدراك الكلليات ، والأحاساس بالمنطق الذى يلزم الجزء بالدلالة على الكل . وفى السنوات اللاحقة كان يستطيع أن يعزف أيا من كونشرتواته تقريبا عن ظهر قلب . وفى براغ كتب أجزاء الطبله والبوق للخانمة الثانية فى « دون جوفانى » دون أن تتاح له نوته الآلات الأخرى ، وكان قد حفظ تلك الموسيقى المعقدة فى ذاكرته . وذات مرة دون جزء الفيوولينه فقط من صوناتا للبيانو والفيوولينه ، وفى الغد ، ودون بروفا ، عزفت رجينا سترينا زاكى جزء الفيوولينه فى حفاة ، وعزف موتسارت جزء البيانو من مجرد ذكرى تصوره دون أن يتسع له الوقت لتدوينها على الورق (٤١) . ولعل صحائف التاريخ لا تحوى ذكرى رجل آخر استغرقت الموسيقى إلى هذا الحد .

ونحن ننظر إلى صوناتات موتسارت على إنها أقرب إلى الخفة والمعاينة ،
وأنها لا تقف في صف مع ألحان بيتهوفن المشبوبة القوية من نفس النوع ،
وقد يكون السبب أنها كتبت لتلاميذ محدودى المهارة في العزف ، أو لها
ريسيكوردات ذات تصويت محدود ، أو لبيانو لم يؤت وسيلة لمواصلة
نغمة^(٤٢) . والصونات في مقام A (ك ٣٣١) . وما حوت من « منويته »
ممتعة ، و « الروندو الأتوركا » مازالت (١٧٧٨) بأسلوب الهاربسيكورد .

ولم يكن موتسارت أول الأمريهيم بموسيقى الحجرة ، ولكن في ١٧٧٣
وقع على رباعيات هايدن المبكرة ، وحسد ما فيها من براعة كونترابتنية ،
وقلدها تقليدا قارب النجاح في الرباعيات الست التى ألفها في تلك السنة .
وفي ١٧٨١ نشر هايدن سلسلة أخرى ، وحرك هذا موتسارت ثانية للمنافسة
فأصدر (١٧٨٢ - ٨٥) ست رباعيات (ك ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ،
٤٥٨ ، ٤٦٤ - ٦٥) يعترف الجمع الآن بأنها من أرفع الأمثلة في
بأها . وشكا العازفون من صعوبتها الهائلة ، وانتقد النقاد الرباعية السادسة
على الأخص لتنافراتها المتعارضة ومزجها الصاخب بين المفاتيح الكبيرة
والصغيرة . ردد موسيقى ايطالى النوتة للناشر محتجا بأن من الواضح أنها تزخر
بالأخطاء الفظيعة . ومزق أحد المشترين أوراقها وقد استشاط غضبا حين
وجد إن التنافرات متعمدة . ومع ذلك فإن هايدن قال لليوبولد موتسارت
بعد عزفة الرباعيات الرابعة والخامسة والسادسة مع موتسارت وديترسدورف
وغيرهما « أمام الله ، وبصفتي رجلا صادقا ، أقول لك إن إبنك أعظم من
عرفت من المؤلفين قاطبة سواء شخصا أو بالاسم . فهو ذواق ، وأكثر
من ذلك يملك أعمق معرفة بالتأليف الموسيقى^(٤٢) » . فلما نشرت الرباعيات
الست (١٧٨٥) أهداها موتسارت إلى هايدن بخطاب يتألق بتفرده حتى وسط
ما تبادل من رسائل كلها رائع :

« إن أبا قرر أن يدفع بأبنائه إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكلهم
إلى رعاية وارشاد رجل كان ذائع الصيت في ذلك الحين ، واتفق فوق
ذلك إنه كان أصدق أصدقائه . وبالمثل أدفع بأبنائى الستة إليك ، أيها الصديق

الأعز الأشهر . حقاً أنهم ثمرة درس طويل شاق ، ولكن الأمل الذى عللنى به أصدقاء كثيرون بأن تعبى فيهم سيعوضة بعض الجزاء . . . يملأنى زهواً بهذه الفكرة ، وهى أن أبنائى هؤلاء سوف يكونون يوماً ما مبعث عزاء لى .

« لقد اعربت لى أثناء مقامك بهذه العاصمة . . . عن استحسانك لهذه المؤلفات ، ويشجعنى تقديرك لها على أن اهديها إليك ويغرينى بالأمل بأنك لن تراها غير جديرة برضائك . فأرجو أن تتفضل بقبولها ، وكن لها بمثابة الأب والمرشد والصديق . ومنذ هذه اللحظة أنزل لك عن جميع حقوق عليها . على أننى ألتمس منك أن تعفو عن الأخطاء التى ربما غابت عن عين مؤلفها المتحمزة ، وان تواصل برغمها صداقتك الكريمة لرجل يقدر هذه الصداقه اسمى تقدير (٤٤) » .

وكان لموتسارت ولح خاص بخماسياته . وكان يرى أن خماسيته بمقام E المنخفض للبيانو والأوبوا والكلا رنيت والمهورن والباصون (ك ٤٥٢) « خير ما ألفت قاطبة (٤٥) » . ولكن هذا كان قبل أن يكتب أوبراته الكبرى . وكانت قطعة Einekleine Nachtmusik « موسيقى ليلية صغيرة » فى الأصل (١٧٨٧) مؤلفة كخماسية ، ولكن مرعان ما تلقها الأوركسترات الصغيرة ، وهى الآن تصنف بين « سرنادات موتسارت . وكان يقدر السرينات بمقام E المنخفض (ك ٣٧٥) لأنها مكتوبة « بشئ من العناية » ، وهى القطعة التى عزفت له هو نفسه ذات أمسية فى ١٧٨١ ، ولكن الموسيقين يؤثرون عليها فى المرتبة السرنادة بمقام C الصغير (ك ٣٨٨) - التى تعدل فى قناتها ألحان بهوفن وتشايكوفسكى الحزينة (الباتليك) .

ووجه موتسارت الأوركستر بعد أن اكتشفه إلى عشرات التجارب : افتتاحيات ، وموسيقىات حاملة ، ومتتاليات ، وكاسا سيونات cassations (وهى تنويعات للمتتالية) وموسيقىات راقصة ، وأخرى خفيفة (ترفهية divertimenti) ، وقصد بالأخيرة عادة إن تخدم هدفاً عابراً لا أن يتردد

صداها في أبهاء التاريخ ، وعلينا أن نستمتع بها لأن نزنها . وحتى مع هذا ، فإن القطعة الخفيفة رقم ١٥ (ك ٢٨٧) ورقم ١٧ (ك ٣٣٤) عملان قيان ، وأبعث للبهجة من معظم السمفونيات .

واستعمل موتسارت كما استعمل هايدن لسمفونياته « فرقة » من خمسة وثلاثين عازفا ، ومن ثم فهي تقصر دون توصيل قيمتها الكاملة لآذان ألفت الجمهورية المضاعفة في أوركسترات القرن العشرين ويطرى النقاد السمفونية رقم ٢٥ (ك ١٨٣) لأنها « مشبوبة العاطفة »^(٤٦) و « آية في التعبير العنيف .. »^(٤٧) ولكن أقدم سمفونيات موتسارت المشهورة هي « باريس » (رقم ٣١ ك ٢٩٧) التي طوعها موتسارت لحب الفرنسيين للركة والفتنة . أما سمفونية هافنر (رقم ٣٥٠ ك ٣٨٥) فقد ألفت أصلا على عجل لتزدان بها المهرجانات التي أعدها زجسموند هافنر ، عمدة سالزبورج السابق ، لزفاف ابنته (١٧٨٢) ، وفي تاريخ لاحق أضاف موتسارت إليها أدوارا للفلاوتة والكларنيت ثم قدمها في فيينا (٣ مارس ١٧٨٣) في حفلة حضرها يوزف الثاني « وصفق لى الأباطور تصفيقا حارا » ، ونفحة بخمس وعشرين دوقائية^(٤٨) . وفي هذه السمفونية ورقم ٣٦ ، التي كتبها في لنتز في نوفمبر ١٧٨٣ ، ظل موتسارت محافظا على الشكل والطابع — المبهجين دائما ، العميقين فيها ندر — اللذين طبع بهما هايدن السمفونية ، وفي السمفونيتين تقبج الحركة البطيئة من الآذان المسنة موقع الاعتباط والعرفان . وعلينا أن نتكلم باحترام أكثر على السمفونية رقم ٣٨ التي ألّفها موتسارت لبراغ في ١٧٨٦ ، هنا تهبج الحركة الأولى الموسيقى بمنطقها البنائى ومهارتها الكونترابنطية ، أما حركتها المعتدلة البطء (الأندانتى) التي أضافت التأمل إلى اللحن ، فقد حملت الخبراء على الاشادة بـ « كما لها الخالد »^(٤٩) و « عالمها السحري »^(٥٠) .

وهناك إجماع على أن أعظم سمفونيات موتسارت قاطبة هي الثلاث التي سكبها في سنيل متدفق من الإلهام في صيف ١٧٨٨ ، في حقبة من حياته ألم به فيها فقر كتيب وأثقلته ديون متفاقمة . والأولى مؤرخة ٢٦ يونيو ،

والثانية ٢٥ يوليو ، والثالثة ١٠ أغسطس — ثلاثة أطفال أنجبت في ثلاثة أشهر . وعلى قدر علمنا لم تعزف واحدة منها في حياته قط ، ولم يسمعها قط ، بل ظلت في ذلك العالم الخفى الغامض الذى كانت فيه البقع السوداء المسطورة على فرخ من الورق في نظر مؤلفها — « قصائد معدة للغناء لا صوت لها » — علامات وايفاعات لا يسمعها غير الدهن . والثالثة التى تسمى خطأ « جوبيتر » (رقم ٤١ بمقام C ك ٥٥١) تعد عادة خيرها ، ويرى شومان أنها تعدل أعمال شكسبير وبيتهوفن^(٥١) ، ولكنها لا تصلح لتذوق الهواة . والسفونية رقم ٤٠ فى مقام G الصغير (ك ٥٥٠) تبدأ بقوة ترهص بموسيقى Eroica ثم تتطور تطوراً دعا المعلقين — فى نضالهم للتعبير عن الموسيقى بالألفاظ دون جذوى — إلى إن يقرؤا فيها « ليرا » أو « مكبثا » من المأساة الشخصية^(٥٢) ، ولكنها للأذان الأيسر تبدو مبهجة بهجة ساذجة تقريباً . وهذه الآذان نفسها تجد أن أعظم السفونيات إشباعاً لها هى رقم ٣٩ فى مقام E المنخفض (ك ٥٤٣) ، فهى لا يثقلها كرب ، ولا تعلبها التقنية ، إنما هى الإيقاع واللحن ينسابان فى غدير هادىء مطمئن ، وهى من نوع الموسيقى التى قد تهيج قلوب الآلة فى أجازة ريفية من الأعباء السماوية .

و « السفونية كونشرتانتى » هى هجين بين السفونية والكونشرتو ، وقد نبقت من الكونشرتو جروسو بمقابلة آلتين أو أكثر للأوركستر فى حوار بين الميلوديا والموسيقى المصاحبة . وقد ارتفع موتسارت بهذا الشكل إلى ذروته فى « السفونية كونشرتانتى » فى مقام E المنخفض (ك ٣٦٤) للفلاوته والفيولينه والفيولا (١٧٧٩) ، وهى لا تقل روعة عن أى من سمفونياته الأخرى .

وكل الكونشرتوات مبهجة ، ففيها تعيين فقرات العزف المنفرد الأذن غير المدربة على تتبع مواضيع وانغام قد يحجبها فى السفونيات التعقيد التقنى أو التفنن الكونترابنطى . والحوار فيها طريف ، ويزداد طرافة اذا كانت المناظرة بين واحد والكل « Solo contra tutti » كما نرى فى شكل الكونشرتو كما اقترحه كارل فليب إيمانويل باخ وطوره موتسارت . ولما كان موتسارت

يستطيع هذه المواجهات الهارمونية ، فانه كتب معظم كونسرتواته للبيانو ،
ففيها كان يعزف دور العازف المنفرد بنفسه مضيفا عادة في أواخر الحركة
الأولى قفلة تتيح له ان يسرح ويمرح ، وان يتألق عازفا بارعا لآلته .

وأول ما بدأ يتفوق في هذا الضرب كان في كونسرتو البيانو رقم ٩ في
مقام E المنخفض (ك ٢٧١) . وأول كونسرتواته التي ما زالت محببة
للسامعين هي رقم ٢٠ في مقام D الصغير (ك ٤٦٦) الشهيرة بـ « الرومانتسى »
الطفلية الطابع تقريبا . ويجوز لنا أن نقول انه في هذه الحركة البطيئة بدأت
الحركة الرومانسية في الموسيقى . وسواء كان السبب هو الكسل أو الشواغل ،
فان موتسارت لم يكمل تدوين موسيقى هذا الكونسرتو إلا قبل ساعة من
الزمن المحدد لأدائه (١١ فبراير ١٧٨٥) ، ووصلت نسخة العازفون وأدى
موتسارت دوره أداء خبير صناع ، حتى لقد طلبت إعادة الكونسرتو مرات
كثيرة في السنوات التالية .

وقدم موتسارت موسيقى رفيعة لآلات منفردة أخرى . ولعل الكونسرتو
الرخيم في مقام A للكلارينيت (ك ٦٢٢) يصلنا مذاعا مرارا أكثر من أى
من مؤلفاته الأخرى . وفي شبابه المرح (١٧٧٤) كان يستمتع أيما استمتاع
بكونسرتو في مقام B المنخفض للباسون . وكانت كونسرتوات الهورن
فقاعات تنفخ في مرح على النوتة - التي كانت أحيانا تحوى تعليمات مضحكة
للعازف . « da brava ! corraggio ! bestia ! » لأن موتسارت كان
خبيرا بأكثر من آله نفخ واحدة . ثم يرفعنا كونسرتو الفلاوته والهارب
(ك ٢٩٩) إلى السماء الأعلى .

وفي ١٧٧٥ حين كان موتسارت في التاسعة عشرة ألف خمسة كونسرتوات
للقيولينه وكلها رائع ، وثلاثة منها ما زالت تحتويها ربرتوارات حية إلى اليوم .
والكونسرتو رقم ٣ في مقام G (ك ٢٢٦) فيه حركة بطيئة (أداجو)
انتشى لها رجل كآينشتين^(٥٣) ، ورقم ٤ في مقام D من روائع الموسيقى ،
ورقم ٥ في مقام A فيه حركة غنائية معتدلة البطء تنافس معجزة
صوت المرأة .

لا عجب إذا كان موتسارت قد أنتج بعضاً من ألد الألحان في التأليف الموسيقي قاطبة ، لا سيما في سنوات حبه لألويسيا فيبر . وهي ليست أغاني (ليدات) مكتملة التفتح كالتى حققت تطويرها الناجح على يد شوبرت وبرامز ، إنما هي أبسط وأقصر ، تزين في الغالب كلمات سخيفة ، ولكن موتسارت إذا وجد شعرا بمعنى الكلمة كقصيدة جوته (البنفسجية) « ارتفع إلى ذرى الشكل (ك ٤٧٦) . فيها هنا بنفسجة مرتعشة فرحا باقتراب راعية حسناء تقول في نفسها ما أحلى الرقاد على صدرها ؟ ولكن بينما كانت الراحية تمشي وهي تغني في جذل إذا هي تسحقها تحت قدمها دون أن تلحظها . (٥٤) أكانت هذه ذكرى ألويسيا القاسية ؟ لقد كتب لها موتسارت من قبل لحنا من أرق ألحانه Non so d'onde viene . ولكنه لم يلق بالآلى مثل هذه الأغاني المنعزلة ، فقد احتفظ بموارد فنه الصوتى الخفية لألحان أوبراته وللمؤلفات التى وضعها للكنيسة .

على أنه قل أن سمعت موسيقاه الدينية خارج سالزبورج ، لأن الكنيسة الكاثوليكية لم ترض عن المحسنات الأوبرالية التى كان رؤساء الأساقفة الذين خدمهم موتسارت يتوقعونها منه فيما يبدو . فالقداس المطول في سالزبورج كان يرتل في مصاحبة الأرغن ، والوتريات ، والأبواق ، والترمبونات ، والطبول ، وكانت فقرات من المرح تنطلق فجأة في أكثر المواضع وقارا ورهبة في قداسات موتسارت . ومع ذلك فإن الروح الدينية لا بد تحركها . وتينات نسجد لك (ك . ٣٢٧) و « القديسة مريم أم الرب » (ك ٣٤١ ب) ، وأبدع نغم يفوق جماله الموصول كل أنغام موتسارت يظهر في « سبحوا الرب » في القسم الرابع من تسييحه الاعتراف المسائية (ك ٣٣٩) (٥٥) .

ويمكن القول عموما ان موسيقى موتسارت هي صوت عصر أرستقراطى لم يسمع بسقوط الباستيل ، وحضارة كاثوليكية لم يكدر إيمانها مكبر ، حرة في الاستمتاع بمباهج الحياة دون أن تسعى هذا السعى الخبيث لتجد مضمونا جديدا لحلم أفرغ من مضمونه القديم . وهذه الموسيقى في جوانبها الأخف تنسق مع رشاقة الزخرف الروكوكى ، ومع رومانسيات فاتو التصويرية ،

وأولب تيبولو الطافي في هدوء ، وابتناسات مدام دبومبادور وأروابها وخزفها . وهى فى عمومها موسيقى هادئة صافية ، تشوبها بين الحين والحين لمسات من الألم والغضب ، ولكنها لا ترفع صلاة متدلة ولا تحديا بروميشيا للآلهة . لقد بدأ موتسارت موسيقاه فى طفولته ، وكانت تكمن فى مؤلفاته خصيصة طفلية حتى اتضح له أن القداس الجنائزى الذى كان يكتبه لرجل غريب كان قداسا لجنازته هو .

٧ - الروح والجسد

لم يوهب موتسارت فتنة الجسد . فقد كان قصير القامة ، رأسه أكبر مما يناسب جسمه ، وأنفه أضخم من أن يلائم وجهه ، وشفته العليا راسبة على السفلى ، وحاجباه الكثيفان محجبان عيناه المقلقتين ، لا يروع الناظر إليه غير شعره الأشقر الغزير . وفى سنّ عمره اللاحقة حاول التعويض عن عيوب قامته وقسماته باللباس البهى : قميص من الدنتلا ، وسترة زرقاء ، ذات ذبول ، وأزرار ذهبية وسراويل تصل إلى الركبة ومشابك فضية فوق حلالة .^(٥٦) ولم يكن الناظر إليه ينسى مظهره إلا وهو يعزف على البيانو ، عندها تضطرم عيناه بالتركيز الشديد ، وتخضع كل عضلة فى بدنه نفسها لحركة ذهنه ويديه .

وكان فى صباه متواضعا طيب القلب ، واثقا بالناس محبا لهم ، ولكن ما ظفر به من شهرة مبكرة ، وما اغتذى عليه كل يوم تقريبا من التصفيت والاستحسان ، أحدث عيوباً فى خلقه . وقد حذره ليوبولد (١٧٧٨) قائلا « انك يا بنى سريع الغضب مندفع . . . شديد التحفز للرد فى لهجة ساخرة على أول تحد »^(٥٧) . واعترف موتسارت بهذا وبأكثر منه . فكتب يقول « لا بد أن انتقم لنفسى إن أساء إلى إنسان ، فإذا لم أرد اعدوى الصاع صاعين أرانى إنما جازيته صاعا بصاع ولم أعاقبه . »^(٥٨) ثم كان أشد الناس غلوا فى تقدير عبقريته . « إن الأمير كاوتز أخبر الارشيدوق بأن أمثالى لا يجود بهم الزمان إلا مرة كل مائة عام »^(٥٩) .

وكان يسود خطباته ويظهر في موسيقاه روح الفكاهة حتى آخر سنى عمره . وكان هذا الروح عادة ضاحكا معابثاً في براءة ، يشتد أحياناً فيصبح هجاء جادا ، وفي شبابه كان بين الحين والحين ينحرف إلى فحش القول وهجره . وقد مر بمرحلة من الافتتان بالغائط . وحين كان في الحادية والعشرين كتب لابنة عمه ماريّا ١٠ تسكلا موتسارت تسعة عشر خطابا تلوّثها سوقية لاتصدق (٦٠) . وأشاد خطاب كتبه لأمه بالتطبل [أى إمتلاء البطن بالغازات] نثراً وشعراً (٦١) ولم تكن أمه شديدة الاحتشام ، فقد نصحت زوجها في خطاب كتبه له فقالت « اعتن بصحتك يا حبيبى ، وادفع عجزك إلى فلك » ويبدو أن هذه العبارات « القفرية » كانت عرفاً سائداً في أسرة موتسارت وببشما ، ولعلها كانت ميراثاً من جيل أشد شبقاً . على أنها لم تمنع موتسارت من أن يكتب لأبوية وشقيقته خطابات تفيض بأرق الحب . وكان في زعمه عريساً بكراً . فهل كان زوجاً وفيّاً ؟ لقد إتهمنه زوجته بـ « مغازلات الخدم » (٦٢) ويقول كاتب سيرته المخلص :

« انتشرت الشائعات بين الجمهور وفي الصحف ، وبلغ في وصف لحظات نادرة من الضعف عنده ، فجعلت سمات مميزة لخلقته . فنسبت إليه مغازلة كل تلميذة من تلاميذه وكل مغنية كتب لها أغنية ، وكان يعد من الفكاهات إن يلقب بالسلف الأول لدون جوان (٦٤) » .

وقد نجم عن كثرة لزوم زوجته الفراش للوضع ، وتكرار أسفارها إلى المنتجعات الصحية ، وغيابه عنها في جولاته الموسيقية ، وحساسيته لكل مفاتن النساء ، واختلاطه بالمغنيات الفاتنات والممثلات المتحركات - نجم عن هذا كله موقف كانت فيه المغامرة لا مفر منها تقريباً . وقد روت كونستانسى كيف أنه إعترف لها بـ « حماقة » من هذا النوع ولم غفرتها له - « لقد كان طيباً جداً بحيث يستحيل على الإنسان أن يغضب منه » ولكن أختها تقص أنباء تفجرات عنيفة بينهما بين الحين والحين (٦٥) . ويلوح إن موتسارت كان شديد التعلق بزوجه ، وقد احتمل عيوبها ربة للبيت ، وكان يكتب لها أثناء فراقهما خطابات تفيض إعزازاً كاعزاز الأطفال (٦٦) .

ولم يكن موفقاً في الناحية الاجتماعية . من ذلك إنه قسا في الحكم على بعض منافسية « إن صوناتات كلمنتي عديمة القيمة . . . فهو مشعوذ ككل الايطاليين^(٦٧) . » « بالأمس أسعدنى الحظ بالاستماع إلى الهر فريهولت يعزف كونشرتوا من تأليفه التمس . ولم أجد فيه إلا القليل جداً ممسا يستحق الإعجاب^(٦٨) » . ولكنه إمتدح الرباعيات التي نشرها مؤخراً اجنازبيليل وإن نافست رباعياته . ووبخه أبوه لأنه يبغض الناس فيه بصلفه^(٦٩) ، وأنكر موتسارت الصلف ، ولكن لا نكران في أنه لم يكن له إلا قلبه ضئيلة من الأصدقاء بين موسيقى فيينا ، وأن روحه المتكبرة ألقت العقبات في طريق تقدمه . ذلك إن حظ الموسيقى في النمسا وألمانيا كان يعتمد على الطبقة الارستقراطية ، وقد رفض موتسارت أن يقدم النبالة على العبقرية .

ثم إنه عانى من معوق آخر هو أنه لم يختلف قط إلى المدرسة أو الجامعة . ولم يكن أبوه قد أتاح له متسعاً من الوقت للتعليم العام . وقد اقتنى موتسارت فيما اقتنى من كتب قليلة دواوين شعر لجسبر وفيلاند وجليلرت ، ولكن يبدو أنه إستعملها في الكثير الغالب مصدراً لنصوص ممكنة للأوبرات . وكان قليل الإكتراث للفن أو الأدب . وكان في باريس حين مات فولتير ، فلم يستطع أن يفقه لم ضجعت المدينة هذا الضجيج الكثير بسبب زيارة الأثر الهرم وموته . كتب لأبيه يقول « إن هذا الوغد الكافر فولتير قد نفق كأنه كلب ، كأنه حيوان ! وهذا جزاؤه الحق^(٧٠) . » وقد تشرب بعض العداء لرجال الدين من اخواته الماسون ، ولكنه شارك في موكب لعيد القربان المقدس وهو يمسك شمعة في يده^(٧١) .

ولعل سداجة عقله هي التي جعلته محبوباً رغم أخطائه . فالذين لم ينافسوه في الموسيقى وجدوه انيس المعشر بشوشاً رفيقاً هادئ الطبع عادة . كتبت أخت زوجته صوفي فيبر « لم أر موتسارت طوال حياتي هائج الطبع ، ولا حتى غاضباً^(٧٢) . » ، ولكن هناك روايات تناقض هذه . وكان بمثابة الحياة لكثير من الحفلات الخاصة ، دائم الرغبة في العزف ، دائم الاستعداد لنكتة أو لعبة . وكان يحب البولنج ، والبليارد ، والرقص ، ويبدو أحياناً فخوراً

برقصه أكثر من موسيقاه . (٧٣) وإذا لم يكن كريما سمح النفس مع منافسيه ، فإنه كان أريخيا دون تفكير تقريبا مع كل من عداهم . ونذر أن رد سائلا . فاقترض منه ضابط أوتار البيانو المرة بعد المرة دون أن يرد قروضه . وكان موتسارت لا يخفى احترامه الشديد للمال ، ولكن مرد ذلك انه كان يفتقر أشد الافتقار إلى الوقت أو الميل للتفكير في المال ، حتى انه كثيرا ما أعوزه هذا المال . وإذا اضطر إلى الاعتماد على وسائله في كسب المال ، واضطر إلى أن يعول أسرة بمنافسة عشرات المزيقيين الغيورين منه فقد أهمل شئون ماله ، وسمح لمكاسبه ان تنسرب من بين أصابعه دون اكتراث منه ، وانحدر إلى درك الأملاق اليائس وهو يكتب أروع موسيقى جيله في سمفونياته الثلاث الأخيرة وأوبراته الثلاث الأخيرة .

٨ - الأوج : ١٧٨٢ - ٨٧

لقد بدأ حياة الاحتراف موسيقيا مستقلا في فيينا بنجاح قرت به عينه . فكان يتقاضى أجرا طيبا على الدروس التي يعطيها ، وأتاه كل كونشرتو عزف في ١٧٨٢ - ٨٤ بنحو خمسمائة جولدن . (٧٤) ولم ينشر من مؤلفاته في حياته سوى سبعين ، ولكنه تقاضى عنها ثمنا معقولا . وأعطاه الناشر أرترارين مائة دوقاتية نظير الرباعيات الست المهداة إلى هايدن - وكان ثمنا طيبا في تلك الأيام . (٧٥) وخسر ناشر آخر يدعى هوفبايستر بطبعه رباعيات موتسارت للبيانو في مقام G الصغير (ك ٤٧٨) و E الخفيض (ك ٤٩٣) ، فقد وجدها الموسيقيون عسيرة جدا (وهي الآن تعد سهلة) ، وأنذر هوفبايستر موتسارت قائلا : « اكتب بشعبية أكثر وإلا فلان أستطيع أن أطبع المزيد من مؤلفاتك أو أنقذك عنه » (٧٦) . وكان موتسارت يتقاضى الأجر العادي عن أوبراته ، وهو مائة دوقاتية ، ولكنه تقاضى عن « دون جوفاني » ٢٢٥ دوقاتية مضافا إليها حصيلة حفلة موسيقية أحييت لصالحه . واجتمع له في هذه السنين « دخل طيب جدا » (٧٧) كتب أبوه وقد زاره في ١٧٨٥ يقول « إذا لم يكن على ولدي ديون مستحقة فني ظني أنه يستطيع الآن أن يودع في المصرف ألفي جولدن . (٧٨)

ولكن موتسارت لم يودع ذلك المال في المصرف ، بل أنفقه على مصروفاته الجارية ، وعلى الترفيه ، والملابس الفاخرة ، وعلى تلبية حاجات الأصدقاء المتسولين . لهذه الأسباب وغيرها من أسباب أكثر غموضا وقع في هوة الدين في ذروة الطلب على خدماته ومؤلفاته . وفي تاريخ مبكر (١٥ فبراير ١٧٨٣) كتب إلى البارونة فون فالدشتيتن يقول إن أحد دائنيه هددته بأن « يقاضيني . . . وأنا في هذه اللحظة لا أستطيع الوفاء بالمبلغ - ولا حتى بنصفه . . . أتوسل إليك يا سيدتي بحق السماء أن تعينيني على الاحتفاظ بشرفي وسمعتي . (٧٩) وجاءه الفرج المؤقت من نجاح حفلة موسيقية أحييت لصالحه في مارس ، إذ آتته بألف وستمئة جولدن . وقد أهدى بعض هذا المال لأبيه .

وفي مايو ١٧٨٣ انتقل إلى منزل حسن في رقم ٢٤٤ بميدان يودن . هناك ولد له طفله الأول (١٧ يونيو) « صبي جميل قوى ، ملفوف كالكرة . » ولان جانب الأب بفضل هذا الحدث والهدية بعد أن ساءه زواج ابنه ، واستغل فولفجانج وكونستانتي هذا اللين ليزورا ليوبولد ونانيرل في سالزبورج ، بعد أن تركا الطفل في فيينا مع مربية . وفي ١٩ أغسطس مات الطفل . وبقي أبواه في سالزبورج لأن موتسارت كان قد رتب أن يعزف فيها قداسه في مقام C الصغير الذي سترتل فيه كونستانتي . وأطال فولفجانج وكونستانتي مكثهما فوق أصول الضيافة ، لأن ليوبولد كان عليه أن يحسب حساب كل درهم ، ورأى أن زيارة ثلاثة أشهر أطول مما يحتمل . وفي طريق عودتهما إلى فيينا تخلفا في لنز ، حيث كلف الكونت فون تون موتسارت بكتابة سمفونية .

فلما عاد إلى بيته عكف بهمة على التدريس والتأليف والعزف والقيادة . ففي ثلاثة أشهر (٢٦ فبراير إلى ٣ أبريل ١٧٨٤) أحييا ثلاثة حفلات موسيقية وعزف في تسع عشرة حفلة أخرى . (٨٠) وفي ديسمبر انضم إلى أحد المحافل الماسونية السبعة بفينا ، واستمتع باجتماعاتهم ، ولم يتردد في الموافقة على تأليف الموسيقى لأعيادهم . وفي فبراير قدم أبوه في زيارة طويلة بعد أن

ألانه مولد ولد آخر لكونستانسى . وفى ١٧٨٥ دخل لورنتسودا يونى حياة موتسارت .

وقد عاش لورنتسو هذا حياة فيها من المغامرة ما يقرب من مغامرة صديقه كازانوف . كان قد ولد فى ١٧٤٩ ابنا لدباغ جلود فى سى يهود تشينيدا . فلما بلغ الرابعة عشرة أخذ أبو يمانويل كونليانو وأخوان له الأطفال إلى لورنتسودا يونى ، أسقف تشينيدا ، ليعمدهم أتباعا للكنيسة الكاثوليكية . واتخذ يمانويل اسم الأسقف ، وأصبح كاهنا ، والصل فى البندقية بامرأة متزوجة ، فنفى ، وانتقل إلى درسدن ، ثم إلى فيينا ، وفى ١٧٨٣ استخدمه المسرح القومى شاعرا وكاتبا لنصوص الأوبرات .

واقترح عليه موتسارت إمكان تأليف نص لأوبرا يؤخذ من كوميديا « زواج فيجارو » الحديثة التى ألفها بومارشيه . وكانت الكوميديا قلة ترجمت إلى الألمانية لتمثيلها فى فيينا ، ولكن يوزف الثانى حظر عرضها بحجة احتوائها على نزعات ثورية تسيئ إلى بلاطه . فهل فى الامكان إقناع الامبراطور ، الذى لم يكن هو نفسه مفتقرا إلى النزعة الثورية ، بأن يسمح بأوبرا تستخلص من التمثيلية بحكمة وحصافة ؟ وكان يونى معجبا بموسيقى موتسارت ، وسيبى فيه رأى التالى فى تاريخ لاحق ، وهو أنه زجل « لم يستطع حتى الآن ، برغم ما أوتى من مواهب تفوق مواهب أى مؤلف موسيقى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، أن يستغل عبقريته السماوية فى فيينا بسبب دسائس خصومه »^(٨١) . ثم حلف من التمثيلية الحواشى المتطرفة التى كتبها بومارشيه ، وحول ما بقى إلى نص لإيطالى يضارع خبر نصوص متاستازيو .

كانت قصة « زواج فيجارو » هى المتأخرة القديمة التى تتشابه فيها الاستخفاءات والمفاجآت والاكتشافات وإستغفال الخدم الذكى لسادتهم : وكل هذا مألوف فى الكوميديا منذ عهد ميناندر وبلوتس . وسرعان ما أحب موتسارت الموضوع ، وألف الموسيقى بسرعة تكاد تبلغ سرعة تشكل النص ، فم الأثنان

في ستة أسابيع . وفي ٢٩ إبريل ١٧٨٦ كتب مونتسارت الافتتاحية ، وفي أول مايو حالف النجاح العرض الأول للأوبرا . وربما كان بعض الفضل في نجاحها لبوتشي ، الباصو المرح الجمهوري الصوت ، الذي غنى دور فيجارو ولكن لابد أن الفضل الأكبر لحوية الموسيقى وملاءمتها للمناسبة ، ولألحان رائعة مثل شكاة كيروينو « ما الذي تعرفونه (Voi che sapete) ، وتوسل الكونتيسة توسلا حاراً فيه ضبط للنفس إلى إله الحب في لحن الحب « Porgi amor » وقد استعبدت الألحان غير مرة حتى استغرق العرض مثلي الوقت العادي ، وفي نهايته طلب الجمهور مونتسارت مرات ليظهر على خشبة المسرح .

كانت حصيلة أخراج « فيجارو » في فيينا وبراغ خليفة بأن تعين مونتسارت على الوفاء بديونه عاماً لولا اسرافه ولولا تكرار مرض زوجته وحملها . وفي إبريل ١٧٨٧ انتقلا إلى بيت أقل تكلفة ، في رقم ٢٢٤ شارع لاند شتراسي . وبعد شهر مات ليوبولد مخلصاً لولده ألف جولدن .

وكلفته براغ بأوبرا أخرى . واقترح بونتي مغامرات دون جوان الجنسية موضوعاً لها . وكان ترسو دي مولينا قد عرض « الدون » الأسطوري على المسرح بمديره في ١٦٣٠ تحت اسم « مخادع أشبيلي » ، وروى مولير القصة في باريس وسماها « وليمة الحجر » (١٦٦٥) وقدمها جولدوني في البندقية باسم « دون جوفاني تنوريو » (١٧٣٦) وكان فنتشنتي ريجيني قد عرض « وليمة الحجر » في فيينا عام ١٧٧٧ ، وفي عام ١٧٨٧ هذا نفسه كان جوزيبي جاتسانيجا قد أخرج بالعنوان ذاته أوبرا سطا بونتي على أسطر كثيرة منها ، ومن بينها قائمة مرحلة بخطايا جوفاني .

وعرفت « أعظم الاوبرات قاطبة » (كما سماها روسيني) أول مرة في براغ في ٢٩ أكتوبر ١٧٨٧ . وذهب مونتسارت وكونستانسي إلى العاصمة البوهيمية ليشهدا هذا الحدث ، وكثرت الحفاوة بهما إلى حد دعاه إلى تأجيل تأليف الافتتاحية حتى عشية العرض الأول ، وفي منتصف الليل

« بعد قضاء أبهج أمسية يمكن تصورها^(٨٢) » ألف قطعة أقرب ما تكون إلى موسيقى فاجنر في إبدائها بالعناصر التراجيدية والكوميديّة للتمثيلية . ووصلت نوتة الافتتاحية إلى الاوركستر بالضبط في الوقت المحدد للأداء^(٨٣) . كتبت جريدة فيينا تسايتونج تقول « مثلت يوم الاثنين أوبرا الموسيقار موتسارت « دون جوفاني » التي طال أنتظارها ويجمع الموسيقيون وأهل الخبرة على أن مثل هذا العرض لم ير في براغ قط من قبل . وقاد الهر موتسارت بشخصه الموسيقيين ، وكان ظهوره في الاوركستر إيدانا بتريد الهاتف الذي تكرر عند خروجه^(٨٤) » .

وفي ١٢ نوفمبر عاد الزوجان السعيدان إلى فيينا . وبعد ثلاثة أيام مات جلوك ، وعين يوزف الثاني موتسارت ليخلفه رئيس موسيقى الحجرة للهلاط . وبعد معاناة شديدة مع المغنين أخرجت « دون جوفاني » بفيينا في ٧ مايو ١٧٨٨ دون أن تلقى إستحساناً يذكر . وأدخل موتسارت وبونتي عليها المزيد من التغيير والتبديل ، ولكن الأوبرا لم تحظ قط في فيينا بالنجاح الذي حظيت به في براغ ومانهايم وهامبورج . وشكا ناقد برليني فقال أن « التمثيلية الهازلة » عدوان على الفضيلة . ولكنه أضاف « إن كان لأمة من الأمم إن تفخر بأحد أبنائها ، فإن لألمانيا أن تفخر بموتسارت مؤلف هذه الأوبرا^(٨٥) » . وبعد تسع سنوات كتب جوته إلى شيلر « إن آمالك التي ترجوها للأوبرا تحققت بوفرة في دون جوفاني^(٨٦) » وتحسر على أن موتسارت لم يعيش ليكتب موسيقى فاوست .

٩ - الحضيض : ١٧٨٨ - ٩٠

لم تلبث حصيلة دون جوفاني أن نفذت ، ولم يكف راتب موتسارت المتواضع لشراء الطعام إلا بالجهد . وقبل إعطاء بعض التلاميذ دروساً خصوصية ولكن التدريس كان عملاً مرهقاً مضيقاً للوقت . وعليه فقد إنتقل إلى مسكن أرخص في ضاحية فيرنجر شتراسي . ومع ذلك تكاثرت عليه الديون . فاقترض أينما أستطاع - خصوصاً من تاجر كريم وأخ في الماسونية يدعى

ميخائيل بوشبرج . وقد كتب إليه موتسارت في يونيه ١٧٨٨ يقول : «

« ما زلت مدينا لك بثمانى دوقاتيات . ورغم أنى فى هذه اللحظة لست فى وضع يمكننى من سداد هذا المبلغ لك ، فان ثقتى فيك لا أحد لها ، بحيث أجروا على التوصل إليك بأن تسغفنى بمائة جولدن حتى الأسبوع القادم وهو الموعد المحدد لبدء حفلاتى الموسيقية فى الكازينو . عندئذ سأكون بالتأكيد قد تسلمت نصيبى الذى وعدت به فاستطيع بغاية السهولة أن أرد لك ١٣٦ جولدنا مقرونة بأحر عبارات شكرى . (٨٧) »

وأرسل إليه بوشبرج المائة جولدن . وشجع هذا موتسارت ، فرجاه (١٧ يونيو) فى إقراضه « ألف جولدن أو ألفين لمدة عام أو عامين بفائدة مناسبة » وكان قد ترك متأخرات من إيجار بيته القديم دون أن يدفعها ، فهدهه المالك بحبسه ، فاستدان موتسارت ليؤدى له دينه . والظاهر أن بوشبرج لم يوافه بكل ما طلب ، لأن المؤلف الياثس أرسل إليه توسلات جديدة فى يونيو ويوليو . فى تلك الشهور النكدية المزعجة ألف موتسارت « السمفونيات الكبرى » الثلاث .

ثم رحب بدعوة أئته من الأمير كارل فون لشنوفسكى ليركب معه إلى برلين . واقترض تلك الرحلة مائة جولدن من فرائز هوفدميل . وغادر الأمير والصعلوك فيينا فى ٨ ابريل ١٧٨٩ . وفى درسدن عزف موتسارت أمام الأمير الناخب فردريك أغسطس فظفر بمائة دوقاتية . وفى ليبزج عزف فى حفلة عامة على أرغن باخ ، وتأثر بترتيل فرقة « توماستولى » لموتيته باخ « أنشدوا للرب » . Singet dem Herron . وفى بوتسدام وبرلين (٢٨ أبريل إلى ٢٨ مايو) عزف لفردريك ولیم الثانى ، فنفعه بسبعائة فلورين ، مع تكليف بست رباعيات وست صوناتات . ولكن مكاسبه انفتت بسرعة عجيبة ، وقد عزت شائعة غير مؤكدة بعض هذا الانفاق إلى صلة غرام بمغنية برلينية تدعى هنريette بارونيوس . (٨٨) وفى ٢٣ مايو كتب إلى كونستانسى يقول « أما عن عودتى فعليك أن تتطلى إلى أنا أكثر من التطلع إلى النقود (٨٩) » ووصل أرض الوطن فى ٤ يونيو ١٧٨٩ .

واحتاجت كونستانسى ، التى كانت حاملا مرة أخرى ، إلى الأطباء والعقاقير وإلى رحلة غالية للاستشفاء بمياه بادن - باي - فين - وفزع موتسارت إلى بوشبرج مرة أخرى :

« يا إلهى العظيم ! لست أتمنى لأعدائى أن يكون فى موقفى الراهن . إنك لو تخليت عني يا أعز صديق وأخ (ماسوني) لقضى علينا قضاء مبرما - نفسى التعمسة البريثة وزوجتى المريضة المسكينة وأطفالي : فكل شيء رهن . . . بموافقتك على إقراضى خمسمائة جولدن أخرى ، وإلى أن تسوى أمورى أتعهد بأن أرد لك عشرة جولدنات كل شهر ، ثم أسدد لك المبلغ كله . يا إلهى ! لا أكاد أقوى على حمل نفسى على إرسال هذا الخطاب ، ومع ذلك لا بد مما ليس منه بد ! اغفر لى بالله . فقط اغفر لى ! » (١٠) .

وأرسل له بوشبرج ١٥٠ جولدنا أنفق أكثرها فى سداد فواتير كونستانسى فى بادن . وفى ١٦ نوفمبر ، ولدت فى بيتهم بنتا ماتت فى اليوم نفسه . وأعانه يوزف الثانى بأن كلفة هو وبونى بكتابة ، « مبرحية هازلة » عن موضوع قديم (إستخدمة ما ريفو فى لعبة الحب والحظ ١٧٣٠) : خلاصتها إن رجلين يتنكران لاختبار وفاء خطيبتيهما فيجدان فيهما لينا ورخاوة ، ولكنهما يغفران لهما على أساس أن كل النساء هكذا « *cosi fan tutte* » ومن هنا اسم الأوبرا « هكذا يفعلن جميعا » . ولم يكن الموضوع بالذى يتفق ومزاج موتسارت المأسولى آنئذ (إذا استثنينا قليلا من العبث بلذر من كونستانسى فى بادن) ، ولكنه قدم للنص اليارع الظريف موسيقى هى التجسيد الكامل للبراعة والظرف ، ونذر أن يجد هراء يمثل ما يجد به هذا الهراء . وقد لقي عرض الأوبرا الأول فى ٢٦ يناير ١٧٩٠ نجاحا لا بأس به ، وأعيد العرض أربع مرات فى شهر واحد ، وكانت الحصيلة مائة دوقاينة لموتسارت . ثم مات يوزف الثانى (٢٠ فبراير) ، واغلقت مسارح فيينا أبوابها حتى ١٢ أبريل .

ورأود موتسارت الأمل فى أن يجد له الأمبراطور الجديد عملا ، ولكن

ليوبولد الثاني تجاهة . وكذلك تجاهل بونتي فرحل إلى إنجلترا وأمريكا ، ولأنه انتهى به المطاف (١٨٣٨) مدرسا الإيطالية في ما هو الآن جامعة كولومبيا بنيويورك^(٩١) . واستنجد موتسارت بيوشبرج من جديد (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩ ، ٢٠ يناير ، ٢٠ فبراير ، ١ ، ٨ ، ٢٣ أبريل ١٧٩٠) ، ولم يرده خائبا قط ، ولكن نذران تلقى منه كل ما طالب . وفي أوائل مايو طلب سمائة جولدن ليؤدي ما استحق عليه من إبحار . فأرسل إليه يوشبرج مائة . واعترف ليوشبرج في ١٧ مايو « إنني مضطر للألتجاء إلى المراهين » وفي ذلك الخطاب ذكر أنه لم يبق له من تلاميذه سوى اثنين ، ورجا صديقة « أن يذيع بين الناس أنني مستعد لإعطاء الدروس^(٩٢) » على أن ما به من توتر الأعصاب وضيق الخلق كان يحول بينه وبين إجادة التعليم . وكان أحيانا يخلف مواعيده مع تلاميذه وأحيانا يلعب معهم البليارد بدلا من أن يعطيهم درسا^(٩٣) . ولكنه كان إذا وجد طالبا ذا موهبة مبشرة بذل له نفسه دون تحفظ ، وهكذا نراه يعلم يوهان هومل في اغتباط وبنجاح ، وقد تتلمذ له (١٧٨٧) وهو لا يزال في الثامنة ، وأصبح عازفا شهيرا للبيان في الجيل التالي .

وأضافت الأمراض الخطيرة آلاما إلى أحزان موتسارت . وقد شخص طبيب أوجاعة بأنها « التهاب مفرز الحويصلة الكلية مصحوب بتقيح ، وتضررات بؤرية كامنة ، تفضى بالضرورة إلى عجز كلوى تام^(٩٤) » . وهذا معناه التهاب في الكلى صديدي مضعف . كتب إلى يوشبرج في ١٤ أغسطس ١٧٩٠ يقول « إنني اليوم في منتهى التعاسة . لم يغمض لي جفن في الليلة البارحة لشدة الألم . . . تصور حالي - عليل تنوشني الهموم والمنغصات . . . ألا تستطيع إعانتني بمبلغ نافه ؟ إنني أرحب جداً بأقل مبلغ . » وأرسل له يوشبرج عشرة جولدنات .

ولمأخذ موتسارت رغم سوء حالته الصحية خطوة يائسة ليعول أسرته . ذلك أنه تقرر تنويع ليوبولد بفرانكفورت في ٩ أكتوبر ١٧٩٠ . وكان في حاشية الإمبراطور صبعة عشر موسيقيا للبلاط ، ولكن موتسارت لم يدع . ومع ذلك ذهب بصحبة فرانز هوفر زوج أخته وعازف الفيولينه . ورهن موتسارت آتية الأسرة الفضية ليعطي نفقة الرحلة . وفي فرانكفورت عزف

وقاد في ١٥ أكتوبر كنشرتو البيانو في مقام D (ك ٥٣٧) ، الذي ألفه قبل ثلاث سنوات ، ولكن شاعت نزوة من نزوات التاريخ أن تسمية « كنشرتو التتويج » - وهو ليس من أفضل موسيقاه . كتب لزوجته يقول « لقد نجح نجاحاً باهراً من حيث الشرف والمجد ، ولكنه أخفق من حيث المال^(٩٥) » . وقفل إلى فيينا دون أن يزيد ما كسبه مما أنفق إلا قليلاً . وفي نوفمبر أنتقل إلى مسكن أرخص في راوهنشتاينجاسي حيث قدر له أن يلقى منيته .

١٠ - القداس الجنائزى : ١٧٩١

وأعانة على الحياة عاماً آخر ثلاثة تكاليفات وافته في تتابع سريع . ففي مايو ١٧٩١ عرض عليه إيمانويل شيكانيدر ، الذي كان يخرج الاوبرات والتمثيليات الألمانية في مسرح بإحدى الضواحي ، مخططاً لنص يدور حول ناي سحرى ، ورجا أخاه في الماسونية أن يؤلف موسيقى للنص ، فقبل موتسارت . ولما ذهبت كونستانسى وهي حبل مرة أخرى إلى بادن - باي فيين في يونيو ، قبل دعوة شيكانيدر أن ينفق نهاره في بيت وسط حديقة قرب المسرح حيث يستطيع تأليف « الناي السحرى » تحت حث المدير وإلحاحه . أما الأمسيات فقد سحب فيها شيكانيدر في حياة الليل بالمدينة . يقول يان « كانت الحماسة والسرف الرفيقتين الحتميتين لمثل هذه الحياة ، وسرعان ما وصلت أنباؤهما إلى إيدان الجماهير . . . فلوثت اسمه شهوراً بقدر من القبح فوق ما يستحق^(٩٦) » . ووسط هذه الاسترخاءات وجد موتسارت وقتاً للركوب إلى بادن (على أحد عشر ميلاً من فيينا) ليزور زوجته التي ولدت له فولفجانج موتسارت الثانى في ٢٦ يوايو .

في ذلك الشهر وافاه طلب من غريب مجهول الاسم ، يعرض عليه مائة دوقاتية يؤلف لقاءها سرّاً قداساً جنائزياً ، ثم يرسله إليه دون أى اعلان لاسم المؤلف . وتحول موتسارت من مرح « الناي السحرى » إلى موضوع الموت ، وإذا هو يتلقى في أغسطس تكليفاً من براغ بتأليف أوبرا « La clemenza di Tito » « شفقة تيتو » تمثل هناك في مناسبة وشيكة هي تتويج ليوبولد الثانى ملكاً على بوهيميا . ولم يتج له غير شهر واحد لوضع موسيقى جديدة لنص مياسنارزوبو القديم . وعكف عليه في مركبات مهتزة

وفنادق صاحبة أثناء رحلته مع زوجته إلى براغ . وغيت الأوبرا في ٦ سبتمبر دون أن تحظى إلا باستحسان وسط . وكانت الدموع تترقق في عيني موتسارت وهو يغادر المدينة الوحيدة التي ناصرتها من قبل ، ويدرك أن الإمبراطور شهد فشله . ولم يكن له من عزاء إلا أجر المائتي دوقانية ، والنبأ اللاحق بأن إعادة عرض الأوبرا في براغ في ٣٠ سبتمبر أتمى كل نجاح .

في ذلك اليوم قاد من البيانو أول عرض للنأى السحري . والقصة كانت في بعضها من قصص الجان ، وفي بعضها تمجيذا لشعائر الدخول في الماسونية . وأفرغ موتسارت خير فنه في تأليف موسيقاها وإن أتبع معظم الألمان لخط ميلودي بسيط يناسب جمهوره المؤلف من الطبقة الوسطى . وقد اعتنق فيضا من الزوقات (الكولوراتورا) على « ملكة الليل » ، ولكنه كان بينه وبين نفسه يسخر من غناء الكولوراتورا ويشبهه بـ « الشرائط المتقطعة » . (٩٧) ومارش الكهنة الذي يفتح الفصل الثاني موسيقى ماسونية ، ولحن كبير الكهنة « in diesen Leiligen Hallen » « في هذه القاعات المقدسة لا نعرف شيئا عن الانتقام ، وعمة الداخلين في الإيمان لإخوانهم من البشر هو المبدأ الهادي » - هذا اللحن هو زعم الماسونية بأنها ردت أخوة البشر التي بشرت بها المسيحية من قبل . (قارن جوته بين النأى السحري والجزء الثاني من فاوست ، الذي بشر هو أيضا بالأخوة ، وإذا كان هو نفسه ماسونيا فقد قال عن الأوبرا إن لها « معنى أسمى لن يغيب عن أعضاء الجماعة . » (٩٨) وأتمى العرض الأول نجاحا قلعا ، وصدم النقاد ذلك المزج بين الفوجة والمرح (٩٩) ، على أن النأى السحري ما لبث أن أصبح أحب أوبرات موتسارت إلى الناس ، وأحب الأوبرات قبل فاجنر وفردى . وقد أعيد أداؤه مائة مرة خلال أربعة عشر شهرا من العرض الأول .

وجاء هذا النصر الأخير وموتسارت يشهر بيد الموت تمسه . وكان القدر أراد أن يؤكد سحره ، إذ تلقى الآن من جماعة من نبلاء المجرين تعهدا باشتراك سنوى قدره ألف فلورين ، ثم عرض عليه ناشر أمستردام مبلغا أكبر حتى من هذا نظير اختصاصه بحق طبع بعض أعماله . ثم تلقى في سبتمبر دعوة إلى لندن من بوتنى ، فرد عليه قائلا « كان بودى أن أتبع نصيحتك ، ولكن كيف أستطيع ؟ ... إن حالتي تنبئني بأن ساعتي قد

حانت ، فأنا موشك على فراق الحياة . وقد أتت النهاية قبل ان أستطيع إثبات موهبتي . ومع ذلك كانت الحياة جميلة » (١٠٠) .

وفي شهره الأخيرة أفرغ عافيته المتداعية في تأليف « القداس الجنائزى » وراح يعكف عليه أسابيع عديدة عكوفاً محموماً . فلما حاولت زوجته أن تصرفه عنه إلى شواغل أقل جهامة قال لها « إننى أكتب القداس الجنائزى لنفسى ، وسيصاح صلاة للماتى » (١٠١) وألف لحن « يارب أرحم » Kyrie وأجزاء من « يوم الغضب » والبوق السماوى Tuba Mirum « والملك الموهوب » Rex Tremendae واذكرنى Recordare و « الباكية » Lacrimosa و « أيها الرب » و « المدانون Confutatis » و « القرابين » Hostias . وقد ترك هذه الأجزاء المتناثرة دون مراجعة ، وهى تشى باضطراب عقل يواجه الانهيار . وقد أكمل فرانتز زافير زوسماير « القداس الجنائزى » على نحو رائع .

وفي نوفمبر بدأت يدا موتسارت ورجلاه تنورم ورما مؤلماً ، وأصابه شلل جزئى . فاضطر إلى ازوم فراشه ، فى تلك الامسيات حين كانت أوبرا « النابى السحرى » تمثل كان يضع شاعته إلى جواره ويتابع كل فصل فى خياله ، مدندنا بالألحان أحياناً . وفى آخر يوم فى حياته طلب نوتة القداس الجنائزى ، ورتل دور الألتو ، ورتلت السيدة شاك السوبرانو ، وفرانتز هو فر التenor ، والمهر جيرل الباص . فلما بلغوا « الباكية » بكى موتسارت . وتنبأ بأنه سيموت الليلة . وناولوه كاهن الأسرار المقدسة الأخيرة . وقرب المساء فقد الوعي ، ولكنه فتح عينيه بعد منتصف الليل بقليل ثم أدار وجهه إلى الحائط وسرعان ما إنتهت آلامه (٥ ديسمبر ١٧٩١) .

ولم تستطع زوجته ولا أصدقائه أن يشيعوه كما ينبغى أن يشيع . صلى على الجثمان فى كنيسة القديس إسطفانوس فى ٦ ديسمبر ، ودفن فى فناء كنيسة القديس مرقس . ولم يشتر له قبر ، بل أدلى الجثمان فى قبوه عام صنع لينتقى أجساد خمسة عشر أو عشرين من الفقراء المعدمين . ولم تحدد الموضع علامة من صليب أو نص ، فلما ذهبت إليه أرملته بعد أيام لتصلى ، لم يستطع أحد أن يدها على البقعة التى ضمت رفات موتسارت .

المراجع الاخرى

CHAPTER IX

1. Vaussard, *La Vie quotidienne en Italie au XVIII^e siècle*, 27.
2. *Ibid.*, 107.
3. 105.
4. 125.
5. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 519.
6. Baedeker, *Northern Italy*, 471.
7. James, E. E., *Bologna*, 178-80.
8. Casanova, *Memoirs*, I, 14.
9. Rolland, Romain, *Musical Tour through the Land of the Past*, 167.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*
12. *Réalités*, November, 1954, p. 45.
13. Láng, *Music in Western Civilization*, 354.
14. Grout, D. J., *Short History of Opera*, 196.
15. Kirkpatrick, R., *Domenico Scarlatti*, 94.
16. Einstein, Alfred, *Gluck*, 101.
17. Lee, Vernon, *Studies of the 18th Century in Italy*, 106.
18. Vaussard, 82.
19. De Sanctis, *History of Italian Literature*, II, 825.
20. Vaussard, 83.
21. *Ibid.*, 86.
22. 88.
23. Campbell, T. J., *The Jesuits*, 424.
24. McCabe, Jos., *Candid History of the Jesuits*, 287.
25. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 176.
26. Chesterfield, *Letters*, Feb. 28, 1749.
27. Einstein, *Gluck*, 15.
28. Gatti-Cazazza Collection, Venice.
29. Private collection, Venice.
30. *Ibid.*
31. Museo Civico, Bassano.
32. Voltaire, *Works*, VIIIa, 5.
33. Molmenti, P., *Venice*, Part III: *The Decadence*, I, 37.
34. *Ibid.*, 49.
35. Molmenti, *The Decadence*, II, 17, 146.
36. *Ibid.*, 48.
37. 49.
38. Rousseau, *The Confessions*, I, 301; Molmenti, II, 93.
39. Vaussard, 180.
40. Goldoni, *Memoirs*, 178.
41. Rousseau, *The Confessions*, I, 292.
42. Molmenti, I, 169; Vaussard, 195.
43. *Grove's Dictionary of Music*, III, 314.
44. Pincherle, *Vivaldi*, 16.
45. *Ibid.*, 17.
46. Rolland, *Musical Tour*, 187.
47. Pincherle, 67.
48. E. g., Violin Concerto in E, Concerto Grosso in D Minor.
49. Pincherle, 61.
50. *Ibid.*, 220-32.
51. *Time*, Nov. 29, 1963.
52. Lord Walpole Collection.
53. Brera Gallery, Milan.
54. Boston Museum of Fine Arts; Wallace Collection.
55. National Gallery, London.
56. Wallace Collection.
57. London, Vienna, Geneva.
58. New York.
59. Turin.
60. Louvre.
61. Duke of Devonshire Collection.
62. Levey, *Painting in 18th-Century Venice*, 92.
63. Anon., *Tiepolo*, 34.
64. Ospedaletto, Venice.
65. E.g., Sitwell, S., *Southern Baroque Art*, 35.
66. Molmenti, *Tiepolo*, 19; Venturi, L., *Italian Painting from Caravaggio to Modigliani*, 74.
67. Letter of Mar. 13, 1734, in Rolland, *Musical Tour*, 149.
- 67a. Goldoni, *Memoirs*, 184.
68. Casanova, *Memoirs*, II, 276.
69. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 29; Vaussard, 193.
70. Goldoni, *Memoirs*, I, 4.
71. *Ibid.*, 179.
72. 183.
73. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 323.
74. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 110 f.
75. Molmenti, *Venice: Decadence*, I, 168.
76. Goldoni, *Memoirs*, 346.
77. *Ibid.*, introd., xi.
78. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 7.
79. Goldoni, *Memoirs*, xxi.
80. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 70.
81. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, VI, 675.
82. Ranke, *History of the Popes*, III, 472.
83. *New Cambridge Modern History*, VII, 284.

84. Funk, F. X., *Manual of Church History*, II, 180.
85. Macaulay, *Essays*, II, 179.
86. De Brosses in McCabe, Jos., *Crises in the History of the Papacy*, 354.
87. *Correspondance de Benoit XIV*, II, 268, in McCabe, *Crises*, 354.
88. *CMH*, VI, 591.
89. Ford, Miriam de, *Love Children*, 205.
90. Lanfrey, P., *L'Eglise et les philosophes*, 190.
91. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 60.
92. Sime, James, *Lessing*, I, 92.
93. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, IV, 1393.
94. Gershoy, Leo, *From Despotism to Revolution*, 146.
95. *CMH*, VI, 598.
96. *Ibid.*, 599.
97. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 369.
98. Vico, Giambattista, *Autobiography*, 111.
99. Croce, B., *Philosophy of Giambattista Vico*, 252.
100. Vico, *The New Science*, No. 31.
101. *Ibid.*, Nos. 916-18; we have ventured to improve the translation.
102. Nos. 922-24.
103. 925-27.
104. Vico, *Autobiography*, 171.
105. *The New Science*, No. 1104.
106. 1105.
107. 417-24.
108. 873-80.
109. 361.
110. *Autobiography*, 173.
111. *The New Science*, No. 1110.
112. Croce, *Philosophy of Vico*, 269.
113. *Ibid.*, 274.
114. Croce, *Filosofia di G. B. Vico* (1911).
115. Groux, *Opera*, 200.
116. *Ibid.*, 208.
117. *Oxford History of Music*, IV, 185.
118. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 917.
119. *Grove's Dictionary*, II, 785.
120. *Ibid.*
121. *Ibid.*
122. Beckford, Wm., *Travel Diaries*, II, 167.
123. Lee, Vernon, *Studies*, 194.
124. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 21.
125. *Ibid.*, 32.
126. 33.
127. Intro. to the Victor Album of Scarlatti's Sonatas.
128. Kirkpatrick, 58.
129. *Ibid.*, 103.
130. Especially delightful: Nos. 13, 23, 25, 104, and 338, in the Longo numbering.
131. Cox, Wm., *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 231.

CHAPTER X

1. Beckford, *Travel Diaries*, II, 171.
2. Cheke, Marcus, *Dictator of Portugal*, 4.
3. Day, Clive, *History of Commerce*, 186; *History Today*, November, 1955, p. 730.
4. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 28; Stirling-Maxwell, IV, 1385.
5. *New CMH*, VII, 289.
6. Stephens, H. M., *Story of Portugal*, 354.
7. *Enc. Brit.*, XX, 681b.
8. *History Today*, November, 1955, p. 731.
9. Campbell, *The Jesuits*, 431.
10. Cheke, 50.
11. *Ibid.*, 111.
12. *History Today*, November, 1955, p. 733.
13. See *The Age of Reason Begins*, 249-51.
14. Cheke, 106.
15. McCabe, *The Jesuits*, 262.
16. Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes*, 258; Cheke, 114.
17. Our account follows Cheke, 118 f.
18. Lanfrey, 259.
19. Cheke, 132.
20. Lanfrey, 260.
21. McCabe, *Jesuits*, 263.
22. Campbell, *Jesuits*, 462.
23. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 152; Cheke, 140.
24. Voltaire, *Works*, XVIa, 243.
25. Cheke, 155.
26. *Ibid.*, 157.
27. Voltaire, XVIa, 243.
28. Gershoy, 153; Cheke, 204.
29. Gershoy, 154.
30. Stephens, *Portugal*, 367.
31. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 310n.
32. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 277.
33. Cheke, 251.
34. *Ibid.*, 268.
35. *Ibid.*

CHAPTER XI

1. Altamira, R., *History of Spain*, 482, 466; Ogg, D., *Europe in the 17th Century*, 12; *New CMH*, VII, 271.
2. Herr, Richard, *The Eighteenth-Century Revolution in Spain*, 106; see also Altamira, 467-68.
3. Herr, 96.
4. Altamira, 460; Stokes, Hugh, *Francisco Goya*, 187.
5. Klingender, F. D., *Goya in the Democratic Tradition*, 4n.
6. *Ibid.*, 4-5; Campbell, *Jesuits*, 424.
7. Kany, C. E., *Life and Manners in Madrid, 1750-1800*, 375.
8. Vallentin, A., *This I Saw*, 26.
9. Lea, *Inquisition in Spain*, III, 308-10; IV, 523.

10. Martin, H., *France*, XV, 114-15.
11. Ticknor, Geo., *History of Spanish Literature*, III, 244.
12. Lea, IV, 530.
13. Buckle, H. T., *Introd. to the History of Civilization in England*, IIa, 61.
14. *CMH*, VI, 124.
15. Voltaire, XIXa, 214.
16. Burney, Charles, *History of Music*, II, 815-16.
17. Kany, 392.
18. Coxe, *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 141-43.
19. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 268.
20. Herr, 75.
21. Letter of d'Alembert to Voltaire, May 13, 1773, in Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 372.
22. Herr, 63.
23. *Ibid.*, 77.
24. Ségur, *Lespinasse*, 254.
25. Altamira, 508.
26. Lea, *Inquisition*, IV, 307.
27. Herr, 210.
28. Michelet, *Histoire de France*, V, 439.
29. Stokes, *Goya*, 147.
30. Coxe, *Kings of Spain*, IV, 235.
31. Letters of an English officer, 1788, in Buckle, IIa, 92.
32. Coxe, IV, 236.
33. Hume, Martin, *Spain: Its Greatness and Decay*, 397.
34. Coxe, IV, 408.
35. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 163.
36. Coxe, IV, 341.
37. *Ibid.*, 361.
38. Campbell, *Jesuits*, 511-12.
39. *Ibid.*; Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes*, 280.
40. Coxe, IV, 362.
41. *Ibid.*, 363.
42. Lanfrey, 282.
43. Campbell, 517-18.
44. *Ibid.*, 519; Lanfrey, 281.
45. Coxe, IV, 368.
46. Herr, 23.
47. *Ibid.*:
- 48 205.
- 49 29.
- 50 208.
51. Kany, 356-57.
52. Buckle, IIa, 86; Robertson, *Freethought*, II, 372.
53. Herr, 210; Robertson, 373.
54. Herr, 35; Trevor-Roper, 264.
55. Coxe, IV, 412-16; Casanova, *Memoirs*, II, 344.
56. Altamira, 438.
57. Fitzmaurice-Kelly, *History of Spanish Literature*, 357.
58. Rev. Geo. Edmundsen, in *CMH*, VI, 384.
59. Vallentin, 5.
60. Herr, 54.
61. *Ibid.*, 57.
62. Buckle, IIa, 98.
63. *Ibid.*, 94.
64. Herr, 128.
65. *CMH*, VI, 383.
66. Herr, 148.
67. *Ibid.*, 141-42.
68. 150.
69. Kany, 24; Vallentin, 26.
70. Kany, 38.
71. *Ibid.*, 18.
72. Hume, Martin, *Spain*, 411.
73. Stokes, 188; Kany, 214.
74. Laborde, *Spain*, in Buckle, IIa, 114.
75. Kany, 24.
76. *Ibid.*, 280.
77. Casanova, II, 348.
78. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 132.
79. Altamira, *History of Spanish Civilization*, 183.
80. Trevor-Roper, 264.
81. Kany, 345; Buckle, IIa, 95.
82. Ticknor, III, 256; Herr, 165.
83. Ticknor, III, 262.
84. *Ibid.*, 273.
85. Vallentin, 144.
86. Calvert, A. F., *Royal Palaces of Spain*, 97.
87. Cathedral of Salamanca.
88. Prado.
89. Private collection, Zurich.
90. Prado.
91. Poore, Charles, *Goya*, 156.
92. Calvert, *Goya*, 55.
93. Poore, 48.
94. One in Frick Collection, New York.
95. Prado.
96. Prado.
97. Vallentin, 93.
98. Trevor-Roper, 266.
99. Vallentin, 111.
100. *Ibid.*, 112.
101. E.g., Malraux in *Goya, Drawings from the Prado*, xiv.
102. Lassaigue, J., *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 89.
103. Vallentin, 112.
104. *Ibid.*, 119.
105. Duke of Alba Collection.
106. Goya, *Drawings*, Plate 4.
107. Collection of the Hispanic Society, New York.
108. Vallentin, 195.
109. *Ibid.*, 203.
110. Prado.
111. Vallentin, 183.
112. Academy of San Fernando, Madrid.
113. National Gallery, Washington.
114. Academy of San Fernando, Madrid.
115. Klingender, *Goya*, 92.
116. Goya, *Drawings*, 121.

117. *Ibid.*, 130.
118. 170.
119. Academy of San Fernando.
120. Goya, *Drawings*, 112.
121. *Ibid.*, 89-117.
122. 118.
123. Vallentin, 223.
124. Both in the Prado.
125. Metropolitan Museum of Art, New York.
126. In Goya, *The Disasters of War*, No. 23.
127. *Ibid.*, No. 12.
128. No. 44.
129. No. 47.
130. No. 18.
131. These pictures from the Quinta del Sordo are in the Prado.
132. Lassaigue, *Spanish Paintings: From Velázquez to Picasso*, 106.

CHAPTER XII

1. Goethe, *Letters from Italy*, Sept. 16, 1786.
2. *Ibid.*, Sept. 12 and 13, 1786.
3. Goethe, *Castro*, *Memoirs*, II, 7.
4. *Ibid.*, 100-03.
5. Hazlitt, W. C., *The Venetian Republic*, II, 323.
6. Casanova, *Memoirs*, II, 110.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 275.
8. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 171.
9. Goethe, *Letters from Italy*, Oct. 25, 1786.
10. *CMH*, VI, 601.
11. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 48.
12. Goethe, *Letters from Italy*, Mar. 17, 1787.
13. Vaussard, 74.
14. Friedländer, Ludwig, *Life and Manners under the Early Empire*, II, 78.
15. Goethe, Oct. 27, 1786.
16. Vaussard, 84.
17. *Ibid.*, 89.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 122.
19. McCabe, *The Jesuits*, 346.
20. Egan, Lanfrey, *Histoire politique des papes*, 384; *id.*, *L'Eglise et les philosophes*, 105.
21. Campbell, *Jesuits*, 536.
22. McCabe, *Jesuits*, 346.
23. Ranke, *History of the Popes*, II, 449-50.
24. Campbell, 538.
25. *Ibid.*, 541.
26. McCabe, 355.
27. Campbell, 563.
28. Mozart, letter of Aug. 4, 1770, in Anderson, Emily, *Letters of Mozart*, I, 227.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 151.
30. Biomi, Eric, *Mozart*, 57.
31. Goethe, *Letters from Italy*, Nov. 24, 1786.
32. Vaussard, 141-43.

33. Beccaria, *Dei delitti e delle pene* (1766 ed.), p. 11.
34. Carlyle, "Count Cagliostro," in *Essays (Works)*, III, 187-92.
35. Goethe, *Letters*, Apr. 13 and 14, 1787.
36. Casanova, I, 13.
37. *Ibid.*, 14.
38. 123.
39. *Intro.* xx.
40. 210.
41. 211.
42. 219.
43. 287.
44. 330.
45. 406-7.
46. II, 370, 393.
47. *Ibid.*, 340.
48. Gilbert, O. P., *The Prince de Ligne*, 157.
49. Winckelmann, I, 3.
50. *Ibid.*, 9.
51. 18.
52. 21.
53. Pater, Walter, *The Renaissance*, 155.
54. In Brandes, *Goethe*, II, 244.
55. Winckelmann, I, 31.
56. In Muther, *History of Modern Painting*, I, 81.
57. Pater, *Renaissance*, 148.
58. Winckelmann, I, 46.
59. *Ibid.*, 60.
60. II, 319.
61. I, 64.
62. *Ibid.*
63. *Ibid.*
64. *Ibid.*
65. I, 70.
66. 287.
67. 77.
68. 76, 84.
69. 86.
70. In Pater, 147.
71. Both in Museo Correr, Venice.
72. Good examples in Morgan Library, New York, and Metropolitan Museum of Art.
73. Levey, *Painting in Venice*, 103.
74. Poldi-Pezzoli Museum, Milan.
75. Louvre.
76. Ältere Pinakothek, Munich.
77. Muther, I, 86.
78. Winckelmann, I, 407.
79. Prado.
80. Jahn, *Mozart*, III, 1, 15.
81. Burney, Fanny, *Diary*, 72-73.
82. Burney, Charles, *History of Music*, II, 886-91.
83. Einstein, Albert, *Gluck*, 151.
84. *Grove's Dictionary*, IV, 174.
85. *Ibid.*, 509.
86. Einstein, *Gluck*, 149.
87. *Grove's*, I, 650.
88. Translation by Richard Garnett (*History of Italian Literature*, 300).

89. In De Sanctis, II, 831.
90. Alfieri, Vittorio, *Autobiography*, Epoch I, Ch. i.
91. *Ibid.*, Epoch II, Ch. iv.
92. III, iii.
93. III, xii.
94. Alfieri, *Of Tyranny*, 102.
95. *Ibid.*, Book I, Section 1.
96. II, vii.
97. II, viii.
98. I, ix.
99. I, viii.
100. "Forethought" to *Of Tyranny*.
101. *Autobiography*, Epoch IV, Ch. viii.
102. Epoch I, Ch. viii.
103. IV, v.
104. IV, xx.
105. IV, xvi.

CHAPTER XIII

1. Gilbert, *Prince de Ligne*, 29, 57.
2. *Ibid.*, 135.
3. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 96.
4. Frederick the Great, *Guerre de Sept Ans*, 386.
5. Gooch, G. P., *Maria Theresa*, 3.
6. Jahn, *Mozart*, I, 65.
7. Voltaire, *Works*, XVIa, 167.
8. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 89.
9. Campbell, *Jesuits*, 433.
10. Paulsen, F., *German Education*, 147-49.
11. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 297.
12. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 100.
13. Casanova, *Memoirs*, I, 147.
14. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
15. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 305.
16. Padover, 20.
17. Stryenski, *Eighteenth Century*, 64.
18. *Ibid.*
19. Jahn, I, 67.
20. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
21. Casanova, I, 148.
22. *Enc. Brit.*, XIII, 151b.
23. Padover, 34.
24. *Enc. Brit.*, I, c.
25. Padover, 34.
26. *Ibid.*, 37.
27. 41.
28. Gooch, *Maria Theresa*, 14.
29. Padover, 47.
30. Mann, Thos., *Three Essays*, 165.
31. Gooch, 21-29; Padover, 67.
32. Gooch, 29.
33. Padover, 134.
34. *Ibid.*, 134, 30.
35. 136.
36. 84; Gooch, 29.

37. Padover, 89.
38. Gooch, 65.
39. *Ibid.*, 66.
40. Padover, 77.
41. Gooch, 41.
42. Padover, 90-93.
43. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 202.
44. Gershoy, 89.
45. Riedl, Frederick, *History of Hungarian Literature*, 77-81.
46. Hazard, *European Thought*, 109.
47. Padover, 73.
48. *Ibid.*, 74.
49. 81.
50. Gooch, 70.
51. Martin, *France*, XVI, 392.
52. *Ibid.*, 391.
53. Padover, 94; *CMH*, VI, 628.
54. Parton, James, *Daughters of Genius*, 402.
55. Cf. Coxe, *History of the House of Austria*, III, 485-86.
56. Richard, Ernst, *History of German Civilization*, 380.
57. Padover, 181.
58. *Ibid.*, 178.
59. 279.
60. 281.
61. 285; Gershoy, 100.
62. Gershoy, 101.
63. Padover, 286.
64. Coxe, *House of Austria*, III, 491n.
65. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 356.
66. Padover, 212.
67. Jahn, *Mozart*, II, 401.
68. Padover, 214-15.
69. *Ibid.*
70. *History Today*, September, 1955, p. 615.
71. Padover, 246.
72. Coxe, III, 493.
73. Padover, 243.
74. Vambéry, *The Story of Hungary*, 385.
75. Padover, 299.
76. *Ibid.*, 311.
77. Coxe, III, 526.
78. Padover, 329.
79. *Ibid.*, 345.
80. 373.
81. 360.
82. 364.
83. 383.
84. *History Today*, September, 1955, p. 620.
85. Gilbert, O. P., *Prince de Ligne*, 193.
86. Coxe, III, 541.
87. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, VII, 492.
88. Padover, 287.

CHAPTER XIV

1. Jahn, *Mozart*, II, 202.
2. Weinstock, Herbert, *Handel*, 268.

3. Rolland, *Musical Tour*, 108.
4. Rolland, *Essays in Music*, 176.
5. Einstein, *Gluck*, 59.
6. In Brockway and Weinstock, *The Opera*, 66.
7. Einstein, *Gluck*; *Grove's Dictionary of Music*, II, 401.
8. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 659.
9. Faguet, E., *Rousseau artiste*, 191; Einstein, *Gluck*, 137.
10. Brockway and Weinstock, *Opera*, 97.
11. Einstein, 138.
12. Faguet, *Rousseau artiste*, 191.
13. *Grove's*, II, 400.
14. Rolland, *Essays*, 197-98.
15. *Kobbé's Complete Opera Book*, 42.
16. Rolland, *Essays*, 179.
17. Einstein, 146.
18. Burney, C., *History of Music*, II, 973.
19. Einstein, 151.
20. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 70.
21. *Kobbé's*, 51.
22. *Grove's*, IV, 174.
23. Einstein, 182.
24. Pratt, W. S., *History of Music*, 362.
25. Clark, Robert, *Herder*, 108, 429.
26. *Grove's*, II, 566.
27. Geiringer, Karl, *Haydn*, 44.
28. *Grove's*, II, 568.
29. Geiringer, 52-54.
30. *Ibid.*, 55.
31. *Grove's*, II, 570.
32. Jahn, II, 349.
33. Geiringer, 77.
34. *Ibid.*, 89.
35. 99.
36. *Grove's*, II, 574.
37. Geiringer, 108.
38. *Ibid.*, 110.
39. 121.
40. Jacob, H. E., *Joseph Haydn*, 112.
41. *Ibid.*, 167.
42. Geiringer, 168.
43. *Ibid.*, 167.
44. McKinney and Anderson, *Music in History*, 465.
45. *Grove's*, II, 582.
12. 137.
13. *Ibid.*
14. Wyzewa and Saint-Foix, *W. A. Mozart*, I, 470.
15. *Ibid.*, 474.
16. Jahn, I, 149.
17. *Ibid.*, 344.
18. Anderson, E., *Letters of Mozart*, I, 403.
19. *Ibid.*, 395.
20. Einstein, *Mozart*, 41.
21. Anderson, II, 686-88.
22. *Ibid.*, 695.
23. 681-83.
24. 700-09.
25. Einstein, *Mozart*, 30-31.
26. Anderson, II, 925.
27. Blom, 88; Jahn, II, 65-66.
28. Letter of May 6, 1781, in Einstein, 54.
29. Jahn, II, 171.
30. *Ibid.*, 176.
31. 179.
32. 184.
33. Anderson, II, 1100.
34. Letter of July 25, 1781, in Anderson, II, 1121.
35. Anderson, III, 1166-69.
36. Einstein, 458.
37. Jahn, II, 413.
38. *Ibid.*, 419.
39. 420.
40. 439.
41. 337, 422.
42. Einstein, 238.
43. Letter of Leopold Mozart, Feb. 14, 1785, in Anderson, III, 1321.
44. Anderson, 1329.
45. Letter of Apr. 10, 1784, in Einstein, 265.
46. *Grove's*, III, 563.
47. Einstein, 223.
48. Biancolli, 345.
49. Einstein, 214.
50. Biancolli, 355.
51. *Ibid.*, 374.
52. 367-69; Blom, 183.
53. Einstein, 280.
54. Goethe, *Poetical Works*, 120. In *Works*.
55. "His Master's Voice" Record C 2736.
56. Jahn, II, 440; Nettle, Paul, *Mozart and Masonry*, 112.
57. Biancolli, 132.
58. Rolland, *Essays*, 246.
59. *Ibid.*
60. E.g., in the letter of Nov. 5, 1777: "I wish you good night, but first shit into your bed." And on Nov. 13: "I've been shitting, so 'tis said, nigh twenty-two years through the same old hole, which is not yet frayed one bit." (Anderson, II, 525, 546).
61. Letter of Jan. 31, 1778.
62. Letter of Sept. 26, 1777.
63. Nettle, 122.

CHAPTER XV

1. Jahn, *Mozart*, II, 437.
2. *Ibid.*, I, 21n.
3. I, 28.
4. 33.
5. Blom, *Mozart*, 26.
6. Biancolli, *Mozart Handbook*, 129.
7. Jahn, I, 39.
8. *Ibid.*, 107.
9. 119.
10. 129.
11. 132.

64. Jahn, II, 269-71.
65. *Ibid.*
66. E.g., letters of Apr. 13, 1789, and Sept. 30, 1790.
67. Letter of June 7, 1783.
68. Letter of Feb. 20, 1784.
69. Letter of July 31, 1782.
70. Anderson, II, 826.
71. Nettle, 115; Ghéon, *In Search of Mozart*, 216.
72. Anderson, III, 1450.
73. Jahn, II, 304; Nettle, 120.
74. Einstein, 57.
75. Jahn, II, 295.
76. *Ibid.*
77. 298.
78. Einstein, 57.
79. Anderson, III, 1253.
80. *Ibid.*, 1296.
81. In Biancolli, 138.
82. Jahn, II, 412.
83. Einstein, 442.
84. Jahn, III, 134.
85. *Ibid.*, 140.
86. Goethe to Schiller, Dec. 30, 1797.
87. Anderson, III, 1360.
88. Blom, 138.
89. *Ibid.*
90. Letters of Dec. 14, 1789, in Anderson, III, 1383-85.
91. Brockway and Weinstock, *Opera*, 91.
92. Anderson, III, 1398-99.
93. Jahn, II, 278-80.
94. Nettle, 116.
95. Biancolli, 421.
96. Jahn, III, 285.
97. Einstein, 363.
98. Grout, *Short History of Opera*, 294.
99. Biancolli, 554.
100. Nettle, 117.
101. Stendhal in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 900.

فهرست

الكتاب الثالث

الجنوب الكاثوليكي ١٧١٥ - ١٧٨٩ ٢

الفصل التاسع :

إيطاليا السعيدة ١٧١٥ - ١٧٥٩ ٥

١ - المشهد العام ٥

٢ - الموسيقى ١١

٣ - الدين ١٧

٤ - من تورين الى فلورنسه ٢٥

٥ - ملكة الادرياتيک ٢٥

١ - الحياة الفينيتسية ٢٦

٢ - فيفالدي ٣١

٣ - ذکريات ٣٦

٤ - تيبولو ٤٠

٥ - جولوني وجوتسي ٤٤

٦ - روما ٥٢

٧ - نابلي ٦٠

(ا) الملك والشعب ٦٠

(ب) جامبا تيسنافيکو ٦٢

(ج) موسيقي نابلي ٦٩

الفصل العاشر :

البرتغال وبومبال ١٧٠٦ - ٨٢ ٧٦

١ - يوحنا الخامس : ١٧٠٦ - ٥٠ ٧٦

١ - بومبال واليسوعيون ٨٠

٢ - بومبال المصلح ٩١

٤ - انتصار الماضي ٩٥

